

مذكرات في القضية الفلسطينية

إعداد

الأستاذ الدكتور محسن محمد صالح

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيّد المرسلين وإمام المجاهدين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تلقيت منذ نحو عام طلباً كريماً من أستاذنا وشيخنا الفاضل د. همام سعيد لإعداد مادة منهجية حول قضية فلسطين. ولم أملك أمام لطفه وإصراره إلا الاستجابة؛ بالرغم مما أعانيه من كثرة الالتزامات وتراكمها. وقد ساعد على الاستجابة، بالإضافة إلى أهمية الموضوع وحاجة الكثير من المهتمين والمعنيين إليه، أن جانباً كبيراً من المادة العلمية هو أصلاً مما سبق لي أن أعددت، وكتبت فيه ونشرته في دراسات وكتب سابقة، ويغطي كثيراً من المفردات والعناوين التي تفضل شيخنا الفاضل بإرفاقها مع الخطة المقترحة لإعداد المادة.

وقد قُسم هذا الكتاب وفق الخطة المقترحة إلى أربعة أقسام:

يُقدم أولها تعريفاً بأرض فلسطين وشعبها، ويغطي تاريخ فلسطين قبل الإسلام، والفتح الإسلامي لفلسطين، وتحرير فلسطين من الصليبيين والتتار.

ويناقش القسم الثاني فلسطين في مواجهة المشروع الصهيوني منذ العهد العثماني وحتى نهاية الاحتلال البريطاني وقيام "الكيان الإسرائيلي".

أما القسم الثالث فيتحدث عن الحروب العربية "الإسرائيلية"، ومسار التسوية السلمية.

بينما يركز القسم الرابع بشكل خاص على دور التيار الإسلامي في مقاومة المشروع الصهيوني، وخصوصًا جماعة الإخوان المسلمين وحركة حماس.

وبشكل عام، فإذا وُجد في دراساتنا وكتبنا ما يغطي العناوين والمفردات المقترحة، فقد تم استحضاره منها، دونما حاجة لإضاعة الوقت والجهد في إعادة كتابته، خصوصًا إذا كان يفي تمامًا بالغرض. غير أن معظم المادة العلمية المُستحضَرة خضعت للاختصار والتكثيف والتحرير لتناسب مع الحجم المنهجي المقترح؛ كما تم تحديث العديد من المواد وإضافة مواد جديدة؛ ليتم بذلك تغطية كافة المفردات المطلوبة. وتم إعادة ترتيب المواد لتناسب مع التدرج المنهجي المطلوب، وبذلك أخذ هذا الكتاب طبيعته الخاصة. ولعلي لا أحسبه مؤلفًا جديدًا.

وكنت أود لو أن مادته نُشرت ضمن سياق المنهاج الذي يقوم عليه الشيخ الدكتور همام؛ غير أن الشيخ أكرمه الله ارتأى بعد إنجازه أن يصدر في كتاب خاص.

وكان من أكثر الكتب التي تَمَّت الاستفادة من نصوصها كتابنا الطريق إلى القدس، وكتابنا دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، وكتابنا القضية الفلسطينية خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة؛ بالإضافة إلى غيرها من المراجع والمصادر.

يراعي هذا الكتاب التدرج المنهجي في المراحل الأربعة، ويحاول أن يقدم قضية فلسطين بشكل علمي موضوعي سلس وسهل التناول، ومن جوانب مختلفة. كما أنه يراعي التوازن والتقارب في أحجام الأقسام.

نسأل الله سبحانه أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به .

وأن يجزي شيخنا د. همام سعيد خيراً على هِمَّتِهِ ومتابعته وحسن تواصله .

والصدر مفتوح لكل اقتراح أو ملاحظة أو نقد بناءً .

والحمد لله رب العالمين

محسن محمد صالح

ذو القعدة ١٤٤٢هـ

مطلع تموز/ يوليو ٢٠٢١م

القسم الأول

فلسطين في التاريخ

أولاً: أرض فلسطين وشعبها

أرض فلسطين:

يطلق اسم فلسطين على القسم الجنوبي الغربي لبلاد الشام، وهي الأرض الواقعة غربي آسيا، على الساحل الشرقي للبحر المتوسط. ولفلسطين موقع استراتيجي مهم، إذ تُعدُّ صلة الوصل بين قارتي آسيا وإفريقيا، ونقطة التقاء جناحي العالم الإسلامي.

وأقدم اسم معروف لهذه الأرض هو "أرض كنعان"؛ لأن أول شعب سكن هذه الأرض ومعروف لدينا تاريخياً هم "الكنعانيون"، الذين قدموا من جزيرة العرب نحو ٢٥٠٠ ق.م. واسم فلسطين هو اسم مشتق من اسم أقوام بحرية، لعلها جاءت من غرب آسيا الصغرى ومناطق بحر إيجه قرابة القرن الثاني عشر ق.م، وورد اسمها في النقوش المصرية باسم "ب ل س ت"، وربما أضيفت النون بعد ذلك للجمع، وقد سكنوا المناطق الساحلية، واندمجوا بالكنعانيين بسرعة، فلم يبقَ لهم أثر مميز سوى أنهم أعطوا الأرض اسمهم^١.

وقد ظلت حدود أرض فلسطين تضيق وتتسع عبر التاريخ، غير أنها ظلت تعبر بشكل عام عن الأرض الواقعة بين البحر المتوسط، وبين البحر

١ لمزيد من التفصيل حول تاريخ فلسطين القديم، انظر مثلاً: محمد أديب العامري، عروبة فلسطين في التاريخ (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٧٢)؛ والموسوعة الفلسطينية، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، ج ١، ص ٣٧، وج ٣، ص ٢٧٣-٢٧٩، وج ٤، ص ١٧٤.

الميت ونهر الأردن. وفي العهد الإسلامي قُسمت بلاد الشام إلى "أجناد"، وكان جند فلسطين يمتد من رفح على الحدود مع سيناء المصرية إلى اللجون التي تقع على بعد ١٨ كم شمالي غرب مدينة جنين. وأياً كانت التقسيمات في العهود الإسلامية المختلفة فإن فلسطين ظلت جزءاً من بلاد الشام، ولم تكن مثل هذه التقسيمات توسيعاً أو تضيقاً؛ لتغيّر شيئاً من حقيقة شعور أبنائها بأنهم أبناء أمة مسلمة واحدة، وأن ولاءهم للحكم لا يهتز ما دام مسلماً حقاً. أما أرض فلسطين بحدودها الجغرافية المتعارف عليها، فلم تتحدّد بدقة إلا في أيام الاحتلال البريطاني لفلسطين، وخصوصاً خلال الفترة ١٩٢٠-١٩٢٣. وعلى أيّ حال، فإن مساحة فلسطين تبلغ ٢٧٠٠٩ كم^٢ وفق التقسيمات المعاصرة.^١

وتتمتع فلسطين بمناخ معتدل هو مناخ البحر المتوسط، وهو مناخ يشجع على الاستقرار والإنتاج. ويمكن أن تقسم فلسطين إلى ثلاثة قطاعات رئيسية، هي السهل الساحلي، والمرتفعات الجبلية الوسطى، والأخدود الأردني. والسهل الساحلي منطقة تركز غالب الفلسطينيين، حيث الموانئ، ومراكز التجارة، والنشاط الاقتصادي والزراعي. وتشمل المرتفعات الجبلية الوسطى جبال الجليل، ونابلس، والخليل، وهضبة النقب، وأعلى جبالها ارتفاعاً هو جبل الجرمق شمال فلسطين الذي يبلغ ارتفاعه ١٢٠٧ أمتار. وقد سكن في هذه المرتفعات الفلاح الفلسطيني منذ آلاف السنين وزرعها بالحبوب والفواكه والخضار، ورعى الماشية. أما الأخدود الأردني، حيث يجري نهر الأردن ليصب في البحر الميت، فهو يُعدُّ أكثر المناطق انخفاضاً

١ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ١، ص ١١٧-١٢٩.

عن مستوى سطح البحر من أي مكان آخر على وجه الأرض، حيث يصل الانخفاض إلى نحو ٤٠٠ م تحت سطح البحر، وهي مناطق تتميز بحرارتها طوال العام، وتشتهر بزراعتها للنخيل والموز والخضروات.

تكوين شعب فلسطين:

هناك آثار تشير إلى أن الإنسان سكن فلسطين منذ العصر الحجري القديم (٥٠٠ ألف - ١٤ ألف ق.م)، كما يشير العصر الحجري الوسيط (١٤ ألف - ٨ آلاف ق.م) إلى وجود أشكال حياة حضارية تمثلت بما يعرف بالحضارة النطوفية. وشهدت أرض فلسطين مراحل التطور الإنساني الأولى في التحول من الرعي إلى الزراعة، كما أن أول مدينة جرى تشييدها في التاريخ هي مدينة "أريحا" الواقعة شمال شرقي فلسطين وذلك نحو سنة ٨٠٠٠ ق.م حسبما يذكر علماء الآثار.

وعندما قدم الكنعانيون من جزيرة العرب (نحو ٢٥٠٠ ق.م) كانت هجرتهم واسعة بحيث أصبحوا السكان الأساسيين للبلاد، وقد أنشأوا ما لا يقل عن مئتي مدينة وقرية في فلسطين، مثل مدن بيسان، وعسقلان، وعكا، وحيفا، والخليل، وأسدود، وبئر السبع، وبيت لحم^١. ويرى ثقات المؤرخين أن معظم أهل فلسطين الحاليين، وخصوصاً القرويين، هم من أنسال القبائل الكنعانية، والعمورية، والفلسطينية، ومن القبائل العربية التي استقرت في فلسطين قبل الفتح الإسلامي وبعده، حيث اندمج الجميع في نسيج واحد، يجمعهم الإسلام واللغة العربية، إذ أسلموا واستعربوا

١ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٢٧١-٢٧٩، و٦٦٦-٦٧٠.

تحت الحكم الإسلامي طوال ثلاثة عشر قرناً^١.

وكان لليمنيين من السبئيين والمعينيين جاليات كبيرة في الواحات التي تمر بها الطرق التجارية في بلاد الشام منذ الألف الأول قبل الميلاد. ومن القبائل العربية الأولى الشهيرة التي استقرت بأرض الشام ومنها فلسطين قبيلة قضاعة التي تنصرت فيما بعد، وولاهها ملوك الروم على عرب بلاد الشام. ثم وردت قبيلة سليح فحلت مكانها. ثم إن بني غسان "الغساسنة" هاجروا من اليمن أواخر القرن الثالث الميلادي، فاستقروا شمال الحجاز، ثم انتقلوا إلى الشام، واعترف لهم البيزنطيون بنوع من السيادة، وأقاموا دولة حاجزة بين الروم والفرس، وامتدت سلطتهم على القبائل العربية في فلسطين، واستمر ملكهم حتى قرابة سنة ٥٨٤م حيث بدأ انهيارهم عندما خاصموا الروم. وحين غزا الفرس الشام سنة ٦١٣م قضوا على آخر نفوذ للغساسنة، وكان هذا بُعيد نزول الوحي على النبي محمد ﷺ، وبدء انتشار الإسلام.

وقد شهدت بلاد الشام ثلاثة كيانات عربية قبل الإسلام، فظهر الأنباط في الجنوب، وتدمر في الشمال، والغساسنة بينهما^٢.

وبعد الفتح الإسلامي انتشرت القبائل العربية في فلسطين، وامتزجت بمن سبقها من كنعانيين وغيرهم، وحدثت حركة أسلمة وتعريب تدريجية وطبيعية تحت راية الحكم الإسلامي، حتى أصبح دين أهل فلسطين الإسلام

١ حول تاريخ فلسطين القديم، انظر: العامري، عروبة فلسطين في التاريخ، ص ١٦-١٧، ٢٩، ٦٤، و٧٣-٧٤، ٨٤، ٨٦، و٩٦-٩٧.

٢ الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٢١٨-٢١٩، وص ٤٠١-٤٠٢.

ولسانهم العربية. وبشكل عام، فإن غالبية من استقر من العرب في فلسطين هم من القحطانية أي من العرب العاربة، أي من القبائل العربية التي ترجع إلى أصول يمنية، فقد كانت معظم جيوش الفتح الإسلامي من هذه القبائل. فنزل مثلاً قوم من الأشعرين طبرية وغلبوا عليها، ونزل بعضُ أفخاذ جذام في بيت جبرين وفيما يلي طبرية من أرض، وسكن أقوام من بكر بن وائل جنين، وآخرون من مضر بن نزار في نابلس. وفي منطقة الخليل وما حولها كانت قد استقرت لخم وبطن من بني عبد الدار، وهم رهط تميم الداري رضي الله عنه. ومن أهم قبائل العرب العاربة حَمِير التي ينسب جلُّ أفرادها إلى قبيلة قضاة، والتي انتشرت بطونها في قرى البطاني (غزة)، وجماعين (نابلس)، ووادي حنين (يافا)، وغيرها. ومن بطون قضاة التي انتشرت في فلسطين، قبائل كلب، وبلي، وجهينة، وجرم، وقدامة، وبنو بهراء، وبنو عذرة، والقين، ومسكة. ومن العرب العاربة قبائل بنو كهلان، ومن أهمها طيء التي تعرف اليوم باسم "شمر"، ولخم، وزُبَيْد، والأوس، والخزرج، وكلها انتشرت في أماكن مختلفة من فلسطين. وهناك أعداد من عرب شمال الجزيرة العربية الذين يعرفون ببني عدنان، أو بني إسماعيل، أو العرب المستعربة، وإليها تنسب قريش التي جاء العديد من عائلاتها إلى فلسطين من نسل أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، والعباس وغيرهم من الصحابة، وهناك كذلك قبيلة عَنَزَة، وحرب وغيرها.^١

١ المرجع نفسه، ج ١، ص ٣٦٢-٣٦٦، وج ٣، ص ٢٥٣. وحول تفصيلات القبائل العربية في فلسطين انظر كتاب: مصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلالتها في بلادنا فلسطين

وظلّ شعب فلسطين مسلماً عربي اللسان منذ الفتح الإسلامي وإلى وقتنا هذا. ولم تؤثر فترة الحروب الصليبية في تركيبة السكان إلا قليلاً عندما غزاها صليبيو أوروبا، فسرعان ما استوعب المسلمون هذه الهجمة وأعادوا للأرض هويتها المسلمة. وقد ظلت فلسطين منطقة جذب سكاني لمكانتها المقدسة، ولموقعها الجغرافي، ولمناخها المعتدل، وإمكانات الزراعة والتجارة وغيرها، فاستقر بها بعض المسلمين من الأكراد، والأمازيغ (البربر)، والشيشان، والبوسنة، والأتراك حيث تعربوا وامتزجوا بأهلها. وظلت في فلسطين أقلية نصرانية تعيش بسلام وطمأنينة في ظلّ حكم المسلمين، وكان من نصارى فلسطين أولئك الذي ظلوا على دينهم من أهل البلد، ومن استقر من النصارى فيما بعد ممن رغبوا في السكن في الأرض المقدسة، من أرمن ويونان وغيرهم. كما اتسع التسامح الإسلامي لسكن اليهود واستقرارهم، بوصفهم أهل ذمة، فعاشت أقلية ضئيلة منهم دون طموحات سياسية، وكانوا في بداية القرن التاسع عشر لا يتجاوزون الخمسة آلاف. ووصل عددهم قبيل بداية البرنامج العملي النشط للهجرة الصهيونية أي قرابة ١٨٨٠ م إلى ٢٣ ألفاً تقريباً.^١

ثانياً: مسيرة الأنبياء في فلسطين

كان قدوم إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين (نحو ١٩٠٠ ق.م) إشراقة لنور التوحيد في هذه الأرض المباركة، وقد عاصر حاكم القدس "ملكي

القبائل العربية وسلاسلها في بلادنا فلسطين (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٩).

١ حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩، ط ٢

(بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٠)، ص ٨٢-٨٤.

صادق" الذي كان على ما يبدو موحدًا وصديقًا له. وكان لأبي الأنبياء إبراهيم دوره في نشر رسالة التوحيد، ويبدو أنه لم يجد عناءً أو عناءً من أهل فلسطين، ولم يضطر لتركها بسبب دينه أو دعوته، فظل مستقرًا فيها، ويتنقل بحرية حيث يشاء، إلى أن توفاه الله في المدينة التي حملت اسمه "الخليل". وقد سار على دربه أبناؤه الأنبياء من بعده إسماعيل، الذي استقر في مكة، وإسحق وابنه يعقوب اللذين استقرا في فلسطين. وكان ليعقوب عليه السلام اثنا عشر ابنًا هم الأسباط المعروفون ببني إسرائيل (وإسرائيل هو لقب ليعقوب عليه السلام) وقد هاجروا إلى مصر واستقروا فيها، حيث عانوا من اضطهاد الفراعنة بضعة قرون. وأرسل الله لهم موسى عليه السلام (في القرن الـ ١٣ ق.م) لينقذهم من فرعون وطغيانه، وأهلك الله فرعون وجنوده، غير أن بني إسرائيل في ذلك الزمان كانوا قد طُبعوا على الذلّ والجبن، فرفضوا الذهاب إلى الأرض المقدسة قائلين لموسى: "فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون".^١

وتوفي موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين، وعندما نشأ جيل جديد صلب من بني إسرائيل، بعد أربعين سنة من التيه، قادهم يوشع بن نون عليه السلام (نحو ١١٩٠ ق.م) حيث عبر بهم نهر الأردن، واستطاع تحقيق بعض السيطرة لبني إسرائيل في الجزء الشمالي الشرقي من فلسطين. ولمدة ١٥٠ سنة تالية سادت النكبات، والفوضى، والخلافات، والانحلال الخلقي والديني بين بني إسرائيل. ولم يتحسن حالهم إلا بقدوم طالوت ملكًا عليهم، والذي استطاع الانتصار على أعدائه.

وكان ظهور داود عليه السلام الذي خلف طالوت إيداناً ببدء مرحلة جديدة لنور التوحيد في الأرض المباركة، حيث آتاه الله الملك (نحو ١٠٠٤ ق.م) وقد واصل حربه ضدّ الأقوام الكافرة على الأرض المقدسة، حيث أخضعها واستطاع نقل عاصمته إلى القدس سنة ٩٩٥ ق.م، وسيطر على معظم فلسطين، باستثناء معظم المناطق الساحلية التي لم تخضع له. واستمر في حكمه عليه السلام حتى سنة ٩٦٣ ق.م عندما خلفه ابنه سليمان عليه السلام (٩٦٣-٩٢٣ ق.م) حيث شهدت فلسطين حركة بناء وعمران وازدهار ضخمة، وسخر الله له الريح والجنّ، وأعطاه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده. وكان حكم داود وسليمان هو العصر الذهبي، الذي حُكمت فيه فلسطين نحو ثمانين عاماً، تحت راية الإيمان والتوحيد قبل الفتح الإسلامي لها.

وبعد وفاة سليمان انقسمت مملكته إلى دولتين منفصلتين متعاديتين في كثير من الأحيان فنشأت مملكة "إسرائيل" شمال فلسطين خلال الفترة ٩٢٣-٧٢١ ق.م، التي سمتها دائرة المعارف البريطانية ازدراء "المملكة الذيلية"، حيث ضعفت وفسد حكامها، وانتهى أمرها بسيطرة الآشوريين بقيادة سرجون الثاني عليها، وتدميرها ونقل سكانها من بني إسرائيل إلى حرّان، والخابور، وكردستان، وفارس، وأحلوا مكانهم جماعات من الآراميين، ولم يبقَ بعد ذلك أثر لأسباط بني إسرائيل العشرة الذين شكّلوا هذه الدولة. أما مملكة "يهودا" فاستمرت خلال الفترة ٩٢٣-٥٨٦ ق.م، وكانت عاصمتها القدس وقد اعترتها عوامل الضعف والوقوع تحت النفوذ الخارجي فترات طويلة، فقد هزمها ودخل عاصمتها شيشق فرعون مصر (أواخر القرن العاشر ق.م)، وفعل مثله الفلسطينيون في عهد يهورام

(٨٤٩-٨٤٢ ق.م)، واضطرت لدفع الجزية للآشوريين...، ثم إنها سقطت أخيراً بيد البابليين بقيادة نبوخذ نصر الذي خرب القدس، ودمّر الهيكل، وسبى نحو ٤٠ ألفاً من اليهود، وبذلك سقطت مملكتهم سنة ٥٨٦ ق.م.

وتشير التوراة إلى آثام بني إسرائيل التي استحقوا بسببها دمار ملكهم، فتذكر على لسان أشعيا، وهو أحد أنبيائهم: "ويل للأمة الخاطئة، الشعب الثقيل الآثم، نسل فاعلي الشر، أولاد مفسدون تركوا الرب، واستهانوا بقدوس إسرائيل، ارتدوا إلى وراء" سفر أشعيا، الإصحاح الأول، وتقول التوراة: "والأرض تدنست تحت سكانها لأنهم تعدّوا الشرائع، غيّرُوا الفريضة، نكثوا العهد الأبدي" سفر أشعيا، الإصحاح ٢٤.

وهكذا فلم تطل مملكة بني إسرائيل في فلسطين أكثر من أربعة قرون حكموا في معظم الوقت بعضاً من أرضها، وكان حكمهم غالب الوقت ضعيفاً مفككاً، وخضع أحياناً لنفوذ وهيمنة دول قوية مجاورة. وفي الوقت نفسه ظلّ أبناء فلسطين من الكنعانيين وغيرهم في أرضهم، ولم يهجروها أو يرتحلوا عنها.

وقد سمح الإمبراطور الفارسي قورش Cyrus لليهود بالعودة إلى فلسطين، فعادت قلّة منهم، عاشت إلى جانب أبناء فلسطين، وتمتعت منطقة القدس بنوع من الحكم الذاتي تحت السلطة الفارسية التي استمرت خلال الفترة ٥٣٩-٣٣٢ ق.م. وتلا ذلك عصر السيطرة الهلينية الإغريقية على فلسطين خلال الفترة ٣٣٢-٦٣ ق.م، واستمر يدير شؤون اليهود "الكاهن الأكبر"، واستطاع اليهود تحقيق حكم ذاتي منذ سنة ١٦٤ ق.م أخذ يضيق ويتسع، وتزداد مظاهر استقلاله وتضعف حسب صراع القوى الكبرى في ذلك الوقت على فلسطين (الرومان، البطالمة، السلوقيين...).

وقد تمكن الرومان من السيطرة على فلسطين سنة ٦٣ ق.م، وأخضعوها لحكمهم المباشر منذ السنة السادسة الميلادية حيث ألغوا الحكم الذاتي اليهودي في منطقة القدس. وقد ثار اليهود خلال الفترة ٦٦-٧٠م، لكن القائد العسكري الروماني تيتوس Titus أخمد ثورتهم ودمّر الهيكل، ثم ثار اليهود مرة أخرى وأخيرة خلال الفترة ١٣٢-١٣٥م، لكن القائد الروماني جوليوس سيفروس Julius Severus احتل القدس ودمرها، وأقام الإمبراطور الروماني هادريان Hadrian مدينة جديدة فوق خرائبها سماها إيليا كابيتولينا Ilia Capitolina حيث عُرفت بعد ذلك باسم إيلياء، وهو اسم هادريان الأول. وحظر على اليهود دخول القدس نحو ٢٠٠ سنة تالية، وندرت أعدادهم نسبة إلى السكان طوال ١٨ قرنًا تالية. بينما ظل أهل البلاد الأصليين من كنعانيين ومن اختلط بهم من قبائل العرب، مستقرين في البلاد قبل قدوم بني إسرائيل وفي أثناء وجودهم، وظلوا مستمرين كذلك بعدهم إلى أيامنا هذه. وقد تولت الدولة البيزنطية (دولة الروم) القسم الشرقي من الدولة الرومانية منذ ٣٩٤م، واستمرت في الهيمنة على فلسطين، عدا فترات ضئيلة من النفوذ الفارسي، حتى جاء الفتح الإسلامي لفلسطين سنة ١٥هـ/٦٣٦م.^١

المزاعم الدينية والتاريخية لليهود في فلسطين:

تجدر الإشارة إلى أن يهود هذا الزمان يبنون احتلالهم لفلسطين على

١ انظر مثلاً حول تاريخ بني إسرائيل القديم المشار إليه في الفقرات السابقة في: ظفر الإسلام خان، تاريخ فلسطين القديم ١٢٢٠ ق.م - ١٣٥٩ م: منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي، ط ٤ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٤)؛ والموسوعة الفلسطينية، ج ١، ص ٢٣٨، وج ٣، ص ١٨٤-١٨٦، و٢٦٦-٢٦٨، وج ٤، ص ٢١٦-٢١٨.

مزاعم دينية وتاريخية، فيدّعون أن الله سبحانه وعدهم هذه الأرض، ويشيرون إلى ارتباطهم التاريخي بها، بحكمهم إياها زمنًا، وبتواجدهم على أرضها، وارتباطهم النفسي والروحي بها، وقدسيتها عندهم. ونحن نؤمن أن لليهود حريتهم الدينية، وليس من حقّ أحد أن يكرههم على تغيير عقائدهم، ولكن ليس من حقهم أن يلزموا الآخرين بعقيدتهم. كما أنه ليس من حقهم أن يشردوا شعبًا من دياره، ويغتصبوا أرضه وأملاكه ومقدساته تحت دعاواهم الدينية.

أما المسلمون فلا يرون لليهود حقًا في هذه الأرض، فمن ناحية دينية؛ فإن هذه الأرض أعطيت لبني إسرائيل عندما رفعوا راية التوحيد، واستقاموا عليها، تحت قيادة رسلهم وصالحهم. ولكنهم انحرفوا وبدّلوا وقتلوا أنبياءهم، وعاثوا في الأرض فسادًا بعد ذلك، ففقدوا تلك الشرعية. والمسلمون يؤمنون أنهم الورثة الحقيقيون لراية التوحيد، وأنهم الامتداد الحقيقي الوحيد لأمة التوحيد ودعوة الرسل، وأن دعوة الإسلام هي امتداد واستمرار لدعوة إبراهيم، وإسحق، ويعقوب، وإسماعيل، وموسى، وداود، وسليمان، وعيسى... عليهم السلام.

فالمسلمون الآن هم أحق الناس بهذا الميراث بعد أن انحرف الآخرون. والمسألة غير مرتبطة بالجنس، والنسل، والقومية، وإنما مرتبطة باتباع المنهج، وعلى هذا فنحن المسلمين نؤمن أن رصيد الأنبياء هو رصيدنا، وتجربتهم هي تجربتنا، وتاريخهم هو تاريخنا، والشرعية التي أعطها الله للأنبياء واتباعهم في حكم الأرض المقدسة هي دلالة على شرعيتنا وحقنا في هذه الأرض وحكمها. قال تعالى: "ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين. إن أولى الناس بإبراهيم

للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين" ^١، وقال تعالى: "ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون" ^٢، وقال تعالى: "وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إمامًا قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين" ^٣. وهكذا فإن الله أخبر إبراهيم عليه السلام أن الإمامة والقيادة لا ينالها الظالمون من نسله وذريته، لأن الأمر مرتبط بالاستقامة على منهج الله، ولو كان الأمر مرتبطًا بالتناسل فلا ينبغي لبني إسرائيل أن يقصروه على أنفسهم، ولاستحق إسماعيل عليه السلام ونسله هذا الوعد الذي أُعطي لإبراهيم، ولاستحقه العرب المنتسبون إلى إسماعيل جدّ العرب العدنانية، ومنهم قريش وسيدنا محمد ﷺ.

أما من الناحية التاريخية، فإن حكم بني إسرائيل لفلسطين كان فترة ضئيلة ولم تتجاوز الأربعة قرون على أجزاء من فلسطين، وليس كلها. أما الحكم الإسلامي فقد استمر نحو ١٢ قرنًا (٦٣٦-١٩١٧م) قطعت لفترة ضئيلة فترة الحروب الصليبية. وإذا كان معظم اليهود قد غادر فلسطين، وانقطعت صلتهم الفعلية بها مدة ١٨ قرنًا، منذ ١٣٥م وحتى القرن العشرين، بل وحرّمت تعاليمهم الدينية العودة إليها، فإن أهل فلسطين الأصليين لم يغادروها طوال الأربعة آلاف وخمسمائة سنة الماضية، إلى أن طُرد عدد كبير منهم قسرًا على يد العصابات الصهيونية سنة ١٩٤٨م، وما زالوا إلى الآن يجاهدون لاسترداد أرضهم دون أن يتنازلوا عنها.

١ سورة آل عمران: ٦٧-٦٨.

٢ سورة البقرة: ١٣٢.

٣ سورة البقرة: ١٢٤.

ثم إن أكثر من ٨٠٪ من يهود هذا الزمان، حسب دراسات عدد من اليهود أنفسهم، وعلى رأسهم آرثر كوستلر Arthur Koestler تشير إلى أنهم لا يمتّون تاريخياً بأيّ صلة لفلسطين، كما لا يمتّون قومياً لبني إسرائيل، فالأغلبية الساحقة ليهود اليوم تعود إلى يهود الخزر (الأشكناز) وهي قبائل كانت تقيم في شمالي القوقاز، وتهوّدت في القرن الثامن الميلادي.^١

ثالثاً: الفتح الإسلامي لفلسطين

تمهيد:

استمرت الهيمنة الرومانية على فلسطين بعد أن رفع الله سبحانه المسيح إليه. وفي عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧م) تمّ الاعتراف رسمياً بالمسيحية في المرسوم الشهير بمرسوم ميلان Edict of Milan الصادر سنة ٣١٣م، وقد تنصر قسطنطين نفسه، وأقام في مدينة القدس "في المكان الذي يعتقد النصارى أن السيد المسيح دفن فيه" كنيسة الضريح المقدس التي أصبحت أعظم الكنائس شأنًا عند النصارى، وبنى فوق جبل الزيتون كنيسة الصعود، وأقام كنيسة الميلاد في بيت لحم، وقسطنطين نفسه هو الذي بنى مدينة القسطنطينية "إسطنبول" ٣٣٠م.

وقد انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين شرقي وغربي، وذلك بعد موت الإمبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I في ٣٩٥م، فتكونت الإمبراطورية الرومانية الشرقية (الدولة البيزنطية) وعاصمتها

١ انظر مثلاً حول يهود الخزر في: أسماء فاعور، فلسطين والمزاعم اليهودية (بيروت: دار الأمة، ١٩٩٥)، ص ٢٣٥-٢٤١.

القسطنطينية، والإمبراطورية الرومانية الغربية، وعاصمتها روما، وما لبثت الإمبراطورية الغربية أن سقطت في ٤٧٦م لكن الإمبراطورية الشرقية، التي عرفها العرب بدولة الروم، حافظت على الهيمنة على فلسطين، باستثناء فترات ضئيلة، حتى جاء الفتح الإسلامي.^١

ولد رسول الله ﷺ سنة ٥٧٠م وبعد أربعين سنة نزل عليه الوحي، وتحمل أمانة الرسالة والدعوة، ولقي في الفترة المكية التي استمرت ١٣ سنة الكثير من العنت والإيذاء. ومنذ هذه الفترة وقبل أن تتشكل دولة الإسلام في المدينة، كانت أنظار المسلمين الأوائل تنحو إلى المسجد الأقصى في فلسطين، فقد كان قبلتهم الأولى في الصلاة،^٢ وجاءت معجزة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ثم المعراج إلى السماء في السنة العاشرة للبعثة النبوية لتؤكد عمق الارتباط بين الإسلام وبين أرض فلسطين المقدسة؛ حيث يوجد المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله. وقد كان فتح خيبر وفدك (٧هـ)، وغزوتا مؤتة (٨هـ)، وتبوك (٩هـ)، وحملة أسامة بن زيد رضي الله عنه (١١هـ) مقدمة لتطلع المسلمين إلى بلاد الشام.

١ انظر حول الفترة من بعثة المسيح عليه السلام وحتى الفتح الإسلامي في: محمود سعيد عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١)، ص ١٩-٧٥؛ وجوزيف نسيم يوسف، تاريخ الدولة البيزنطية (الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة، د. ت.)، ص ٣٥-١١١.

٢ ظلّ المسجد الأقصى قبلّة المسلمين الأولى في الصلاة حتى السنة الثانية للهجرة، انظر: عبد السلام هارون، تهذيب سيرة ابن هشام، ط ٦ (بيروت والكويت: مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية، ١٩٧٩)، ص ١٣٥.

لقد كانت أنظار المسلمين وقلوبهم سنوات طويلة معلقة ببيت المقدس والمسجد الأقصى حتى قبل أن يتم لهم فتح فلسطين. وكان الكثير من سور القرآن وآياته تنزل تبعاً على رسول الله ﷺ وتحدث عن قصص الأنبياء، وكان ميدان العديد منها هو أرض فلسطين (يعقوب، ولوط، وزكريا، ويحيى، وداود، وسليمان، وعيسى... عليهم السلام) مما عمّق الارتباط النفسي والإيماني بهذه الأرض.

١- الخطوات الأولى:

استمرت عمليات المسلمين في القضاء على الردة التي انتشرت في جزيرة العرب بإثر وفاة رسول الله ﷺ حتى نهاية ١١هـ، ومع بداية ١٢هـ زحف خالد بن الوليد ومعه جيش عدده ١٨ ألفاً على العراق، وأخذ يحقق انتصارات متوالية هناك (ذات السلاسل محرم ١٢هـ، المذار صفر ١٢هـ، والولجة صفر ١٢هـ، أليس صفر ١٢هـ، أمغيشيا صفر ١٢هـ، فتح الحيرة ربيع الأول ١٢هـ).^١ وجاء شرحبيل بن حسنة من العراق مبشراً أبا بكر بفتح الحيرة، ورأى شرحبيل رؤيا أولها بفتح الشام، وحدث بها أبا بكر الذي أخبره أن نفسه تحدثه أيضاً بفتح الشام.^٢

وفي ٣٠ ربيع الأول ١٢هـ - ١٤ حزيران/ يونيو ٦٣٣م جمع أبو بكر كبار الصحابة، واستشارهم في فتح الشام، فوافقوه على رأيه، ثقةً منهم بأنه ناصح للدين، حريص على المسلمين.

١ أحمد كمال، الطريق إلى المدائن، ط ٦ (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٦)، ص ٢١٢-٢٦٣؛ وأحمد كمال، الطريق إلى دمشق (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٠)، ص ١٥٩.
٢ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ١٦١-١٦٢.

كان جيش يزيد بن أبي سفيان أول الجيوش خروجًا إلى الشام، وكان ذلك تقريبًا في ٢٣ رجب ١٢هـ - ٣ تشرين الأول/ أكتوبر ٦٣٣م، وكان مكونًا من نحو سبعة آلاف رجل، ثم تبعه جيش شرحبيل بعد ذلك بنحو أربعة أيام، ثم جيش أبي عبيدة بعد شرحبيل بنحو عشرة أيام، وكان معاذ بن جبل في جيش أبي عبيدة، كما ألحق أبو بكر خالد بن سعيد بجيش أبي عبيدة.^١

خرج إمبراطور الروم هرقل من فلسطين بعد أن بلغته تحركات المسلمين قرابة ٢٣ شعبان ١٢هـ - ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ٦٣٣م إلى دمشق، ثم إلى حمص، ثم إلى أنطاكية، فبلغها قرابة ١٨ / ١١ / ٦٣٣م واتخذها مقره، ومن هناك أخذ ينظم الجيوش، ويحشد الحشود لملاقاة المسلمين.^٢

نزل جيش يزيد منطقة البلقاء شرق الأردن، ونزل جيش شرحبيل نواحي بصرى، أما جيش أبي عبيدة فنزل الجابية، وأمر أبو بكر عمرو بن العاص على جيش رابع من ألفين إلى ثلاثة آلاف، وقد التحق بهذا الجيش سادات قريش وأشرفها مثل عكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، والحارث ابن هشام، وسلك عمرو طريق المعركة إلى أيلة متجهًا إلى فلسطين.^٣

كانت أولى المعارك على أرض الشام بعد سرية أسامة بن زيد هي موقعة العربية ودائنة (٢٤ ذي الحجة ١٢هـ - آذار/ مارس ٦٣٤م) فقد دفع الروم قوة من ثلاثة آلاف مقاتل إلى مدينة غزة، ولعلها توجهت إلى وادي عربية

١ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ١٧٦-١٩٢.

٢ المرجع نفسه، ص ١٩٥-١٩٦؛ والأزدي، تاريخ فتوح الشام، تحقيق: عبد المنعم عبد الله عامر (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٩٧٠)، ص ٢٧.

٣ المرجع نفسه، ص ٢٠٩، و٢١٥.

جنوب البحر الميت، وهناك التقت بقوة من المسلمين، فهزمها المسلمون وقتلوا قائداً من قوادها، وانسحبت القوة فلاحقها المسلمون؛ حيث التقوا مرة أخرى عند الدائنة قرب غزة، وهزم الروم مرة أخرى.^١

ويبدو أن موقعة العربية ودائنة كانت أقرب إلى اختبار القوة، ويظهر أن الروم قد أخذوا يشعرون بشكل أكبر بخطورة الموقف، فأخذوا يتجمعون ويحشدون. فأرسل أبو بكر إلى خالد بن الوليد لينجد المسلمين بالشام، فوصل خالد على عجل في صفر ١٣هـ - نيسان/ أبريل ٦٣٤م بمدد من تسعة آلاف رجل، ليصبح مجموع عدد القوات الإسلامية في الشام ٣٣ ألفاً، وتولى القيادة العامة للجيش الإسلامية في بلاد الشام مكان أبي عبيدة.^٢

٢- معركة أجنادين:

كانت معركة أجنادين أولى المعارك البارزة المهمة في فتوح الشام، وقد وقعت على أرض فلسطين، وبالرغم من أن أجنادين لا يظهر لها ذكر في الخرائط، إلا أنها حسب استنتاج أحمد عادل كمال تبعد ١١ كم إلى الشمال من بيت جبرين، و٣٩ كم إلى الجنوب من الرملة.^٣

التقت جيوش المسلمين الخمسة (أبو عبيدة، وخالد، ويزيد، وشرحبيل، وعمرو) في منطقة أجنادين تحت قيادة خالد بن الوليد، وكان عددهم يقدر

١ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٢٠٨-٢١٠.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٣٩-٢٤٠، و٢٤٧.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٣٨-٢٤٢.

٣ المرجع نفسه، ص ٢٣٩-٢٤٠، و٢٤٧.

٣ المرجع نفسه، ص ٢٧٣.

بـ ٣٣ ألف رجل، أما قوات الروم فوصل عددها إلى نحو ١٠٠ ألف رجل.^١ وفي يوم المعركة نهار يوم السبت ٢٧ جمادى الأولى ١٣ هـ - ٣٠ تموز/ يوليو ٦٣٤ م، أخذ معاذ بن جبل، قائد ميمنة المسلمين، يقول: "يا معشر المسلمين اشروا أنفسكم اليوم لله، فإنكم إن هزمتموهم اليوم كانت لكم هذه البلاد دار الإسلام أبداً مع رضوان الله والثواب العظيم من الله"،^٢ وتحت هذه المعاني الإيمانية الربانية خاض المسلمون معركتهم على أرض فلسطين. هاجم الروم ميمنة المسلمين ثم ميسرتهم، فصمد المسلمون، ثم رموا المسلمين بالنشاب...، ثم إن المسلمين هاجمهم فهزموهم بسرعة كبيرة، وروى الطبري عن ابن إسحق أن قائد الروم قال لهم: "لفوا رأسي بثوب، قالوا: ولم؟ قال: يوم بتيس لا أحب أن أراه!! ما رأيت في الدنيا يوماً أشد من هذا، فاحتز المسلمون رأسه، وإنه لمُلفف".^٣

وقتل من الروم في هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف، وتفرقت فلولهم إلى القدس، وقيسارية، ودمشق، وحمص.^٤

مثّلت هذه المعركة انتصاراً كبيراً للمسلمين، وتحطمت هيبة الروم، وشعر المسلمون عملياً بفضل الإيمان والصبر والاحتساب، على الأعداد

١ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٢٣٩-٢٤٠، و٢٤٧.

١ المرجع نفسه، ص ٢٦٣-٢٧٢؛ وانظر: البلاذري، فتوح البلدان (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٣)، ص ١٢٠.

٢ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٩٠.

٣ محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط ٢ (القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٩)، ج ٣، ص ٤١٨.

٤ البلاذري، فتوح البلدان، ق ١، ص ١٣٥؛ وكمال، الطريق إلى دمشق، ص ٢٨٠-٢٨١.

والعتاد التي يملكها عدوهم...، وانطلقوا لاستكمال فتوحهم بعزيمة وثبات صقلتها الخبرة والتجربة.

ويظهر أن المسلمين لم يستكملوا فتوحاتهم داخل فلسطين بعد هذه المعركة، فلم تتجه قواتهم شمالاً داخلها، وإنما توجهوا إلى دمشق ملتفين من جنوب البحر الميت مارّين بشرق الأردن.

وفي مرج الصُفر إلى الجنوب من دمشق بنحو ٣٨ كم التقى المسلمون بقوات الروم وهزموها في ١٧ جمادى الثانية ١٣هـ - ١٨ آب / أغسطس ٦٣٤م، وجاءت البشارة لأبي بكر الصديق بهذا النصر وهو في الرmq الأخير؛ إذ توفي رضي الله عنه مساء الثلاثاء ٢١ جمادى الثانية ١٣هـ - ٢٣ آب / أغسطس ٦٣٤م.^١

تولى عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، الخلافة بعد أبي بكر الصديق، رضي الله عنه، فأمر بعزل خالد عن قيادة جيوش الشام، وأرسل إلى أبي عبيدة قرابة ٢٦ جمادى الثانية ١٣هـ - ٢٨ آب / أغسطس ٦٣٤م يوليه مكان خالد. وقد علم خالد بأمر عزله دون أن يخبره أبو عبيدة، وكان خالد ما يزال يتصرف كأمير، وأبو عبيدة يصلي خلفه...، فعاتبه خالد عتاباً رقيقاً لم يخبره والسلطان سلطانه... فكان مما رد عليه أبو عبيدة "وما سلطان الدنيا أريد وما للدنيا أعمل... وإنما نحن أخوان قوّمان بأمر الله عز وجل".^٢

١ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٢٩١-٢٩٨.

٢ المرجع نفسه، ص ٣٠٥-٣٠٦.

٣- معركة فحل - بيسان:

تعدّ معركة فحل - بيسان من أبرز المعارك التي خاضها المسلمون في فتحهم لبلاد الشام، وقد وقعت هذه المعركة على ضفاف نهر الأردن، فقد عسكر المسلمون في فحل شرقي نهر الأردن، وعسكر الروم عند بيسان غربي نهر الأردن (إلى الشمال الغربي من فحل)، غير أن ميدان المعركة كان في فلسطين المعروفة بحدودها الحالية إلى الجنوب من بيسان، وكان عدد الروم ٥٠ ألفاً وقيل ٨٠ ألفاً، أما المسلمون فكانوا ٢٦ ألفاً تقريباً، ولا يصل عددهم إلى ٣٠ ألفاً^١.

وقبيل المعركة طلب الروم رجلاً يفاوضونه فأرسل أبو عبيدة معاذ بن جبل إليهم، وحاول الروم إبراز قوتهم لمعاذ قائلين: "إن ملكنا حي، وإن جنودنا عظيمة كثيرة...، ونحن عدد نجوم السماء وحصى الأرض" وسألوه عما يطلبه المسلمون، فدعاهم معاذ إلى إحدى ثلاث: الإسلام أو الجزية أو الحرب، ورد عليهم قائلاً: "وإن يكن ملككم هرقل فإن ملكنا الله عزّ وجل الذي خلقنا، وأميرنا رجل منا إن عمل فينا بكتاب الله وسنة نبينا ﷺ أقررناه علينا، وإن عمل بغير ذلك عزلناه عنا، وإن هو سرق قطعنا يده، وإن زنى جلدناه، وإن شتم رجلاً منا شتمه كما شتمه، وإن جرحه أقاده من نفسه، ولا يحتجب منا ولا يتكبر علينا، ولا يستأثر علينا في فيئنا الذي أفاءه الله علينا، وهو كرجل منا" ... "وأما قولكم: جنودنا كثيرة فإنها إن عظمت حتى تكون أكثر من نجوم السماء وحصى الأرض، فإننا لا نشق بها ولا نتكل عليها ولا نرجو النصر على عدونا بها، ولكننا نتبرأ من الحول

١ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٣٣٤، و٣٤٦؛ والأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ١٣١.

والقوة، ونتوكل على الله عزّ وجل ونثق بربنا...، فكم من فئة قليلة قد أعزّها الله ونصرها وأغناها وغلبت فئة كثيرة بإذن الله، وكم من فئة كثيرة قد أذلها الله وأهانها".

فعرض الروم على معاذ أن يعطوا المسلمين البلقاء وما إلى أرض العرب من سواد الأردن، ودعوهم إلى قتال أهل فارس ووعدوهم بالمساعدة. فقال معاذ: "هذا الذي عرضتم علينا وتعطونا كله في أيدينا، ولو أعطيتمونا جميع ما في أيديكم مما لم يظهر عليه، ومنعتمونا خصلة من الخصال الثلاثة التي وضعت لكم ما فعلنا" فغضبوا منه وقالوا: "نتقرب إليك وتتباعد عنا؟ اذهب إلى أصحابك فوالله إنا لنرجو أن نفرقكم في الجبال غداً" فقال معاذ: "أما الجبال فلا، ولكن والله لتقتلنا عن آخرنا أو لنخرجنكم من أرضكم أذلة وأنتم صاغرون".^١

وإذا كان لنا من وقفة هنا مع هذا المشهد التفاوضي الزاخر، فلعلنا نختار الإشارة السريعة إلى النقاط التالية:

* يعاني الكثير من زعمائنا ومفاوضينا في هذا العصر من عقدة النقص تجاه الآخرين، ومن ضعف الثقة بأنفسهم أو قضيتهم، ويحاولون التعويض عن ذلك بتقليد الآخرين "الخصوم" في اللباس، والوجاهة، والمظاهر، فتكون هذه أول نقاط الانهزام لديهم.

* كل ذلك في قالب من العزة، والقوة، والتواضع، وإصرار على الدعوة إلى إحدى الخصال الثلاثة، وردّ التهديد بما هو أقوى وأوقع في النفس.

ترى ما هو شعور المسلم عندما يقرأ هذا الموقف للصحابه الذين فتحوا

١ انظر نص مفاوضات معاذ للروم في: الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ١١٥-١٢١.

فلسطين، وبين أولئك الذين يساومون عليها الآن في عصرنا.

كان قائد الروم في المعركة هو سَقْلَار بن مخراق، وقائد المسلمين أبو عبيدة، وفي الثلث الأخير من ليلة الإثنين ٢٨ ذي القعدة ١٣هـ - ٢٣ كانون الثاني/ يناير ٦٣٥م تَمَّت تعبئة المسلمين وترتيبهم، وصلّوا الفجر، وجعل أبو عبيدة على اليمين معاذ بن جبل، وعلى اليسرة هاشم بن عتبة، وعلى المشاة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وعلى الخيل خالد بن الوليد، وعبر بهم النهر باتجاه الروم.^١

أما الروم فظنوا أن المسلمين في فحل لا يتوقعون عبورهم إليهم، وقدّر قائدهم أنه إذا جاءهم وجدّهم نياماً فيفاجئهم، فسار بجيشه نحو فحل.^٢ وفي الصباح بدأت المعركة، وكان القتال فيها أشد قتال اقتتلوه قط، وقتل خالد بن الوليد بنفسه ١١ رجلاً من أشدائهم وبطارقتهم، وانتصر المسلمون، وقيل إن ٨٠ ألفاً أصيبوا لم يفلت منهم إلا الشريد،^٣ وذكر البلاذري أن قتلى الروم كانوا حوالي عشرة آلاف.^٤

وبهذه المعركة غلب المسلمون على أرض الأردن وأصابوا من ريفه أفضل ما ترك الروم فأصبحت أقواتهم ومادتهم موفورة، وأخذ الروم ينتقلون إلى الحصون، وأصابهم الرعب مما أصابهم فلجأ الكثير من فرسانهم وأغنيائهم إلى قيسارية والقدس.^٥

١ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ١٣٠؛ وكمال، الطريق إلى دمشق، ص ٣٣٢.

٢ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٣٣٣.

٣ المرجع نفسه، ص ٣٤٤؛ والأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ١٣٦.

٤ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٢٢.

٥ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٣٤٤، و٣٤٩.

الاتجاه شمالاً:

وعلى الرغم من أن المسلمين هزموا الروم هزيمتين كبيرتين على أرض فلسطين؛ إحداهما في الجنوب "أجنادين" والأخرى في الشمال "فحل - بيسان" إلا أنهم لم يتابعوا طريقهم لفتح باقي فلسطين، وإنما اتجهوا شمالاً، فحاصروا دمشق أربعة أشهر حتى فتحوها يوم الأحد ١٥ رجب ١٤هـ - ٣ أيلول/ سبتمبر ٦٣٥م، ثم فتحوا بعلبك صلحاً أواخر ربيع الأول ١٥هـ - أوائل أيار/ مايو ٦٣٦م، ثم فتحوا حمص صلحاً بعد حصار استمر ١٨ ليلة في ٢١ ربيع الآخرة ١٥هـ - أول حزيران/ يونيو ٦٣٦م، وأرسل أبو عبيدة بعدها طلائع جنده إلى حلب، وإلى جهة الجزيرة، ولكن عمر ابن الخطاب طلب منه أن يضم أجناده ويتوقف. ففي تلك الفترة كانت تجري الاستعدادات الكبرى لمعركة القادسية بين المسلمين والفرس، ثم إن الروم كانوا يعدّون لمعركة حاسمة فاصلة، ولذلك دعا أبو عبيدة خالدًا فبعثه إلى دمشق ليقم بها في ألف من المسلمين، كما كلّف عمرو بن العاص، أن يقيم بجيشه في فلسطين.^١

٤- معركة اليرموك:

كان هرقل خلال الهزائم السابقة المتكررة ما يزال مقيمًا في أنطاكية يحشد قواته ويبعثها للقتال، ويبدو أنه عند سقوط دمشق، وربما قبلها، أراد أن يحشد حشدًا ضخماً بأكبر قوة يستطيعها ليدخل بها معركة فاصلة. وقد اختلفت الروايات في أعداد الروم وذكر الرواة أنه أقبلت من الجموع ما لا

١ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٣٥٨-٤٠١.

تحمله الأرض، ووصفهم الأزدي قائلًا: "فطبقوا الأرض مثل الليل والليل كأنهم الجراد السود"،^١ أما تقديرات الرواة لأعدادهم فتراوحت بين ١٠٠ - ٤٠٠ ألف، ولعل الأقرب للصحة أنهم كانوا ٢٠٠ ألفًا بقيادة باهان Vahan، أما عدد المسلمين فكان ٣٦ ألفًا منهم ألف من الصحابة رضوان الله عليهم فيهم نحو مئة ممن شهدوا بدرًا.^٢

ولما بلغت أبا عبيدة أخبار جموع الروم الهائلة، وكان المسلمون قد ساحوا في أرض الشام، قررت قيادة جيش المسلمين أن يتنحوا جانبًا وينسحبوا من حمص، وردوا لأهلها جزيتهم؛ لأنهم غير قادرين على حمايتهم.^٣ ورجع أبو عبيدة إلى دمشق، ورد المسلمون على أهلها ما جُبي منهم،^٤ وكان رأي المسلمين أن يتجمعوا لعدوهم وينتظروا قدوم الإمدادات لهم...، فخرج المسلمون باتجاه الأردن، وزحف جيش الروم، وانضم إليهم النصارى في المناطق التي في طريقهم...، وتجروا على المسلمين.^٥

كانت جيوش المسلمين قد اجتمعت بالجابية قبل أن تتجه إلى اليرموك، وفي الجابية اجتمع قادة المسلمين وتداولوا الأمر فكان رأي بعضهم الانسحاب جنوبًا إلى أطراف الصحراء، أما خالد بن الوليد فقال: "أرى والله إن كنا نقاتل بالكثرة والقوة فإنهم أكثر منا وأقوى منا وما لنا بهم إذن طاقة، وإن

١ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ١٩٤.

٢ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٤٠٦-٤٠٧؛ وانظر: الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص

١٥٢؛ والبلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤١.

٣ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ١٥٣-١٥٦.

٤ المرجع نفسه، ص ١٦٠.

٥ المرجع نفسه، ص ١٦٠-١٦٩.

كنا نقاتلهم بالله والله، فما أرى جماعتهم ولو كانوا أهل الأرض جميعاً أنها تغني عنهم شيئاً".^١

كان قادة المسلمين يدركون خطورة الموقف، ويستشعرون عظم المسؤولية، وفي هذا الموقف الذي تتزلزل فيه الأقدام، ويهرب منه عشاق المناصب تقدم خالد بن الوليد وقال لأبي عبيدة: "أتطيعني أنت فيما أمرك به؟" قال أبو عبيدة، أمين هذه الأمة، وكله ثقة بخالد: نعم، فقال خالد: "فولني ما وراء بابك، وخلي والقوم فإني لأرجو الله أن ينصرني عليهم"، قال أبو عبيدة "قد فعلت".^٢

وهكذا فوض أبو عبيدة خالدًا بالقيادة الميدانية، بينما احتفظ لنفسه، كما يظهر، بالقيادة العليا الرسمية للجيش. وظل خالد متأدبًا مع أبي عبيدة وواصل استشارته.^٣

انسحب المسلمون من الجابية إلى أذرعات؛ حيث نزلوا خلف نهر اليرموك وجعلوا أذرعات خلفهم، ونزل الروم بين اليرموك ووادي الرقاد "الواقصة" فحُصروا من ثلاث جهات. وتحرك المسلمون من أذرعات وعسكروا مقابل الروم الذين لم يعد لهم طريق إلا على المسلمين.^٤

ودعا الدرنجار قائد ميسرة الروم رجلاً من نصارى العرب، وأمره أن يذهب ليتجسس على المسلمين، فذهب ومكث في معسكرهم ليلة حتى

١ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ١٧٠.

٢ المرجع نفسه، ص ١٧٠-١٧١.

٣ المرجع نفسه، ص ١٨٩.

٤ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٤٣٣، و٤٤٤.

أصبح، فأقام عامة يومه، ثم عاد إلى الدرنجار فقال له: "جئتك من عند قوم يقومون الليل كله يصلون ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل أسد بالنهار، لو يسرق ملكهم لقطعوا يده، ولو زنى لرجموه لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه على الهوى" فقال درنجار: "لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطن الأرض خير - لمن يريد قتالهم - من ظهرها".^١ هذا الوصف، هو الوصف الحقيقي لأي جيش مسلم يرفع راية الحل الإسلامي لتحرير الأرض المباركة، واستعادتها من أيدي الأعداء.

وفي يوم الإثنين ٥ رجب ١٥ هـ - ١٢ آب / أغسطس ٦٣٦ م وقعت معركة اليرموك، ووضع باهان على ميمنته ابن قناطر، وعلى ميسرته الدرنجار، ومعه جرجير في جند أرمينية، وجبله بن الأيهم الغساني على الأعراب المواليين للروم، وعددهم ١٢ ألفاً من قبائل لخم، وجذام، وبلقين، وعاملة من قضاة، وغسان.^٢

وزحف الروم على المسلمين مثل "الليل والليل" وكانوا نحو ١٢٠ ألفاً من المشاة، و٨٠ ألفاً من الفرسان. وأخذ قادة المسلمين يحثون الجنود على الصبر والجهد. ورجع خالد إلى نساء المسلمين فأمرهن أن يقتلن أي رجل أقبل إليهنّ منهزماً من المسلمين، ونظّم خالد الجيش بحيث كان الفرسان خلف المشاة، وبحيث ينكسر الهجوم الرومي أمام المشاة، وعندما يفقد الروم نظامهم يهاجمهم خالد بفرسانه وهي مرتاحة.^٣

١ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٢١١.

٢ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٢١٠؛ وكمال، الطريق إلى دمشق، ص ٤٦٦، و٤٧١.

٣ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٢٢١؛ وكمال، الطريق إلى دمشق، ص ٤٧٥.

وبدأ الهجوم الرومي على ميمنة المسلمين ثم الميسرة، وحدث التحام هائل، وأمام سيل الروم الجارف انكشف المسلمون في الميمنة والميسرة، لكن المسلمين صمدوا في القتال بين مدّ وجزر.^١ وكان أشد القتال في الميمنة؛ حيث الأزدي قوم أبي هريرة الذي أخذ يحمّس المسلمين هناك، ويقول "تزينوا للهور العين، وارغبوا إلى جوار ربكم عزّ وجل في جنات النعيم، فما أنتم إلى ربكم في موطن من مواطن الخير أحب إليه منكم في هذا الموطن، ألا وإن للصابرين فضلهم".^٢ وهكذا فمن يتمعن في أقوال قادة المسلمين والصحابة في المعركة (أبي عبيدة، ومعاذ، وعمرو، وأبي هريرة...) لا يرى حثاً على الدنيا ولا وعوداً بالمغانم والمناصب، وإنما دعوات للإخلاص، والصبر، والذكر، وثقة بوعد الله ونصره، ورغبة في الشهادة والجنة.

وعندما حدث الاختراق الرومي للميمنة والميسرة، وثبت القلب، تدفقت قوات الروم نحو معسكر المسلمين بالخلف، وظلت هناك صفوف المسلمين تقاوم، ويعود إليها من جديد من كانت الروم قد اجتاحتها.

وفي هذا الجو العصيب، قال عكرمة بن أبي جهل: قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن، وأفر منه اليوم؟! من يبايع على الموت؟! فبايعه ٤٠٠ من وجوه المسلمين وفرسانهم فيهم الحارث بن هشام، وضرار بن الأزور، فاستبسلوا أمام فسطاط خالد، حتى أصيبوا جميعاً بجراح خطيرة فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من برئ مثل ضرار بن الأزور.^٣ وقاتلت نساء المسلمين في

١ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٤٧٦-٤٨٠.

٢ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٢٢٥؛ ومحمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام (بيروت: دار الجيل، دون تاريخ)، ص ٢٠٦.

٣ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٤٠١.

هذا اليوم قتالاً شديداً كخولة بنت الأزور، وأم حكيم ابنة حكيم بن الحارث، وسلمى بنت لؤي، وأسماء بنت أبي بكر...، كما قامت نساء المسلمين بمداواة الجرحى وسقاية الماء.^١

كان خالد بن الوليد في نصف فرسان المسلمين وقيس بن هبيرة في النصف الثاني لم يقاتلوا حتى تلك اللحظة، وعندما تكسرت صفوف الروم زحف خالد في فرسانه إلى الروم، وقد أنهكهم التعب واختلت صفوفهم. أما فرسان الروم الذين سبقوا المشاة إلى معسكر المسلمين فقد انقطعت أخبارهم، ويبدو أنهم استمروا في طريقهم هرباً من المعركة والحصار وعددهم نحو ٣٠ ألف فارس، ولما رأى المسلمون خيل الروم كذلك فتحوا لها مهرباً فذهبت في حالة من الفوضى، وشدّ خالد بفرسانه على المشاة وقتل ستة آلاف وقيل عشرة آلاف،^٢ وقيل إنه تكسرت في يد خالد تسعة أسياف.^٣

وأخذ المسلمون يزحفون مع هجوم خالد وقيس... وتراجع الروم وقد سدّ المسلمون عليهم المنافذ...، واندفعوا متراجعين إلى الواقصة (وهو نهر الرقاد من جهة التقائه باليرموك) وكانت حافته مرتفعة فتهاووا فيها، إذ كان الجو ضباباً، وقيل كان ليلاً وهو الأرجح؛ حيث قتل منهم في هذه الهاوية نحو ٨٠ ألفاً، وقتل في المعركة ٥٠ ألفاً، واستطاع الفرار تحت جناح الليل نحو ٤٠ ألفاً، بينما كان قد هرب نحو ٣٠ ألف فارس.^٤ أما المسلمون فقد استشهد منهم نحو ثلاثة آلاف.^٥

١ الواقدي، فتوح الشام، ص ٢١٧-٢١٨.

٢ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٤٨٧-٤٨٩.

٣ الواقدي، فتوح الشام، ص ٢١٨.

٤ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٢٣١؛ وكمال، الطريق إلى دمشق، ص ٤٩١-٤٩٤.

٥ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٤٩٦، وذكر الواقدي أن شهداء المسلمين كانوا أربعة =

استعادة الشام:

وبانتهاء معركة اليرموك، التي تعدّ إحدى المعارك الحاسمة في التاريخ، انكسرت شوكة الروم في الشام، وأصبح فتحها أكثر سهولة ويسرًا على المسلمين. وقد استفاد المسلمون من هذه الفرصة، فقام خالد بسرعة كبيرة بمطاردة الروم واستعادة الشام حتى حمص.^١ وعادت القيادة المباشرة على الجيوش لأبي عبيدة الذي انتقل معسكره إلى مرج الصفر ومنها إلى دمشق.^٢

وفي أواخر آب/ أغسطس ٦٣٦م جاء أمر عمر إلى أبي عبيدة بإعادة الجيش، الذي جاء مددًا من العراق مع خالد، فعاد إلى العراق ستة آلاف؛ ليدركوا معركة القادسية التي وقعت بعد اليرموك بأربعين يومًا.^٣

وفي دمشق قسّم أبو عبيدة الشام على الأمراء فاستخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق، وعمر بن العاص على فلسطين، وشرحبيل بن حسنة على الأردن، ومضى أبو عبيدة إلى حمص. ومن دمشق خرج يزيد، وفي مقدمته معاوية بن أبي سفيان ففتح صيدا، وعرقه، وجبيل، وبيروت، وكان فتحًا يسيرًا. أما شرحبيل ففتح باقي الأردن، وذلك في النصف الثاني من ١٥هـ.^٤

= آلاف، انظر: الواقدي، فتوح الشام، ص ٢٢٦.

١ الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٢٣١.

٢ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٥٠٠.

٣ المرجع نفسه، ص ٥٠٩-٥١٠.

٤ المرجع نفسه، ص ٥١١-٥١٦.

٥- فتح فلسطين:

وانفتح الطريق بعد اليرموك إلى فلسطين، فاتجه عمرو بن العاص إليها، ففتح سبسطية ونابلس، ثم اللد ونواحيها، ثم بينة، وعمواس، وبيت جبرين، ثم هبط باتجاه الجنوب الغربي حتى فتح رفح، وفي رواية حتى أنه فتح يافا، وفي قول آخر أن معاوية هو الذي فتحها. ثم فتح عمرو عسقلان ثم انتقض أهلها، فأعاد معاوية فتحها في ولايته^١. وذكر البلاذري صاحب فتوح البلدان أن عمرو ابن العاص فتح غزة على عهد أبي بكر^٢.

وهكذا فتحت فلسطين، ولم يبقَ إلا قيسارية وبيت المقدس، أما بيت المقدس فقد فتحت على الأرجح في ربيع الآخر ١٦هـ - أيار/ مايو ٦٣٧م. فقد اتجه عمرو بن العاص إلى القدس بعد أن أصبحت جيئاً معزولاً وحاصرها، وبعد أن فرغ أبو عبيدة من تطهير شمال الشام (حلب، أنطاكية...) سار إلى عمرو وتولى الحصار بنفسه.

وكتب أهل القدس إلى أبي عبيدة يطلبون الصلح على مثل ما صالحت عليه مدن الشام، غير أنهم اشترطوا أن يتولى العقد عمر بن الخطاب...

استخلف عمر بن الخطاب عليّ بن أبي طالب على المدينة، وسار إلى الشام؛ حيث وافاه أمراء جيوش المسلمين في الجابية. ومع قدوم عمر هرب قائد الروم (أرطوبون) من القدس، فكان الذي صالح عن أهل فلسطين رجل من أهل إيلياء (القدس) والرملة يدعى العوّام. وقد صالح

١ كمال، الطريق إلى دمشق، ص ٥١٣.

٢ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٤٤.

عمر أهل القدس وهو بالجابية وكتب لهم الصلح هناك.^١ وقد جاء في نصه:
 بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل
 إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم
 وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص
 منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون
 على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.
 وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن
 يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله
 حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وله مثل ما على أهل إيلياء
 من الجزية....

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة
 المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعبد الرحمن بن
 عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وكتب وحضر ١٥ هـ.^٢
 وهذا النص هو ما يعرف بالعهد العمرية، وعلى أساسه فتحت القدس،
 وهو يعكس مدى التسامح الديني الذي تمتع به المسلمون؛ بحيث أصبح
 نموذجاً يحتذى به، في وقت كان التعصب الأعمى والإكراه على الدين يعم
 العالم.

١ حول فتح القدس، انظر: الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٢٤٦-٢٥٩؛ وكمال، الطريق
 إلى دمشق، ص ٥٢٣-٥٢٧؛ والطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٦٠٧-٦٠٨.
 ٢ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ص ٦٠٩.

سار عمر من الجابية حتى وصل إلى القدس، وهو وغلّامه يتبادلان الركوب على الجمّل، ودخل عمر القدس وهو يمشي على قدميه وغلّامه راكب!! ويذكر أنه شارك معه في فتح القدس أربعة آلاف من الصحابة، وهي المدينة الوحيدة التي استلم الخليفة عمر مفاتيحها بنفسه. وعندما دخل القدس صلّى في محراب داود عليه السلام قارئاً سورة ص، حيث سجد سجدة داود، ثم قارئاً في الركعة الثانية سورة الإسراء، التي تحدثت فواتحها عن حادث الإسراء ومباركة الله سبحانه لأرض فلسطين، ووعد الله سبحانه بظهور اليهود مرتين وانتصار المؤمنين عليهم.^١ وسأل عمر عن مكان الصخرة المباركة التي كانت اختفت معالمها؛ وقد دلّ كعب الأخبار عمر على المكان، فقام عمر بنفسه يشاركه الصحابة وأهل المنطقة بإزالة الأوساخ عنها وتنظيفها، ثم أمر عمر ببناء الحرم فبني من الخشب بما يتسع لنحو ثلاثة آلاف من المصلين.^٢

أما قيسارية فقد فتحها معاوية بن أبي سفيان في شوال ١٩هـ - تشرين الأول/ أكتوبر ٦٣٩م، وبذلك تمّ للمسلمين فتح كل فلسطين. وقد كانت قيسارية مدينة عامرة ضخمة على البحر.

وظلّ عمر بن الخطاب في القدس بضعة أيام، وقبل أن يغادر خطب في المسلمين "يا أهل الإسلام، إن الله تعالى قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء، وأورثكم البلاد، ومكّن لكم في الأرض، فلا يكون جزاؤه منكم

١ انظر: الأزدي، تاريخ فتوح الشام، ص ٢٤٦-٢٥٩؛ وانظر: مجير الدين الحنبلي، الأنس

الجليل بتاريخ القدس الجليل (عمّان: مكتبة المحتسب، ١٩٧٣)، ج ١، ص ٢٥٥.

٢ إسماعيل ابن كثير، البداية والنهاية، ط ٥ (بيروت: مكتبة دار المعارف، 1983)، ج ٧،

ص ٢٢٢.

إلا الشكر، وإياكم والعمل بالمعاصي، فإن العمل بالمعاصي كفر بالنعم،
وقلما كفر قوم بما أنعم الله عليهم ثم لم يفرغوا إلى التوبة إلا سلبوا عزهم،
وسلّط الله عليهم عدوهم" ^١.

هذا ما قاله عمر، وهو الذي جعل الله الحق على لسانه، وهذه هي الحقيقة
التي نعيشها اليوم، والتي عايشها المسلمون أيام الحروب الصليبية، كفر
بالنعم، وعمل بالمعاصي، يتبعه سلب للعز، وتسليط العدو على رقاب
المسلمين.

٦- الإسلام يترسخ في فلسطين:

وبعد الفتح الإسلامي لفلسطين أخذت هذه الأرض تكتسب من جديد
هويتها الإسلامية؛ إذ دخل أهلها في الإسلام، وكان للصحابه الذين عاشوا
فيها أثرهم في تعميق مفاهيمه ونشرها.

فمن الصحابة الذين استوطنوا في فلسطين عبادة بن الصامت (ت ٣٤هـ)
وهو من الخزرج، شهد بدرًا وأحدًا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله
ﷺ وكان رضي الله عنه طويلًا، وجسيمًا، وجميلًا ^٢.

ومنهم أيضًا شداد بن أوس (ت ٥٨هـ) رضي الله عنه وهو خزرجي، ابن
أخي حسان بن ثابت، ولي إمارة حمص لعمر بن الخطاب، وكانت وفاته
أواخر ولاية معاوية في القدس، وأسامة بن زيد بن حارثة (ت ٥٧هـ)،
رضي الله عنه، سكن ناحية الرملة ومات بها، ووائلة بن الأسقع (ت ٨٥هـ)،

١ الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس الجليل، ج ١، ص ٢٥٨.

٢ مصطفى مراد الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ٩، ق ٢ (بيروت: دار الطليعة، ١٩٧٥)، ص ٩٦.

رضي الله عنه الذي سكن بيت المقدس ومات بها، وفيروز الديلمي رضي الله عنه وهو من فرس صنعاء وهو قاتل مدَّعي النبوة الأسود العنسي، ودحية الكلبي رضي الله عنه شهد كثيرًا من الوقائع، كما شهد اليرموك، بعثه رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم يدعو للإسلام فلقية في القدس وسلمه الرسالة، وسكن فلسطين وعاش فيها إلى خلافة معاوية، وتوفي في قرية "الدحي" التي نسبت إليه وجبلها القائمة عليه، وقبره معروف يُزار،^١ والصحابي عبد الرحمن بن غنم الأشعري (ت ٧٨هـ) رضي الله عنه فقيه الشام وشيخ أهل فلسطين، كان ضمن البعثة التعليمية التي أرسلها ابن الخطاب، لتعليم أهل فلسطين أمور دينهم،^٢ والصحابي علقمة بن مجزر الكناني، أرسله عليه السلام في تبوك للاستطلاع إلى فلسطين، شهد اليرموك وحصار بيت المقدس، وكان عاملاً لعمر بن الخطاب على القدس.^٣

والصحابي أوس بن الصامت أخو عبادة بن الصامت، شهد بدرًا والمشاهد كلها، ومات بفلسطين وعمره ٨٥ سنة.^٤

والصحابي مسعود بن أوس بن زيد، شهد بدرًا، وفتح مصر، وتوفي بالقدس.

والصحابي سلام بن قيس بن قيصر الحضرمي (وقيل سلامة أو سلمة)،

كان واليًا لمعاوية على بيت المقدس.^٥

١ انظر: المرجع نفسه، ج ٩، ق ٢، ص ٩٧؛ ومصطفى مراد الدباغ، القبائل العربية وسلاسلها، ص ٤٧-٤٨، و ١٨٨.

٢ الدباغ، القبائل العربية وسلاسلها، ص ١٠٤.

٣ المرجع نفسه، ص ١٨٨.

٤ الدباغ، بلادنا فلسطين، ج ٩، ق ٢، ص ٩٧.

٥ انظر: ضياء الدين محمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسي الحنبلي، فضائل بيت =

والصحابي زنباع بن روح الجذامي، وهو من أهل فلسطين قبل الإسلام،^١ ومالك السرايا مالك بن عبد الله الخثعمي رضي الله عنه ومنهم من يجعله في عداد التابعين، ولي الصوائف زمن معاوية ثم يزيد ثم عبد الملك، وهو من أهل فلسطين.^٢

ومن الصحابة أيضًا الذين عاشوا وتوفوا في فلسطين أبو ريحانة شمعون الأنصاري، وسويد بن زيد، وذو الأصابع التميمي، وأبو أبي بن أم حرام الأنصاري الخزرجي، وأنيف بن ملة الجذامي، وسويد بن زيد الجذامي، وسعد بن وائل بن عمرو العبيدي الجذامي، وأبو رويحة الفرعي واسمه ربعة بن السكل رضي الله عنهم أجمعين.^٣

وممن سكن بيت المقدس من الصحابة إبراهيم بن أبي علة العقيلي، ويزيد بن سلام، وعبد الله بن محيريز الجمحي، وزباد بن أبي سودة رضي الله عنه.^٤

ورفع التابعون راية الصحابة على أرض فلسطين، وهناك الكثير ممن ولد فيها أو سكنها أو زارها، ومنهم رجاء بن حيوة الكندي (ت ١١٢هـ/

= المقدس، تحقيق محمد مطيع حافظ، سلسلة فضائل الشام رقم ٢ (دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥)، ص ٩٠-٩٢.

١ الدباغ، القبائل العربية وسلاسلها، ص ١٠٤.

٢ المرجع نفسه، ص ٩٨-٩٩.

٣ ضياء الدين المقدسي، فضائل بيت المقدس، ص ٩٠-٩٢؛ والدباغ، القبائل العربية وسلاسلها، ص ٩٨، و١١١-١١٣.

٤ شفيق جاسر أحمد محمود، تاريخ القدس: العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية (عمّان: دار البشير للنشر والتوزيع، ١٩٨٤)، ص ١٢٥-١٢٦.

(٧٣٠م) وهو من أهل فلسطين من مواليد بيسان، وكان أميناً على بيوت أموال عبد الملك بن مروان، وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك بتولية عمر بن عبد العزيز. ومن التابعين أيضاً عبادة بن نسي الكندي (ت ١١٨هـ/ ٧٣٦م) وكان جليل القدر، يُنعت بسيد أهل الأردن، تولى قضاء طبرية، ومنهم أيضاً مالك بن دينار، والأوزاعي، وروح بن زنباع، وهانئ ابن كلثوم بن عبد الله، وحميد بن عبد الله اللخمي، وسفيان الثوري، وابن شهاب الزهري.^١

ومن كبار الأئمة والفقهاء الذين عاشوا في فلسطين وزاروها الإمام الشافعي الذي ولد في مدينة غزة، وإبراهيم بن أدهم، والليث بن سعد، وأبو بكر محمد الطرطوشي، وأبو بكر الجرجاني، وابن قدامة المقدسي. أما الإمام ابن حجر أحمد بن علي العسقلاني فقد ولد وعاش في مصر بعد أن هاجر إليها أسلافه بعد خراب عسقلان ٦٦٩هـ.^٢

وإلى فلسطين ينتسب الفاتح الإسلامي الكبير موسى بن نصير اللخمي (١٩-٩٧هـ) فاتح الأندلس، وعبد الحميد بن يحيى الكاتب، وكان جده من موالى بني عامر الذي دعي المرحج باسمهم (مرج بني عامر) أصله من قيسارية، رئيس فنّ الكتابة، وسيد الإنشاء، وشيخ الدواوين، صاحب مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وقتل معه سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م.^٣

١ مصطفى مراد الدباغ، من هنا وهناك (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٦)، ص ٨٠، و ١٠٩.

٢ الدباغ، القبائل العربية وسلالتها، ص ١٨٧؛ وشفيق محمود، تاريخ القدس، ص ١٢٦-١٤٣.

٣ انظر: الدباغ، من هنا وهناك، ص ٨٠-٨١؛ والقبائل العربية وسلالتها، ص ١٣٨-١٤٠.

وإلى فلسطين أيضًا ينتسب أول علماء الكيمياء المسلمين الكبار خالد بن يزيد الأموي، وهو أول من نقل علوم الفرنج إلى العربية في دولة الإسلام.^١ ويمكن أن ينسب إلى فلسطين، حسب التقسيمات الجغرافية الإسلامية القديمة، أول ثلاثة خلفاء من دولة بني العباس؛ إذ ولد كل من أبي العباس السفاح، وأبي جعفر المنصور وابنه المهدي في الحميمة من جند فلسطين (الشام الأولى)، وهي تقع الآن شرق الأردن على يمين الطريق من معان إلى العقبة.^٢

ومن الوزراء "الفلسطينيين" المشهورين الربيع بن يونس، الذي ينتسب إلى العائلة الكيسانية من جبل الخليل، كان حاجبًا ثم وزيرًا للمنصور، ثم وزيرًا ومستشارًا للمهدي، أما ابنه الفضل بن الربيع فعمل حاجبًا للمنصور، ثم وزيرًا للمهدي، ثم وزيرًا للهادي، ثم حاجبًا لهارون الرشيد، ثم وزيرًا للأمين بن هارون الرشيد،^٣ ومن الوزراء أيضًا معاوية بن عبيد الله بن يسار الأشعري الطبراني استوزره المهدي، وفوض إليه أمر الدولة العباسية، وفي أيام وزارته علا شأن الوزارة لكفاءته ومقدرته،^٤ وأحمد بن أبي خالد يزيد بن عبد الرحمن الكاتب الأحوال، وكان من خيار الوزراء الذين استوزرهم المأمون.^٥

١ انظر: صالح مسعود أبو بصير، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن، ط ٣ (بيروت: دار الفتح للطباعة والنشر، ١٩٧٠)، ص ٢٤-٢٥.

٢ الدباغ، من هنا وهناك، ص ٨١.

٣ المرجع نفسه، ص ٨٢.

٤ المرجع نفسه.

٥ المرجع نفسه، ص ٨٣.

ومن العلماء المعروفين عقيل بن خالد الأيلي (ت ١٤٤هـ) روى الحديث عن مالك بن أنس، وآدم بن أبي عباس العسقلاني (ت ٢٢٠هـ) روى عنه البخاري، والعباس بن محمد الجرجي (ت ٣٢٠هـ) محدث فلسطين ينسب إلى قرية بيت جرجا من أعمال غزة، وسليمان بن أحمد اللخمي الطبراني (ت ٣٤٠هـ)، وهو رحالة ومحدث مشهور من مواليد طبرية.^١

وقد أحصى أحد الباحثين المعاصرين أعيان المتوفين في بيت المقدس فقط في العهود الإسلامية فوجد أنهم تسعة من الصحابة، و٦٠ من الملوك والأمراء وأرباب الحكم، و١٦٧ من العلماء، و٦٦ من الأولياء والصالحين، و٥٣ من القضاة... وأضاف أن هذا غيض من فيض من أعيان المدفونين في بيت المقدس؛ لأن هناك كثيرًا ممن توفوا فيها ضاعت أسماؤهم...، هذا في القدس وحدها فكيف بأرض فلسطين كلها؟!^٢.

رابعاً: المسلمون في مواجهة الصليبيين

تمهيد:

قدمت أرض الإسلام في فلسطين على مرّ عصور الإسلام الزاهرة فيها أطيب الثمار وأينعها، ولكن هذا المد المعطاء من الحياة الإسلامية المشرقة لم يستمر... .

١ الدباغ، من هنا وهناك، ص ١١٢.

٢ جميل العسلي، أجدادنا في ثرى بيت المقدس: دراسة تاريخية لمقابر القدس وترها وإثبات بأسماء الأعيان المدفونين فيها (عمّان: مؤسسة آل البيت: المجموع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، ١٩٨١)، ص ١٥٠.

فمنذ العصر العباسي الثاني الذي ابتدأ بعد منتصف القرن الثالث الهجري، ودولة الخلافة الإسلامية في ضعف مستمر متزايد نتيجة ضعف الارتباط بالله سبحانه، وعدم التطبيق الدقيق لشرعه سبحانه، وضعف الحكام وانشغالهم بوسائل اللهو والترف، وانتشار الأفكار الضالة والفرق المنحرفة في دولة الإسلام، ودخول علماء المسلمين في مرحلة من الجمود والتقليد؛ أبعدتهم عن حل كثير من مشاكل وقضايا العصر المتجدد التي تواجه المسلمين، وكثرة الخلافات الفقهية، وتزايد التعصب المذهبي، وتمزق دولة الإسلام، وتكوين ثلاث خلافات بدلاً من خلافة واحدة، فالخلافة العباسية في المشرق، والخلافة الفاطمية في مصر وأجزاء من المغرب والشام، والخلافة الأموية في الأندلس، وانشغال كثير من المسلمين بقشور الحضارة، ومباهجها، وجمع الأموال، والجواري والغلمان

في هذه الحالة من الترهل والضعف، التي أصابت المسلمين في تلك الفترة، حدثت الحروب الصليبية.

١. الخريطة السياسية للمنطقة قبيل الحروب الصليبية:

قبل بدء الحروب الصليبية بنحو أربعين عامًا نجح السلاجقة الأتراك في بسط سيطرتهم على بغداد، وتولي الحكم تحت الخلافة الاسمية للعباسيين. فقد استطاع السلاجقة بسط سيطرتهم على أجزاء واسعة من فارس، وشمال العراق، وأرمينيا، وآسيا الصغرى نحو سنة ١٠٤٠م، ثم سيطر السلطان السلجوقي طغرل بك على بغداد سنة ١٠٥٥م، وتوسع السلاجقة على حساب البيزنطيين في آسيا الصغرى، وفي ١٩/٨/١٠٧١م وقعت معركة ملاذكرد التي قادها السلطان السلجوقي ألب أرسلان، وحلت فيها أكبر

كارثة بالبيزنطيين حتى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي، وفي ١٠٧١م سيطر السلاجقة على معظم فلسطين عدا أرسوف، وأخرجوا النفوذ الفاطمي منها، وتوسع السلاجقة على حساب الفاطميين في الشام فاستطاعوا الاستيلاء على معظمها.^١

وفي ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م توفي السلطان السلجوقي ملكشاه فتفككت سلطة السلاجقة، ودخلوا فيما بينهم في معارك طويلة طاحنة على السيطرة والنفوذ، وعلى حدّ تعبير ابن الأثير "انحلت الدولة ووقع السيف"،^٢ وفي ١٠٩٦م أصبحت سلطتهم تتكون من خمس ممالك: سلطنة فارس بزعامة بركياروق، ومملكة خراسان وما وراء النهر بزعامة سنجر، ومملكة حلب بزعامة رضوان، ومملكة دمشق بزعامة دقاق، وسلطنة سلاجقة الروم بزعامة قلعج أرسلان، وكانت معظم مناطق فلسطين تتبع الحكم في دمشق. وفي ظلّ ضعف حاكمي الشام (رضوان ودقاق) ظهرت الكثير من البيوتات الحاكمة بحيث لا يزيد حكم كثير منها عن مدينة واحدة.^٣

لقد بدأ الصليبيون حملتهم ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م ومناطق المسلمين في الشام والعراق وغيرها تمزقها الخلافات والصراعات الدموية، فقد دخل الأخوان رضوان ودقاق ابنا تتش في حرب بينهما سنة ٤٩٠هـ، ووقعت معارك عديدة بين محمد بن ملكشاه وأخيه بركياروق في الصراع على

١ انظر: فايد حماد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية: العصر الفاطمي والسلجوقي والزنكي، ط ٤ (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٨)، ص ٥١-٥٤.

٢ علي بن محمد الشيباني المعروف بابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت: دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٥)، ج ٨، ص ١٦٢.

٣ فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٦٨.

السلطنة، تداولوا فيها الانتصارات والخطبة لهما بدار الخلافة (٤٩٢-٤٩٧هـ)، و"طالت الحرب بينهما، وعمّ الفساد، فصارت الأموال منهوبة، والدماء مسفوكة، والبلاد مخربة، والقرى محرقة، والسلطنة مطموعاً فيها، محكوماً عليها، وأصبح الملوك مقهورين".^١ وفي تلك الفترة كان الصليبيون قد ثبتوا ملكهم في فلسطين وأرجاء عديدة من الشام، واستطال الفرنج بما ملكوه من بلاد الشام، واتفق لهم "اشتغال عساكر الإسلام وملوكه بقتال بعضهم بعضاً، فتفرقت حينئذ بالمسلمين الآراء، واختلفت الأهواء، وتمزقت الأموال".^٢

٢. الحملة الصليبية الأولى ونتائجها:

وفي تلك الأثناء أخذت الأنظار في أوروبا تتجه نحو الأرض المقدسة بعد أن دعا البابا أوربان الثاني Pope Urban II (١٠٨٨-١٠٩٩م) في مجمع كليرومونت Council of Clermont في ٢٦/١١/١٠٩٥م "لاسترداد" الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين، ثم عقد عدة مجتمعات دعا فيها للحروب الصليبية (ليموج Limoges، أنجرز Angers، مان Le Mans، تورز Tours، بواتيه Poitiers، بوردو Bordeaux، تولوز Toulouse، نيم Nîmes) خلال الفترة ١٠٩٥-١٠٩٦م، وقرر أن كل من يشترك في الحروب الصليبية تغفر له ذنوبه، كما قرر أن ممتلكات الصليبيين توضع تحت رعاية الكنيسة مدة غيابهم.^٣

١ انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٩٠-٢٢٠.

٢ المرجع نفسه، ج ٨، ص ٢٢٢.

٣ حول الحملة الصليبية الأولى، انظر: أرست باركر، الحروب الصليبية، ترجمة السيد=

وبدأت الحملات الصليبية بحملات العامة أو حملات الدعاة، وهي حملات تفتقر إلى القوة والنظام. وكان منها حملة بطرس الناسك، الذي انضمت إليه جموع والتر المفلس.^١

ثم كان ما يعرف بالحملة الصليبية الأولى، وقد شارك فيها أمراء وفرسان أوروبيون محترفون، وبدأت الحملة سيطرتها على مناطق المسلمين منذ صيف ١٠٩٧ م، وأسس الصليبيون إمارة الرها في آذار/ مارس ١٠٩٨ م بزعامة بلدوين البولوني. وحاصر الصليبيون أنطاكية تسعة أشهر، حتى احتلوها، وأسسوا فيها إمارتهم الثانية ٤٩١ هـ - ٣ حزيران/ يونيو ١٠٩٨ م، بزعامة بوهيموند النورماني Bohemond.^٢

وفي الوقت الذي كان السلاجقة يتعرضون فيه للزحف الصليبي شمال بلاد الشام، استغل الفاطميون الفرصة، فاحتلوا صور ١٠٩٧ م، وسيطروا على بيت المقدس في شباط/ فبراير ١٠٩٨ م في أثناء حصار الصليبيين لأنطاكية. واستقل بطرابلس القاضي ابن عمار أحد أتباع الفاطميين، وقد أرسل الفاطميون للصليبيين في أثناء حصارهم لأنطاكية سفارة للتحالف معهم، وعرضوا عليهم قتال السلاجقة بحيث يكون القسم الشمالي

= الباز العريني، ط ٤ (بيروت: دار النهضة العربية، دون تاريخ)، ص ٢٣-٢٤؛ وفريد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٧٨؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية: صفحة مشرقة في تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، ط ٤ (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨٦)، ج ١، ص ١٠٤-١٠٧.

١ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ١٠٨-١١٣؛ وأرنست باركر، الحروب الصليبية، ص ٢٥-٢٦.

٢ انظر: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٨١؛ وأرنست باركر، الحروب الصليبية، ص ٣٤-٣٥.

"سورية" للصليبيين وفلسطين للفاطميين...، وأرسل الصليبيون وفدًا إلى مصر ليدلّوا على "حسن نيّاتهم"!!، وهكذا... ففي أثناء انشغال السلاجقة بحرب الصليبيين كان الفاطميون منشغلين بتوسيع نفوذهم في فلسطين على حساب السلاجقة حتى إن حدودهم امتدت حتى نهر الكلب شمالاً ونهر الأردن شرقاً...!!

وظهرت الخيانات، وانكشف التخاذل من إمارات المدن التي حرصت كل منها على نفوذها و"كسب ود" الصليبيين في أثناء توسعهم.^١

تابع ريمون دي تولوز Raymond Toulouse (أمير إقليم بروفانس Provence وتولوز Toulouse بفرنسا) قيادة بقية الصليبيين إلى بيت المقدس، وكان عددهم ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة فقط!! وفي ربيع ١٠٩٩م، دخلوا مناطق فلسطين، واحتلوا الرملة واللد وبيت لحم، وفي ١٥ تموز/ يوليو ١٠٩٩م بدأوا حصار بيت المقدس، وكان حاكمها قد نصبه الفاطميون، ويدعى افتخار الدولة، وتمّ احتلالها في ٢٣ شعبان ٤٩٢هـ - ١٥ تموز/ يوليو ١٠٩٩م. ولبت الفرنج أسبوعاً يقتلون المسلمين، وقتلوا بالمسجد الأقصى ما يزيد على ٧٠ ألفاً، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين، وعلمائهم وعبادهم.^٢ أما الدولة الفاطمية فقد واجهت الخبر ببرود، كما أن الدولة العباسية لم تحرك ساكناً!!

وتتابع سقوط مدن فلسطين الأخرى،^٣ وفرض الصليبيون هيمنتهم

١ فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ١٠٨-١١٢.

٢ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ١٨٩؛ وفايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ١١٢-١١٣.

٣ انظر بالتفصيل في: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ١، ص ٢٠١-٢١٠، و ٢٣١- =

عليها، غير أن عسقلان ظلّت عصية عليهم، وكان المصريون (الفاطميون) يرسلون لها كل عام الذخائر والرجال والأموال، وكان الفرنج يقصدونها ويحاصرونها كل عام فلا يجدون لها سبيلاً، ولم تسقط عسقلان بأيدي الفرنج إلا في ٥٤٨هـ / ١١٥٣م!!^١

وهكذا تأسست مملكة بيت المقدس الصليبية، ونشير استطراداً إلى تأسيس الفرنج لمملكة صليبية رابعة هي طرابلس في ١١ ذي الحجة ٥٠٣هـ - ١٢ تموز/ يوليو ١١٠٩م بعد حصار دام سبعة أعوام.^٢

٣. استمرار الصراع (نظرة عامة):

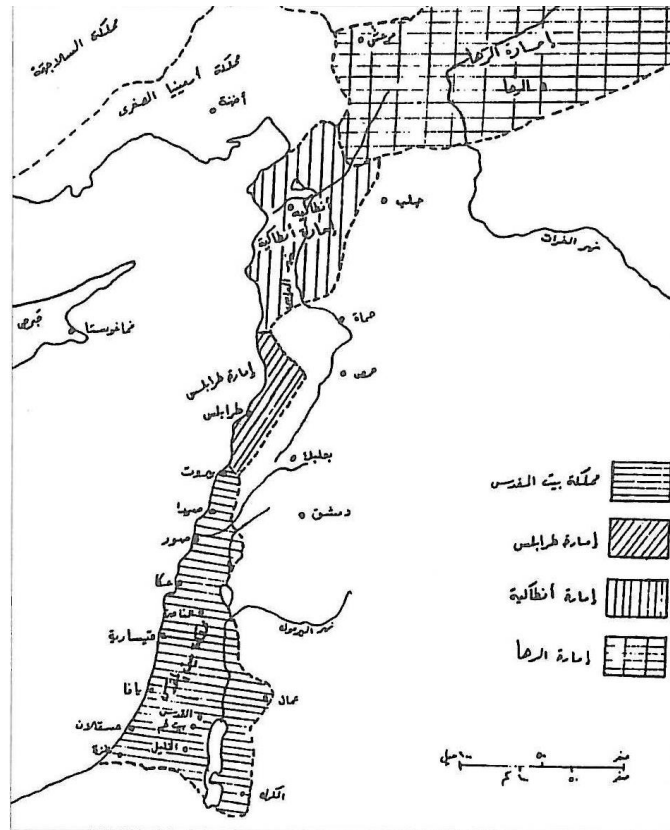
في الثلاثين سنة التي تلت الاحتلال الصليبي لبيت المقدس، استمر جهاد المسلمين ضدّ الفرنج (الصليبيين) دون توقف، وإن كان هذا الجهاد قد افتقر إلى حسن الإعداد والتنظيم، وقد تعدد القادة المسلمون الذين يأتون ويذهبون، كما تعددت محاور الصراع والاشتباك مع الفرنج في بلاد الشام، وافتقر المسلمون إلى قاعدة كبيرة وقوية تكون منطلقاً دائماً للجهاد، وكثيراً ما كان القتال بين مدينة أو قلعة إسلامية، تحاول الدفاع عن نفسها أو توسيع نفوذها، وبين الفرنج. وتداول المسلمون والصليبيون النصر والهزيمة في المعارك، ولم يكن يمضي عام دون معارك، وتبادلوا احتلال المدن والقلاع، ولم يكن من الصعب على المسلمين أن يدخلوا في

=٢٣٢؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢٠٤؛ وفايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ١١٧-١٢٤.

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٤٢.

٢ المرجع نفسه، ج ٨، ص ٢٥٨-٢٥٩.

وسط فلسطين، ويخوضوا المعارك عند الرملة أو يافا أو غيرهما. غير أن الصليبيين ظلّوا يحتفظون بنفوذهم وهيمنتهم في المناطق التي استولوا عليها.^١



الممالك والإمارات الصليبية في بلاد الشام

المسلمون الأصليون، من سكان فلسطين، استمروا في سكنهم للبلاد

١ مثلاً: مقتل سيرجال صاحب أنطاكية مع ثلاثة آلاف فارس وتسعة آلاف من المشاة في معركة مع إيلغازي صاحب حلب سنة ٥١٢هـ (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢٨٩)، وأسر جوسلين صاحب الرها ومعه ابن خالته كليم وجماعة من الفرسان المشهورين سنة ٥١٥هـ (ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٣٠٤).

التي احتلها الفرنج، ولكن قسمًا منهم هجروها إلى شرق الأردن ودمشق، وأنفوا من التعاون مع الصليبيين. ولذلك تعطلت الزراعة في أكثر المدن الساحلية الفلسطينية. وقد عمل هؤلاء على محاربة الصليبيين، وقدموا خدمات للمسلمين المهاجمين، وانضموا إلى كتائب المسلمين في بلاد الشام، وساعدوهم كأدلاء في فلسطين، يقول المؤرخ الصليبي وليم الصوري عنهم "إنهم علموا عدونا كيف يدمرنا؛ لأنهم يملكون معلومات كافية عن حالتنا".^١

وكان من أبرز قادة المسلمين المجاهدين الأوائل أقسنقر البرسقي الذي ولاه السلطان محمد سنة ٥٠٨ هـ الموصل وأعمالها، وأمره بقتال الفرنج، وخاض أقسنقر المعارك ضد الصليبيين في شمال الشام. ودخلت، بالإضافة إلى الموصل والجزيرة وسنجار، مدينة حلب سنة ٥١٨ هـ تحت زعامته، فتوسعت جبهته المعادية للصليبيين، غير أنه قتل رحمه الله سنة ٥٢٠ هـ على يد الباطنية في الموصل، وكان أقسنقر تركيًا خيرًا يحب أهل العلم والصالحين، ويرى العدل ويفعله، وكان من خير الولاة، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، ويقوم الليل.^٢

٤. جهاد عماد الدين زنكي ٥٢١-٥٤١ هـ:

انفتحت صفحة جديدة لجهاد الصليبيين بظهور عماد الدين زنكي بن أقسنقر، وبدء عهد الدولة الزنكية في الموصل وحلب، فقد تولى عماد الدين زنكي أمر ولاية الموصل وأعمالها ٥٢١ هـ بعد أن ظهرت كفاءته في

١ الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٤٤٦.

٢ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢٦٨، و٣٠٢، و٣٢٠.

حكم البصرة وواسط،^١ وفي محرم ٥٢٢هـ تمت له السيطرة على حلب. وأخذ عماد الدين يخوض المعارك تلو المعارك، ويحقق الانتصارات على الصليبيين، وعلق ابن الأثير بعد أن تحدث عن انتصار عماد الدين على الفرنج في معركة كبيرة، وملكه حصن الأثارب، وحصاره حارم ٥٢٤هـ... "وضعت قوى الكافرين، وعلموا أن البلاد قد جاءها ما لم يكن لهم في الحساب، وصار قصارهم حفظ ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمعوا في ملك الجميع".^٢

واستمرت جهود زنكي في توحيد قوى المسلمين في غزو الصليبيين، فملك زنكي حماة، وحمص وبلعبك، وسرجي، ودارا، والمعرة، وكفر طاب، وقلعة الصور في ديار بكر، وقلاع الأكراد الحميدية، وقلعة بعرين، وشهرزور، والحديثة، وقلة أشب وغيرها من الأكراد الهكارية.^٣ غير أن أشهر ما يذكر من الفتوح لزنكي هو فتحه للرها، وإسقاطه للمملكة الصليبية التي قامت بها، فقد حاصرها أربعة أسابيع، وفتحها عنوة في ٦ جمادى الآخرة ٥٣٩هـ، وفتح ما يتبع هذه المملكة من أعمال في منطقة الجزيرة، وفتح سروج وسائر الأماكن التي كانت للفرنج شرقي الفرات ما

١ شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد، ج ١، ق ١ (القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦)، ص ٧٥؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٣٠٩، و٣٢٣.

٢ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٣٣١.

٣ المرجع نفسه، ج ٨، ص ٣٢٩-٣٦٨، وج ٩، ص ٥؛ وأبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ١، ص ٧٨، و٨٤-٨٥.

عدا البيرة.^١

قُتل عماد الدين زنكي، بعد أن حمل راية الجهاد أكثر من عشرين عامًا، في ٥ ربيع الأول ٥٤١هـ - منتصف أيلول/ سبتمبر ١١٤٦م، غدرًا على يد جماعة من مماليكه، بينما كان يحاصر قلعة جعبر.^٢ وعلى ما ذكر ابن الأثير فقد كان زنكي، شديد الهيبة في عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يعين القوي على ظلم الضعيف، وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابًا من الظلم، وتنقل الولاة، ومجاورة الفرنج، فعمّرها وامتلاّت أهلًا وسكانًا.^٣ وكان زنكي من خيار الملوك وأحسنهم سيرة وشكلاً، وكان شجاعًا، ومقدامًا، وحازمًا، خضعت له ملوك الأطراف، وكان من أشد الناس غيرة على نساء الرعية، وأجود الملوك معاملة، وأرفقهم بالعامّة.^٤ واشتهر عماد الدين بعد مقتله بلقب "الشهيد".

لقد استطاع عماد الدين أن يضع الأسس لقاعدة انطلاق جهادية كبيرة وقوية تمتد من شمال الشام إلى شمال العراق، كما كسر شوكة الصليبيين في مواقع كثيرة، ويسر سبل الجهاد والعمل الجاد لتحرير الأرض. غير أن أفضل أثر تركه، على ما يظهر لنا، هو ابنه نور الدين محمود.

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٨-٩؛ وأبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ١، ص ٩٤-٩٦.

٢ أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ١، ص ١٠٧-١٠٩.

٣ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٣.

٤ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٢٠؛ وانظر أيضًا: أبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ١، ص ١٠٩-١١٤؛ وفريد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ١٧٩-٢٠٤.

٥. جهاد نور الدين محمود ٥٤١-٥٦٩هـ:

بعد استشهاد زنكي، وحسب الأعراف الوراثية في ذلك الزمان، انقسمت دولته بين ابنه: نور الدين محمود الذي تولى حلب وما يتبعها، وسيف الدين غازي الذي تولى الموصل وما يتبعها.

ولد نور الدين محمود بعد نحو عشرين عامًا من سقوط القدس في أيدي الصليبيين في ١٧ شوال ٥١١هـ - شباط / فبراير ١١١٨م.^١

وبحكم نور الدين انفتحت صفحة جديدة رائعة من صفحات الجهاد الإسلامي في بلاد الشام، وطوال ٢٨ عامًا، من حكم نور الدين كان واضحًا في ذهنه هدفه الأساسي في تحرير واسترداد بلاد المسلمين، وتوحيدها تحت راية الإسلام.

ومنذ تلك اللحظة أخذ يبذل الأسباب، ويعدّ العدة والعتاد، ويوحد جهود المسلمين، ويرتقي بهم في جوانب الحياة المختلفة، وذلك وفق تصور إسلامي متكامل لإعادة أمجاد المسلمين، وطرد الاحتلال الصليبي من بلادهم... ودخل المعركة وفق فهم إسلامي شامل وسليم، يؤكد على عقائدية المعركة مع الصليبيين، فهي:

* صراع بين حقٍّ وباطل، وبين إسلام وكفر.

* تعني كل المسلمين دون نظر إلى قوميات وعصبيات وجنسيات.

١ عماد الدين خليل، نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة (دمشق-بيروت: دار القلم، ١٩٨٠)، ص ٤٩-٥٠. يعتبر هذا الكتاب من أفضل ما كتب عن نور الدين محمود، حيث أعطى المؤلف من خلاله صورة متكاملة عن شخصيته وسياساته الإدارية والاجتماعية والقضائية والاقتصادية والثقافية.

- * ولا سلام نهائي حتى يسترجع المسلمون كل شبر من أراضيهم.
- * ولا بدّ من الإعداد المتكامل للأمة، حتى تكون على مستوى الجهاد، إيمانياً، وثقافياً، وتربوياً، واجتماعياً، وجهادياً، وعسكرياً.
- * ولا بدّ من توحيد الجهود تحت راية الإسلام في مواجهة العدو الصليبي.

معالم النهضة الإسلامية:

وفي سبيل ذلك قام نور الدين محمود بإحياء نهضة إسلامية أكدت على تكامل الحل الإسلامي، وقد تمّ التعبير عنها من خلال:

أ. القيادة الإسلامية الصادقة: تمثلت هذه القيادة في شخصه، وأشخاص من حوله من القادة، والمسؤولين، والعلماء. فقد كان للتكوين النفسي، والشخصية المميزة لنور الدين محمود أثرهما الكبير في وجود قيادة إسلامية واعية، جادة، ومجاهدة.

قال ابن الأثير: "طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين".^١ وكان ذكياً، ألمعياً، فطناً، لا تشبه عليه الأحوال، ولا يتبهرج عليه الرجال، ولم يتقدم لديه إلا ذوو الفضل، والقدرة على الإنجاز الأمين المسؤول للعمل، ولم ينظر في تقديمه للرجال إلى المكانة الاجتماعية أو للجنس والبلد.^٢

ب. التزام أحكام الإسلام وتطبيقها: حرص نور الدين على تطبيق

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٢٥.

٢ عماد الدين خليل، نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة، ص ٥٣.

أحكام الإسلام على الجميع، وكان قدوة في الالتزام بها، وطبقها على مسؤولي الدولة وقادتها. وكان يقول: "نحن نحفظ الطريق من لصٍّ وقاطع طريق... أفلا نحفظ الدين ونمنع ما يناقضه؟".^١ وكان أشهى شيء عنده كلمة حقّ يسمعها أو إرشاد إلى سنة يتبعها.^٢

ج. البناء الإيماني والتربوي والثقافي: في هذا المجال استقدم نور الدين العلماء العاملين، وأفسح لهم مجال العمل والدعوة، وسعى في بناء المدارس والمساجد، وأوقف عليها الأوقاف، وحارب البدع والأضاليل... فانتشر نور الإيمان والعلم بين الرعية، وأحيا سميت احترام العلماء وتوقيرهم. وعلى الرغم من أن الأمراء والقادة لم يكونوا يجروئون على الجلوس في مجلسه دون أمره وإذنه... إلا أنه كان إذا دخل عليه العالم الفقيه أو الرجل الصالح قام هو إليه وأجلسه، وأقبل عليه مُظهرًا كل احترام وتوقير.^٣ لقد كانت بلاد الشام خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرًا للعلماء، والفقهاء، والصوفية.^٤

د. الإعمار والبناء الحضاري والاجتماعي: عُرف نور الدين بشخصيته التي تهتم بأحوال المسلمين وتحيي معاني التكافل، والتعاون، والتضامن بينهم، ورفع عنهم معاناتهم، وأحوالهم الصعبة... فلقد عمل على كفالة الأيتام، وتزويج الأرمال، وإغناء الفقراء، وبناء المستشفيات، والملاجئ، ودور الأيتام، والأسواق، والحمامات، والطرق العامة، وتوطين البدو،

١ عماد الدين خليل، نور الدين محمود: الرجل.. والتجربة، ص ٨٦.

٢ المرجع نفسه، ص ٨٧.

٣ المرجع نفسه، ص ٣٥-٣٦.

٤ المرجع نفسه، ص ١٤٤.

واقطاعهم الأراضي حتى لا يؤذوا الحجاج. لقد ارتقى بالخدمات التي تُقدّم للمسلمين فأحبه الشعب، وأصبحت صلته بهم متينة وقوية.^١

هـ. البناء الاقتصادي: رتب نور الدين ديوان الزكاة في عهده ونظم جبايتها وتوزيعها وفق الأسس الشرعية، وشجع التجارة بتأمين طرق المواصلات، ورفع الضرائب التي تثقل حركة التجارة، وسعى في كل ما يقوّي الدولة، ويدعم بنيانها الاقتصادي.^٢

و. البناء الجهادي العسكري: سعى نور الدين في إحياء المعاني الجهادية في النفوس، وتربية الأمة على معانيها، وتكريس عزة المسلمين ومنعتهم وقوتهم، وبذل الجهد في توفير العدة والعتاد، واختيار القادة المناسبين، وحماية المدن، وبناء الأسوار والحفاظ على أرواح المسلمين. وتميز بحزمه وقوته في ذلك، وكان رده عنيفاً جداً على الأعداء إذا انتهكت حرّمات المسلمين.^٣

بهذا البناء المتكامل، والإعداد الجاد المتزن، دخل نور الدين مرحلة التغيير الجذري على الساحة السياسية؛ ليحقق أمرين سار بهما في اتجاهين متوازيين هما:

* تحقيق الوحدة الإسلامية وتعبئة قواها في بوتقة واحدة.

* تحطيم القوى الصليبية تدريجياً: بإضعاف هيبتها، وإنهاك قواها، والتحرير التدريجي لأرض المسلمين الواقعة تحت سيطرتها... وذلك بانتظار استكمال الوحدة الإسلامية لتحقيق نصر حاسم ونهائي.

١ المرجع نفسه، ص ٢٠-٢٤، و ١١١-١١٨.

٢ انظر: المرجع نفسه، ص ٩٣-١٢٦.

٣ انظر مثلاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٨٦-٨٧.

جهود الوحدة الإسلامية:

لقد حرص نور الدين على تحقيقها بقدر كبير من الصبر، والحكمة، والأناة، وحرص شديد على عدم إراقة دماء المسلمين، وقد حرص على استمالة القوى الإسلامية المتعددة في الشمال، وشمال العراق وكسب صداقتها، كما كان يكشف بطريقة عاقلة واعية حقيقة أولئك الزعماء والحكام، الذين يقفون حجر عثرة أمام الوحدة الإسلامية أمام رعيّتهم. وكان الناس يقارنون بين جهاده، وبين تخاذل حكامهم، وبين إصلاحاته وبين إفساد حكامهم، وبين ولائه لله سبحانه ولرسوله وللمؤمنين وبين ولاء حكامهم لمصالحهم وشهواتهم وللصليبيين!! فأخذ الناس يتمنون حكمه عليهم... ولذلك فقد وجد كل ترحيب شعبي عند انضمام أي من بلاد المسلمين إليه.

ضمّ نور الدين حمص إليه سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م، واستطاع نور الدين أن يفتح دمشق في صفر ٥٤٩هـ - ٢٥ نيسان / أبريل ١١٥٤م.^١

وتوالت سيطرة نور الدين على مدن وقلاع الشام حتى خضعت معظمها له، غير أنه كان يدرك أن السبيل الفعال لتحرير فلسطين، واقتلاع الحكم الصليبي منها لا يكون إلا بالسيطرة على مصر، ودخولها ضمن الجبهة الإسلامية المتحدة، ووضع الصليبيين بين فكي الكماشة.

وقد جاءت الفرصة لنور الدين بالسيطرة على مصر عندما استعان به حكام مصر الفاطميين على بعضهم، أو ضدّ الصليبيين، حيث تمت

١ ابن الأثير، المرجع نفسه، ج ٩، ص ٤٥-٤٦؛ وأبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ١، ص ٢٣٦.

السيطرة لنور الدين على مصر في الحملة الثالثة التي قادها أيضًا أسد الدين شيركوه في ربيع الأول ٥٦٤هـ، وتولى أسد الدين الوزارة في ١٧ ربيع الثاني ٥٦٤هـ - كانون الثاني/يناير ١١٦٩م، غير أن أسد الدين توفي بعد شهرين في ٢٢ من جمادى الثانية فتولى صلاح الدين يوسف الأيوبي الوزارة مكانه.^١

وبأمر من نور الدين أسقط صلاح الدين الخلافة الفاطمية، وتمت الخطبة للخليفة العباسي المستضيء في ثاني جمعة من محرم ٥٦٧هـ - ١٠ أيلول/سبتمبر ١١٧١م "فلم يتنطح في ذلك عنزان"، ومات الخليفة الفاطمي العاضد في ١٠ محرم من دون أن يعلم بذلك.^٢ وهكذا ضُمت مصر رسميًا للخلافة العباسية، وأصبحت تحت القيادة الفعلية لنور الدين.

وفي ٥٦٦هـ/١١٧٠م ضمّ نور الدين الموصل، والمناطق التي تتبعها إلى حكمه،^٣ كما ضمّ اليمن سنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م عندما أذن لصلاح الدين بفتحها فأرسل إليها أخاه توران شاه بن أيوب؛ حيث تمت له السيطرة عليها.^٤ وبذلك امتدت الجبهة الإسلامية المتحدة من العراق إلى الشام، فمصر واليمن، مما أُنذر بقرب القضاء على الصليبيين.

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٩٩-١٠٣؛ وأبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٣٨٩-٤٠٦؛ وحول ضمّ نور الدين لمصر انظر: فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٢٢٩-٢٤٤.

٢ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١١١؛ وأبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٢-٥٠٠.

٣ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٠٩-١١٠.

٤ المرجع نفسه، ج ٩، ص ١٢٣؛ وأبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٥٥١-٥٥٤.

تحطيم القوى الصليبية:

خلال فترة حكمه التي امتدت من ١١٤٦-١١٧٤ م لم تتوقف المعارك وحروب الجهاد بين نور الدين والصليبيين، وفي الوقت الذي كان يدعم فيه حكمه، ويوحد جهود المسلمين كان يقوم بالاستيلاء التدريجي على الممالك الصليبية، ويضعف قوتها يوماً بعد يوم وهو يعد للمعركة الفاصلة معهم، وخلال تلك الفترة استطاع نور الدين في جهاده الإسلامي استرجاع وتحرير نحو خمسين مدينة وقلعة، مما كان تحت سيطرة الصليبيين.

فمنذ بداية حكمه أحكم السيطرة على منطقة الرها وصفى الأملاك التي كانت تتبعها (تل باشر، سميساط، قلعة الروم، دلوك، الراوندان، قورس، مرعش، إعزاز، عينتاب، البيرة...) وذلك خلال الفترة الممتدة بين ١١٤٦-١١٥١ م. كما استعاد وحرر جميع الأراضي التي كانت تتبع إمارة أنطاكية شرقي نهر العاصي (١١٤٧-١١٤٩ م)؛ وقتل في إحدى معاركها (أنب ٢٩/٧/١١٤٩ م) أمير أنطاكية ريموند Raymond of Poitiers، وزعيم الباطنية المتعامل معهم ضد المسلمين علي بن وفا. وقام بدور أساسي في تحطيم الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧-١١٤٨ م) التي شارك فيها ملك فرنسا لويس السابع Louis VII، وإمبراطور ألمانيا كونراد الثالث Conrad III، والتي تعدّ نقطة تحول خطيرة في تاريخ الحروب الصليبية؛ حيث كُسرت هيبة الصليبيين، ورفعت الروح المعنوية لدى المسلمين.^١

واستمرت الحروب سجالاً، ووقعت العديد من المعارك المهمة، أدت

١ انظر بالتفصيل حول صراع نور الدين مع الصليبيين: فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ص ٢٠٧-٢٢٦.

إلى إضعاف النفوذ الصليبي وضمّ مناطق جديدة لنور الدين على حساب الصليبيين... حتى أحكم نور الدين إحاطة مملكة بيت المقدس الصليبية. ولا يتسع المجال لذكر المعارك والوقائع كلها.

وفي ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م كان نور الدين قد أعد عدته للهجوم النهائي على بيت المقدس، وتحرير أرض الإسراء من النفوذ الصليبي، حتى إنه قد جهّز منبراً جديداً رائعاً للمسجد الأقصى يوضع فيه بعد الانتصار على الصليبيين بإذن الله. وراسل في ذلك عامله على مصر صلاح الدين الذي تلقى بسبب الظروف الخاصة التي تواجهه في مصر، والتي يرى أنها تحتاج إلى صبر، وأناة، وإعداد. ولم يرض نور الدين بذلك التأخر، فقرر الذهاب إلى مصر، وترتيب أمورها بنفسه إلا أن المنية عاجلته، فتوفي رحمه الله في ١١ شوال ٥٧٠هـ - ١٥/٥/ ١١٧٤م.^١

وهكذا انطوت صفحة رائعة من صفحات الجهاد أيام الحروب الصليبية إلا أن الصفحة التي تلتها كانت مشرقة ومؤثرة في مسار التاريخ، تلك هي صفحة صلاح الدين الأيوبي.

٦. جهاد صلاح الدين الأيوبي ٥٦٩-٥٨٩هـ:

رفع الراية، بعد نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، وقد سار على خطى سلفه نور الدين، فقد ترسّم المنهج الإسلامي والحل الإسلامي في تحطيم القوى الصليبية وتحرير الأرض المقدسة.

جاء صلاح الدين ووجد نور الدين قد هيأ الظروف المناسبة لاسترداد

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٢٤؛ وأبو شامة المقدسي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ق ٢، ص ٥٧٧-٥٨٢.

الأرض المقدسة، فاستغلها أحسن استغلال وقطف ثمارها اليانعة بعد سنوات من حكمه. ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م بقلعة تكريت، وكان أبوه والياً عليها، دخل هو وأبوه وعمه في خدمة نور الدين محمود، وشارك عمه أسد الدين شيركوه في حملاته الثلاث على مصر، وتولى الوزارة في مصر وعمره ٣٢ سنة.

يُوصف صلاح الدين بأنه كان حسن العقيدة، كثير الذكر، شديد المواظبة على صلاة الجماعة، ويواظب على السنة والنوافل، ويقوم الليل. وكان صلاح الدين عادلاً رؤوفاً، رحيماً ناصراً للضعيف على القوي، وكان كريماً، طاهر السمع، طاهر اللسان، طاهر القلم، فما كتب إيذاء لمسلم قط. وكان شجاعاً شديد البأس والمواظبة على الجهاد، عالي الهمة، قال يوماً وهو قرب عكا "في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية السواحل قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت". ومات صلاح الدين ولم يكن لديه من الأموال ما تجب فيه الزكاة، واستنفذت صدقة النفل جميع ما ملكه، ولم يخلف في خزائنه من الفضة والذهب إلا ٤٧ درهماً ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً، ولا داراً، ولا عقاراً، ولا مزرعة... عزم على الحج في السنة التي توفي فيها، ولكنه تعوَّق بسبب ضيق ذات اليد وضيق الوقت.^١

١ حول صفات صلاح الدين وأخلاقه، انظر: بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (مصر: شركة طبع الكتب العربية، ١٣١٧هـ)، ص ٤-٢٨؛ ومحمود شيت خطاب، بين العقيدة والقيادة، ص ٢٨٢، و٣٠٧-٣١٤؛ وفريد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ج ٢، ص ١٣-٢٥.

لما مات نور الدين ببيع لابنه من بعده بالملك، وهو الصالح إسماعيل، وكان صغيراً في الـ ١١ من عمره، وجُعل أتابكه شمس الدين بن المقدم... "فاختلف الأمراء وحارت الآراء، وظهرت الشرور"،^١ وكان كل ما سبق سبباً في غضب صلاح الدين على الأمراء المتحكمين في الملك الصالح.^٢ وهكذا فتحت أنظمة الحكم الوراثي، وانعدام المؤسسات "الدستورية" الشورية، والتنازع على السلطة وحبّ الرئاسة...، المجال أمام مرحلة جديدة من الصراع والخلاف بين المسلمين أخرجت المعركة الفاصلة التي كان يُعد لها نور الدين، واضطرت صلاح الدين أن يخوض معركة الوحدة من جديد، ولم يتم له ذلك إلا بعد أكثر من ١٢ سنة.

استمرار الجهاد:

لم تخلُ هذه المرحلة (٥٦٩-٥٨٢هـ / ١١٧٤-١١٨٦م) من معارك عنيفة مع الصليبيين أسهمت في المحافظة على هيبة المسلمين،^٣ والتعرف على إمكانات العدو ونقاط ضعفه، واستدراك جوانب النقص عند المسلمين، وعدم إعطاء العدو فرصة للتقوي والتمدد والانتشار، إلا أن صلاح الدين لم يدخل في معركة فاصلة مع الصليبيين.

ونمرّ هنا على أهم الوقائع مع الصليبيين في تلك الفترة، ففي ٥٧٠هـ هزم المسلمون الأسطول الصليبي القادم من صقلية، الذي هاجم الإسكندرية

١ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٨٥.

٢ المرجع نفسه، ج ١٢، ص ٢٨٥-٢٨٦؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٢٧.

٣ انظر حول جهاد صلاح الدين للصليبيين في تلك الفترة: فايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٤٧-١١٣.

بـ ٥٠ ألف رجل، هزيمة كبيرة.^١ وفي ٥٧٣هـ هاجم صلاح الدين الفرنج من جهة مصر حتى وصل عسقلان وفتحها وأسر وقتل وأحرق،^٢ وهزم الفرنج في العام التالي عند حماة.^٣ وفي ٥٧٥هـ أغار صلاح الدين على مناطق سيطرة الفرنج، وخرّب الحصن الذي أقاموه بمخاضة الأحزان قرب بانياس، ووقعت معركة شديدة انتصر فيها المسلمون.^٤

وفي ٥٧٨هـ قام صلاح الدين بغارات على أطراف مناطق سيطرة الفرنج مُركّزًا على الشوبك والكرّك، وفتح المسلمون الشقيف من أعمال طبرية على يد فرخشاه (والي دمشق)، واقتحم فرخشاه بيسان وغنم ما فيها، وسارت العرب فأغارت على جنين واللجون حتى قاربوا عكا.^٥ وفي السنة نفسها هزم صلاح الدين الأسطول الذي سيّره أرناط (رينالد دي شاتيون) Renaud de Châtillon حاكم الكرك في البحر الأحمر للتخريب في سواحل المسلمين ومهاجمة مكة والمدينة.^٦

وفي ٥٧٩هـ عبر صلاح الدين نهر الأردن في ١٩ جمادى الآخرة، وهاجم بيسان. كما غزا نابلس ٥٨٠هـ، وسار إلى سبسطية فاستنقذ جماعة من أسرى المسلمين، ووصل إلى جنين فاقتحمها.^٧

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٢٩-١٣٠.

٢ المرجع نفسه، ص ١٤١-١٤٣؛ وسعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٥٩٦.

٣ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٤٢-١٤٥.

٤ المرجع نفسه، ج ٩، ص ١٤٧.

٥ المرجع نفسه، ج ٩، ص ١٥٥-١٥٦.

٦ المرجع نفسه، ج ٩، ص ١٦٠.

٧ المرجع نفسه، ج ٩، ص ١٦٤-١٦٦.

وفي ٥٨٢ هـ غدر صاحب الكرك أرناط بقافلة عظيمة للمسلمين فأخذها عن آخرها وغنمها، ولم يستجب لطلب صلاح الدين ووعيده بإطلاقها، فأقسم صلاح الدين ليقتلنه إن ظفر به.^١

وهكذا دخلت سنة ٥٨٣ هـ وقد نضجت ظروف الإعداد للمعركة الفاصلة من توحيد لقوى المسلمين، ومن كسر لهيبة الصليبيين، وخبرة أوسع في فنّ التعامل معهم، وبهذا دخل صلاح الدين معركة حطين. وقبل الإشارة إلى معركة حطين نقف قليلاً عند استراتيجية العمل لدى صلاح الدين.

استراتيجية العمل والإعداد لدى صلاح الدين:

أ. الانطلاق من قاعدة قوية ومأمونة: تمثل ذلك في إعادة الوحدة وتقويتها، وبناء الإنسان المسلم المقاتل، وبناء الاقتصاد الحربي.

ب. بناء المجتمع للحرب: وفي هذا حرص على إشاعة العدل، وإزالة الأحقاد بين إمارات المسلمين، وتوجيه العداء ضدّ الصليبيين، كما أقام الصناعات الحربية من دور صناعة سفن، وتنظيم الحصون وحمايتها، وتجهيزات الحصار....

ج. وضوح الهدف: الذي تمثل بقيادة الأمة الإسلامية لطرد الصليبيين، فكانت الأولوية للتحرير، وحُددت السياسات على هذا الأساس.

د. الحرص على المسلمين: فهو "يحرص على المسلمين لتحقيق هدف الحرب، ويحرص على الحرب للمحافظة على المسلمين"، وقد اعتاد على ردّ العدوان بأقوى منه حفاظاً على الروح المعنوية، وتبني

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٧٤.

الاستعداد القتالي المستمر، وحدد لكل عملية أساليبها المناسبة.^١

بالإضافة إلى هذه الاستراتيجيات الأساسية فقد تبنى صلاح الدين في معاركه استراتيجية الهجوم غير المباشر؛ مثل القيام بمسيرات طويلة وهجمات مباغته، والهجوم على جهة لتخفيف الضغط عن جهة أخرى. واستراتيجية الحرب التشتيتية؛ كتشتيت الجيش المعادي داخل المعركة (فصل الفرسان عن المشاة مثلاً) واستغلال النزاعات السياسية، وضرب فريق بآخر وتحييد الأعداء. واستراتيجية الهجمات الوقائية التي تضعف قدرة العدو القتالية قبل هجومه أو استكمال استعداده.^٢

وحقق صلاح الدين في حروبه المبادئ الأساسية للحرب بكفاءة كبيرة مثل:

- * مبدأ المباغته.
- * مبدأ أمن العمل: بما تمثل له من شبكة أمنية جاسوسية قوية، ودقيقة.
- * مبدأ القدرة الحركية: بما تعنيه من سرعة تحرك الجيش، وتجمعه، وانتقاله.
- * مبدأ المبادأة والقوة الهجومية: الذي تمثل بتحويل الروح الدفاعية إلى هجومية.
- * مبدأ الاقتصاد القوي: فكل معركة ما يناسبها.
- * مبدأ المحافظة على الهدف: فكان يهتم بتدمير القوى البشرية للصليبيين

١ انظر: بسام العسلي، صلاح الدين الأيوبي (بيروت: دار النفائس، ١٩٨٣)، ص ٩٩-١٠٦.

٢ المرجع نفسه، ص ١٠٧-١٠٩.

بالدرجة الأولى، وحرمانهم من مواردهم الاقتصادية وتحويلهم إلى عبء على الغرب، وتحرير الأرض من الداخل تجاه الساحل.

وبالنسبة للجيش الإسلامي فإن صلاح الدين رسخ الاستعداد الدائم للقتال، ورفع الروح الإيمانية والجهادية في النفوس، كما نمى الكفاءة البدنية الجسدية، وأكد على الانضباط وكمال الطاعة (في غير معصية).^١

معركة حطين:

جهز صلاح الدين جيشه للمعركة الفاصلة وكانوا ١٢ ألف مقاتل نظامي سوى المتطوعة، وجهز الفرنج أنفسهم وتصالخوا، وتجمعت ملوكهم وجيوشهم، وكونوا جيشاً من نحو ٦٣ ألف مقاتل.

اجتاز صلاح الدين نهر الأردن، وفتح طبرية بدون قلعته، وبدأت المناوشات يوم الجمعة إلا أن المعركة احتدمت يوم السبت في ٢٤ ربيع الآخر ٥٨٣هـ - ٤ تموز/ يوليو ١١٨٧م، وعانى الفرنج من الحر والعطش، وحاصروهم المسلمون، وأحرقوا الحشائش الجافة من حولهم ومن تحتهم، "فاجتمع عليهم حرّ الشمس، وحرّ العطش، وحرّ النار، وحرّ السلاح، وحرّ رشق النبال"، ثم أمر السلطان بالتكبير وبالحملة الصادقة، فمنح الله المسلمين أكتاف الفرنج فقتلوا منهم ٣٠ ألفاً، وأسروا ٣٠ ألفاً، وكان فيمن أسر جميع ملوكهم سوى أمير طرابلس، "ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عزّ الإسلام وأهله، ودفع الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج، قد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيراً

١ بسام العسلي، صلاح الدين الأيوبي، ص ١١٢-١١٥.

بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يُسمع بمثلها إلا في زمن الصحابة والتابعين".^١

ووقع في الأسر الملك غي دي لوزينيان Guy de Lusignan ملك بيت المقدس وأخوه، وأرناط حاكم الكرك الذي قتله صلاح الدين بيده برًا يمينه لغدره وإيذائه المسلمين، وأسروا صاحب جبيل وابن همفري Humphrey، ومقدم الداوية، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية وقد أعدم المسلمون الداوية والاسبتارية لشدة نكايتهم في المسلمين.^٢

هذه هي وقعة حطين، وهي إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي وتاريخ فلسطين، بات المسلمون ليلتها يكثرون من التكبير والتهليل، وانتهت بسجود صلاح الدين شكرًا لله مع سقوط خيمة ملك الفرنج وأسرته.^٣

وبعد هذه المعركة فُتحت الطريق أمام المسلمين لتحرير معظم أرجاء فلسطين، فخلال أيام قليلة تم فتح طبرية ثم عكا (١٠ تموز/ يوليو) ثم الناصرة وصفورية، ثم قيسارية وحيفا وأرسوف، ثم نابلس، ثم الفولة، ودبورية، وجنين، وزعين، والطور، واللجون، وبيسان، وجميع ما يتبع

١ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢٠-٣٢١؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٧٨.

٢ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢١؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٧٨.

٣ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٧٨؛ وحول معركة حطين، انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٧٦-٨٣؛ وسعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٣٢-٦٣٨؛ وابن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ٦٠-٦٤.

طبرية وعكا، وتم فتح يافا. ثم اتجه المسلمون شمالاً ففتحوا حصن تبنين، ثم صيدا (٢٩ تموز/ يوليو)، ثم بيروت (٦ آب/ أغسطس)، وجبيل. ثم اتجهوا جنوباً لاستكمال فتوح فلسطين، ففتحوا الرملة، وبينه، وبيت لحم، والخليل، ثم عسقلان (٤ أيلول/ سبتمبر)، وغزة والداروم، وأقام صلاح الدين بعسقلان حتى تسلم حصون الداوية في غزة والنطرون، وبيت جبريل... وغيرها.^١ وقد تم ذلك كله لصلاح الدين في شهرين تقريباً، وبعضها كان يحتاج إلى سنين من الحصار لاقتحامه، وكان جملة ما فتح "خمسين بلداً كباراً كل بلد له مقاتلة وقلعة ومنعة".^٢

تحرير بيت المقدس:

تطلعت الأنظار إلى القدس فأعد صلاح الدين عدته، وبدأ حصارها في منتصف رجب ٥٨٣هـ - ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١١٨٧م، وكان داخل القدس نحو ٦٠ ألف مقاتل صليبي كلهم يرى الموت أهون عليه من تسليمها. وخلال أيام حصارها جرت صدامات عديدة، وحاول المسلمون اقتحامها، واقتتلوا "أشد قتال رآه الناس، وكل واحد من الفريقين يرى ذلك ديناً حتماً واجباً، فلا يحتاج فيه إلا باعث سلطاني".^٣ وطلب الفرنج الأمان مقابل تسليم المدينة، وشاور صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على الإشارة بالأمان، فأمنهم وتم للمسلمين فتح القدس في ٢٧ رجب ٥٨٣هـ -

١ انظر: العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٨٨-١١٤؛ وابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٧٢-١٨٢؛ وسعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٣٧-٦٤٣.

٢ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢٢.

٣ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٨٢.

٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١١٨٧م، وظهر من تسامح ورحمة صلاح الدين الكثير، مما اعترف به الصليبيون أنفسهم.^١

وهكذا عادت بيت المقدس لتحكم براية الإسلام بعد ٩١ سنة هجرية (٨٨ سنة ميلادية) وأعيد للمسجد الأقصى بهاؤه ونضارته، وعاد صوت الأذان يصدح في جنباته، وتمّ إحضار المنبر الذي أعده نور الدين للمسجد الأقصى قبل فتحها بعشرين سنة.^٢ ومن المهم الإشارة إلى أن صلاح الدين تابع فتح الكثير من المدن والقلاع الواقعة تحت الاحتلال الصليبي شرقي الأردن وفلسطين ولبنان.

وهكذا عادت أرض فلسطين لتحكم تحت راية الإسلام من جديد. ولكن ربيع الانتصارات لم يدم طويلاً فانفتحت صفحة جديدة من الصراع والتحدي.

متابعة الجهاد ضدّ الصليبيين:

تجمّع الصليبيون الذين سقطت مدنهم وقلاعهم في صور.^٣ وهاجم الصليبيون من صور مدينة عكا ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م، وانتظروا هناك حتى جاءتهم إمدادات الحملة الصليبية الثالثة التي دعا إليها البابا جريجوري الثامن لاستعادة بيت المقدس يقودها ثلاثة من ملوك أوروبا، امبراطور ألمانيا فريدريك الأول بربروسا Frederick I Barbarossa الذي مات وهلك أكثر

١ انظر: المرجع نفسه، ج ٩، ص ١٨٣؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٢٣-

٣٢٤؛ وسعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٦٤٤-٦٥٠.

٢ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ١٨٥.

٣ المرجع نفسه، ج ٩، ص ١٩٧.

جيشه في الطريق،^١ وريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا Richard the Lionheart، وملك فرنسا فيليب أغسطس Philip Augustus. وحاصرت جميع الجيوش عكا (ربيع الثاني - جمادى الأولى ٥٨٧هـ أي حزيران/ يونيو ١١٩١م) وسقطت بأيدي الفرنج في ١٧ جمادى الأولى ٥٨٧هـ - ١٢ تموز/ يوليو ١١٩١م. وبهذا عاد الصليبيون ليكون لهم موطئ قدم جديد في فلسطين. وتداول المسلمون والفرنج الصراع، ونال كل طرف من الآخر، واستطاع الفرنج التمدد على الساحل إلى الجنوب فاحتلوا حيفا ويافا.^٢

ومن المهم الإشارة إلى أن الصراع كان دموياً مريعاً، فقد أشار ابن كثير إلى أن صلاح الدين أقام على عكا صابراً مصابراً مرابطاً ٣٧ شهراً، وأن جملة من قتل من الفرنج كان خمسين ألفاً.^٣

وانتهت الحملة الصليبية الثالثة بعقد صلح الرملة بين ريتشارد قلب الأسد، وصلاح الدين الأيوبي في ٢١ شعبان ٥٨٨هـ - ١ أيلول/ سبتمبر ١١٩٢م، وهو عبارة عن هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر، سيطر الفرنج بمقتضاها على الساحل من يافا إلى عكا، وسمح لهم بزيارة القدس.^٤ على أنه من المهم الإشارة هنا إلى أنه لم يتم في هذه الهدنة أي اعتراف للفرنج بأي حق لهم على أرض فلسطين، وإنما تقرر عدم القتال على ما انتزعه من أرض إلى أن تنتهي الهدنة.

١ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٩، ص ٢٠٧.

٢ انظر: المرجع نفسه، ج ٩، ص ٢١٤-٢١٥.

٣ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٤٥.

٤ العماد الأصفهاني، الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٦٠٥؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٣٥٠.

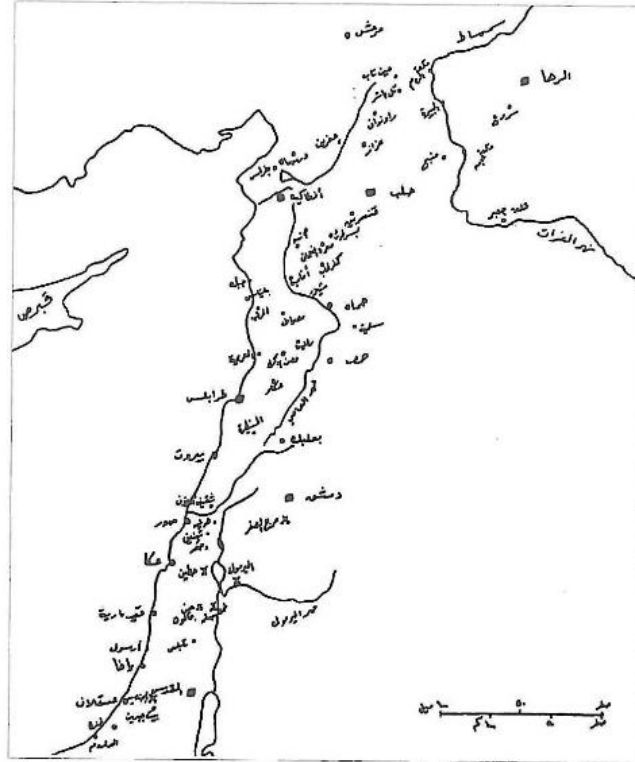
وعلى كل حال فإن الأمر لم يطل بصلاح الدين فتوفي رحمه الله في ٢٧ صفر ٥٨٩هـ - ٤ آذار/ مارس ١١٩٣م،^١ أي بعد ستة أشهر فقط من توقيع صلح الرملة.

الأيوبيون والصراع مع الصليبيين:

دبّ النزاع والشقاق بين خلفاء صلاح الدين، ودخلوا بعد سنوات من وفاته في صراعات دموية أضعفتهم، وقويت شوكة المملكة الصليبية في عكا التي كان يأتيها الدعم المتواصل من أوروبا، والتي استمرت وتمددت في بعض الأحيان على حساب المسلمين. فقد تابع الصليبيون حملاتهم وتمكنوا من السيطرة على شريط ساحلي بين يافا وصور، كما سيطروا مرة أخرى على القدس (بسبب الصراعات الداخلية في الدولة الأيوبية) معظم الفترة بين ٦٢٦-٦٤٢هـ أي ١٢٢٩-١٢٤٤م إلى أن عادت نهائياً إلى حظيرة الإسلام، عندما استعان الصالح نجم الدين أيوب بالخوارزمية الذين جاءوا لمساعدته في قوة من عشرة آلاف مقاتل، قامت في طريقها إليه بتحرير طبرية ونابلس، واستعادت بيت المقدس بشكل كامل إلى حظيرة الإسلام في ٦٤٢هـ - ٢٣ آب/ أغسطس ١٢٤٤م؛^٢ حيث عادت نهائياً إلى أيدي المسلمين، وظلت تحتفظ بهويتها الإسلامية حتى دخلها الإنجليز في ٩/١٢/١٩١٧م. واستمرت كذلك حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين سنة ١٩١٧م.

١ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣.

٢ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ١، ص ٢٥٠، وج ٣، ص ٤٤٧؛ وسعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٢٥-٨٢٦؛ وفايد عاشور، جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، ج ٢، ص ٣٥٤-٣٥٥.



أهم المدن ومواقع المعارك في بلاد الشام

خامساً: المماليك في مواجهة التتار

تمهيد:

في القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي ظهر الخطر المغولي (الترتي) على بلاد المسلمين. وكان المغول قد توحدت قبائلهم تحت قيادة جنكيز خان Genghis Khan، وبدأوا حملة كبرى للتوسع، فسيطروا على منشوريا والصين وكوريا، واستطاعوا تحطيم جيش الدولة الخوارزمية المسلمة ١٢٢١م، الذي كان سداً منيعاً أمام توسعهم تجاه العالم الإسلامي، والذي كان قد حقق عليهم عدداً من الانتصارات المهمة.

وقد توفي جنكيز خان سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م، ولكن المغول واصلوا زحفهم فاقتحموا آسيا الوسطى، وروسيا، وسيطروا على موسكو، كما سيطروا على أوكرانيا، وهاجموا بولندا، وهزموا الجيوش الألمانية، واجتاحوا المجر بعد أن سحقوا جيشها، وتوغلوا في أوروبا، كما أخذوا يتوغلون في العالم الإسلامي، فاستكملوا سيطرتهم على مناطق التركستان وأفغانستان والهند وفارس...^١

وقد استثمر المغول، إلى أقصى حدّ، حرب الصاعقة التي تعتمد على سرعة الحركة، وكانوا يدمرون الممالك التي أمامهم تدميرًا، دون شفقة أو رحمة وبشراسة رهيبة، أرعبت العالم من قوتهم وسطوتهم، فصاروا ينتصرون لا بكفاءتهم وقوتهم فحسب، وإنما بالحرب النفسية والرعب الذي بثوه في نفوس الناس... حتى انتشر المثل القائل "من قال لك إن التتار قد هزموا فلا تصدقه!!"

ثم اجتاحت المغول العراق، وسقطت بغداد في ٩ صفر ٦٥٦هـ - ١٠ شباط/ فبراير ١٢٥٨م، وقام المغول بمذبحة هائلة استمرت أربعين يومًا، وذكر ابن كثير أن عدد الضحايا بلغ ٨٠٠ ألف، وقيل مليونان.^٢

وقام المغول باجتياح الشام بسرعة، ووصلوا إلى دمشق فسيطروا عليها بعد إعطاء الأمان لأهلها أول آذار/ مارس ١٢٦٠م ثم غدروا بهم، وخلال

١ انظر: السيد الباز العريني، المماليك (بيروت: دار النهضة العربية، دون تاريخ)، ص ٤٠-٤٣.

٢ حول استيلاء المغول على بغداد، انظر: رشيد الدين فضل الله الهمذاني، جامع التواريخ، المجلد الثاني، ج ١، نقله للعربية محمد صادق نشأت ومحمد موسى الهنداوي وفؤاد عبد المعطي الصياد (الجمهورية العربية المتحدة: وزارة الثقافة - دار إحياء الكتب العربية، د. ت.)، ص ٢٨١-٢٩٥؛ وسعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٨٦-٨٨٧.

فصل الربيع احتلوا نابلس والكرك، وتقدموا إلى غزة دون مقاومة تذكر.^١ وهكذا تقاسم النفوذ في فلسطين مملكة عكا الصليبية والمغول التتار، وعادت فلسطين لتئن من جديد تحت سناك خيل الكفار.

١. الصليبيون والتتار:

فرحت أوروبا بالهجوم التتري على بلاد الإسلام، وعملت على التنسيق معهم بغية ضرب "العدو المشترك"، كما هدفوا إلى نشر المسيحية بين التتار أنفسهم، وقد نجحوا في بداية الأمر جزئياً في ذلك؛ إذ اشتهر القائد التتري الذي اجتاحت بلاد الإسلام هولاًكو بميله للمسيحيين النسطوريين، وكانت حاشيته تضم عدداً كبيراً منهم، وكانت زوجته مسيحية أيضاً، كما تنصّر القائد التتري كتبغا. وقد بادر هاتون الأول Hutton 1 ملك أرمينية، وبوهيموند السادس Bohemond VI أمير طرابلس، وأمراء الفرنج في صور، وعكا، وقبرص إلى عقد حلف مع المغول التتار يقوم على أساس القضاء على المسلمين في آسيا، وتسليم الفرنج بيت المقدس.^٢

وفي تلك الفترة تولى السلطة في مصر - التي أخذ المماليك يحكمونها - السلطان المظفر قطز محمود بن ممدود ١٧ ذو القعدة ٦٥٧هـ - كانون الأول/ديسمبر ١٢٥٩م، وقد عرف قطز بتقواه، وصلاحه، وارتباطه العميق بالإسلام، وكان تلميذاً لأعظم العلماء في ذلك العصر العز بن عبد السلام. وعلى حدّ تعبير ابن كثير فقد كان قطز شجاعاً بطلاً، كثير الخير ناصحاً للإسلام

١ حول اجتياح المغول للشام، انظر: الهمذاني، جامع التواريخ، المجلد الثاني، ج ١، ص

٣٠٥-٣٠٩؛ وسعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٨٦-٨٨٧.

٢ انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٦٨-٨٧٢، و٨٨١.

وأهله، وكان الناس يحبونه، ويدعون له كثيرًا.^١

ولم يكد يمرّ عليه في الحكم سوى بضعة أشهر حتى واجه مشكلة الاجتياح التتري، وتلقى رسالة تهديد عنيفة من هولاكو، قبل مغادرته سورية، تطلب منه الاستسلام.^٢ ولكن قطز، القائد المسلم الذي لا يخشى إلا الله، قرر المواجهة. وقرر أن يبادر هو بالهجوم والزحف على قوات التتار رفعًا للروح المعنوية للمسلمين، وتأكيدًا على روح الجهاد الساعية إلى الشهادة في سبيل الله، وحفظًا لأرض الإسلام في مصر، وتحريرًا لأرض الإسلام في بلاد الشام، ومن ضمنها أرض فلسطين والمسجد الأقصى المبارك، وتخويفًا للتتار بأنه نوع جديد من الرجال لم يواجهوه من قبل، ولأن أنجح وسائل الدفاع الهجوم.

وفي شعبان ٦٥٨هـ - ٢٦ تموز/ يوليو ١٢٦٠م اجتاز الجيش المسلم بقيادة قطز الحدود، وحرر غزة؛ حيث أقام بها يومًا واحدًا، ثم اتجه شمالًا باتجاه قوات التتار؛ حيث التقت القوتان الإسلامية والتترية عند "عين جالوت" شمال شرقي فلسطين.

٢. معركة عين جالوت:

ونشبت إحدى أكبر المعارك الحاسمة في التاريخ هناك وهي معركة عين جالوت، يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨هـ - ٣ أيلول/ سبتمبر ١٢٦٠م وفي هذه المعركة توفرت للتتار عناصر النصر "علميًا ومنطقيًا" إذ تفوق التتار

١ ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٢٥.

٢ سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٩٩؛ وخطاب، بين العقيدة والقيادة، ص ٣٣٣-٣٣٤.

على الجيش الإسلامي في عناصر:

* الكفاءة والخبرة الواسعة نتيجة الحروب الكثيرة التي خاضوها "قيادة وجنوداً".

* المعنويات العالية جداً لأنهم لم يهزموا من قبل .

* التفوق الكبير في العدة، والعتاد، والأعداد.

* الكفاءة العالية ل سلاح الفرسان الذي تميز بكثرته، وسرعة حركته، وقدرته على تطبيق (حرب الصاعقة) التي كانت إحدى السمات البارزة للنتار.

* التفوق الإداري فله قواعد قريبة وطرق من مواقع الجيش المسلم.

* مواضع التتار في المعركة كانت أفضل من مواقع الجيش المسلم.

وعلى الرغم من التفوق التتري الساحق، إلا أن النصر الساحق كان للمسلمين.

لقد تميّز جيش قطز بأنه "جيش إسلامي" قام لنصرة الإسلام، والدفاع عن أراضي المقدسة، وشارك في هذا الجيش شيوخ مصر وعلماءها وصالحوها، وانتشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الجيش، فخرج من مصر تائباً منيباً طاهراً ينبغي نصر دين الله، والتمكين له في الأرض، كما تميّز الجيش الإسلامي بقيادة مؤمنة تتحلى "بإرادة القتال" بأقوى مظاهرها، وهي من أهم عوامل النصر في أي معركة.^١

طلب قطز من الجيش الانتظار لما بعد صلاة الجمعة "لا تقاتلوهم حتى

١ انظر: خطاب، بين العقيدة والقيادة، ص ٣٤٥-٣٤٦.

تزول الشمس، وتفيء الظلال، وتهب الرياح، ويدعو لنا الخطباء والناس في صلاتهم "...، وهكذا بدأ القتال.

وفي أثناء المعركة قتلت زوجة قطز "جلنار" وهي تجاهد، فأقبل عليها قطز وهي في الرمق الأخير وهو يقول: واحبيبتاه، فقالت له: لا تقل واحبيبتاه، ولكن قل وا إسلاماه، ثم صعدت روحها إلى الله بعد أن ذكرته بأن أمر الإسلام والجهاد في سبيل الله أهم من الحب والعلاقات الشخصية...، وقام قطز منتفضاً وهو يردد وا إسلاماه... وا إسلاماه والجيش يرددها حتى تمّ النصر.

وبدأ المسلمون فوراً في مطاردة المغول، ودخل قطز دمشق بعد خمسة أيام من عين جالوت، وامتدت المطاردة إلى حلب، فلما شعر المغول باقتراب المسلمين تركوا ما بأيديهم من أسرى المسلمين... وقاسوا من البلاء الكثير، وخلال شهر واحد كان المسلمون بقيادة المماليك قد استعادوا بلاد الشام من المغول والتتار.^١

وتعدّ هذه المعركة من المعارك الحاسمة في التاريخ؛ إذ إنها أوقفت الزحف التتري الذي لم يكن يقف أمامه شيء، وكانت بداية لسلسلة من الهزائم المتوالية أعادت المغول إلى قواعدهم، وحررت بلاد الإسلام منهم. ثم إن من استقر من المغول في بلاد الإسلام تحول إلى الإسلام، فدخلوا في دين الله أفواجا، فكان ذلك نصراً جديداً للمسلمين.

١ حول معركة عين جالوت، انظر: الهمداني، جامع التواريخ، المجلد الثاني، ج ١، ص ٣١٠-٣١٦؛ وسعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٨٩٩-٩٠١؛ وسعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٠)، ص ١٩٥-١٩٩؛ وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٢٠-٢٢١.

٣. المماليك والقضاء على الصليبيين:

على الرغم من انحسار المد المغولي التتري عن فلسطين، وانتصار المسلمين في عين جالوت، إلا أن مملكة عكا الصليبية ظلّت تحتفظ بسيطرتها على المنطقة الساحلية الممتدة من يافا إلى عكا. وقد تولى سلاطين المماليك مهمة تحرير باقي أرض الإسرائء، وبلاد الشام، حتى جلا آخر الصليبيين عنها بعد أكثر من ثلاثين عامًا من معركة عين جالوت.

وكان الظاهر بيبرس قد تولى خلافة السلطان قطز الذي لم يدم حكمه أكثر من سنة، وقام بدور كبير في محاربة الفرنج في بلاد الشام وتطهيرها منهم. فخرج مثلاً إلى فلسطين ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م فاستولى على قيسارية المحصنة، وهدم أسوارها، وهاجم قسماً من جيشه عكا، وضرب حيفا، ثم سقطت أرسوف في يده في السنة نفسها. وفي السنة التالية خرج إلى فلسطين مرة أخرى، وحاصر صفد وفتحها، وهدم أسوارها. وكان يتبع سياسة مهادنة بعض الصليبيين دون الآخر، حتى لا تتجمع قواهم في وجهه. وقد مكنته هذه السياسة من تحرير أنطاكية سنة ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م. ويعد استيلاؤه عليها أكبر نصر حققه المسلمون على الفرنجة في الشام منذ تحرير صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ / ١١٨٧م.

تابع السلطان المنصور سيف الدين قلاوون المسيرة، وبدأ قلاوون يشدّد الخناق على الفرنج، فاحتل حصن المرقب ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م، واستولى على اللاذقية ٦٨٦هـ / ١٢٨٧م، وعلى طرابلس ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م. وجد قلاوون أن الوقت قد حان لتصفية الوجود الصليبي في فلسطين، فانتهاز حادثة مهاجمة الفرنج في عكا تجار المسلمين وقتلهم عدداً منهم، فأعلن الجهاد، وطلب القوات من جميع أنحاء مصر والشام، وأقام خارج

القاهرة ينتظر وصول الإمدادات، ولكنه مرض فجأة وتوفي في ذي القعدة ٦٨٩هـ - ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٢٩٠م، فخلفه ابنه الأشرف صلاح الدين خليل، الذي سار إلى عكا وحاصرها بمساعدة القوات الشامية، وتمكّن من تحريرها في ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠هـ - ١٨ أيار/ مايو ١٢٩١م بعد أن هرب ملكها هنري الثاني Henry II إلى قبرص. وبعد فتح عكا استولى الأشرف خليل على صيدا، وصور، وحيفا، وعطيت، وأمر بهدم تحصيناتها جميعاً. وهكذا سقطت آخر المعاقل الصليبية في الشرق العربي في أيدي المماليك، وانتهى وجود الفرنجة في فلسطين والشام بعد قرنين من الزمان (٤٩٢-٦٩٠هـ أي ١٠٩٩-١٢٩١م).^١

وبذلك عادت فلسطين كاملة إلى حظيرة الحكم الإسلامي الذي استمر حتى الاحتلال البريطاني لفلسطين.

٤. دروس من التجربة:

لعل الدارس لتاريخ الحروب الصليبية، ومواجهة التتار، والجهود التي بذلت لتحرير الأرض المباركة يخرج بالنقاط البارزة التالية:

* إن الراية التي رفعت لتحرير فلسطين هي الراية الإسلامية، ولم تكن راية قومية أو علمانية أو إقليمية.

* إن الجهاد في سبيل الله هو الطريق الذي عادت عن طريقه فلسطين إلى الحكم الإسلامي.

١ الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٤٤٧-٤٤٨. ولمزيد من التفصيل انظر: سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٩٠٥-٩٣٦؛ وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢١٠-٢٣٤.

* إن أبرز رموز الجهاد والقادة الذين حُررت الأرض المباركة على أيديهم (عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين الأيوبي، قطز، بيبرس، قلاوون وابنه...) تبناوا الإسلام فكرًا، ومنهجًا، ووسيلةً للتحشيد والتعبئة ضدّ العدو الغاصب. وكانوا بشكل عام على التزام تام بالإسلام وأحكامه، وعلى سلامة العقيدة، وحسن الصلة بالله.

* إن القادة، والأمراء، والجنود، والمتطوعة، والعلماء الذين شاركوا في الجهاد والتحرير كانوا من جنسيات ومناطق شتى (عرب، أكراد، ترك... إلخ) وكان قاسمهم المشترك أمرًا واحدًا هو الإسلام وإيمانهم بحقهم المقدس في الأرض المباركة.

* إن أمر استعادة كامل فلسطين قد اقتضى نحو ٢٠٠ سنة من الجهاد دون أن يتنازل المسلمون عن حقهم فيها، فكانت معركة تداولتها الأجيال حتى قطفت الثمرة النهائية للانتصار.

* وبالتالي فإن المحتل الغاصب لم يكن عدوًا سهلاً، ولا ينبغي أن نتوقع من أي عدو أن يكون سهلاً (كاليهود الصهاينة في عصرنا) كما لا ينبغي أن نفقد الأمل مهما طال الزمن، ومهما كان العدو شرًا عنيدًا.

* إن هناك ارتباطًا جوهريًا بين انتصارات المسلمين، وبين مدى التزامهم بدين الله وشرعة تحكيمه في حياتهم، كما أن هناك ارتباطًا جوهريًا بين هزائم المسلمين وبين تنازعهم وتشتتهم وبعدهم عن منهج الإسلام.

* إن الفكرة الإسلامية هي الوسيلة المثلى لتحشيد وتعبئة الطاقات لتحرير أي أرض إسلامية.

القسم الثاني

**فلسطين في مواجهة المشروع
الصهيوني منذ العهد العثماني
وحتى نهاية الاحتلال البريطاني**

الفصل الأول

الدولة العثمانية ومواجهة المشروع الصهيوني في فلسطين

أولاً: العثمانيون في فلسطين: التطور السياسي:

ظلت فلسطين تحت سيطرة دولة المماليك إلى أن قامت الدولة العثمانية بالسيطرة عليها ١٥١٦-١٥١٧. وكان لدولة الخلافة العثمانية من القوة ما مكنها من السيطرة على معظم شرق أوروبا (بلغاريا، ويوغوسلافيا، ورومانيا، واليونان...) بالإضافة إلى العراق، وبلاد الشام، والحجاز، ومصر، والسودان، ومعظم المغرب العربي... وكانت إحدى أهم دول العالم وأقواها في العصر الحديث، غير أن عوامل الضعف أخذت تدب في أوصالها منذ القرن الـ ١٨، وأخذت تفقد تدريجياً مساحات كبيرة من أرضها، ولم تتمكن من مواكبة التطورات العلمية والحضارية في الغرب الأوروبي، وعانت من الديون والتعثر الاقتصادي، كما عانت من النفوذ الأوروبي في أرضها، بالإضافة إلى حالة الجمود الفقهي والثقافي والفكري التي عاشتها بما لم يمكنها من متابعة قضايا العصر، وتقديم الحلول المناسبة وفق رؤى واعية مستمدة من الإسلام وتراثه العظيم.

ومهما يكن من أمر، فإن الدولة العثمانية حافظت على الهوية الإسلامية لأرض فلسطين، ورسختها لأربعة قرون متواصلة، كما أن أهل فلسطين كانوا يعدّون هذه الدولة دولتهم، ويتسم موقفهم منها بالإخلاص والولاء، وكانوا، ومعهم غيرهم من المسلمين، يتمتعون بكافة الحقوق السياسية

وغيرها التي يتمتع بها الأتراك. فمنذ أوائل العهد العثماني؛ كما يقول عارف العارف، أحد أكبر مؤرخي فلسطين وممن عاصر أواخر أيام الدولة العثمانية: "كان العرب بوجه عام، والفلسطينيون بوجه خاص، مخلصين في شعورهم نحو الدولة والسلطان، وكانوا على أتم الاستعداد للحرب والكفاح دون (دين الإسلام وسلطان المسلمين) وكانوا مطيعين لحكامهم ورؤسائهم، يحاربون متى شاء هؤلاء الحكام والرؤساء دون أن يسألوا: لماذا؟ وفي سبيل أي غاية؟ ومن أجل من؟"^١.

وحتى أواخر أيام الدولة العثمانية كان الناس يعدُّون الدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية، وكان أكثر رجال العرب يحسون عن شعور صادق أنهم يعيشون في دولتهم ويقومون على خدمتها،^٢ ولم يفكر أحد من سكان البلاد في الانفصال عن الدولة العثمانية فكل ما كانوا يطلبونه هو الإصلاح ولا سيَّما في أيامها الأخيرة.^٣ وقد أكد الحاج أمين الحسيني في شهادته أمام اللجنة الملكية البريطانية سنة ١٩٣٧، وكان زعيم فلسطين في تلك الفترة ورئيس "اللجنة العربية العليا"، أن العرب كانوا يتمتعون في كيان الدولة العثمانية بجميع أنواع الحقوق التي كان يتمتع بها الأتراك سياسية كانت أو غير سياسية، وكان العرب يشاطرون الأتراك جميع مناصب الدولة المدنية والعسكرية؛ فكان منهم الوزراء، ورؤساء وزارات،

١ انظر: عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس (القدس: فوزي يوسف، ١٩٦١)، ج ١، ص ٣٦٥-٣٦٦؛ وانظر أيضًا: أحمد الشقيري، أربعون عامًا في الحياة العربية والدولية (بيروت: دار النهار، ١٩٦٩)، ص ٤٢.

٢ أحمد الشقيري، أربعون عامًا في الحياة العربية والدولية، ص ٤٢.

٣ عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، ج ١، ص ٣٦٦.

وقواد فيالق وفرق، وسفراء، وولادة، ومتصرفون، كما كان في مجلس النواب والأعيان العثماني عدد كبير من الأعضاء العرب بنسبة عددهم إلى عدد غيرهم من القوميات... وفوق ذلك كانت البلاد تُدار بحكم يستند على مجالس إدارية ومجالس عمومية منتخبة في الأقضية والألوية والولايات، وكان لهذه المجالس صلاحيات واسعة في الإدارة والمالية والعمران.^١

وعلى سبيل المثال فإن موسى كاظم الحسيني، الذي أصبح زعيم فلسطين بعد انتهاء الحكم العثماني في الفترة ١٩٢٠-١٩٣٤ كان مُتصرف (حاكم) منطقة عسير ١٨٩٢، ونجد ١٨٩٦، والإحساء ١٩٠٠ (والمناطق الثلاث من مناطق السعودية الحالية)، كما عمل متصرفاً بعد ذلك في بتليس وأرجيدان في الأناضول في تركيا، ثم في المنتفق في العراق، إلى أن صار متصرفاً لحواران ١٩١٢ في سورية.^٢ وهناك الشيخ أسعد الشقيري، والد أول رئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية أحمد الشقيري، الذي تولى أكبر منصب في دولة الخلافة يلي منصب "شيخ الإسلام"، كما تولى منصب مفتي الجيش العثماني الرابع...^٣

١ الشهادات السياسية أمام اللجنة المالكة في فلسطين وخلاصة تقرير اللجنة (كتاب موجود في الجامعة الأردنية) (د.م: د.ن، د.ت)، ص ١٧-١٨.

٢ عجاج نويهض، رجال من فلسطين (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١)، ص ٩٨-٩٩.

٣ المرجع نفسه، ص ١٣٤-١٣٥؛ وانظر أيضاً: خليل السكاكيني، كذا أنا يا دُنيا، سلسلة إحياء التراث الثقافي الفلسطيني، رقم ٨، ط ٢ ([دمشق]: الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، ١٩٨٢)، ص ١٣٤-١٣٥؛ وأحمد الشقيري، أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية، ص ٤٧.

قُسِّمَت فلسطين في العهد العثماني إلى خمسة سناجق: القدس، وغزة، وصفد، ونابلس واللجون، وكانت ملحقة بولاية الشام، التي شكلت واحدة من ثلاث ولايات قسمت إليها بلاد الشام، والولايتان الأخريان هما حلب وطرابلس. أما الضفة الشرقية من نهر الأردن فقسمت إلى سنجقين هما عجلون والكرك مع الشوبك. ودخلت بعض التعديلات أحياناً بين فترة وأخرى. مثل إنشاء ولاية صيدا كولاية رابعة، التي ضمت سنجق صفد وسنجق صيدا مع بيروت سنة ١٦٦٠، بعد القضاء على فخر الدين المعني الثاني ١٦٣٥.

وفي القرن الـ ١٨ انتقلت الزعامة الريفية من جبل لبنان إلى شمال فلسطين، بظهور أسرة الزiadنة، البدوية الأصل، في منطقة صفد - طبرية، واشتهرت بأنها ملتزمة بجمع الضرائب للسلطات العثمانية. واستطاع زعيم الزiadنة ظاهر العمر، ١٧٣٠-١٧٧٥، أن يمد نفوذه على حيفا وعكا، وأسس إمارة في شمال فلسطين، غير أنها ضعفت نتيجة ثورة أبنائه عليه، وسعى أمراء دمشق لإضعافه، ثم إن تحالفه مع حاكم مصر المملوكي علي بك واحتلالهما دمشق ١٧٧١ أثار حفيظة السلطان العثماني، وبعد أن فرغت الدولة العثمانية من حربها مع الروس ١٧٧٤ تفرغت لظاهر العمر، وقضى أسطولها على حكمه سنة ١٧٧٥.

أما أحمد باشا الجزار فقد نشأ كمملوك، واعتمد على القوى المملوكية

١ عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢): من مطلع القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي إلى العام ١٣٢٦هـ/ ١٩١٨م، في: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني (بيروت: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٩٠)، المجلد الثاني، ص ٨٥٢.
٢ المرجع نفسه، ص ٨٥٣.

في توطيد سلطته. واستطاع السيطرة على بلاد الشام الجنوبية في الفترة ما بين مقدمه مع الحملة العثمانية ١٧٧٥ ووفاته ١٨٠٤، وكان مركز قوته ولاية صيدا، ولكنه جعل مقره في عكا، التي كان ظاهر العمر قد حصنها. وحكم الجزار ولاية الشام أربع مرات، بدأت أولها في ١٧٨٥/٢/٢٨، دون أن يتخلى عن قاعدة حكمه في صيدا التي كان يعين عليها أحد مماليكه حين ولايته للشام.^١ وقد اشتهر الجزار بمقاومته لحملة نابليون بونابرت Napoleon Bonaparte في عكا بالتعاون مع الأسطول الإنجليزي. وكان الفرنسيون قد احتلوا خانيونس ١٧٩٩/٢/٢٦، والرملة في ٢ آذار/ مارس، وبعد ذلك بأربعة أيام احتلوا يافا، حيث ارتكبوا فيها مذبحه وحشية بقتل ألفين من حاميتها بعد استسلامها، لأن نابليون لم يكن يرغب في تحمل تكاليف إطعامهم وحراستهم. وبدأ حصار الفرنسيين لعكا في ١٨ آذار/ مارس، وفي تلك الأثناء احتلوا صفد والناصرية في ٣١ آذار/ مارس، وبعد ذلك بأربعة أيام احتلوا صور؛ غير أنهم فشلوا أمام أسوار عكا وصمود حاميتها وأهلها، ولذلك عرفت عكا بـ "قاهرة نابليون". وانسحب الفرنسيون إلى مصر في ١٧٩٩/٥/٢٠.^٢

وفي ١٨٣١/١٠/٢٩ انطلقت حملة محمد علي باشا المصرية لاحتلال الشام، بقيادة ابنه إبراهيم باشا فاحتلت غزة، ويافا، وحيفا، والقدس، والجليل دون مقاومة. وحاصرت عكا من ١٨٣١/١١/٢٦ برًا وبحرًا وحدث قتال ضارٍ حتى استسلمت في ١٨٣٢/٥/٢٨. ثم تابع إبراهيم باشا احتلال بلاد

١ عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢).

٢ المرجع نفسه، ص ٨٥٤.

الشام حتى دخل حلب في ١٧/٧/١٨٣٢. وهزم العثمانيين في معركة بيلان في ٣٠/٧/١٨٣٢، ثم توغل في الأناضول وهزمهم عند قونية في ٢١/١٢/١٨٣٢. وتمّ الصلح بين الفريقين في كوتاهية في أيار/ مايو ١٨٣٣ بتدخل الدول الأوروبية. وبناء عليه، وُضعت الشام تحت حاكم مدني يتبع محمد علي، وقسمت الشام لمديريات أو متسلميات.^١ وحدثت اضطرابات ضدّ الحكم المصري بسبب فرض ضريبة جديدة، وبسبب التجنيد الإجباري، حيث هاجر كثيرون منازلهم وأعمالهم تحاشياً له، وبسبب جمع السلاح من الناس لمنعهم من الثورة، بينما كان الناس في الشام يعدونه جزءاً من حياتهم وثقافتهم... وهو ما دفع الناس للثورة في أيار/ مايو ١٨٣٤ وانتشرت بشكل واسع، غير أن إبراهيم باشا تمكن من قمعها بشدة.^٢

وخلال حكم محمد علي حدث انفتاح على الطوائف المسيحية واليهودية، واستُفيد من خبراتهم بشكل واسع؛ وألغيت عنهم أي إجراءات "تمييزية" تمسهم، وأعفوا من الضرائب والعوائد التي كان يقتطعها الحكام والمُتَنفِذون المحليون (مع الإبقاء على الجزية)، فانتعشت هذه الطوائف، وُسّح لها بترميم الكُنُس والكنائس، وتدفقت البعثات "التبشيرية". وتمّ السماح لبريطانيا بافتتاح قنصلية لها في القدس سنة ١٩٣٨، ومنذ ذلك الوقت، تولى البريطانيون رعاية المصالح اليهودية هناك؛ كما انفتح المجال لتدخل قناصل الدول الأوروبية وممثليها وحماية مصالح اليهود الذين يحملون

١ عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢)، ص ٨٥٨.

٢ المرجع نفسه، ص ٨٥٩-٨٦٠.

جوازات هذه الدول . وقد أورث ذلك وضعًا يصعب التعامل معه، بعد عودة الحكم العثماني لفلسطين . كما أثار الحكم المصري كثيرًا من أهل فلسطين والشام، بسبب سياسات الحكم المصري وإجراءاته، بالإضافة إلى ولائهم للدولة العثمانية التي استصدرت الفتاوى الدينية ضد هذا الحكم، عندما أخذ بالسيطرة على الشام، بسبب خروجه عن السلطان، وجردت محمد علي وإبراهيم باشا من رتبة الوزارة (الولاية) وأباحتهما.

وبعد مؤتمر لندن في ١٥/٧/١٨٤٠ الذي تقرر فيه انسحاب القوات المصرية من الشام، قامت قوات عثمانية وقوات بريطانية داعمة، بإجبارها على ذلك، ودخل العثمانيون عكا في ٢٦/١٠/١٨٤٠، والقدس في ٢٢/١٢/١٨٤٠. واضطر إبراهيم باشا لمغادرة دمشق في ٢٠/١٢/١٨٤٠، حيث تعرض لهجمات الفلاحين والبدو في طريقه، وعندما وصل غزة أوائل كانون الثاني/يناير ١٨٤١ كان قد فقد معظم جيشه وعتاده وحيوانات نقله. ثم غادر بحرًا إلى مصر بينما غادر أفراد جيشه غزة برًا^١.

في الفترة ١٨٤١-١٨٦٠ مارس العثمانيون سلطتهم بين مدّ وجزر، واعترفوا بالزعماء المحليين حكامًا ومحصّلي ضرائب مثل مصطفى أبو غوش في منطقة جبال القدس والطرق المؤدية لها، وعبد الرحمن عمرو في جبال الخليل. وحاول العثمانيون توطيد الأمن في القدس والخليل فأنشأوا سنة ١٨٥٤ ولاية قائمة بذاتها ترتبط بإسطنبول مباشرة، وضمت أيضًا غزة ونابلس. ومنذ ذلك الوقت وحتى نهاية الدولة العثمانية حدث استقرار

١ عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢)، ص ٨٦٠.

وأمن عام في مناطق فلسطين.^١

صدر قانون تشكيل الولايات سنة ١٨٦٤، قسمت الشام لولايتين هما ولاية سورية وولاية حلب. وقسمت الولاية إلى متصرفيات والمتصرفية إلى قائمقاميات. وقد فصلت متصرفية القدس عن ولاية سورية ١٨٧٣ وارتبطت مباشرة بإسطنبول، وازدادت أهميتها بسبب تدخل الدول الأوروبية والمؤسسات الدينية وخصوصاً اليهود بفلسطين بالهجرة وشراء الأراضي، مما أوجد وضعاً خاصاً اقتضى ربطها مباشرة بإسطنبول. وضمّ لواء القدس الشريف (أو سنجق) أفضية يافا، وبئر السبع، وغزة، والخليل. وقد تشكلت في بلاد الشام ولاية ثالثة هي ولاية بيروت سنة ١٨٨٧ نظراً لصعود الأهمية السياسية والتجارية لبيروت آنذاك. وضمت إليها شمال فلسطين، بما في ذلك سنجق عكا (أفضية حيفا، وطبرية، وصفد، والناصرة؛ ومركزه عكا) وسنجق البلقاء - نابلس (نابلس وقضاءي جنين وبني صعب (طولكرم)).^٢ وظلّ سنجق القدس مرتبطاً بالباب العالي بإسطنبول.



ويُعدّ السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) آخر السلاطين العثمانيين الذين كان للوازع الديني في عهودهم الدور الأول، حيث كان يتم بواسطة الولاء للفكرة الإسلامية تحقيق استقرار الشعوب المسلمة المتباينة الأجناس والأقاليم.^٣

١ عبد الكريم رافق، فلسطين في عهد العثمانيين (٢)، ص ٨٦٠-٨٦١.

٢ المرجع نفسه، ص ٨٦٢-٨٦٣.

٣ بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، سلسلة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رقم ٥٧ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ١١.

وفي غمرة التحديات التي عصفت بالدولة العثمانية، والمشاكل التي واجهتها، ظهرت أفكار متعددة تدعو للإصلاح، إلا أن السلطان عبد الحميد، ومعه في ذلك العديد من المفكرين كجمال الدين الأفغاني، رأوا أن قوة المسلمين تكمن في وحدتهم تحت راية الخلافة الإسلامية والتي تستطيع بما تملكه من سلامة المنهج وأصالة التجربة الحضارية أن تواجه الحضارة الغربية، وتوقف التوسع الاستعماري الأوروبي،^١ لقد رأى السلطان عبد الحميد أن القوة التي ينشدها تكمن في الإسلام، وفي ذلك يقول "إن الإسلام هو القوة الوحيدة التي تجعلنا أقوىاء، ونحن أمة حية قوية، ولكن شرط أن نصدق في ديننا العظيم".^٢

وحاول السلطان عبد الحميد أن يبعث الحيوية في نظام الخلافة من جديد فعمد إلى توثيق سلطة الخليفة على المسلمين وإعطاء الخلافة هيبتها ومكانتها، وحرص، إنجاحاً لسياسته، على أن يكمل الخط الحديدي الحجازي سنة ١٩٠٨، الذي يصل القسطنطينية بالمدينة المنورة، والذي جمعت ثلث تكاليفه من المسلمين في العالم.^٣ وخلال أيام عبد الحميد كانت فكرة الجامعة الإسلامية ذائعة الصيت ومنتشرة بين الناس، ولم

١ محمد عزة دروزة، نشأة الحركة العربية الحديثة: انبعاثها ومظاهرها في زمن الدولة العثمانية إلى أوائل الحرب العالمية الأولى (بيروت: المكتبة العصرية، د.ت)، ص ١٨٧.
٢ مذكرات السلطان عبد الحميد، ترجمة وتقديم وتحقيق وتعليق محمد حرب عبد الحميد (القاهرة: دار الأنصار، ١٩٧٨)، ص ١٣.

٣ انظر: فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة كمال اليازجي (بيروت: دار الثقافة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر، ١٩٥٩)، ج ٢، ص ٣٤٩؛ ولوتسكي، تاريخ الأقطار العربية الحديثة، ترجمة عفيفة البستاني (موسكو: دار التقدم، ١٩٧١)، ص ٣٨٢.

يفكر العرب طوال حكمه بالانفصال عن الدولة لأن أهم أسباب الثورة العربية - فيما بعد - كانت سياسة التتريك التي اتبعتها جمعية الاتحاد والترقي Committee of Union and Progress التي حكمت بعد عبد الحميد.^١

ثانياً: خلفيات ظهور المشروع الصهيوني في التاريخ الحديث:

فقد اليهود صلتهم بفلسطين عملياً مدة ١٨٠٠ عام، ولم يكن لديهم سوى العاطفة الدينية، التي رفض أحبارهم وحاخاماتهم وقادتهم تحويلها إلى برنامج عملي؛ لأنهم كانوا يؤمنون أنهم استحقوا تدمير دولتهم وشتاتهم بسبب خطاياهم، وأن عليهم انتظار المسيح المخلص الخاص بهم "المشايح Mashiah" أو "المسيا Messiah"، وعند ذلك يجوز لهم الاستقرار في فلسطين وإقامة كيانه.

على أن عدداً من التغيرات المهمة حدثت في التاريخ الأوروبي الحديث، انعكست بدورها على اليهود وإنشاء المشروع الصهيوني. فمنذ القرن الـ ١٦ الميلادي ظهرت حركة الإصلاح الديني "الحركة البروتستانتية" التي ركزت على الإيمان بالعهد القديم "التوراة"، ونظرت لليهود وفق رؤية توراتية بأنهم "أهل فلسطين" المشردين في الأرض، وآمن الكثير من البروتستانت بنبوء العهد الألفي السعيد؛ بأن اليهود سيُجمعون من جديد في فلسطين، استعداداً لعودة المسيح المنتظر الذي سيقوم بتنصيرهم، ثم يقودهم في معركة آرمجدون Armageddon، حيث ينتصر على أعدائه، ليبدأ بعد ذلك عهد يمتد ألف عام من السعادة. وقد شكّل أتباع الكنائس

١ بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ١١.

البروتستانتية أغلبية سكان بريطانيا، والولايات المتحدة، وهولندا، ونحو نصف سكان ألمانيا. وهكذا ظهرت "الصهيونية غير اليهودية" خصوصاً وسط هؤلاء البروتستانت، الذين دعموا المشروع الصهيوني بناء على خلفية دينية.^١

لقد ظهرت بواكير الدعوات، أطلقها اليهود و"الصهاينة غير اليهود"، لما يُسمى "العودة" إلى فلسطين في القرن الـ ١٦، مروراً بأول كتاب صدر حول هذا الموضوع بقلم المحامي البريطاني هنري فنش Henry Finch سنة ١٦٢١، بعنوان "البعث العالمي الكبير أو عودة اليهود The World's Great Restauration/ Calling of the Jews"، كما ظهرت في كتابات ودعوات النصارى أمثال إسحاق نيوتن Isaac Newton (١٦٤٣-١٧٢٧)، وجان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau (١٧١٢-١٧٧٨)، وجوزيف بريستلي Joseph Priestley (١٧٣٣-١٨٠٤)، وشافتسبري Shaftesbury، ولورنس أوليفانت Laurence Oliphant. وظهرت كذلك دعوات اليهود أمثال شبتاي تسفي Shabbetai Tzvi (١٦٢٦-١٦٧٦)، وزفي هيرش كاليشر Zvi Hirsch Kalischer (١٧٩٥-١٨٧٤)، ويهودا القالي (القلمي) Judah Alkalai (١٧٩٨-١٨٧٨)، وموزيس هس Moses Hess (١٨١٢-١٨٧٥) وغيرهم.^٢ غير أن قدوم اليهود ظلّ مرتبطاً بالعاطفة الدينية التقليدية في

١ انظر حول هذا الموضوع: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربي، ترجمة أحمد عبد الله عبد العزيز، سلسلة عالم المعرفة رقم ٩٦ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٥).

٢ انظر: المرجع نفسه، ص ٧٩-٨١؛ وأسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية ١٨٨٢-١٩٨٢ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠)، ص ٢٧-٣٠.

زيارة الأماكن المقدسة، أو السكن بجوارها، كما ارتبط بمشاريع استيطانية "خيرية"، ولم يأخذ طابع البرنامج السياسي المنظم المكشوف. فقد كان عدد اليهود في فلسطين سنة ١٧٩٩ نحو خمسة آلاف،^١ وفي سنة ١٨٧٦ بلغ ١٣٩٢٠ يهوديًا.^٢ ولم يأخذ المشروع الصهيوني أبعادًا جدية إلا قبيل نهايات القرن الـ ١٩.

ومن جهة أخرى فإن أوروبا، خصوصًا في القرن الـ ١٩، شهدت تحولات سياسية مهمة، فمنذ الثورة الفرنسية على الحكم الملكي سنة ١٧٨٩ أخذت تتشكل الدولة الأوروبية الحديثة، وانتشرت الفكرة القومية والمشاعر الوطنية، وتم إنشاء أنظمة علمانية فصلت الدين عن الدولة وهمّشت دور الكنيسة. وتم "تحرير" اليهود وإعطائهم كافة حقوق المواطنة، خصوصًا في أوروبا الغربية، مما سهل على اليهود اختراق هذه المجتمعات والأنظمة، والارتقاء بمكانتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق مستويات أعلى من النفوذ في دوائر السياسة والاقتصاد والإعلام.

وفي المقابل فإن الدولة القومية والمشاعر الوطنية في روسيا وأوروبا الشرقية قد أخذت منحى آخر، حيث كان يتواجد غالبية يهود العالم. إذ قاوم يهود روسيا عمليات الدمج والتحديث الروسية، التي تميزت بالفوقية، والقسر، والإرهاب. وزادت مشاركة الكثير من اليهود في الحركات الثورية اليسارية من عدااء الحكومة القيصرية الروسية لهم، وانفجرت العداوة ضدهم

١ حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧-١٩٠٩، ط ٢

(بيروت: الدار الجامعية للطباعة والنشر، ١٩٨٠)، ص ٨٢-٨٤.

٢ سمير أيوب، وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني (بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر، ١٩٨٤)، ج ١، ص ٢٨٠.

بشكل مكشوف إثر اغتيال قيصر روسيا ألكسندر الثاني Alexander II (Aleksandr Nikolayevich) سنة ١٨٨١، والذي اتهم به اليهود. وبدأت موجة من الإجراءات العنيفة القاسية ضدهم سميت بـ "اللا سامية" Anti-Semitism، أي العداء لليهود لكونهم يهودًا ينتمون إلى العنصر السامي، وقد أدى ذلك إلى نشوء "المشكلة اليهودية"؛^١ إذ إن ملايين اليهود في روسيا أخذوا يبحثون عن فرصة للخلاص مما هم فيه، وبدأت أعداد هائلة منهم في الهجرة إلى أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية والجنوبية. وكانت هذه فرصة الحركة الصهيونية للظهور والدعوة إلى حلّ المشكلة اليهودية، بإنشاء كيان آمن مستقل لليهود في فلسطين. وتعاطف الكثير من الأوروبيين والأمريكان مع هذه الدعوة، سواء لخلفياتهم الدينية، أم تخلصًا من أعباء التدفق اليهودي على أرضهم.

بروز العوامل الاستراتيجية والسياسية:

أسهم تراجع قوة الدولة العثمانية، خصوصًا منذ أواخر القرن الـ ١٨، وسعي الدول الغربية لتقاسم أراضيها، إلى بروز أجواء عملية أفضل لتأسيس المشروع الصهيوني. إذ كانت هناك رغبة غربية بملء الفراغ الذي سينتج عن سقوط الدولة العثمانية، ومنع نهوض قوة إسلامية كبرى تخلف العثمانيين. لقد لفتت حملة نابليون بونابرت إلى مصر، التي احتلها بسهولة في

١ انظر حول هذا الموضوع في: عبد الوهاب المسيري، الأيديولوجية الصهيونية، سلسلة عالم المعرفة رقم ٦٠-٦١ (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٢ - كانون الثاني/ يناير ١٩٨٣)، ج ١، ص ٨٩-١١٦؛ وأسعد عبد الرحمن، المنظمة الصهيونية العالمية، ص ٢٣-٢٦.

تموز/ يوليو ١٧٩٨، الأنظار إلى مدى ضعف الدولة العثمانية، وفتحت شهية الاستعمار الأوروبي لاقتسام تركة هذه الدولة، بالرغم من أن حملة بونابرت على فلسطين انتهت بالفشل على أسوار مدينة عكا سنة ١٧٩٩.^١

ولم تكن الأهمية الخاصة لمصر وبلاد الشام لتغيب عن أعين البريطانيين الذين كانوا القوة الكبرى الأولى في العالم، فافتتحت بريطانيا قنصلية لها في القدس سنة ١٨٣٨. وفي أول رسالة لنائب القنصل في القدس، طلبت الخارجية البريطانية منه توفير الحماية لليهود، حتى وإن كانوا غير بريطانيين، ولذلك ظلت هذه القنصلية مركزاً للدفاع عن مصالح اليهود حتى نشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤.^٢ وعندما تمّ للبريطانيين السيطرة على قبرص سنة ١٨٧٨، ومصر سنة ١٨٨٢، أصبحت الدولة الاستعمارية الوحيدة التي لها قواعد شرقي البحر المتوسط. وإضافة إلى الخلفيات الدينية والتاريخية، فقد صارت بريطانيا تنظر إلى فلسطين في ضوء التنافس الاستعماري على المنطقة، وفي ضوء حاجتها لحماية الجناح الشرقي لقناة السويس التي أصبحت الشريان الحيوي للمواصلات البريطانية خصوصاً إلى الهند. وعندما تأسس المشروع الصهيوني، وظهرت فكرة الدولة الحاجزة، فإنها كانت تخدم بلا شك، مختلف الدوافع والخلفيات الدينية والحضارية والسياسية والاستراتيجية. وأصبحت تتخذ أبعاداً عملية يمكن تنفيذها في ضوء التدهور العثماني المتسارع.

١ انظر: ريجينا الشريف، الصهيونية غير اليهودية، ص ١٠٦-١١٠؛ والموسوعة الفلسطينية، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، ج ٢، ص ٢٧٩.

٢ Albert H. Hyamson, *Palestine under the Mandate 1920-1948* (Great Britain: ٢

Methuen, 1950), p. 7.

وقد ظهرت في ذلك الوقت فكرة إنشاء دولة حاجزة شرقي قناة السويس وغربي بلاد الشام، في أواخر القرن الـ ١٩، بحيث يتم غرس كيان غريب في قلب العالم الإسلامي، يفصل جناحه الآسيوي عن جناحه الإفريقي، ويمنع وحدته، ويضمن ضعفه وتفككه، إذ إن استمرار مثل هذا الكيان مرتبط بمدى ضعف من حوله. وسيسعى هذا الكيان بالتالي لضرب أي نمو حضاري قوي في المنطقة، وسيشغل العالم الإسلامي بمشكلة طويلة معقدة تستنزف طاقته وجهوده، وتبقيه إلى أبعد مدى ممكن في فلك التبعية والضعف والحاجة للعالم الغربي، كما تبقيه مصدرًا للمواد الخام وسوقًا للمنتجات الغربية. وكما أن هذا الكيان سيكون بحاجة إلى دعم الغرب لضمان استمراره، فإن الغرب كذلك سيكون بحاجة إليه لضمان ضعف العالم الإسلامي وتفككه وتبعيته. وبذلك ينشأ بينهما تحالف لا ينفصم. وهنا تكمن أهمية أن يفهم المسلمون أن هذا المشروع موجّه ضدّ كل مسلم وآماله في الوحدة، والنهضة، والتقدم، وليس ضدّ الفلسطينيين وحدهم.

لقد عانى الغرب الصليبي من قرون طويلة من الصراع مع المسلمين، كانت فيه اليد الطولى للمسلمين نحو ١١ قرنًا، وما كانت لتنتهي دولة مسلمة حتى تحل مكانها دولة مسلمة تجدد الحيوية في هذه الأمة، وتحفظ عزتها وكرامتها، فكانت دول الراشدين والأمويين والعباسيين والمماليك. وتمكن العثمانيون الذين خلفوا المماليك من فتح معظم أوروبا الشرقية، ومن توحيد العالم العربي تحت رايتهم فكانوا حصنًا عظيمًا للإسلام قرون عديدة. غير أن ضعف الدولة العثمانية خصوصًا في القرن الـ ١٩ وأوائل الـ ٢٠ جعل الأوروبيين يفكرون بطريقة تضمن ألا تقوم بعد ذلك للعالم الإسلامي قائمة، وألا تحل محل العثمانيين دولة مسلمة جديدة، تبعث الحيوية

والنهضة فيهم، فكانت فكرة الدولة الحاجزة، التي توافقت مع فكرة حلّ المشكلة اليهودية، ومع فكرة حماية الجناح الشرقي لقناة السويس.

ثالثاً: بدايات الاستيطان والهجرة اليهودية:

تظهر الوثائق العثمانية أن اليهود لم تكن لهم أملاك تكاد تذكر في فلسطين، فمثلاً، حسب دفتر ٣٤٢، في سنة ٩٧٠هـ - ١٥٦٢م، في أرشيف رئاسة الوزراء العثماني بإسطنبول، حول ملكية لأرض:

لم ترد فيه أية وقفية أو ملكية مسجلة باسم أي يهودي؛ لا في القدس الشريف ولا قراها ولا الخليل ولا نواحيها، فلا بيت ملكوه، ولا قاعة، ولا جنيّة، ولا بستان، ولا حاكورة، ولا قطعة أرض، ولا غراس، ولا مزارع، ولا قرى، أو بلدات، أو دكاكين، أو حواصل، أو مخازن، أو غيرها؛ حتى إن مقبرة اليهود الكائنة في رأس العمود قرب سلوان، كانت من الأوقاف الإسلامية المؤجرة لليهود لدفن موتاهم. وهي من وقف صلاح الدين بالقدس، أُجّرت لهم سنة ٩٦٧هـ - ١٥٥٩م.^١

وفي سنة ١٠٦١هـ - ١٦٥٠م أُجّرت الأرض الوعر المعروفة بالثوري لليهود القرائين لدفن موتاهم، دون مشاركة اليهود الأشكناز (الغربيين).^٢ ولسنوات طويلة، كان اليهود القاطنون في القدس يستأجرون البيوت في الحارات التي أقاموا فيها في القدس من الملاك المسلمين. وفي ذي الحجة ١٢٧٤هـ - آب/ أغسطس ١٨٥٨م صدر قانون متعلق بالأراضي وحيازتها،

١ محمد عيسى صالحية، مدينة القدس.. السكان والأرض (العرب واليهود) ١٢٧٥ - ١٣٦٨هـ / ١٨٥٨ - ١٩٤٨م (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات، ٢٠٠٩)، ص ١٣.
٢ المرجع نفسه.

يتطلب من مالكي الأراضي تسجيل الملكية. حيث سعت الدولة العثمانية لممارسة سيطرة أكبر على المنطقة، كما سعت لزيادة الإيرادات الضريبية. ومع ذلك، لم يجد صغار المزارعين ضرورة لتسجيل أراضيهم، ربما خوفاً من دفع الضرائب المترتبة، أو تهرباً من الخدمة العسكرية الإجبارية التي كانت مفروضة على مالكي الأراضي. ولذلك، كانت عمليات التسجيل نفسها عرضة للتلاعب. وحدث أن تمّ تسجيل الأراضي المملوكة، بشكل جماعي لسكان قرية ما باسم مالك واحد، كما تمّ تسجيل مساحات كبيرة من الأراضي بأسماء تجار ومسؤولين عثمانيين محليين. وبالتالي، أصبحت هذه الأراضي ملكية قانونية لأشخاص ربما لم يعيشوا هناك أبداً، بينما أصبح السكان المحليون، حتى أولئك الذين عاشوا على الأرض لعدة أجيال، من الناحية القانونية، مستأجرين من "أصحاب الأرض الغائبين". وفي ١٨٦٩ صدر قانون تملك الأجانب، حيث لم يكن يسمح لهم بالتملك لأي سبب قبل ذلك. وقد سُمح بالتملك في جميع أجزاء الدولة للأفراد والمؤسسات، عدا الحجاز، ثم أضيفت القدس لاحقاً^١.

وقد واجه الفلاحون صعوبات في سداد الضريبة التي فرضها قانون الأراضي، بينما استغل المرابون الوضع بعرض ربا يصل إلى ٣٠٪، فاضطر الفلاحون للالتجاء إلى الأثرياء، بوضع الأرض لديهم برسم الأمانة لحين السداد. وقام ٢٦ من الملاك في القدس والخليل بتسجيل ١٦٢ ألف دونم (الدونم يساوي ألف متر مربع) من أملاك فلاحية المنطقتين. ومنذ سنة ١٨٦٩ اضطرت الدولة العثمانية لبيع أراضي أميرية لتوفير بعض الأموال

١ محمد عيسى صالحيّة، مدينة القدس.. السكان والأرض (العرب واليهود)، ص ١٥.

لخزينتها، فبيعت أراضي واسعة في المزادات، اشترت نصيبًا كبيرًا منها عائلات ثرية لبنانية بقصد الاستثمار. فمثلاً اشترت عائلة سرسق نحو ٥٠٠ ألف دونم، منها ٢٤٠ ألفاً في مرج بني عامر، و٦٠ ألفاً في الحولة.^١

وفي مثل هذه الأجواء وجد اليهود الصهاينة منافذ لشراء الأراضي، والتعامل مع شخصيات أو عائلات طارئة تملك الأرض بقصد التجارة.

وقد بدأت حركة الاستيطان اليهودي في القدس خارج الأسوار، حين حصل السير موشيه مونتفيوري Sir Moses Haim Montefiore على فرمان سلطاني، سمح له بموجبه بشراء قطعة أرض من جهة باب الخليل، حيث تمّ ذلك سنة ١٨٥٥، وصدرت رخصة البناء في ١٨٥٩، واشترطت أن يكون البناء على بعد ٢٥٠٠ م من الأسوار. وقد أقيم البناء على مساحة مجموعها ٦٦٢٢٥ م^٢، وكان مكوناً من ٢٠ بيتاً زادوا إلى ٣٤ بيتاً، سكنها ١٠٤ أشخاص من "فقراء اليهود" كما ادعى مونتفيوري. وهذا أول حي يهودي عُرف باسم "يمين موشيه Yemin Moshe" أو حي المونتفيورية. وفي سنة ١٢٨٢ هـ - ١٨٦٥ م بُني حي "بيت محفأة" على مساحة ٣٥ دونماً، وكان مكوناً من ٣٠ بيتاً. ثم اشترى حاخام المغاربة ديفيد شمعون David ben Shimon سنة ١٢٨٥ هـ - ١٨٦٨ م أرضاً قرب بركة ماميلام Mamila Pool (مأمن الله) وأقام عليها مساكن لطائفته وعرف باسم حي "محنيه إسرائيل Mahane Israel". ثم توالى بناء الأحياء.^٢

أخذت الهجرة اليهودية تتخذ طابعاً أكثر تنظيماً وكثافة منذ سنة ١٨٨٢

١ محمد عيسى صالحية، مدينة القدس.. السكان والأرض (العرب واليهود)، ص ١٦.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٢.

إثر تصاعد "المشكلة اليهودية" في روسيا، وقامت السلطات العثمانية بعدد من الإجراءات لمنع الاستيطان اليهودي في فلسطين، وقامت سنة ١٨٨٧ بفصل سنجق القدس عن ولاية سورية، ووضعت مباشرة تحت إشراف الحكومة المركزية (الباب العالي) لإعطاء رعاية واهتمام أكبر لهذه المنطقة.^١ وبالرغم من أن عدد اليهود الذين تركوا بلدانهم الأصلية، خصوصاً روسيا وشرقي أوروبا، بلغ مليونين و٣٦٧ ألف شخص خلال الفترة ١٨٨١-١٩١٤، إلا أن عدد من استطاع الهجرة منهم إلى فلسطين بلغ نحو ٥٥ ألفاً، أي ما نسبته ٢,٣٢٪، بينما هاجرت الأغلبية الساحقة إلى الولايات المتحدة، وأوروبا الغربية، وأمريكا الجنوبية.^٢ وهذا يدل على نجاح نسبي للسلطات العثمانية في الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

وقد كان إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية World Zionist Organization (WZO) وانعقاد مؤتمرها الأول في بال بسويسرا في ٢٩-٣١/٨/١٨٩٧ بزعامه ثيودور هرتزل Theodor Herzl فاتحة العمل الصهيوني السياسي المؤسسي المنظم، لتأسيس الدولة اليهودية على أرض فلسطين. وقد حرص هرتزل على تحقيق المشروع الصهيوني من خلال الاتصالات الدبلوماسية، ومحاولة تشجيع القوى الكبرى، وخصوصاً بريطانيا، على تبني هذا المشروع، في ضوء المصالح والفوائد التي يمكن أن يجنيها الغرب الاستعماري الصليبي،

١ انظر: حسان حلاق، موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، ص ١٠١-١٠٥.

٢ انظر: وليم فهمي، الهجرة اليهودية إلى فلسطين (مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤)، ص ٣٦. وقد قدّرت مراجع أخرى عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين خلال الفترة ١٨٨٢-١٩١٤ بنحو ٥٥-٧٠ ألفاً، انظر مثلاً: صبري جريس وأحمد خليفة (محرران)، دليل إسرائيل العام (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦)، ص ٤٠.

وقد حاول هرتزل عبثاً إقناع الدولة العثمانية ببيع فلسطين وإعطاء اليهود حكماً ذاتياً فيها تحت السيادة العثمانية، وفتح أبواب الهجرة اليهودية إليها مقابل عروض مغرية، كانت الدولة العثمانية في أمس الحاجة إليها. إلا أن السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩) وقف سداً منيعاً ضدّ رغبات اليهود، وردّ على من نقل اقتراح هرتزل إليه قائلاً:

أنصحهم ألا يسير أبداً في هذا الأمر. لا أفدر أن أبيع ولو قدماً واحداً من البلاد؛ لأنها ليست لي بل لشعبي. ولقد حصل شعبي على هذه الإمبراطورية بإراقة دمائهم، وقد غدوها فيما بعد بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا قبل أن نسمح لأحد باغتصابها منا... ليحتفظ اليهود ببلايينهم، فإذا قسمت الإمبراطورية، فقد يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، إنما لن تقسم إلا على جثثنا، ولن أقبل بتشريحنا لأيّ غرض كان.^١

وقد شارك اليهود بفعالية في إسقاط السلطان عبد الحميد من منصبه، من خلال انبثاّتهم ونفوذهم الكبير في جمعية تركيا الفتاة Young Turks وذراعها لجنة الاتحاد والترقي، والتي قامت بالانقلاب العسكري عليه، وإجباره على التنازل عن العرش، وتعمدت إرسال أحد زعمائها، وهو إيمانويل قره صو Emmanuel Carasso (وهو زعيم يهودي صهيوني ماسوني) ضمن الوفد الذي أبلغ السلطان عبد الحميد بقرار عزله. وكان قره صو هذا قد حاول التأثير على السلطان عبد الحميد لإسكان اليهود في فلسطين، فقام بطرده.^٢ وقد حظي اليهود بنفوذ كبير تحت حكم الاتحاد

١ سمير أيوب، وثائق أساسية في الصراع العربي الصهيوني، ج ١، ص ١٢٨.

٢ انظر: صالح أبو يصير، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن (بيروت: دار الفتح، ١٩٧٠)، ص ٣٣.

والترقي خلال الفترة ١٩٠٩-١٩١٤، فبينما كان لليهود ثلاثة وزراء من أصل ١٣ وزيراً في حكومة الاتحاد والترقي التي تشكلت سنة ١٩١٣، كان للعرب الذين يزيد عددهم عن نصف السكان وزير واحد.^١

وقد كان لأبناء فلسطين نشاط مبكر في مواجهة المشروع الصهيوني، وترجع أولى علامات المقاومة الفلسطينية المسلّحة إلى سنة ١٨٨٦ (أي قبل الاحتلال البريطاني بـ ٣١ عاماً)، عندما هاجم الفلاحون المطرودون من الخضيرة وملبس (بتاح تكفا) اليهود في قراهم المغتصبة التي أُجّلوا عنها رغماً عنهم، بعد أن اشتراها المستوطنون اليهود من ملاك كبار. وقد دفع ذلك السلطات العثمانية إلى فرض قيود مشددة على الهجرة والاستيطان اليهودي. وتزايد بعد ذلك الوعي بمخاطر المشروع الصهيوني، فقد احتج وجهاء القدس المسلمين ضدّ رشاد باشا متصرف القدس في أيار/ مايو ١٨٩٠ عندما أبدى محاباة للصهاينة، وقدموا عريضة لرئيس وزراء الدولة العثمانية في ٢٤/٦/١٨٩١ طالبوا فيها بمنع هجرة اليهود الروس إلى فلسطين، وتحريم استملاكهم للأراضي فيها. كما نشطت الصحف في تبيان الخطر الصهيوني مثل جريدتي الكرمل وفلسطين، وغيرهما. وكان للشيخ محمد رشيد رضا المصلح الإسلامي "اللبناني" المقيم في مصر من خلال مجلة المنار دور رائد في ذلك. وبرز في التحذير من الخطر الصهيوني من رجالات فلسطين يوسف ضيا الخالدي، ومفتي القدس محمد طاهر الحسيني، وسليمان التاجي الفاروقي، وإسعاف النشاشيبي؛ وممثلو مناطق فلسطين في البرلمان العثماني أمثال روجي الخالدي وسعيد الحسيني. كل ذلك، كان

١ عجّاج نويهض، رجال من فلسطين، ص ٣٢٦-٣٢٧.

له دور مهم في زيادة الوعي، وتعبئة الجماهير ضد المشروع الصهيوني، قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤.^١

رابعاً: قضية فلسطين في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨:

ومع بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ كان قد بلغ عدد اليهود في فلسطين نحو ٨٠ ألفاً، غير أن موقف اليهود الممالي لبريطانيا وحلفائها ضد الدولة العثمانية قد جعل العثمانيين يضيقون عليهم فترة الحرب (١٩١٤-١٩١٨)، فانخفض عددهم مع نهايتها إلى نحو ٥٥ ألفاً.

وقد كانت الحرب العالمية الأولى خطراً هائلاً على الجميع، لكنها مثلت في الوقت نفسه فرصة أمام كل طرف للانتفاع من نتائجها في حالة الانتصار، فنشط سوق المفاوضات، والاتصالات السرية، والمعاهدات لترتيبات ما بعد الحرب. وعلى الرغم من أن المنظمة الصهيونية العالمية عانت مؤقتاً من حالة من التشتت بسبب وجود الكثير من قياداتها في ألمانيا، إلا أن حاييم وايزمان Chaim Weizmann استطاع إعادة ترتيب أوراقها، وقيادتها عملياً من خلال مركزه في بريطانيا. أما بريطانيا فقد سعت إلى ضمان نفوذها في بلاد الشام والعراق من خلال السير في ثلاثة اتجاهات متعارضة متضاربة، ولم تبال بهذا التعارض كثيراً في سبيل تحقيق أهدافها والانتصار في الحرب. كان الاتجاه الأول التفاوض مع الشريف حسين بن علي أمير الحجاز

١ انظر حول هذا الموضوع في: عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ط ٩ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٥)، ص ٣٧-٦٧.

(مراسلات حسين - مكماهون Hussein-McMahon Correspondence تموز/ يوليو ١٩١٥ - آذار/ مارس ١٩١٦) لدفعه لإعلان الثورة العربية على العثمانيين مقابل وعود باستقلال معظم المناطق العربية في جزيرة العرب وبلاد الشام والعراق تحت زعامته. وكان الكثير من رجالات العرب قد أصيبوا بالإحباط جرّاء سياسات الاتحاد والترقي، التي أفقدت الدولة العثمانية مصداقيتها الإسلامية، كما غضبوا لقيام جمال باشا الصغير والي سورية، بتعليق العديد من القيادات العربية على أعواد المشانق في أيار/ مايو ١٩١٥، بالرغم من أن زعامات الجمعيات العربية كانت قد أعلنت في بداية الحرب تناسي خلافاتها مع العثمانيين، والوقوف إلى جانبهم في محاربة "الكفار".

وقد تعمدت بريطانيا سياسة عدم الوضوح في تحديد التزاماتها، وضغط الشريف حسين على بريطانيا لتكون أكثر تحديداً، خصوصاً فيما يتعلق بحدود الدولة العربية المقترحة، فأرسلت بريطانيا في ٢٤/١٠/١٩١٥ عدداً من التحفظات على الحدود، كمطالبتها بعدم ضمّ إقليميّ مرسين وأضنة، وكذلك المناطق التي تقع إلى الغرب من سناجق حلب وحمص وحماة ودمشق، إضافة إلى استمرار استعمارها لجنوب اليمن وإمارات الخليج العربي، ومطالبتها بوضع إداري خاص لجنوب العراق يكفل المصالح البريطانية. وبالرغم من أن الشريف حسين كان يفهم أنه لا يستطيع تغيير شيء بالنسبة للبلدان العربية المستعمرة، كما أنه عبّر عن استعداده لمناقشة المصالح البريطانية في جنوب العراق، إلا أنه أصر على عروبة المناطق غربي مناطق حلب وحمص ودمشق (وهو ما فهم أن المقصود منها ما يعرف الآن بלבnan). وقد تمّ الاتفاق على ضرورة

المسارعة في إعلان الثورة على أن تتم مناقشة الأمور المعلقة بعد انتهاء الحرب. فقام الشريف حسين بإعلان الثورة في الحجاز في ١٠/٦/١٩١٦ وتحالف علناً مع البريطانيين، وأيده في ذلك الجمعيات العربية، التي كان لها نفوذ قوي خصوصاً في بلاد الشام، كالعربية الفتاة، واللامركزية، والعهد.

أما الاتجاه البريطاني الثاني فكان التفاوض مع فرنسا (انضمت بعد ذلك روسيا للمفاوضات) بشأن مستقبل العراق وبلاد الشام. وقد تمّ الاتفاق فيما يعرف باتفاقية سايكس-بيكو Sykes-Picot Agreement في أيار/ مايو ١٩١٦ على إعطاء البريطانيين معظم العراق (مقارنة بحدوده الحالية)، وشرق الأردن، ومنطقة حيفا في فلسطين؛ أما لبنان وسورية فتوضعان تحت الاستعمار الفرنسي. ونظراً لرغبة كافة الأطراف في استعمار فلسطين، فقد اتفق على أن توضع تحت إشراف دولي.

وكان الاتجاه البريطاني الثالث هو التفاوض مع المنظمة الصهيونية العالمية حول مستقبل فلسطين. وقد دفعهم إلى ذلك حاجتهم الماسة لاستخدام النفوذ اليهودي في الولايات المتحدة لدفعها للمشاركة في الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها (وهذا ما حدث فعلاً في آذار/ مارس ١٩١٧)، بالإضافة إلى وجود النفوذ اليهودي الصهيوني في بريطانيا وفي الحكومة البريطانية نفسها، من خلال وزير الداخلية اليهودي الصهيوني هربرت صمويل Herbert Samuel، والنصارى المتصهينين مثل رئيس الوزراء لويد جورج Lloyd George، ووزير الخارجية آرثر جيمس بلفور Arthur James Balfour. هذا بالإضافة إلى ما أشرنا إليه سابقاً من دوافع وخلفيات دينية وسياسية واستراتيجية... .

وكانت النتيجة صدور تصريح بلفور الذي اشتهر بـ "وعد بلفور Balfour Declaration" في ٢/ ١١/ ١٩١٧ بتعهد بريطانيا بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد كان هذا من أغرب الوعود في التاريخ الإنساني، إضافة إلى تعارضه مع المعاهدات الأخرى، فقد تجاوز بصلف وغرور، رغبات وأمانى أصحاب البلاد الشرعيين، وتعهد أن يعطي أرضاً لا يملكها، بل ولم يكن قد احتلها بعد، إلى أناس لا يستحقونها، وكان ذلك في ذروة الحديث عن الشرف البريطاني، والدفاع عن القيم والمبادئ.

لم تبقَ اتفاقية سايكس- بيكو طيّ الكتمان، إذ قام الروس بكشفها بعد أن استطاعت الثورة الشيوعية القضاء على الحكم القيصري في روسيا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٧، وأعلنت انسحابها من الحرب. كما عرف الناس مبكراً بوعد بلفور الذي لم يعد سرّاً، بعد أن وصل للصحافة في البلاد العربية، مصر بالتحديد، بعد أقل من أسبوع من صدوره. وقد كان ذلك صدمة كبيرة للثورة العربية، إذ لم يتخيل الثوار أبداً هذه الدرجة من الخداع البريطاني، ولذلك رفض جنود الثورة العربية الاستمرار في حربهم ضد العثمانيين ما لم توضح لهم الأمور، فأرسلت بريطانيا إمعاناً في التضليل أحد مبعوثيها، ديفيد هوجارث David Hogarth، في كانون الثاني/ يناير ١٩١٨ لطمأنة الشريف حسين، حيث حمل تصريحاً بريطانياً بأن الهجرة اليهودية لفلسطين لن تتعارض مع مصالح السكان السياسية والاقتصادية. ومن جهة أخرى، حمل التصريح البريطاني إلى القياديين السوريين السبعة في حزيران/ يونيو ١٩١٨ تأكيدات واضحة على أن الأرض التي يحتلها البريطانيون (جنوب فلسطين وجنوب العراق) سوف تحكم وفق رغبات السكان، إضافة إلى

الموافقة على استقلال ما كان ما يزال تحت السيادة العثمانية من شمال فلسطين، وشرق الأردن، وسورية، ولبنان، وشمال العراق. وعندما انتهت الحرب العالمية صدر التصريح الإنجلو- فرنسي في ٧ / ١١ / ١٩١٨ بتأكيد التعهدات للعرب الذين كانوا تحت الحكم العثماني في الحرية والاستقلال.^١

١ حول المفاوضات والوعود البريطانية مع الشريف حسين، والفرنسيين، والمنظمة الصهيونية العالمية، انظر: المرجع نفسه، ص ٧٢-٨٤؛ وتقرير اللجنة الملكية: الكتاب الأبيض رقم ٥٤٧٩، النسخة العربية الرسمية، إصدار حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين (القدس: ١٩٣٧)، ص ٢٣-٣١ (اشتهر هذا التقرير باسم تقرير بيل). وانظر أيضًا:

George Antonius, The Arab Awakening (London: Hamish Hamilton, 1955), pp. 260-272.

الفصل الثاني

فلسطين: من الاحتلال البريطاني إلى إنشاء

الكيان الصهيوني ١٩١٧-١٩٤٨

مقدمة:

أتم البريطانيون احتلال جنوب فلسطين ووسطها في كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٧، واحتلوا القدس في ٩/ ١٢/ ١٩١٧. وخطب قائد الجيش البريطاني اللنبي Allenby في القدس محتفلاً بانتصاره قائلاً: "والآن انتهت الحروب الصليبية"،^١ وكأن حملتهم على فلسطين كانت آخر حملة صليبية، وكأن الحروب الصليبية لم تتوقف منذ أن شنّها الأوروبيون قبل ذلك بأكثر من ٨٠٠ عام. وفي أيلول/ سبتمبر ١٩١٨ احتل البريطانيون شمال فلسطين، كما احتلوا في أيلول/ سبتمبر - تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨ شرق الأردن وسورية ولبنان. ومنذ ذلك الوقت فتحت بريطانيا بالقوة مشروع التهويد المنظم لأرض فلسطين، واستطاعت بريطانيا بعد ذلك إقناع فرنسا بالتخلي عن مشروع تدويل فلسطين كما في نصوص سايكس-بيكو، مقابل رفع بريطانيا لدعمها للحكومة العربية التي نشأت في دمشق بزعامة فيصل بن الشريف حسين، حتى تتمكن فرنسا من احتلال سورية.

وفرت بريطانيا لنفسها غطاءً دولياً باستصدار قرار من عصبة الأمم League of Nations في ٢٤/ ٧/ ١٩٢٢ بانتدابها على فلسطين، وتم تضمين وعد بلفور في صك الانتداب، بحيث أصبح التزاماً رسمياً معتمداً دولياً. غير

١ أميل الغوري، فلسطين عبر ستين عاماً (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٧٢)، ص ٢٨-٣٠.

أن فكرة الانتداب التي ابتدعتها عصبة الأمم، كانت قائمة على أساس مساعدة الشعوب المنتدبة وإعدادها لنيل استقلالها. وقد تضمن صك الانتداب نفسه على فلسطين مسؤولية الدولة المنتدبة (بريطانيا) في الارتقاء بمؤسسات الحكم المحلي، وصيانة الحقوق المدنية والدينية لجميع سكان فلسطين. وهذا يعني ألا يقف وعد بلفور في نهاية الأمر عائقاً في وجه أبناء فلسطين ضد الارتقاء بمؤسساتهم وإقامة دولتهم. وكان تنفيذ وعد بلفور يعني عملياً الإضرار بمصالح أهل فلسطين وحقوقهم، وتعطيل بناء مؤسساتهم الدستورية باتجاه إقامة دولتهم. وقد فضلت بريطانيا دائماً التزام الشق المتعلق بوعد بلفور، وأصمّت أذانها ولم تحترم الشق المتعلق بحقوق أبناء فلسطين العرب الذين كانوا يمثلون نحو ٩٢٪ من السكان عند بداية الاحتلال. وربما أرادت بريطانيا من إيجاد نصوص متعلقة بحقوق الفلسطينيين، إظهار نفسها بمظهر الحكم العادل بين الطرفين العربي واليهودي، وتشجيع الفلسطينيين على المطالبة بحقوقهم وفق أساليب مدنية "دستورية"، وعدم إغلاق كافة المنافذ أمامهم، بحيث لا يصلون إلى درجة الانفجار والثورة بسرعة، في الوقت الذي تقوم فيه بالتسويق والمماطلة، ريثما يتم لها ترسيخ الوطن القومي اليهودي في فلسطين.

وضعت بريطانيا فلسطين تحت الحكم العسكري حتى نهاية حزيران/يونيو ١٩٢٠، ثم حولتها إلى الحكم المدني، وعيّنت اليهودي الصهيوني هربرت صمويل أول "مندوب سام" لها على فلسطين (١٩٢٠-١٩٢٥) حيث شرع في تنفيذ المشروع الصهيوني ميدانياً على الأرض. وتابع المندوبون "السامون" المسيرة نفسها، غير أن أكثرهم سوءاً ودهاء ونجاحاً في التنفيذ

١ كان عدد العرب نحو ٦١٠ آلاف واليهود نحو ٥٠-٥٥ ألفاً.

كان آرثر واكهوب Arthur Wauchope (١٩٣١-١٩٣٨) حيث وصل المشروع الصهيوني في عهده إلى درجات خطيرة.

أولاً: تطور المشروع الصهيوني:

عاشت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني مؤامرة رهيبة، فحُرم أهل فلسطين من بناء مؤسساتهم الدستورية وحُكم أنفسهم، ووُضعوا تحت الحكم البريطاني المباشر، وأُعطى المندوبون السامون صلاحيات مطلقة. وضيّقت بريطانيا على الفلسطينيين سبل العيش وكسب الرزق، وشجعت الفساد، وسعت لتعميق الانقسامات العائلية والطائفية وإشغال أبناء فلسطين ببعضهم. وفي المقابل شجعت الهجرة اليهودية، فزاد عدد اليهود من ٥٥ ألفاً (٨٪ من السكان) سنة ١٩١٨ إلى ٦٤٦ ألفاً (٣١,٧٪ من السكان) سنة ١٩٤٨. وبالرغم من الجهود اليهودية - البريطانية المضنية للحصول على الأرض، إلا أن اليهود لم يتمكنوا من الحصول سوى على نحو ٦٪ من فلسطين بحلول ١٩٤٨، كان معظمها إما أراضٍ حكومية، أو أراضٍ باعها إقطاعيون غير فلسطينيين كانوا يقيمون في لبنان وسورية وغيرها، وقد بنى اليهود على هذه الأراضى ٢٩١ مستعمرة.

وفي الوقت الذي كانت السلطات البريطانية تسعى حثيثاً لنزع أسلحة الفلسطينيين، وتقتل أحياناً من يحوز سلاحاً نارياً، بل وتسجن لسنوات من يملك رصاصات أو خنجرًا أو سكيناً طويلاً، فإنها غصّت الطرف، بل وشجعت سرّاً تسليح اليهود لأنفسهم، وتشكيلهم قوات عسكرية وتدريبها، بلغ عددها مع اندلاع حرب ١٩٤٨ أكثر من ٧٠ ألف مقاتل (٦٤ ألف مقاتل من الهاغاناه Haganah، وخمسة آلاف من الأرغون، وألفين من شتيرن

Stern Gang ... وغيرها)، وهو عدد يبلغ أكثر من ثلاثة أضعاف الجيوش العربية السبعة عندما دخلت في حرب ١٩٤٨!! وأسس اليهود الوكالة اليهودية The Jewish Agency for Israel سنة ١٩٢٩، والتي تولت شؤون اليهود في فلسطين، وأصبحت أشبه بدولة داخل دولة لما تمتعت به من صلاحيات واسعة. وأقام اليهود مؤسسات اقتصادية واجتماعية وتعليمية ضخمة، شكّلت بنية تحتية قوية للدولة اليهودية القادمة، فتأسس اتحاد العمال (الهستدروت Histadrut) وافتتحت الجامعة العبرية بالقدس سنة ١٩٢٥...^١ وهكذا، فإن الظلم، والقهر، والمحابة كان السمة الأبرز للاستعمار البريطاني لفلسطين.

ثانياً: الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٢٩:

وبالرغم من حالة الإنهاك التي خرج بها الفلسطينيون من الحرب العالمية الأولى، وبالرغم من وقوع البلاد العربية من حولهم، والعالم الإسلامي بشكل عام، تحت سطوة الاستعمار ونفوذه، وبالرغم من ضعف إمكاناتهم المادية، وانعدام أدوات الضغط والنفوذ السياسي لديهم، مقارنة بما حظي به المشروع الصهيوني من دعم يهودي عالمي، ومن رعاية القوى العظمى له،

١ انظر مثلاً لمزيد من التفصيل حول تطور المشروع الصهيوني في: محمد سلامة النحال، سياسة الانتداب البريطاني حول أراضي فلسطين العربية، ط ٢ (بيروت: منشورات فلسطين المحتلة، ١٩٨١)؛ وحرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨ (الرواية الإسرائيلية الرسمية) ترجمة أحمد خليفة (قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤)، ص ١٨، و٢٦؛ وصالح أبو بصير، جهاد شعب فلسطين، ص ٤٦٥-٤٨٥؛ ومحمد عبد الرؤوف سليم، نشاط الوكالة اليهودية لفلسطين: منذ إنشائها وحتى قيام دولة إسرائيل ١٩٢٢-١٩٤٨ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٢).

بالرغم من ذلك كله، فإن التمسك بحقوقهم الكامل في فلسطين، والإصرار على استقلالهم مهما كلف الثمن، كانت السمة الأبرز لنشاطهم السياسي الجهادي طوال فترة الاحتلال البريطاني. وقد تمحور النشاط السياسي الفلسطيني حول مطالب محددة أبرزها:

* إلغاء وعد بلفور لما يتضمنه من ظلم وإجحاف بحقوق الأغلبية الساحقة من السكان.

* إيقاف الهجرة اليهودية.

* وقف بيع الأراضي لليهود.

* إقامة حكومة وطنية فلسطينية منتخبة عبر برلمان (مجلس تشريعي) يمثل الإرادة الحقيقية الحرة للسكان.

* الدخول في مفاوضات مع البريطانيين لعقد معاهدة، تؤدي في النهاية إلى استقلال فلسطين.

وعلى هذه الأسس نشأت الحركة الوطنية الفلسطينية، وأقام الفلسطينيون مؤتمرهم الأول (المؤتمر العربي الفلسطيني ٢٧/١ - ١٠/٢/١٩١٩) في القدس، فرفض تقسيم بلاد الشام وفق المصالح الاستعمارية، وعدّ فلسطين جزءاً من سورية (بلاد الشام)، وطالب باستقلال سورية ضمن الوحدة العربية، وتشكيل حكومة وطنية تمارس الحكم في فلسطين، وقد عقد الفلسطينيون سبعة مؤتمرات من هذا النوع حتى سنة ١٩٢٨. وبرز في قيادة الحركة الوطنية رئيس اللجنة التنفيذية للمؤتمر الفلسطيني موسى كاظم الحسيني، الذي استمر في الزعامة الرسمية للحركة الوطنية حتى وفاته في آذار/ مارس ١٩٣٤. غير أنه من الناحية الفعلية برز اسم الحاج أمين

الحسيني، الذي أصبح مفتي القدس سنة ١٩٢١، ورئيس المجلس الإسلامي الشرعي الأعلى منذ تأسيسه سنة ١٩٢٢، والذي غدا أهم قلعة للحركة الوطنية والقوة الدافعة خلفها. وبوفاة موسى كاظم الحسيني، أصبح الحاج أمين زعيم فلسطين دون منازع حتى نهاية الاستعمار البريطاني سنة ١٩٤٨.

ركّز قادة الحركة الوطنية الفلسطينية خصوصاً خلال الفترة ١٩١٨-١٩٢٩ على المقاومة السلمية للمشروع الصهيوني، ومحاولة إقناع بريطانيا بالعدول عن وعد بلفور، وقد كان ما يزال لديهم بقايا أمل في ذلك، خصوصاً وأن البريطانيين كانوا حلفاء الشريف حسين خلال الحرب العالمية الأولى، كما أن المشروع الصهيوني لم يكن قد حقق بعد أيّ نتائج عملية ذات أبعاد خطيرة على الوضع في فلسطين. هذا، بالإضافة إلى أن القيادة الفلسطينية لم تكن ترى أن الفلسطينيين يملكون الوسائل البديلة المكافئة التي تمكّنهم من فرض إرادتهم على البريطانيين. كما أن القيادة نفسها لم تكن تملك العزيمة والإرادة والتماسك لتحدي البريطانيين بوسائل أكثر عنفاً. ولعبت قلة الخبرة السياسية، والتنافس العائلي على القيادة (الحسينية والنشاشيبية)، والذي أسهم البريطانيون في تأجيجه، دوره في إضعاف الحركة الوطنية الفلسطينية. غير أن هذا لم يؤثر بشكل عام على الموقف المبدئي الفلسطيني من المشروع الصهيوني والاستعمار البريطاني، ومن المطالب السياسية العامة للحركة الوطنية.

ومن الناحية السياسية، أرسلت القيادة الفلسطينية وفدًا الأول إلى لندن في تموز/ يوليو ١٩٢١، الذي التقى وزير المستعمرات ونستون تشرشل Winston Churchill وعدداً من المسؤولين، لكن جهوده لم تلقَ آذاناً صاغية من الحكومة البريطانية، وإن كان نجح في دفع مجلس اللوردات House of Lords

البريطاني بإصدار قرار برفض وعد بلفور. ومن جهة أخرى، أفشل الفلسطينيون محاولة بريطانية لتشكيل مجلس تشريعي في فلسطين سنة ١٩٢٣ منزوع الصلاحية الفعلية، ولا يمثل بشكل صحيح سكان فلسطين. ولقيت زيارة بلفور لفلسطين سنة ١٩٢٥ احتجاجات عامة، وتمت مقاطعته، ونُفذ إضراب شمل كل فلسطين. وفي المؤتمر الفلسطيني الخامس الذي أقيم في ٢٢-٢٥/٨/١٩٢٢ وضع المؤتمر ميثاقاً وطنياً أقسموا اليمين التالي على الالتزام به: "نحن ممثلي الشعب العربي الفلسطيني في المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس المعقود في نابلس، نتعهد أمام الله والتاريخ والشعب على أن نستمر في جهودنا الرامية إلى استقلال بلادنا، وتحقيق الوحدة العربية بجميع الوسائل المشروعة، وسوف لا نقبل بإقامة وطن قومي يهودي أو هجرة يهودية"^١.

ثالثاً: المقاومة الفلسطينية ١٩١٩-١٩٢٩:

كانت أولى بوادر مقاومة المشروع الصهيوني إنشاء جمعية "الفدائية" أوائل ١٩١٩، وقد تكونت لها فروع في يافا، والقدس، وغزة، ونابلس، وطولكرم، والرملة، والخليل، وتولى زعامتها في البداية محمد الدباغ، ثم محمود عزيز الخالدي، واستمرت بأشكال مختلفة حتى سنة ١٩٢٣. وكان من الشخصيات الموجهة لها في الخفاء الشيخ سعيد الخطيب، والحاج أمين الحسيني، والشيخ حسن أبو السعود، والشيخ محمد يوسف العلمي. ونشطت في تجنيد الأعضاء وسط الجندرية والشرطة الفلسطينية. وبالرغم

١ انظر حول ما سبق في: عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ١٠٤-١٠٥،

من أنه تمّ القبض على كثير من عناصرها، إلا أنه يظهر أن أفرادها شكّلوا عناصر تحريض مهمة في انتفاضة موسم النبي موسى في القدس في أبريل/ نيسان ١٩٢٠.^١

وخلال كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٩ - آذار/ مارس ١٩٢٠، وقعت هجمات عربية على المستعمرات اليهودية في الجليل الأعلى حيث دُمّرت مستعمرات المطلة، وتل حاي، وكفر جلعادي، واضطر اليهود للفرار.^٢

١. انتفاضة موسم النبي موسى، القدس نيسان/ أبريل ١٩٢٠:

تعد هذه الانتفاضة أولى الانتفاضات الشعبية في فلسطين، وقد حدثت الشرارة الأولى لهذه الانتفاضة بينما كانت وفود القرى محتشدة في القدس يوم ٤/٤/ ١٩٢٠ للمشاركة في هذا الموسم الديني السنوي. وقد خطب في هذه الحشود عدد من رجالات فلسطين مثل موسى كاظم الحسيني، والحاج أمين الحسيني، وعارف العارف... فألهبوا حماس الجماهير. وفي هذه الأثناء، يظهر أن أحد اليهود قد أهان العلم الإسلامي لأهل الخليل، وقام بتلويثه، فهاجمه المتظاهرون وضربوه. ثم تفجر الموقف واتسعت الاشتباكات لتشمل مدينة القدس، وفرضت السلطات البريطانية الأحكام العرفية، وحاولت

^١ See Report on the Arab Movement & Zionism, by J. Camp, 12 Aug 1919, The National Archives (Public Record Office), London, Foreign Office, F.O. 371/4182, Yeshoa Porath, The Emergence of the Palestine National Movement, 1918-1929 (London: Frank Cass, 1974), p. 129.

^٢ انظر: كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٢٢-١٩٣٩ (طرابلس، ليبيا: المنشأة العامة للنشر، ١٩٨٢)، ص ٢٣٠-٢٣٢؛ وانظر أيضًا: تقارير حول هذه الهجمات في الأرشيف البريطاني، وثائق الخارجية البريطانية، ملف: F.O. 371/5117

فلسطين في مواجهة المشروع الصهيوني منذ العهد العثماني وحتى نهاية الاحتلال البريطاني ١٢٣

السيطرة على الوضع، لكن ذيول الأحداث استمرت حتى ١٠/٤/١٩٢٠.^١ أسفرت هذه الانتفاضة عن مقتل ٥ يهود وجرح ٢١١ آخرين بينهم ١٨ إصابة خطيرة. أما من العرب فقد استشهد ٤ وجرح ٢٤ آخرين، كما جرح ٧ جنود بريطانيين.^٢

وعلى الرغم من أن هذه الانتفاضة بدت انفعالاً عفويًا، إلا أنه من الواضح أن عددًا من القيادات الوطنية والجمعيات والمنظمات التي يقودونها قد قامت بدورٍ تحريضي، ونسقت بشكل منظم الهجمات ضدّ اليهود. وكان للحاج أمين الحسيني دورٌ بارز في ذلك، حيث ذكر أحد معاصريه (عجاج نويهض) أنه "في موسم النبي موسى كان للحاج أمين اليد المدبرة الحكيمة في إعطاء اليهود أول درس"؛ وقد حُكم على الحاج أمين وعلى عارف العارف، بعد أن استطاعا الهرب، بالسجن غيابيًا لمدة عشرة أعوام، لكن المندوب "السامي" البريطاني أصدر عفواً عنهما بعد ذلك، في محاولة لتهدئة الأوضاع. وإثر هذه الانتفاضة قامت السلطات البريطانية بإقالة موسى كاظم الحسيني من رئاسة بلدية القدس، حيث تفرّغ لقيادة الحركة الوطنية الفلسطينية حتى وفاته سنة ١٩٣٤، وقد عيّنت مكانه راغب النشاشيبي في رئاسة البلدية، لتلعب منذ ذلك الوقت ورقة الصراع العائلي (حسينية ونشاشيبية)، والتي انعكست سلبًا على حركة المقاومة طوال الاحتلال البريطاني.^٣

١ انظر: خليل السكاكيني، كذا أنا يا دُنيا، ص ١٩٣، وانظر:

Frances Newton, Fifty Years in Palestine (London: Cold Harbour Press, 1948), pp. 133-135.

٢ Palin Report, p. 75, F.O. 371/5121.

٣ انظر: تقرير بيل، ص ٢٣٤؛ وعجاج نويهض، رجال من فلسطين، ص ٣١٩.

٢. انتفاضة يافا: أيار/ مايو ١٩٢١ :

عاش شعب فلسطين أجواء من الغضب وخيبة الأمل إثر زيارة وزير المستعمرات البريطاني ونستون تشرشل إلى فلسطين في ٢٨/٣/١٩٢١، والذي أكد بشكل قاطع دعم بريطانيا للوطن القومي اليهودي، وكان لقاءه بالوفد العربي الفلسطيني في القاهرة في ٢٢ آذار/ مارس، وفي القدس في ٢٨ آذار/ مارس مخيباً للآمال. كما قمعت الشرطة بعنف مظاهرة قامت في حيفا في ٢٨ آذار/ مارس وقتلت اثنين من العرب، ومنعت المظاهرات... مما أثار جواً من التوتر.^١

وقد وقعت شرارة الانتفاضة عندما اعتدت مجموعة من الشيوعيين اليهود، المحتفلين بعيد العمال في ١/٥/١٩٢١، على المسلمين القاطنين في حي المنشية في يافا، وحدث إطلاق نار على المارة العرب، صدر - على ما يبدو - من منزل للمهاجرين اليهود شرقي شارع العجمي. فهاجم العرب منزل المهاجرين اليهود وقتلوا ١٣ يهودياً وجرحوا ٢٤ آخرين من أصل ١٠٠ يقيمون فيه، معظمهم من الشباب. ثم اتسعت الاشتباكات والأحداث لتغطي أجزاء عديدة من شمال فلسطين، ولتستمر جذوتها حتى منتصف أيار/ مايو ١٩٢١.^٢

١ عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ١٤٢-١٤٤؛ وكامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٢٥٠.

٢ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٩: من أوراق أكرم زعير، أعدتها للنشر بيان الحوت، ط ٢ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤)، ص ٧٢؛ وانظر أيضاً:

Disturbances in May 1921: Report of the Commission of Inquiry with =

واستفاد اليهود من وجود أفراد الكتيبة اليهودية الذين تسلموا البنادق بحجة الدفاع عن تل أبيب، لكنهم ما لبثوا أن تسربوا منها إلى شوارع وأسواق يافا وأخذوا يطلقون النار على العرب وهم يلبسون الزي العسكري البريطاني. وتظاهر أهل يافا مطالبين السلطات بإحلال جنود هنود مكان البريطانيين لأن العرب لا يستطيعون التفريق بينهم وبين اليهود، وقد استجابت السلطات جزئياً لطلبهم.^١

ومع اتساع الانتفاضة خارج يافا، قام ٣ آلاف عربي بمهاجمة مستعمرة بتاح تكفا، وقد تصدت لهم قوة بريطانية من فوج الفرسان الهندي الثامن، وساعدها الطيران البريطاني الذي قام بقصف المهاجمين، وقد فقد العرب في هذا الهجوم ٢٨ شهيداً و ١٥ جريحاً، وفقد اليهود ٤ قتلى و ١٢ جريحاً.^٢ وفي ٦ أيار/ مايو هاجم نحو ٤٠٠ عربي مستعمرة الخضيرة وأحرقوا منزلين، وكان يمكن أن تدمر المستعمرة لولا تدخل الطيران البريطاني، الذي قصفهم وأجبرهم على الانسحاب.^٣ وفي اليوم نفسه، هاجم قرابة ٦٠٠ عربي مستعمرة رحوبوت، لكن الجيش البريطاني استطاع الوصول في الوقت المناسب، والدفاع

= Correspondence Relating Thereto Oct. 1921, Cmd. 1540 (London: H.M.S.O., 1921), p. 60. (Haycraft Report).

١ انظر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٦٢، وانظر:

Haycraft Report, pp. 30-33; and Report on Political Situation in Palestine for the Month of May 1921, H. Samuel to Churchill, 6 Jun. 1921, F.O. 371/6375.

٢ Haycraft Report, pp. 38-41; and Dispatch, Samuel to Churchill, 15 May 1921, The National Archives (Public Record Office), London. Air Ministry,

AIR5/1243.

٣ Haycraft Report, pp. 5-16.

عنها. كما هاجم العرب مستعمرتي كفر سابا وعين حاي (اللتين هرب أهلهما إلى بتاح تكفا)، وأوقعوا فيهما الكثير من الدمار.^١

ومن جهة أخرى، قام اليهود بأسر العرب الموجودين عندهم في مستعمرة بتاح تكفا وقتلوا ٥٠ مسلمًا. ووجد بين القتلى المسلمين من قُتل حرقًا بماء الفضة، وبالآلات القاطعة، ومن شُوّه وعذب قبل قتله، وكان بين الشهداء أطفال ونساء وبنات هتكت أعراضهن وبقرت بطونهن، وجُردن من ملابسهن، وبلغت هذه الأخبار حدّ التواتر وثبتت بتقارير الأطباء.^٢

وحسب الإحصاءات الرسمية البريطانية قتل من اليهود ٤٧ وجرح ١٤٦، وقتل من العرب ٤٨ وجرح ٧٣.^٣ ويبدو أن هذه الأرقام أقل من العدد الحقيقي، ففي اليومين الأولين فقط قُتل من اليهود ٤٠ وجرح ١٣٠، كما يظهر أن الإحصائية لم تشمل الشهداء العرب الـ ٥٠ الذين قُتلوا في مستعمرة بتاح تكفا. وربما انفرد سامي الجندي بذكر أن شهداء العرب بلغوا ١٥٧، وأن جرحاهم وصل عددهم إلى ٧٠٥، وأن قتلى اليهود وجرحاهم يزيد عن ذلك.^٤ وقد اعترف تقرير اللجنة الملكية البريطانية أن معظم الإصابات وسط العرب كانت على أيدي القوات البريطانية.^٥ وذكر تقرير بريطاني آخر

^١ Ibid., pp. 36-41.

^٢ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٧٣-٧٤؛ وعبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨-١٩٣٩، ط ٢ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ٢٠-٢١.

^٣ Haycraft Report, p. 60.

^٤ سامي الجندي، عرب ويهود: العداء الكبير (بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٦٨)، ص ٦١.

^٥ تقرير بيل، ص ٦٥-٦٦.

أن معظم إصاباتهم كانت برصاص البريطانيين أو اليهود، وأن معظم إصابات اليهود كانت بالسكاكين والعصي على أيدي العرب.^١

وقد ظهر أيضًا الأداء المتحيز للسلطات البريطانية من خلال الإجراءات القضائية التي اتخذها النائب العام نورمان بنتويش Norman Bentwich، وهو بريطاني يهودي صهيوني كان يتولى أمور القضاء والعدالة في فلسطين، حيث أحال القضايا المتعلقة بالفظائع التي ارتكبتها الصهاينة إلى المحاكم كقضايا شخصية بسيطة.^٢

وكان يمكن لهذه الانتفاضة أن تتفاعل وتتسع لولا أن موقف الزعامات السياسية الفلسطينية مال إلى تهدئة الوضع. وقام عدد من الوجهاء ورؤساء البلديات بتهدئة الجماهير. وقدّرت السلطات البريطانية "خدمات" رؤساء بلديات القدس، وطولكرم، ويافا، وقاضي القدس، ومفتيا عكا وصفد فمحتهم وسام عضو الإمبراطورية M.B.E. وحتى موسى كاظم، رئيس اللجنة التنفيذية التي تُمثل قيادة الحركة الوطنية، قام بنفسه بجولة لتهدئة الوضع، لأن القيادة كانت ما تزال تأمل بحل سياسي، ولم تكن في وضع يؤهلها لأي عمل ثوري.^٣

١ See The Situation Palestine, Memorandum by S. Of S. Colonies to the Cabinet, 9 Jun. 1921, Enclosing a Report by C.D. Brunton, 13 May 1921, Secret, F.O. 371/6375.

٢ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٧٣.

٣ كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٢٥٦؛ وانظر:

Report on the Political Situation in Palestine for the Month of May 1921, F.O. 371/6375.

وقامت السلطات ومن جهتها، بعمل استرضائي، إذ أوقفت الهجرة اليهودية مؤقتاً اعتباراً من ١٤/٥/١٩٢١. وألقى المندوب السامي هربرت صمويل بياناً، في ٣/٦/١٩٢١، ذكر فيه أن بريطانيا لن تفرض على شعب فلسطين سياسة تجعلهم يعتقدون أنها مناقضة لمصالحهم الدينية والسياسية والاقتصادية.^١ وقد نشر هذا جواً من الارتياح في الوسط العربي، غير أنه لم يكن عملياً سوى وسيلة لتهذئة الأمور وترتيب الأوضاع، ليمضي المشروع الصهيوني بوسائل أكثر احترافاً ونجاحاً. وقد اعترف السكرتير العام للحكومة ديدز Wyndham Deedes أن الغالبية العربية شعرت بعد ذلك بأشهر بأن الحكومة البريطانية "مقيدة اليد والقدم"، وأن هذا البيان مجرد ذرّ للرماد في العيون، وأن الشقة قد اتسعت بين العرب والإدارة البريطانية، التي أصبحوا يرونها والصهيونية شيئاً واحداً.^٢

٣. ثورة البراق: آب/ أغسطس ١٩٢٩:

لم تحدث ثورات على مدى واسع بعد ثورة يافا وحتى ثورة البراق. ولكن حدثت بعض الأحداث المتفرقة مثل مظاهرة القدس في ذكرى وعد بلفور في ٢/١١/١٩٢١، التي أدت إلى مقتل ٥ يهود واستشهاد ٣ من العرب وإصابة ٣٦ من الطرفين.^٣ وفي ٢٠/٣/١٩٢٤، كان اليهود يحتفلون بعيد المساخر Purim، وأشركوا في مساخرهم زيّ العلماء المسلمين مما أثار حفيظة المسلمين، فقتل يهودي وآخر مسلم، وجرح

١ انظر نص كلمة صمويل في وثائق الخارجية البريطانية، ملف F.O. 371/6375.

٢ Letter, Deeds, Jerusalem, to Shuckburgh, London, 22 Nov. 1921, The National Archives, Colonial Office, C.O. 537/852.

٣ كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٢٧٣.

يهودي واثنان من المسلمين.^١ وفي ٢٥/٣/١٩٢٥ أضربت فلسطين إضراباً شاملاً بمناسبة زيارة بلفور إلى فلسطين.^٢ وكان من أسباب حالة الهدوء خلال ١٩٢٢-١٩٢٨ تراجع معدلات الهجرة اليهودية، وحالة الانقسام والتفكك التي شهدتها الحركة الوطنية الفلسطينية.

وحائط البراق هو الحائط الغربي للمسجد الأقصى، ويسميه اليهود حائط المبكى، وكان المسلمون يسمحون لليهود بزيارة المكان الذي هو وقف إسلامي من باب التسامح الديني. وقد حدث أول تصعيد خطير بشأن حائط البراق في ٢٣/٩/١٩٢٨ عندما حاول اليهود تغيير حالة الأمر الواقع، وتحويل المكان إلى ما يشبه الكنيس اليهودي. فأسس المسلمون في ٣٠ أيلول/ سبتمبر "لجنة الدفاع عن البراق الشريف". وعقدوا في القدس مؤتمراً إسلامياً في ١/١١/١٩٢٨، حضرته وفود من الأردن، والعراق، ولبنان، وسورية والهند، وقرر المؤتمر تشكيل "جمعية حراسة المسجد الأقصى والأماكن الإسلامية المقدسة".^٣

١ عمر أبو النصر بالاشتراك مع إبراهيم نجم وأمين عقل، جهاد فلسطين العربية: فصول تبحث في تاريخ القضية الفلسطينية وما طرأ عليها من تطور وتحول منذ النضال العربي الأول وحتى الثورة الحاضرة (يافا (فلسطين): دون ناشر، ١٩٣٦)، ص ٢٦٠؛ وإحسان النمر، قضية فلسطين في دورها البلدي (نابلس (فلسطين): جمعية عمال المطابع التعاونية، د.ت)، ص ١١٢. وانظر أيضاً:

The Parliamentary Debates: Official Report, Fifth Series, House of Commons.

London: H.M.S.O, 1924, (P.D., Commons), Vol. 171, Col. 1796.

٢ كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٣٩٩-٤٠٤، وانظر:

P.D., Commons, 1925, Vol. 182, Col. 1804, and Vol. 183, Col. 564.

٣ انظر: عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية، ص ١١٩-١٢٦؛ =

ثم حدث تصعيد يهودي آخر في ١٥/٨/١٩٢٩ حيث نظم اليهود مظاهرات في القدس اتجهت إلى حائط البراق وهناك رفعوا العلم الصهيوني، وأنشدوا نشيدهم الوطني، وشتتم خطبائهم رسول الله عليه الصلاة والسلام، والإسلام والمسلمين. وقام المسلمون في اليوم التالي بمظاهرة مضادة من المسجد الأقصى. وحدث شجار بين العرب واليهود في ١٧ آب/ أغسطس زاد الأوضاع توترًا. ثم وقعت صدامات واسعة بعد صلاة الجمعة يوم ٢٢ آب/ أغسطس في القدس. ولم تكذ أخبار هذه الصدامات تصل إلى الناس حتى عمّت المظاهرات والصدامات جميع أنحاء فلسطين واستمرت بشكل عنيف أسبوعًا كاملاً، غير أن جذوتها لم تنطفئ إلا بعد أيام أخرى تالية.^١

وفي ٢٤ آب/ أغسطس قام العرب في الخليل بمهاجمة الحي اليهودي فقتلوا أكثر من ٦٠ يهوديًا وجرحوا أكثر من ٥٠ آخرين، وتمكنت الشرطة من الحؤول دون وقوع مذبحه هائلة لليهود، فاصطدمت بالمتظاهرين،^٢ وذكر أنها قتلت ١٠ منهم وجرحت آخرين.^٣ وفي ٢٩ آب/ أغسطس هاجم

= ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٩)، ص ٢٠-٢١؛ وعيسى السفري، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ط ٢ (القدس: منشورات صلاح الدين، ١٩٨١)، ج ١، ص ١٢٢.

١ انظر: عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية، ص ١٤١-١٤١؛ وعبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٠٢؛ وأميل الغوري، فلسطين عبر ستين عامًا، ص ١١٥.

٢ Report of the Commission on the Palestine Disturbances of Aug. 1929, March ٢ 1930, Cmd. 5350 (London: H.M.S.O., 1930), p. 64 (Hereafter referred to as Shaw Report).

٣ جريدة الشورى، مصر، ١٨/٩/١٩٢٩.

العرب الحي اليهودي في صفد فقتلوا ٢٠ وجرحوا ٢٥ آخرين.^١ وفي الفترة من ٢٤ آب/ أغسطس وحتى ٢ أيلول/ سبتمبر هاجم العرب الكثير من المستعمرات اليهودية، ودمروا ستة منها تدميرًا كاملاً. وهوجم اليهود في يافا وبيسان. وتحولت فلسطين إلى ساحة قتال، ولم تستطع السلطات البريطانية الإمساك بزمام الأمور إلا في ٢٨ آب/ أغسطس، عندما اكتملت التعزيزات العسكرية.^٢

أسفرت هذه الثورة عن مقتل ١٣٣ يهوديًا وجرح ٣٣٩ آخرين، معظمهم أصيب على أيدي العرب. واستشهد من العرب ١١٦ وجرح ٢٣٢ معظمهم على يد الشرطة والجيش البريطاني.^٣ وكانت الإصابات بين البريطانيين نادرة جدًا، لأن الثورة كانت موجهة ضد اليهود فقط. وقد سيق إلى المحاكمة نحو ١٣٠٠ شخص ٩٠٪ منهم من العرب.^٤ واتهم العرب مرة أخرى اليهودي الصهيوني بنتويش الذي كان يتولى منصب النائب العام أو مسؤول "العدالة" في حكومة الانتداب البريطاني بالظلم والتحيز الفاضح. وذكروا أنه أخذ يتهم العرب بالعشرات، ويُفرج عن اليهود حتى القتل بكفالة وبدون كفالة، وأنه أفرج عن مجرم يهودي متهم بقتل أربعة من العرب، أحرق أحدهم حرقًا.^٥

١. Shaw Report, p. 65.

٢. انظر: كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٤٥٥؛ وانظر:

Shaw Report, p. 65; and Report on Palestine Riots 23 Aug. - 11 Sep. 1929, by Group Captain P.H.L. Play fair, 26 Dec. 1929, pp. 14-20, p. 29, p. 41, p. 49,

AIR5/1243.

Shaw Report, p. 65. ٣

٤ تقرير بيل، ص ٢٥٠.

٥ جريدة الشورى، ٩/١٠/١٩٢٩.

وقد جرت محاولة لاغتيال بنتوئيش، أصيب على إثرها في فخذه، ثم إن السلطات البريطانية أعفته من منصبه سنة ١٩٣١. ^١ وقد نفذت السلطات البريطانية ثلاثة أحكام بالإعدام على ثلاثة من العرب هم عطا الزير، ومحمد جمجوم، وفؤاد حجازي. وكان استشهداهم في ١٧/٦/١٩٣٠، يومًا مشهودًا في تاريخ فلسطين عرف بـ"الثلاثاء الحمرء". وقد أبدى الثلاثة ضروبًا من الشجاعة والثبات عند التقدم إلى جبل المشنقة، وطلب الزير وجمجوم "حناء" ليخضبوا أيديهما، وهي عادة عربية في منطقتهما للدلالة على الاغتياب بالموت، وأنشدوا وأنشد أهل فلسطين معهم:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا نور فجر يتسامى ^٢

كانت هذه الثورة أولى الثورات التي تشمل كل فلسطين، لكنها استهدفت كسابقتها اليهود فقط وليس البريطانيين، حيث كان ما يزال بعض الأمل في أن يغيّر البريطانيون مواقفهم. ولكن الفلسطينيين أدركوا تمامًا بعد هذه الثورة أن المشروع الصهيوني تحميه الحراب البريطانية، وأن صراعهم يجب أن يوجّه بالدرجة الأولى ضدّ بريطانيا نفسها.

وقد اتخذت هذه الثورة بُعدًا إسلاميًا واضحًا من خلال سعي المسلمين للدفاع عن حرمة المسجد الأقصى وحققهم في حائط البراق. كما ثبت بعد

١ جريدة الشورى، ٣٠/٤/١٩٣٠؛ وانظر:

Norman Bentwich, *Mandate Memories: 1918-1948* (London: The Hogarth Press, 1965), pp. 136-137.

٢ جريدة الشورى، ٢٥/٦/١٩٣٠؛ وكامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٤٨٤-٤٨٥.

فلسطين في مواجهة المشروع الصهيوني منذ العهد العثماني وحتى نهاية الاحتلال البريطاني ١٣٣

ذلك أن الحاج أمين الحسيني (مفتي فلسطين ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى) كان وراء التخطيط والإعداد السري لهذه الثورة.^١

رابعاً: الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٢٩-١٩٣٩:

كانت ثورة البراق ١٩٢٩ فاتحة لعقد تصاعدت فيه المقاومة الجهادية العنيفة للمشروع الصهيوني وللاستعمار البريطاني على حدّ سواء، وقد وصلت ذروتها في الثورة الفلسطينية الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩). فقد أخذت تتكرس خطورة المشروع اليهودي - الصهيوني خصوصاً إثر هجرة أكثر من ١٥٢ ألف يهودي خلال الفترة ١٩٣٠-١٩٣٥، مما ضاعف عدد اليهود الذين كان عددهم في منتصف سنة ١٩٢٩ نحو ١٥٦ ألفاً، وكان الكثير من المهاجرين الجدد من ألمانيا، من رجال الأعمال وأصحاب الأموال والتجارة ومن العلماء المتخصصين. كما تمكن اليهود في الفترة نفسها (١٩٣٠-١٩٣٥) من الاستيلاء على ٢٢٩ ألف دونم من الأراضي الفلسطينية. وهرب اليهود كميات ضخمة من الأسلحة كُشفت حالتان منها في ١٥/٣/١٩٣٠، وفي ١٦/١٠/١٩٣٥.^٢

١ انظر: أميل الغوري، فلسطين عبر ستين عاماً، ص ١٣٥-١٣٦؛ وإحسان النمر، قضية فلسطين في دورها البلدي، ص ١٩٣؛ وبيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٢٣١. وانظر أيضاً:

Yeshoa Porath, The Emergence of the Palestine National Movement, 1918-1929, p. 271.

٢ انظر: تقرير بيل، ص ٢٦٦. وانظر أيضاً:

Palestine Government, A Survey of Palestine, prepared in Dec. 1945 & Jan.

1946 (Jerusalem: Government Printer, 1946), vol. 1, pp. 141, 185, 224.

وتميّز النصف الأول من الثلاثينيات بازدياد النشاط السياسي والتفاعل الوطني مع الأحداث، وتوجيه العداء بشكل مباشر وواسع ضدّ السلطات البريطانية باعتبارها "أصل الداء، وأساس كل بلاء". وتشكلت في هذه الفترة الأحزاب الفلسطينية، وكان "حزب الاستقلال" أولها ظهوراً في آب/ أغسطس ١٩٣٢، وأسهم بشكل كبير في توجيه العداء ضدّ بريطانيا، لكنه ضَعُف منذ منتصف ١٩٣٣. أما الحزب العربي الفلسطيني الذي ظهر في آذار/ مارس ١٩٣٥ فقد أصبح الحزب الشعبي الأول، وحظي بدعم المفتي (الحاج أمين) وبدعم الجماهير^١ ونشطت في الفترة نفسها جمعيات الشبان المسلمين، والحركات الكشفية. ونشأت وتطورت تنظيمات سرية عسكرية جهادية مثل حركة "الجهادية" بقيادة عزّ الدين القسام، ومنظمة "الجهاد المقدس" بقيادة عبد القادر الحسيني (والإشراف السريّ للحاج أمين)، كما ظهرت مجموعات ثورية أصغر دخلت في صدامات مبكرة مع السلطة مثل "الكفّ الأخضر".

لقد فَقَدَ الفلسطينيون في هذه الفترة أملهم في الحصول على حقوقهم بالوسائل السلمية والقانونية، وعلّق الحاج أمين الحسيني على تلك المرحلة قائلاً: "كنا ما نزال حتى سنة ١٩٣٢ على شيء من الأمل، ولكنه زال مع الزمن، كل عذابنا... كل آلامنا كانت تُعدُّ بعناية، لم يكن أمامنا غير الشهادة"^٢. وأشارت مذكرة لمدير قسم المخابرات في شرطة فلسطين إلى أن "الشعور المتزايد بالسخط ضدّ الانتداب البريطاني والإدارة أصبح سائداً

١ انظر: بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٣٠١-٣١٤؛ وكامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٥١٧-٥٢١.

٢ زهير المارديني، ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني (بيروت: د.ن، ١٩٨٠)، ص ٧٧.

فلسطين في مواجهة المشروع الصهيوني منذ العهد العثماني وحتى نهاية الاحتلال البريطاني ١٣٥

وسط كل الطبقات...، وأن العرب، الذين أمّلوا بأن بريطانيا سوف تحقق لهم العدل، قد أصيبوا باليأس^١.

وقد أسهم في تكريس القناعات المعادية لبريطانيا وانتشارها فشل مهمة الوفد العربي الفلسطيني إلى لندن برئاسة موسى كاظم الحسيني، في ربيع ١٩٣٠. وعدم تنفيذ توصيات جون هوب سمبسون John Hope Simpson خبير الإسكان والأراضي، الذي كلّفته الحكومة البريطانية بدراسة الوضع في فلسطين، والذي استنتج بعد دراسة دقيقة أنه لا توجد أراضي إضافية يمكن إعطاؤها للمهاجرين اليهود، وأوصى بخفض الهجرة اليهودية أو وقفها^٢. وزاد من تفاقم الوضع نكوص الحكومة البريطانية عن تنفيذ توجهاتها التي أعلنتها في "الكتاب الأبيض" White Paper في تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٠ الذي وعد بضبط الهجرة اليهودية، ثم إصدارها "الكتاب الأسود" Black Letter في شباط/فبراير ١٩٣١ الذي أكد التزامات بريطانيا تجاه المشروع الصهيوني، ومسح عملياً ما جاء في الكتاب الأبيض^٣.

١ Appreciation of Arab Feeling as Affecting Palestine, Memorandum by H.R. Rice Submitted to the Chief Secretary, Government of Palestine, 8/9/1933, Secret, C.O. 733/257/11.

٢ Palestine: Report on Immigration, Land Settlement and Development, by Sir J.H. Simpson, 1930, Cmd. 3686 (London: His Majesty Stationary Office, 1930), pp. 141-153.

٣ اشتهر الكتاب الأبيض باسم كتاب باسفيلد الأبيض Passfield White Paper، أما الكتاب الأسود فهو رسالة رئيس الوزراء البريطاني ماكdonald R. MacDonald إلى حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية، وقرأها في مجلس العموم البريطاني في ١٣/٢/١٩٣١.

واستطاع أبناء فلسطين في تلك الفترة أن يجددوا البعد العربي والإسلامي لقضية فلسطين ويُنشّطوه. فنقلت التقارير في أيار/ مايو ١٩٣١ وجود مخطط ثوري جهادي يستهدف إنقاذ البلاد العربية وخصوصًا فلسطين وسورية، وأن الأمير شكيب أرسلان (وهو إسلامي لبناني) كان زعيم هذه الحركة، ويشترك معه في المخطط الحاج أمين الحسيني ومولانا شوكت علي، الزعيم الهندي المعروف. وكان على اتصال بزعماء الحركات العربية في الجزيرة العربية، والعراق، والشام، ومصر. لكن المخطط لم يُكتب له النجاح.^١ وفي ٧-١٧/١٢/١٩٣١ انعقد في القدس المؤتمر الإسلامي العام برئاسة الحاج أمين الحسيني، وبحضور مندوبين عن ٢٢ بلدًا، وتكرس فيه البعد الإسلامي لقضية فلسطين، التي أصبحت همًّا مركزيًّا للعالم الإسلامي، وحضره علماء وشخصيات إسلامية كبرى مثل الشيخ محمد رشيد رضا، والمفكر الهندي الشاعر محمد إقبال، والزعيم الهندي شوكت علي، والزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، ورئيس وزراء إيران السابق ضياء الدين الطبطبائي، والزعيم السوري شكري القوتلي،... وغيرهم. وصدرت العديد من القرارات العملية لإنشاء جامعة إسلامية، وتأسيس شركة لإنقاذ الأراضي، وتشكيل لجان لفلسطين في مختلف البلدان...^٢ لكن وقوع معظم بلدان العالم الإسلامي تحت الاستعمار، وإصرار البريطانيين على إفشال أي من المشاريع العملية أدى إلى تعطيل العمل بمعظم هذه القرارات. وتزايد دور علماء المسلمين الفلسطينيين بانعقاد مؤتمراتهم الأول في

١ عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٢٢٩.

٢ انظر: بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٢١٦، و٢٤٦-٢٤٧، و٨٧٢-٨٧٣.

١٩٣٥ / ١ / ٢٥ ، وإصدارهم فتوى بتحريم بيع الأرض لليهود، وتكفير من يرتكب ذلك، ثم قيامهم بحملة توعية كبرى في فلسطين.^١

١. ثورة الكفّ الأخضر: ١٩٢٩ - ١٩٣٠ :

كانت الكفّ الأخضر هي أولى المجموعات الثورية ظهوراً بعد ثورة البراق. وقد تركز نشاطها في شمال فلسطين وخصوصاً في قضاء صفد وعكا. وبدأت هذه المجموعة بـ ٢٧ رجلاً من الثوار الذين شاركوا في ثورة البراق، والذين هربوا من قبضة السلطات الأمنية. وقد انضم إليهم عشرات آخرين ليصل عددهم إلى نحو ٨٠ رجلاً، وقد لاقوا تعاطفاً واسعاً من السكان. وقامت هذه المجموعة بهجمات على اليهود وضد الشرطة، ونشطت خلال الفترة من تشرين الأول/ أكتوبر إلى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٩. وقد تولى قيادتها أحمد طافش.

وقد قامت السلطات البريطانية بعمليات مسح شاملة، وبتسيير الدوريات الراجلة، وتفتيش القرى، وقام الطيران البريطاني بالمساعدة في عمليات المسح الجوي. كما تمّ التعاون مع السلطات الفرنسية وقوات حدود شرق الأردن في عمليات الملاحقة، التي استمرت بشكل مكثف طوال شهري كانون الثاني/ يناير وشباط/ فبراير ١٩٣٥. وتمكنت من القبض على أحمد طافش في شرق الأردن في ٢٧ / ١ / ١٩٣٠.

ولم تستطع هذه المجموعة الثورية من الاستمرار بسبب ما تعرضت له من حملات، ولأن الزعامات السياسية الفلسطينية لم تتبن أسلوبها في

١ المرجع نفسه، ص ٢٩٤-٢٩٥؛ ووثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٣٨١-٣٩١.

العمل، ولم تدعمها، ولم تتعاون معها.^١

٢. انتفاضة تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٣ :

أخذت الهجرة اليهودية تتزايد بشكل خطير منذ مطلع الثلاثينيات، ونشطت الحركة السياسية الفلسطينية، وتزايد الوعي بأن بريطانيا هي "أصل الداء وسبب البلاء"، حيث تأكد للفلسطينيين أن مشكلتهم هي أساسًا مع بريطانيا، وركّزت على ذلك حملات حزب الاستقلال وجمعيات الشبان المسلمين. وطالبت اللجنة التنفيذية العربية - التي تمثل العرب الفلسطينيين سياسيًا - بوقف الهجرة، وهدّدت بتبني سياسة اللا-تعاون مع السلطات. وعندما رفضت السلطات البريطانية الطلب، قررت اللجنة تصعيد الموقف بتسيير المظاهرات دون إذن السلطات. وقررت الإضراب العام في فلسطين في ١٣/١٠/١٩٣٣، وإقامة مظاهرة كبرى في القدس، بحيث تتوالى بعد ذلك المظاهرات في مدن وقرى فلسطين، وتُضرب البلاد في كل مرة تحدث فيها المظاهرات. وألزمت اللجنة التنفيذية أعضائها بتقديم المسيرات، وأصدرت بيانًا أكدت فيه أن "عرب فلسطين قد يؤسوا يأسًا تامًا من الحكومة، فهم لا يخاطبونها في شيء، ولا يطلبون منها شيئًا".^٢

وفي ١٣ تشرين الأول/ أكتوبر أضربت فلسطين وخرجت مظاهرة

١ حول الكف الأخضر:

Report on Safad Gang, 1930, C.O. 733/190/5, & Summary of Items of Interest,

Air H.Q., Palestine Command, Jan. & Feb. 1930, AIR5/1245.

٢ انظر: عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية، ص ٢٣٨-٢٣٩؛

ومحمد دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٣٠.

كبيرة من المسجد الأقصى بقيادة اللجنة التنفيذية، وقامت الشرطة بتفريق المتظاهرين بالقوة مما أدى إلى وقوع ١١ جريحاً بينهم ٥ من الشرطة.^١ وفي ٢٧ تشرين الأول/ أكتوبر عمّ الإضراب فلسطين، وخرجت مظاهرة كبيرة في يافا بعد صلاة الجمعة بقيادة اللجنة التنفيذية، وحاولت الشرطة تفريق المتظاهرين، إلا أن الأمر تحول إلى مواجهات عنيفة، أدت—بحسب المصادر البريطانية—إلى مقتل ١٤ عربياً بالرصاص وجرح العشرات. بينما ذكر بيان اللجنة التنفيذية أن ٣٠ قد قتلوا وجرح ٢٠٠. واعتقلت السلطات ١٢ من القادة الفلسطينيين، بينهم ٣ أعضاء في اللجنة التنفيذية، وأصيب موسى كاظم الحسيني، رئيس اللجنة، بكدمات، وذكر أنه توفي متأثراً بهذه الإصابة في آذار/ مارس ١٩٣٤.^٢

وقد أحدثت "مجزرة يافا" ردود فعل غاضبة، فقامت مظاهرات عنيفة في مدن فلسطين، واستمر الإضراب العام أسبوعاً كاملاً. وحدثت مواجهات مع الشرطة في حيفا، ونابلس، والقدس. وحسب الإحصاءات العربية فقد

١ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٣٧٨؛ وانظر:

Resume of Operations for Oct. 1933, Air H.Q., 23 Nov. 1933, AIR5/1246, & Report of the Commission Appointed by His Excellency the High Commissioner for Palestine by Notification No. 1561 Published in the Official Gazette, Extraordinary, 7 Feb. 1934. (Hereafter referred to as Murison Report).

٢ انظر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٣٧٩-٣٨١؛ ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٣١-٣٢؛ وزهير المارديني، ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني، ص ٧٩. وانظر:

High Commissioner H.C. to Secretary of State for Colonies, 27 Oct. 1933, C.O. 733/239/5.

استشهد في القدس ويافا وحدهما ٣٥ وجرح ٢٥٥.١ أما المصادر البريطانية فأشارت إلى استشهاد ما مجموعه ٢٦ عربياً وجرح ١٨٧ آخرين، بينما قتل شرطي واحد.^٢

وكان من الواضح أن مشاعر العداء ضدّ بريطانيا قد وصلت حدّاً كبيراً، وكانت هذه أولى المواجهات العامة الموجهة مباشرة ضدّ بريطانيا وسياستها. وقد حاول المندوب السامي البريطاني تهدئة الوضع قبيل أحداث يافا عندما اجتمع باللجنة التنفيذية في ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر، لكن أحد أعضائها نقل له طلب كثير من الناس أن يخبروه أنه "ليس لدينا ما نخسره، لقد فقدنا الثقة بالحكومة، لقد فقدنا أرضنا، فقدنا كل شيء، ولن نبالي بما سيحدث لنا".^٣

٣. جماعة القسام "الجهادية":

الشيخ عزّ الدين عبد القادر مصطفى القسام، من مواليد بلدة جبلة قضاء اللاذقية في سورية ١٨٨٢، درس في الأزهر، وعاد ليكون أحد دعاة الإسلام النشطين في بلده في سورية. كان من قادة الثورة السورية ضدّ الفرنسيين خلال الفترة ١٩١٨-١٩٢٠، وقد هرب إلى فلسطين بعد توقفها، واستقر في حيفا.

عرف الشيخ القسام بتقواه، وورعه، وذكائه، وسعة علمه، وكان سلفيّ

١. Murrison Report.

٢ عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية، ص ٣٤١-٣٤٤.

Note of an Interview Granted by H.C. to Members of the Arab Executive, 25

Oct. 1933, C.O. 733/239/5 Part 2.

العقيدة، محاربًا للانحرافات والبدع، قدوة في سلوكه وما يدعو إليه. وكان القسم شجاعًا جريئًا، ومن أكثر العلماء توفًا للجهاد، قال يومًا وهو على المنبر يخطب "رأيت شبانًا يحملون المكانس لكنس الشوارع، هؤلاء مدعوون لحمل البنادق، ورأيت شبانًا يحملون الفرشاة لمسح أحذية الأجانب، هؤلاء مدعوون لحمل المسدسات لقتل هؤلاء الأجانب".

ولقد كان القسم متفاعلاً مع الواقع، ذو شخصية اجتماعية منفتحة محببة، تحمل هموم الناس، وتشاركهم أفراحهم وأتراحهم، ولأنه كان حسن السيرة والعشرة، ومحدثًا لبقًا وخطيبًا بارعًا، قوي الحجة، ومتواضعًا بعيدًا عن الغرور، فقد كان لذلك أثره في أن يكون ذا شعبية كبيرة.

وقد جعلته هذه الصفات، بالإضافة إلى رصيد تجربته الجهادية، مؤهلاً لأن يكون مؤسسًا لتنظيم جهادي قوي له دوره المهم في تاريخ فلسطين الحديث المعاصر.^١

تعود نشأة جماعة القسم إلى سنة ١٩٢٥، عندما ابتدأ الشيخ عز الدين القسم في إنشاء تنظيم جهادي سري، يستمد فهمه ومنهجه من الإسلام، ويعدّ الجهاد طريقًا وحيدًا لإنقاذ فلسطين.^٢ وقد عدّ إميل الغوري هذا التنظيم "أخطر منظمة سرية، وأعظم حركة فدائية عرفها تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، بل تاريخ الجهاد العربي الحديث".^٣ وقد أطلق على

١ حول شخصية القسم بالتفصيل، انظر: محسن صالح، التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد ١٩١٧-١٩٤٨، ط ٢ (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٩)، ص ٢٣١-٢٤٧.

٢ صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين: ١٩٣٦-١٩٣٩ (القاهرة: وزارة الثقافة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٧)، ص ٣٣.

٣ إميل الغوري، فلسطين عبر ستين عامًا، ص ٢٤٨.

هذا التنظيم اسم "المنظمة الجهادية"،^١ ولكن غلب عليه بعد استشهاد القسم اسم "جماعة القسم أو القساميون"،^٢ وكان شعار التنظيم "هذا جهاد... نصر أو استشهاد".^٣

وكانت جماعة القسم لا تقبل أي عضو إلا بعد انتقاء وتمحيص، ولا يدخل في عضويتها إلا من كان "مؤمناً مستعداً أن يموت في سبيل بلاده" ومن أهل الدين والعقيدة الصحيحة.^٤ وقد استفاد القسم من وظيفته كإمام وخطيب لمسجد الاستقلال في حيفا منذ ١٩٢٥، وكما أذن شرعي منذ ١٩٣٠ في الاتصال بالناس، وانتقاء العناصر المناسبة لجماعته. كما استفاد من رئاسته لفرع جمعية الشبان المسلمين في حيفا كغطاء مقبول لحركته ونشاطه وزياراته للقرى، وإنشاء فروع لهذه الجمعية في اللواء الشمالي، والتي أصبحت غطاءً مناسباً لإخوانه المجاهدين المحليين.^٥ وتشكلت القيادة الأولى للتنظيم القسامي سنة ١٩٢٨، وضمت بالإضافة إلى رئيسها القسم كلاً من العبد قاسم، ومحمود زعرورة، ومحمد الصالح الحمد،

١ عوني العبيدي، ثورة الشهيد عز الدين القسم وأثرها في الكفاح الفلسطيني (الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، د.ت)، ص ٩.

٢ بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٣١٧-٣١٨.

٣ سميح حمودة، الوعي والثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسم ١٨٨٢-١٩٣٥، ط ٢ (عمّان: دار الشروق، ١٩٨٦)، ص ٤٢.

٤ انظر: صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص ٣١؛ وأكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥-١٩٣٩: يوميات أكرم زعيتر (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠)، ص ٣٠؛ ومحمد نمر الخطيب، من أثر النكبة (دمشق: المطبعة العمومية، ١٩٥١)، ص ٨٧.

٥ انظر: علي حسين خلف، تجربة الشيخ عز الدين القسم (عمّان: دار ابن رشد، ١٩٨٤)، ص ٤٤-٤٧، و٥٨-٦٠؛ وسميح حمودة، الوعي والثورة، ص ٤٨-٥٠.

وخليل محمد عيسى. وكان مركزها حيفا، وكانت القيادة جماعية ومسؤولة عن اتخاذ كافة القرارات المهمة،^١ وبلغ عدد أفراد الجماعة سنة ١٩٣٥ نحو ٢٠٠ منتظم، أكثرهم يشرف على حلقات توجيهية من الأنصار، الذين يصل عددهم إلى ٨٠٠.^٢

وقد أنشأ تنظيم القسام خمس وحدات متخصصة تضمنت وحدة لشراء السلاح، ووحدة للتدريب، ووحدة للتجسس على اليهود والإنجليز، وكان أفرادها بشكل عام ممن يشتغل في دوائر الحكومة وخصوصاً الشرطة، ورابعة للدعاية للثورة، وخامسة للاتصالات السياسية.^٣ أما ماليتها فقد اعتمدت على اشتراكات الأعضاء، وتبرعات الموثوقين،^٤ وكان من منهج التنظيم أن يتدرب جميع أفرادها على حمل السلاح بحيث يكونون مستعدين لخوض معارك الجهاد عند إعلانها، وكان على كل عضو أن يدبر أمر تجهيز نفسه بالسلاح.^٥ ولم يكن حال أغلب الأعضاء ميسورة، إذ كانوا يكسبون من أجل لقمة العيش، ومع ذلك "فقد منعوا أنفسهم الخبز من أجل ابتياع السلاح"

١ بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٣٢٤؛ وكامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٥٨٤.

٢ صبحي ياسين، حرب العصابات في فلسطين (القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ودار الكتاب العربي، د.ت)، ص ٧٩؛ وصبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص ٣٣-٣٤.

٣ صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص ٣٣-٣٤.

٤ إبراهيم الشيخ خليل، "رسالة من مجاهد قديم: ذكريات مع القسام"، مجلة شؤون فلسطينية، عدد ٧، آذار/ مارس ١٩٧٢، ص ٢٦٧-٢٦٨؛ وبيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٣٢٣.

٥ صبحي ياسين، حرب العصابات في فلسطين، ص ٦٨؛ ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٢٩.

ومن أجل أن يعتمدوا على أنفسهم في العمل والإعداد.^١

ويبدو أن انتقال جماعة القسام إلى مرحلة التسليح والتدريب كان في أواخر ١٩٢٨،^٢ وجاءت ثورة البراق في آب/ أغسطس ١٩٢٩، لتعزز الاتجاه العسكري لدى الجماعة، فأخذ القسام يسهم في عملية التدريب بنفسه، والتي شملت رحلات ليلية وحركات استطلاعية وتمرين على إصابة الهدف.^٣ وعندما أرادت الجماعة أن تعلن عن نفسها في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٥ كانت تملك حسبما ذكر صبحي ياسين، وهو أحد أعضائها، ألف قطعة سلاح وقاعدة تسليح في منطقة اللاذقية.^٤

وعلى الرغم من أن جماعة القسام لم تعلن عن نفسها إلا في وقت متأخر، إلا أنها قامت بعدد من العمليات العسكرية، خصوصاً في الفترة ١٩٣٠-١٩٣٢ وقد بدت وكأنها عمليات فردية. ويبدو أن هذه العمليات كانت من باب كسر حاجز الخوف لدى أفراد الجماعة، وجسّ النبض وردود الفعل لدى العرب والإنجليز واليهود، وربما كانت تعبيراً عن الحماس والتفاعل مع القضايا الوطنية، ومحاولة تصعيدها بما يتناسب وخطّة الإعداد والتعبئة. وفي تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٥ أعلنت جماعة القسام "الجهادية"

١ عبد الستار قاسم، الشيخ المجاهد عز الدين القسام (بيروت: دار الأمة للنشر، ١٩٨٤)، ص ٩٩.

٢ كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٥٨٤.

٣ علي حسين خلف، تجربة الشيخ عز الدين القسام، ص ٥٣-٥٤؛ ومحمد نمر الخطيب، من أثر النكبة، ص ٨٨؛ وانظر أيضاً:

S. Abdullah Schleifer "The Life and Thought of Izziddin Al-Qassam", The Islamic Quarterly, Vol. 23, No. 2, 1979, p. 75.

٤ صبحي ياسين، حرب العصابات في فلسطين، ص ٧٠.

الجهاد، وقد توافق ذلك مع الازدياد الهائل في الهجرة والاستيطان، وتهريب السلاح لليهود، واشتداد المراقبة على القسام وإخوانه. وتلخصت خطة القسام في الخروج إلى القرى، وحضّ الناس على شراء السلاح، والاستعداد للثورة، وحشد العناصر المؤيدة للجماعة.^١ وقد اختفى القسام وعدد من إخوانه في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر بعد أن باع بيته الوحيد في حيفا، وباع أصحابه حلّي زوجاتهم وبعض أثاث بيوتهم ليوفروا الرصاص والبنادق.^٢

وبعد فجر يوم ٢٠/ ١١/ ١٩٣٥ طوقت قوات كبيرة من الشرطة تقدر بـ ٤٠٠ رجل، معظمهم من الإنجليز، القسام وعشرة من إخوانه في أحراش يعبد عند قرية الشيخ زيد. وقد بدأت المعركة في الخامسة والنصف صباحاً، واستمرت أربع ساعات ونصف الساعة.^٣ وعندما لاحظ الشيخ القسام أن الإنجليز وضعوا الشرطة العربية في المقدمة أوصى رجاله "لا تقتلوا أبناءنا"،^٤ وصاح برجاله على مسمع من الشرطة العربية "إياكم ومقابلة رصاص الجنود [الشرطة] العرب بمثله، فإنهم مساكين ولا يدرون ماذا نصنع ولا ما يصنعون، ولكن عليكم بالإنكليز".^٥ وحسب المصادر العربية

١ صبحي ياسين، حرب العصابات في فلسطين، ص ٧٠.

٢ عوني العبيدي، ثورة الشهيد عز الدين القسام، ص ٤٢.

٣ كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٥٩٣-٥٩٤؛ وعبد الستار قاسم، عز الدين القسام، ص ٦٤-٦٥. وانظر أيضاً:

The Palestine Police Force, Annual Administrative Report, 1935 (Jerusalem:

Government Printing Press, Undated), p. 40.

٤ زهير المارديني، ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني، ص ٨٣.

٥ عن ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦: وصف وأخبار ووقائع ووثائق، إعداد مكتب الاستعلامات الفلسطيني العربي بمصر (القاهرة: اللجنة الفلسطينية العربية، كانون الأول/ ١٩٣٦)، ص ٤١.

فقد خسر الإنجليز ١٥ رجلاً،^١ لكن التقارير البريطانية أشارت إلى مقتل شرطي واحد يدعى موت Mott وجرح العريف ريدر Reader في يده.^٢ أما جماعة القسام فقد استشهد في هذه المعركة الشيخ عز الدين القسام، ويوسف الزيباوي، ومحمد حنفي المصري، وقبض على نمر السعدي، وأسعد المفلاح اللذين أصيبا بجراح، كما قبض على عربي بدوي، ومحمد يوسف، وأحمد جابر، وحسن الباير.^٣

وقد أحدث استشهاد القسام ورفاقه هزة كبرى في فلسطين، وخرج في جنازتهم نحو ٣٠ ألفاً جاؤوا إلى حيفا من مختلف أنحاء فلسطين. وقد بلغ الحماس في الجنازة مداه، وترددت صيحات الانتقام، فهاجم المشاركون دائرة الشرطة بالحجارة والطوب، وكسروا زجاج نوافذها، وحطموا باب الدائرة وثلاث سيارات للشرطة. وعندما حضرت قوة من الشرطة البريطانية المدججين بالسلاح ثارت الجموع، ودخلت معهم في صدام، ووقع قائلهم على الأرض، وجرح اثنان، وانسحب البريطانيون بسرعة.^٤ ولولا أن السلطة سحبت "عساكرها" من وجه الجنازة لوقعت الثورة الكبرى في فلسطين قبل موعدها بخمسة أشهر على حدّ تعبير صبحي ياسين.^٥

وقد أحدث استشهاد القسام تغييراً أساسياً في مسار الحركة الوطنية

١ صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص ٤٠.

٢ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٣٩٧. وانظر أيضاً:

The Palestine Police Force, Annual Administrative Report 1935 (Jerusalem: Government Printing Press, Undated), p. 40.

٣ عبد الستار قاسم، عز الدين القسام، ص ٦٦-٦٧.

٤ يوميات أكرم زعيتر، ص ٣٢.

٥ صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ص ٣٩-٤١.

الفلسطينية، فقد كرّس بديل الجهاد بعد سنوات طويلة من الحركة السياسية غير المجدية، وألهبت حركته، و"تضحيته" الحماس، و"صارت مثلاً رائعاً للجرأة والجهاد العلني ضدّ الإنجليز"،^١ وقامت البلاد وقعدت واهتزت أيما اهتزاز، وزلزلت أيما زلزال، ومن ذلك الحين اشتدت كراهية العرب لحكومة الانتداب، وأخذت تظهر هذه الكراهية بأشكال عنيفة.^٢ وأطلق شعب فلسطين على القسام اسم "أبو الوطنية"،^٣ وقد شعر الزعماء السياسيون العرب في فلسطين بحدة المأزق الذي وضعوا فيه، فقد أوضح المندوب السامي في رسالة له إلى وزير المستعمرات، في ٧/١٢/١٩٣٥، ما أحدثه استشهاد القسام ورفاقه من أثر كبير. وقال المندوب إن زعماء الأحزاب العربية الخمسة قد اجتمعوا به في ٢٥ تشرين الثاني/ نوفمبر، وأخبروه أنهم ما لم يتلقوا على مذكرتهم ردّاً يمكن اعتباره بشكل عام مرضياً لمطالبهم فإنهم "سيفقدون كل تأثير على أتباعهم، وستسود الآراء المتطرفة واللامسؤولية، وسيستدهور الوضع السياسي بسرعة".^٤

وهكذا فإن القسام كان محقاً عندما قال قبل ابتداء المعركة: إنه وإخوانه عبارة عن عود ثقاب سيشعل الثورة في البلاد.^٥

١ محمد عزة دروزة، العدوان الإسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث على فلسطين وما جاورها (بيروت: دار الكلمة، ١٩٨٠)، ج ٢، ص ٥٢.

٢ محمد نمر الخطيب، من أثر النكبة، ص ٨٨.

٣ كامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٥٩٤.

٤ Despatch, High Comissioner of Palestine to Secretary of State for the Colonies, 7 December 1935, Secret, C.O. (Colonial Office-London), 733/297/1.

٥ عبد الستار قاسم، عز الدين القسام، ص ١٠٦.

٤. الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ :

تعد هذه الثورة من أعظم الثورات في تاريخ فلسطين في القرن الـ ٢٠ وقد عبّرت عن روح التضحية والفداء والمصابرة والإصرار على الحقوق التي تميز بها أبناء فلسطين. وتمكنت هذه الثورة في بعض مراحلها من السيطرة على كل الريف الفلسطيني، بل والسيطرة على عدد من المدن، بينما انكفأت السلطات البريطانية في بعض المدن المهمة. وقدّمت هذه الثورة نموذجاً عالمياً هو أطول إضراب يقوم به شعب كامل عبر التاريخ حيث استمر ١٧٨ يوماً. وربما لو كان الأمر مقتصرًا على الصراع بين شعب فلسطين وبين الاستعمار البريطاني لنالت فلسطين حريتها واستقلالها منذ تلك الثورة، إذا ما قارنا هذه الثورة بثورات الشعوب التي نالت استقلالها. ولكن وجود العامل اليهودي - الصهيوني وتأثيره القوي داخل فلسطين، وفي بريطانيا، والدول الكبرى جعل الأمر أكثر صعوبة وتعقيداً، وفرض أن تتسع دائرة مشروع التحرير إلى الدائرة العربية والإسلامية.

وتنقسم الثورة إلى مرحلتين، كانت بينهما مرحلة توقّف أشبه بـ "الهدنة المسلحة" المشوبة بالتوتر.

أ. المرحلة الأولى من الثورة: نيسان/ أبريل - تشرين الأول/ أكتوبر

: ١٩٣٦

لم تُلقِ جماعة "الجهادية" (القساميون) السلاح بعد استشهاد قائدها، فقامت باختيار قائد جديد هو الشيخ فرحان السعدي، على الرغم من كونه في الـ ٧٥ من عمره، إلا أنه كان ما يزال مقاتلاً صلباً نشطاً مشهوراً بدقته في إصابة الهدف. وقد عملت هذه الجماعة على تهيئة الظروف لانطلاقة أقوى وأوسع.

وقد تفجّرت الشرارة الأولى للثورة الكبرى في فلسطين يوم ١٥/٤/١٩٣٦، عندما قامت مجموعة قسامية بقيادة الشيخ فرحان السعدي بقتل اثنين من اليهود وجرح ثالث على طريق نابلس - طولكرم. وقد ردّ اليهود باغتيال اثنين من العرب في اليوم التالي، ثم حدثت صدامات واسعة بين العرب واليهود في منطقة يافا يوم ١٩ نيسان/ أبريل أدت إلى مقتل ٩ يهود وجرح ٤٥ آخرين، وقتل من العرب ٢ وجرح ٢٨.١ وساد البلاد جواً شديداً من التوتر، أعلنت الحكومة على إثره منع التجول في يافا وتل أبيب كما أعلنت حالة الطوارئ في كل فلسطين.^٢

وفي ٢٠ نيسان/ أبريل شكّلت في نابلس لجنة قومية غير حزبية، كان وقودها الدافع مجموعة من الشبان المثقفين في مقدمتهم أكرم زعيتر. وقد دعت اللجنة إلى الإضراب العام في فلسطين، على أن يستمر إلى أن تعلن الحكومة البريطانية استجابتها للمطالب الوطنية.^٣ وقد لقي الإضراب استجابة واسعة، وتشكلت لجان قومية في أنحاء فلسطين لتأمين الإضراب وإنجاحه، وتجاوبت الأحزاب العربية الفلسطينية مع الإضراب وأيدته. ثم ما لبثت، تحت الضغط الشعبي، أن وحدت القيادة الفلسطينية بتشكيل

١ انظر: يوميات أكرم زعيتر، ص ٥٣-٥٦؛ وبيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٣٣١-٣٣٢. وانظر أيضاً:

Dispatch on the Disturbances in Palestine, 19 Apr. to 14 Sep. 1936, by Air Vice-Marshal R.E.C. Peirse, submitted to Air Ministry, London, 15 Oct. 1936, The National Archives, War Office, W.O. 32/4177, p. 13. Hereafter referred to as Peirse Dispatch.

٢ تقرير بيل، ص ١٢٦؛ ووثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٤١٢.

٣ يوميات أكرم زعيتر، ص ٦٠-٦٣.

"اللجنة العربية العليا" في ٢٥ نيسان/ أبريل والتي وافق الحاج أمين الحسيني على رئاستها. وهكذا نزل الحاج أمين لأول مرة منذ ١٦ عامًا إلى ميدان المعارضة المكشوفة للسلطات البريطانية. وقد قررت اللجنة العليا الاستمرار في الإضراب، وأكدت على مطالب الشعب الفلسطيني المعروفة بإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ومنع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود، وإنشاء حكومة وطنية مسؤولة أمام مجلس نيابي.^١

وهكذا، دخلت فلسطين في إضراب شامل استمر ستة أشهر، وأصبحت فيه مظاهر العمل والنشاط التجاري والصناعي والتعليمي والزراعي والمواصلات في جميع المدن والقرى بالشلل.^٢ وقد زاد من حدة الإضراب تبني الفلسطينيين سياسة "العصيان المدني"، بتنفيذ الامتناع عن دفع الضرائب اعتبارًا من ١٥ أيار/ مايو.^٣ وأخذ الوضع الفلسطيني يأخذ شكل الثورة الشاملة مع مرور الوقت، فأخذت العمليات الثورية المسلحة، التي بدأت محدودة متفرقة، في الانتشار والتوسع حتى عمت معظم أرجاء فلسطين، وبلغ معدلها خمسين عملية يوميًا،^٤ وزاد الثوار حتى بلغوا نحو ٥ آلاف،^٥

١ المرجع نفسه، ص ٦٤-٧٧؛ وعبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية، ص ٣٧٨-٣٧٩. وانظر:

Periodical Appreciation Summary, No. 9/36, C.I.D. 6 May 1936, F.O. 371/20018.

٢ محمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٣٩-٤٠.

٣ يوميات أكرم زعيتر، ص ٩٩-١٠٠؛ وانظر: Peirse Dispatch, p. 20.

٤ محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها (بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٥٩)، ج ١، ص ١٢٨-١٢٩.

٥ J. Marlowe, Rebellion in Palestine (London: The Cresset Press, 1946), p. 156.

معظمهم من الفلاحين الذين يعودون إلى قراهم بعد القيام بمساعدة الثوار الذين تفرغوا تمامًا. وبعد جهود سرية قام بها الحاج أمين ورفاقه، حدث تطور نوعي في الثورة، وذلك بقدوم تعزيزات من الثوار العرب من العراق، وسورية، وشرق الأردن بلغت قرابة ٢٥٠ رجلًا. وكان على رأسها القائد العسكري المعروف فوزي القاوقجي، الذي وصل في ٢٢ آب/ أغسطس. وأسهم القساميون في تنظيم وقيادة الثورة، فشارك ثلاثة منهم (من أصل ستة) في عضوية القيادة العسكرية، والتي اختارت في ٢ أيلول/ سبتمبر فوزي القاوقجي قائدًا عامًا، الذي استمر في القيادة حتى نهاية المرحلة الأولى من الثورة في ١٢/ ١٠/ ١٩٣٦. وقد نظم القاوقجي الشؤون الإدارية والمخابرات، وأقام محكمة للثورة، وأسس غرفة للعمليات العسكرية.^١ واعترفت القيادة العسكرية البريطانية في تلك المدة بتحسين تكتيكات الثوار، مشيرة إلى أنهم أظهروا علامات على فعالية القيادة والتنظيم.^٢

ولم تنفع الوسائل السياسية والعسكرية البريطانية في إيقاف الإضراب والثورة، بما في ذلك إعلان بريطانيا في ١٨ أيار/ مايو إرسال لجنة ملكية "لجنة بيل Peel Commission" للتحقيق في أسباب "الاضطرابات"، ورفع التوصيات لإزالة أي "ظلمات مشروعة"، ومنع تكرارها.^٣ ولم تتوقف المرحلة الأولى من الثورة الفلسطينية الكبرى والإضراب إلا في ١٢/ ١٠/ ١٩٣٦، إثر نداء وجهه زعماء السعودية، والعراق، وشرق الأردن، واليمن لأهل

١ انظر: فلسطين في مذكرات القاوقجي: ١٩٣٦-١٩٤٨ (الجزء الثاني)، إعداد خيرية

قاسمية (بيروت: مركز الأبحاث ودار القدس، ١٩٧٥)، ص ٢٠-٢٢.

٢ Peirse Dispatch, p. 94.

٣ تقرير بيل، ص ٧-٨.

فلسطين بـ"الإخلاء إلى السكينة حقناً للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقنا الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة لتحقيق العدل، وثقُّوا بأننا سنواصل السعي في سبيل مساعدتكم".^١

بلغت عمليات المجاهدين في هذه المرحلة من الثورة نحو أربعة آلاف. ويبدو أن السلطات البريطانية تكتمت كثيرًا على خسائرها وخسائر الأطراف الأخرى، لتُهوّن من شأن الثورة، فذكرت أنه قُتل من اليهود ٨٠ وجرح ٢٨٨، وقتل من الجيش والشرطة البريطانية ٣٥ وجرح ١٦٤، فيما قتل من العرب ١٩٣ وجرح ٨٠٣. وحسب عزة دروزة، فإن عدد قتلى العرب زاد عن ٧٥٠ وعدد الجرحى زاد عن ١٥٠٠.^٢ واستدل مكتب الإحصاء الفلسطيني على "كذب البيانات الرسمية" بأنه بعد أقل من شهرين من بدء الإضراب، بلغ عدد قتلى الجنود الذين دفنتهم إدارة الصحة في نابلس ١٦٢ جنديًا.^٣ وقد بلغت خسائر الحكومة البريطانية بسبب الإضراب ٣,٥ ملايين جنيه استرليني عدا خسائر توقف التجارة والسياحة، وهو ما يوازي ميزانية فلسطين لسنة كاملة في ذلك الوقت.^٤ وقُدِّرت خسائر العرب بعدة ملايين من الجنيهات، على الرغم من أن كل ما جاءهم من إعانات خارجية لم يصل إلى ٢٠ ألف جنيه. وبلغ عدد المنكوبين العرب ٣٠٠ ألف (ثلث الشعب

١ وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية، ص ٤٥٨.

٢ انظر: يوسف رجب الرضيي، ثورة ١٩٣٦ في فلسطين: دراسة عسكرية (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٢)، ص ٦١؛ ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٤٣.

٣ عن ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦: وصف وأخبار ووقائع ووثائق، ص ٤٣.

٤ يوسف رجب الرضيي، ثورة ١٩٣٦ في فلسطين، ص ٦٢.

الفلسطيني). بينهم ٤٠ ألفاً من مدينة يافا وحدها.^١

ب. مرحلة التوقف المؤقت للثورة: تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٦ -
أيلول/ سبتمبر ١٩٣٧:

دخلت فلسطين بعد توقف الإضراب في شبه هدنة مؤقتة، بانتظار نتائج توصيات اللجنة الملكية "لجنة بيل"، التي أرسلت للتحقيق في مطالب أهل فلسطين. وقد حافظ الثوار على درجة من التوتر يسهل معها انتقال البلاد إلى الوضع الثوري السابق، في حالة عدم تحقيق المطالب العربية. ولذلك، فقد استمرت عمليات المجاهدين ذات الطابع الفردي كالنسف، والقنص، والاغتيالات السياسية. وقد اعترفت الحكومة البريطانية بمقتل ٩٧ شخصاً بينهم ٩ جنود بريطانيين، وجرح ١٤٩ بينهم ١٣ من الشرطة والجيش، خلال الأشهر الثلاثة الأولى من سنة ١٩٣٧.^٢

وقد أوصت اللجنة الملكية في خلاصة تقريرها، الذي رفعته للحكومة البريطانية في ٢٢/٦/١٩٣٧، ونشرته الحكومة في ٧ تموز/ يوليو، بتقسيم فلسطين إلى دولتين، واحدة عربية وأخرى يهودية، على أن تبقى الأماكن المقدسة وممر منها إلى يافا تحت الانتداب البريطاني، وقد اجتاحت البلاد موجة من السخط أدت إلى تفجّر المرحلة الثانية من الثورة.

ج. المرحلة الثانية من الثورة: أيلول/ سبتمبر ١٩٣٧ - أيلول/ سبتمبر ١٩٣٩:

١ محمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٤٤؛ وعن ثورة فلسطين سنة ١٩٣٦: وصف وأخبار ووقائع ووثائق، ص ٢٨.
٢ يوميات أكرم زعير، ص ٢٨٦.

كان حادث اغتيال أندروز Andrews حاكم لواء الجليل، على يد جماعة القسم في ٢٦ / ٩ / ١٩٣٧، المؤشر البارز على بدء المرحلة الثانية من الثورة الفلسطينية. وقد عُدَّ مقتل أندروز صدمة كبيرة للسلطات البريطانية، إذ كان أول اغتيال لشخصية مدنية كبيرة، وعُدَّ إعلانًا صريحًا للثورة ضدَّ الحكم البريطاني.^١ ويبدو أن حكومة فلسطين كانت مستعدة تمامًا للقيام بإجراءات ثورية قمعية قاسية، وكان من الواضح وجود روح من التوافق بين السلطات المدنية والعسكرية لاعتماد أسلوب الشدة والقوة لسحق أي "اضطرابات" من جذورها... ولذلك لم تتردد هذه المرة، اعتبارًا من ١ / ١٠ / ١٩٣٧، من حلّ اللجنة العربية العليا، وإبعاد بعض أفرادها إلى جزر سيشل، وإقالة المفتي من رئاسة المجلس الإسلامي الأعلى، وحلّ اللجان القومية، والقيام بحملة اعتقالات واسعة.^٢

وكان متوقعًا بالنسبة لمؤيدي سياسة "القبضة الحديدية"، الذين انتقدوا بمرارة "عجز" السلطات المدنية في ثورة ١٩٣٦، أن يؤدي أسلوب السلطة الجديد إلى سحق الثورة في مهدها. ولكن الذي حدث كان عكس ذلك تمامًا، فقد تفجرت ثورة كبرى استمرت أربعة أضعاف تلك المدة التي عاشتها المرحلة الأولى من الثورة...، ولم تتوقف هذه الثورة إلا بعيد اندلاع الحرب العالمية الثانية في أواخر سنة ١٩٣٩.

ففي يوم فرار الحاج أمين الحسيني إلى لبنان في ١٤ تشرين الأول/

١ Yeshoua Porath, The Palestinian Arab National Movement: From Riots to Rebellion 1929-1939 (Great Britain: Frank Cass, 1977), p. 235.

٢ محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ج ١، ص ١٨٧-١٨٨.

أكتوبر استؤنفت العمليات الجهادية بشكل واسع.^١ وبالرغم من محاولات الجيش سحق هذه الثورة بكل الوسائل، إلا أنها استطاعت الاستمرار والانتشار، وعاشت فلسطين جوًّا من الثورة الوطنية العارمة التي حظيت بدعم شعبي هائل. وفي صيف ١٩٣٨ وصلت الثورة إلى قمة نفوذها، وخضعت لهيمنتها مناطق واسعة، خصوصًا شمال فلسطين ووسطها، وتحطمت الإدارة المدنية في معظم مناطق فلسطين. واقتحم الثوار العديد من المدن المهمة، وكانوا يسرون وهم مسلحون تمامًا في شوارع نابلس دون خوف، وأظهر الثوار قدرة جيدة على التنظيم وفعالية في "حرب العصابات"، وشكّلوا محاكم للفصل في القضايا، وعاقبوا بحسم السماسرة والجواسيس والعملاء.^٢ وأصبح قادة الثوار بمثابة الحكام الإداريين في مناطقهم... وعندما كان يحلُّ القائد في قرية، كانت تزدهم بأهل القرى المجاورة ووفود المدن القريبة، "وتقام فيها الولائم والحفلات، وتنشد الأهازيج، وترسل الزغاريد، كأن الناس في

١ Report on the operations carried out by the British force in Palestine and Trans-Jordan in Aid of the Civil Power for 12 Sep. 1937 to 31 Mar. 1938, by R.P. Wavell sent to Under S. of S. War, 7 Apr. 1938, Secret, p.1, W.O. 32/9401; and Resume of Operations: for Oct. 1937, Air H.Q., 23 Nov. 1937, AIR 5/1247.

٢ انظر: محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ج ١، ص ١٩٣-٢٠٧. وانظر أيضًا:

Tel, H.C. to S. of S. Colonies, 25 May 1938, Secret, Most Immediate, C.O. 733/36/1, Military Intelligence Summary, No. 19/38, 23 Sep. 1933, C.O. 733/81/9; and Dispatch, H.C. to S. of S. Colonies, 24 Oct. 1939, Secret, C.O. 935/21.

عرس أو عيد، غير مباين ولا متحسين، كأنه لم يكن للحكومة وجود.^١ وزادت أعداد الثوار حتى بلغت نحو ١٠ آلاف، غير أن عدد المتفرغين منهم تمامًا للثورة لم يكن يزيد على ٣ آلاف، وكان هناك ألف يعملون في المدن، والباقي من الفلاحين الذين يقومون بنجدة إخوانهم في المعارك عندما تستدعي الحاجة.^٢ وبلغ من شدة الثورة أن وزير المستعمرات عدّ فلسطين "أصعب بلد في العالم"،^٣ ووصف مهمة المندوب السامي والقائد العام للقوات البريطانية بأنها "أشق مهمة واجهت السلطات البريطانية في أية بلاد أخرى بعد الحرب العظمى".^٤

وشكّلت في سورية ولبنان "لجنة الجهاد المركزية"، تحت إشراف وتوجيه الحاج أمين، وتولى إدارتها الفعلية في دمشق محمد عزة دروزة، وقد اهتمت اللجنة بتوجيه الثورة وإمدادها وإسعاف منكوبيها.^٥

أما قيادة الثورة في فلسطين فقد تولّاها الفلسطينيون أنفسهم، وأبدى العديد من قادتهم مهارة كبيرة، غير أن قادة الثورة لم يتوحدوا جميعًا تحت قائد واحد، بسبب وجود شيء من التكافؤ جعل من الصعب قيادة أحدهم للجميع. لكن جماعة القسام استطاعت أن توحد مناطق شمال فلسطين

١ محمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٥٣-٥٤.

٢ صبحي ياسين، حرب العصابات في فلسطين، ص ٧٥-٧٧، وقد قدر مارلو عددهم بـ ١٥ ألفًا. انظر:

J. Marlowe, Rebellion in Palestine, p. 194.

٣ زهير المارديني، ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني، ص ٢٨٤.

٤ يوميات أكرم زعيتر، ص ٤٢٧.

٥ محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ج ١، ص ٢٠٩.

تحت قيادة أبي إبراهيم الكبير، وكان معظم قادة مناطقها من القساميين، أمثال: محمد أبو محمود الصفوري، وسليمان عبد الجبار، وعبد الله الأصبح، وتوفيق الإبراهيم، وعبد الله الشاعر، وعارف حمدان، ومحمود الخضر، ورشيد عيد أبو درويش، ومحمود سالم... وغيرهم. وفي منطقة لواء نابلس المقسمة لأربعة مناطق، كان منهما منطقتان قادتهما جماعة القسام: منطقة جنين الغربية التي قادها الشيخ عطية أحمد عوض، والذي خلفه بعد استشهاده الشيخ القسامي يوسف أبو درة؛ ومنطقة جنين الشرقية التي قادها الشيخ محمد الصالح الحمد (أبو خالد)، والذي خلفه بعد استشهاده الشيخ القسامي عبد الفتاح محمد الحاج مصطفى. أما المنطقة الثالثة فهي منطقة طولكرم الشرقية التي كان يقودها عبد الرحيم الحاج محمد، وكان يعرف في بعض مراحل الثورة بالقائد العام؛ والمنطقة الرابعة منطقة طولكرم الغربية التي كان يقودها عارف عبد الرازق. كما قاد القساميون جزءاً من مناطق شمالي القدس. وتولى حسن سلامة قيادة منطقة اللد، وتولى عيسى البطاط قيادة منطقة الخليل، كما تولى عبد القادر الحسيني قيادة منطقة القدس.^١

وقد اتخذت هذه الثورة طابعاً إسلامياً جهادياً عاماً، فالشعب الفلسطيني الذي عرف بعمق ارتباطه بالإسلام، عبّر عن ثورته ومشاعره من خلال الصياغات الإسلامية ومفهوم الجهاد. كما ظهر ذلك على الأرض من خلال الدور العظيم لجماعة القسام في شمال فلسطين ووسطها، ومنظمة "الجهاد المقدس" بقيادة عبد القادر الحسيني في مناطق القدس والخليل، ومن

١ انظر: محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ج ١، ص ٢١١-٢١٢؛ ومحسن صالح، التيار الإسلامي في فلسطين، ص ٣٦١-٤١٢.

خلال القيادة السياسية لمفتي فلسطين الحاج أمين الحسيني للحركة الوطنية الفلسطينية، وكذلك عبد الرحيم الحاج محمد المشهور بتدينه والتزامه... وغيرهم.^١

ومن البيانات التي تعبر بعمق عن التوجه الإسلامي للثورة، ذلك البيان الذي أصدرته قيادة الثورة العامة في فلسطين ١٩٣٨، والذي جاء فيه:

إن المجاهدين قد باعوا أنفسهم لله، وخرجوا في طاعته، لم يخرجوا إلا ابتغاء وجهه، والجهاد في سبيله والفوز بمثوبته، واكتساب مرضاته، لا يرضون بذلك بديلاً ولا يرغبون عنها حولاً، صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً، وهم يتسابقون إلى ميدان الجهاد والشهادة انتصاراً للحق وإقامة للعدل ودفاعاً عن أمتهم الكريمة وبلادهم المقدسة، فقد فارقوا في سبيل ذلك أهلهم، وتركوا أموالهم، وعطّلوا مصالحهم. ومن كان هذا حالهم، وكان كل مبتغاهم ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة من الله لا من سواه، حاشا لله أن يفسدوا في الأرض... ونحن ماضون في هذا السبيل إن شاء الله إلى أن يكتب النصر لهذه الأمة، أو يأتي الله بأمر من عنده ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾، والله ولينا وهو نعم المولى ونعم النصير.^٢

وأظهرت دراسة إحصائية^٣ في بيانات وتقارير الثورة الكبرى شملت ١٥٤

١ انظر حول الطابع الإسلامي للثورة في: محسن صالح، التيار الإسلامي في فلسطين، ص ٣٥٤-٣٦٠.

٢ عبد الوهاب الكيالي، وثائق المقاومة الفلسطينية العربية، ص ٦١٤-٦١٦.

٣ انظر خلاصة هذه الدراسة في: محسن صالح، التيار الإسلامي في فلسطين، ص ٣٥٨-٣٦٠.

وثيقة أنه كان للإسلام ورجاله ورموزه النصيب الأكبر من أسماء الفصائل، كما أن طريقة كتابة البيانات والتقارير العسكرية تميّزت بطابعها الإسلامي العام، فهي عادة تبدأ بالبسملة، وتحتها أحياناً آية ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ وأحياناً ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾، وإلى جانبها أحياناً "الله أكبر". وكان قادة الثورة يوقعون بياناتهم بالفاظ "المتوكل على الله"، أو "خادم دينه ووطنه"، أو "المعتصم بالله"، أو "المعتز بالله"، أما الاختتام فكان ختم ديوان الثورة يتضمن أعلاه لفظة "الله أكبر" وتحتها هلال بداخله آية ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. أما مناطق العمليات فقد تركزت في شمال فلسطين ولواء نابلس حيث كان الوجود القسامي كثيفاً.

وكانت أحلك الأيام التي واجهت السلطات البريطانية ومخابراتها هي صيف ١٩٣٨، إذ قُضي على الجواسيس في معظم المناطق، ولم تجد السلطات ما تفرق به بين الثوار في المدن عن غيرهم سوى اعتبار كل لباس للكوفية والعقال ثائراً، وكان هذا غطاء الرأس المعتاد للفلاحين، فتقوم السلطات بملاحقته. ولذلك أصدر الثوار أمراً في آب/ أغسطس ١٩٣٩ لأهل المدن الفلسطينية بنزع الطربوش (غطاء الرأس في المدن)، ولبس الكوفية والعقال، وذلك إعلاناً للتضامن التام مع الثوار ورمزاً لكون الجميع ثواراً. وما أن صدر الأمر حتى سارع أهل فلسطين إلى الاستجابة فزال الفارق الظاهري بين الثوار وغيرهم، وزال الطربوش نهائياً، مما أدهش السلطات، التي فوجئت أن شعباً بكامله ينزع لباس رأسه، الذي هو من تقاليده الموروثة.^١

١ يوميات أكرم زعير، ص ٤٤٠؛ وجريدة الشباب، مصر، ٢١/٩/١٩٣٨.

وقد اضطرت السلطات البريطانية إلى إرسال تعزيزات عسكرية ضخمة يقودها أفضل قادة بريطانيا العسكريين أمثال ديل Dill، وويفل Wavell، وهنينج Haining، ومونتجمري Montgomery. وقامت عملياً بإعادة احتلال فلسطين قرية قرية، مستخدمة كافة وسائل البطش والدمار والعقوبات الجماعية، ومستعينة بكافة الوسائل الحديثة لجيش من أقوى جيوش العالم من طيران ودبابات ومدافع وغيرها. واستمرت الحملة عنيفة قاسية خصوصاً من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨ وحتى نيسان/ أبريل ١٩٣٩. وخلال عام واحد (تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨ - تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٩)، كانت القوات البريطانية قد قامت باحتلال ٢٠٨٨ قرية وتفتيشها.^١ أي أن كل قرية في فلسطين احتلت وفتشت بما معدله مرتين، لأن مجموع قرى فلسطين يبلغ نحو ألف قرية. ولذلك فقد عانت الثورة من حالة من التراجع والضعف خصوصاً منذ نيسان/ أبريل ١٩٣٩. حيث فقدت الكثير من زخمها، واستشهد الكثير من قادتها بينما اضطر آخرون للانسحاب. غير أن جذوة الثورة استمرت بالانطفاء التدريجي حتى أواخر سنة ١٩٣٩.

وحسب الإحصائيات البريطانية فإن مجموع العمليات التي قام بها الثوار خلال الفترة ١٩٣٦-١٩٣٩ كانت كما يلي:^٢

السنة	١٩٣٦	١٩٣٧	١٩٣٨	١٩٣٩
مجموع العمليات	٤٠٧٦	٥٩٨	٤٩٦٩	٩٥٢

١ Tel., General Officer Commander, Jerusalem, to W.O., London, 18 Nov. 1939, Secret, C.O. 733/404/2.

٢ انظر: يوسف رجب الرضيي، ثورة ١٩٣٦ في فلسطين، ص ٦١-٦٢، ٦٩، ٧٣، و٧٨.

ولا يظهر أنه توجد إحصائيات رسمية دقيقة حول الإصابات في المرحلة الثانية من الثورة، لكن تقدير أحد القادة السياسيين المؤرخين المعاشين لتلك الأحداث، وهو محمد عزة دروزة، وكان يتولى إدارة اللجنة المركزية للجهاد في أثناء الثورة، يذكر أن إصابات اليهود كانت نحو ١٥٠٠ ربيعهم إن لم يكن ثلثهم من القتلى، وهو قريب من الإحصائيات الرسمية اليهودية، وقَدَّر الإصابات في الجيش والشرطة البريطانية بـ ١٨٠٠ قتيل وجريح، بينما قَدَّر قتلى العرب بـ ٣ آلاف وجرحاهم بـ ٧ آلاف.^١

توقفت هذه الثورة نتيجة إعادة احتلال بريطانيا "العظمى" لفلسطين، ونتيجة تنسيقها وتعاونها الميداني مع اليهود في فلسطين، وكذلك بسبب حالة الإنهاك والإعياء والانحيار الاقتصادي التي أصابت شعب فلسطين طيلة ثلاثة أعوام ونصف، دون أن يجد عونًا جادًا من بلاد العرب والمسلمين، التي كانت هي الأخرى ترزح تحت النفوذ الاستعماري. وبسبب استشهاد كثير من قادة الثورة، ثم بسبب الخلافات الداخلية الفلسطينية الحزبية والعائلية التي ظهرت أواخر مراحل الثورة، واستثمرتها بريطانيا بشكل يسيء إلى الثورة ويضعفها.

ومن جهة أخرى، حاولت بريطانيا إيجاد مخرج سياسي، بينما كانت تقوم بسحق الثورة، فقامت بإلغاء مشروع تقسيم فلسطين، وأفرجت عن معتقلي سيشل، ودعت إلى مؤتمر المائدة المستديرة في لندن، بحيث تحضره وفود تمثل الفلسطينيين واليهود وعددًا من البلاد العربية. وقد فشل

١ محمد عزة دروزة، القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها، ج ١، ص ٢٢٠.

المؤتمر الذي انعقد في شباط/ فبراير ١٩٣٩، في الوصول إلى نتيجة محددة. وهذا مهّد الطريق أمام البريطانيين ليعلنوا وحدهم الحل الذي يرتأونه، والذين قالوا إنهم سينفذونه بغض النظر عن رضى الطرفين. فأصدرت الحكومة البريطانية "الكتاب الأبيض" في أيار/ مايو ١٩٣٩، الذي شكّل إلى حدّ ما نصراً سياسياً للفلسطينيين، فقد أقرت بريطانيا بشكل حاسم أنه ليس من سياستها أن تصبح فلسطين دولة يهودية، وأن ما تريده هو دولة فلسطينية مستقلة، يقتسم فيها العرب واليهود السلطة الحكومية. وأعلنت بريطانيا سعيها إلى إنشاء دولة فلسطينية خلال عشرة أعوام، وأن الهجرة اليهودية في الأعوام الخمس القادمة لن تزيد عن ٧٥ ألفاً، وبعد ذلك تُمنع إلا بإذن من العرب، وقررت حظر بيع الأراضي في بعض مناطق فلسطين، بينما يكون مقيداً في مناطق أخرى.^١ ولم توافق معظم القيادة الفلسطينية على المشروع البريطاني؛ لشكّها أساساً في الوعود والنوايا البريطانية، ولأنه ربط استقلال فلسطين بموافقة اليهود وتعاونهم، كما أنه لم يعد بإصدار عفو عام عن الثوار، أو المصالحة مع زعيم فلسطين الحاج أمين. وفوق ذلك فإن الفلسطينيين رأوا أنه ليس من الحكمة الموافقة المبكرة على المشروع الذي يتضمن بعض التنازلات، وما دامت بريطانيا مصرّة على تنفيذه على أي حال، فإن الزمن كفيلٌ بكشف مدى جديتها. كما عارض اليهود بقوة وعنف المشروع البريطاني.^٢

١ Palestine: Statement of Policy, May 1939, Cmd. 6019 (London: H.M.S.O., 1939).

٢ انظر: عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٣٠٠-٣٠٢؛ وكامل خلة، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٧٣٣-٧٤٣.

خامساً: التطورات السياسية ونشوء الكيان الصهيوني ١٩٣٩-١٩٤٨:

وخلال الفترة ١٩٣٩-١٩٤٥ وقعت الحرب العالمية الثانية، ودخل الفلسطينيون تلك الفترة وقد أنهكت قواهم، وتشتت قيادتهم السياسية نتيجة الثورة، واضطر الحاج أمين أن يهرب إلى العراق في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٩، ثم هرب إلى إيران وتركيا، ثم إلى ألمانيا التي وصلها في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤١، بعد أن سقط الحكم الوطني المعادي لبريطانيا في العراق، الذي كان للحاج أمين دورٌ رئيسيٌّ في إقامته. وهناك لم يجد بُدًّا من التعاون مع الألمان أعداء الإنجليز، في سبيل نيل العرب لحقوقهم، وتم إعداد مسودة تصريح تضمن تقديم دولتي المحور (ألمانيا وإيطاليا) كل مساعدة ممكنة للبلدان العربية التي تحتلها وتسيطر عليها بريطانيا، والاعتراف باستقلالها، والمساعدة في القضاء على فكرة الوطن القومي اليهودي. غير أن الألمان أصرُّوا على عدم إصدار التصريح إلا بعد وصول القوات الألمانية إلى منطقة القوقاز.

وعلى أي حال، فإن الحاج أمين استفاد عملياً من وجوده هناك في السعي لتكوين جيش عربي مدَّرب على يد الألمان من الجنسيات العربية، وقد تدرب بالفعل مئات الشبان العرب ضمن هذا الجيش الذي أعلن رسمياً عن إنشائه في ٢/ ١١/ ١٩٤٣، ومدَّه الألمان بالكثير من الأسلحة الخفيفة والذخائر، وخُبِّئ في ليبيا نحو ٣٠ ألف قطعة سلاح لاستخدامها مستقبلاً^١. لكن انتصار البريطانيين وحلفائهم في الحرب، وضع الفلسطينيين وقيادتهم

١ انظر: فلاح خالد علي، فلسطين والانتداب البريطاني ١٩٣٩-١٩٤٨ (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠)، ص ١٠٧-١١١؛ وزهير المارديني، ألف يوم مع الحاج أمين الحسيني، ص ١٥٧-١٦٢، و١٧١، و٢٠٠-٢٠٢، و٢٤١، و٢٤٣.

في حالٍ أكثر صعوبة. وقبض الفرنسيون على الحاج أمين، لكنه ما لبث أن استطاع الهرب في حزيران/ يونيو ١٩٤٦، ووصل فجأة إلى مصر، وعمّت فلسطين الأفراح "فأقيمت الزينات في طول البلاد وعرضها، وتألّفت المواكب، وشمل الناس سرور عظيم"^١، مما دلّ على الشعبية الهائلة التي ما زال المفتي يتمتع بها.

وتألّفت "الهيئة العربية العليا لفلسطين" في ١٢/٦/١٩٤٦ بقرار من جامعة الدول العربية، وعندما عاد الحاج أمين تولى رئاستها، وأصبحت الهيئة الرسمية الممثلة للفلسطينيين. لكن مشاكل الحاج أمين مع حكومتي الأردن والعراق أضعفت قدرته على العمل والمناورة، هذا بالإضافة إلى وجوده في مصر التي كانت ما تزال تحت بعض أشكال النفوذ البريطاني.

ومن جهة أخرى، استغلت الحركة الصهيونية ما حدث لليهود خلال الحرب العالمية الثانية استغلالاً كبيراً، وسعوا إلى المبالغة وتهويل ما حدث لهم في ألمانيا وأوروبا الشرقية، كسباً للعواطف والأنصار، مؤكدين أنه لا يوجد مكان آمن لحمايتهم، وأنه لا بديل لنجاتهم سوى إقامة وطنهم القومي في فلسطين. وحوّلت الحركة الصهيونية مركز تركيزها إلى القوة العظمى الصاعدة الولايات المتحدة، خصوصاً منذ مؤتمر بلتيمور Biltmore سنة ١٩٤٢، وحصلوا على دعم الحزبين الجمهوري والديموقراطي Republican Party – Democratic Party بإلغاء الكتاب البريطاني الأبيض في أيار/ مايو ١٩٣٩. وعندما صعد هاري ترومان Harry Truman لسدة الحكم أظهر عطفاً أكبر على الصهيونية، وطلب في ٣١/٨/١٩٤٥ من كليمنت أتلي Clement Attlee رئيس بريطانيا، إدخال ١٠٠ ألف يهودي إلى فلسطين.

١ خليل السكاكيني، كذا أنا يا دنيا، ط ٢، ص ٣٦٧.

وسعى اليهود إلى تجهيز أنفسهم عسكريًا، وشارك ٢٦ ألفًا من يهود فلسطين في الوحدات اليهودية في الجيش البريطاني خلال الحرب العالمية، وكان معظمهم أعضاء في منظمة الهاغاناه، حيث استفادوا خبرة عسكرية، جعلتهم نواة الدولة اليهودية المنتظرة. وهاجر إلى فلسطين خلال الفترة ١٩٣٩-١٩٤٥ نحو ٩٢ ألف يهودي، كما تمكن ٦١ ألفًا آخرين من الهجرة خلال الفترة ١٩٤٦-١٩٤٨، وحاز اليهود خلال الفترة ١٩٣٩-١٩٤٧ على نحو ٢٧٠ ألف دونم من الأراضي، وأنشأوا ٧٣ مستعمرة جديدة خلال الفترة ١٩٤٠-١٩٤٨. وفي جوٍّ من الضغط اليهودي - الأمريكي، والضعف العربي، قام البريطانيون بالتخلي رسميًا عن الكتاب الأبيض في البيان الذي أصدره وزير الخارجية إرنست بيفن Ernest Bevin في ١٤/١١/١٩٤٥. ودعا البيان أيضًا إلى تشكيل لجنة إنجلو-أمريكية للتحقيق في قضية فلسطين، وتقديم توصياتها، مما أدخل الأمريكان بشكل مباشر في القضية، وقد أوصت اللجنة سنة ١٩٤٦ بهجرة ١٠٠ ألف يهودي، وبحرية انتقال الأراضي وبيعها لليهود.^١

واتخذت قضية فلسطين بُعدًا دوليًا عندما طلبت بريطانيا من الأمم المتحدة في ٢/٤/١٩٤٧ إدراج القضية ضمن جدول أعمالها. ثم تشكلت لجنة تحقيق دولية خاصة بفلسطين (اونسكوب UNSCOP) لدراسة الوضع وتقديم تقرير عنه. وقد انتهت من وضع تقريرها في ٣١/٨/١٩٤٧، ونصّت توصياتها المتحيزة على:

١ حول هذه الفقرة، انظر: فلاح خالد علي، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ١٤١، و١٨١، و١٩٥-١٩٧، و٢٠٣-٢٠٥؛ وحرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨ (الرواية الإسرائيلية الرسمية)، ص ٢٦، و٨٧.

* إنهاء الانتداب البريطاني على فلسطين .

* تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين عربية ويهودية، مع وضع القدس تحت وصاية دولية.^١

وفي مؤتمر صوفر، في ٦/٩/١٩٤٧، وعاليه في ٧-١٥/١٠/١٩٤٧، قررت الدول العربية مقاومة اقتراحات اللجنة الدولية، وتقديم المعونة من رجال وسلاح لأهل فلسطين، واتخاذ "احتياطات عسكرية"، وتنظيم العمل العسكري. وفي يوم ٢٩/١١/١٩٤٧ أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة United Nations General Assembly قرارها المشؤم رقم ١٨١ بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية، وحاز أغلبية الثلثين بضغط أمريكي ودعم روسي قوي. وأعطى القرار ٧٠,٤٤٪ من أرض فلسطين للدولة اليهودية (١٤٤٠٠ كم^٢)، و ٨٠,٤٤٪ للدولة العربية (١١٧٨٠ كم^٢) ونحو ٥,٠٪ لمنطقة القدس.

ولم تكن القوى الكبرى تملك أغلبية الثلثين، وكاد في يوم ٢٦ تشرين الثاني/ نوفمبر أن يحدث تصويت، ولو تمّ لسقط مشروع التقسيم، لكن رئيس الجمعية مندوب البرازيل أجّل الجلسة. وقام اليهود والأمريكان بحملة محمومة نجحت بمختلف الوسائل في زيادة الأصوات المؤيدة، فقد استلمت زوجات ممثلي أمريكا اللاتينية هدايا كثيرة، معظمها ألماس ومعاطف فرو ثمينة. وأمرت حكومة هايتي، التي كانت قد صوتت ضدّ التقسيم، مندوبها بالتصويت معه، بعد أن وعدتها أمريكا بالمساعدة الاقتصادية. واستخدم رجل

١ فلاح خالد علي، فلسطين والانتداب البريطاني، ص ٢٤٨-٢٥٠.

الأعمال الأمريكي روبرت ناثان Robert Nathan نفوذه الاقتصادي لشراء صوت جواتيمالا، وهددت شركة فايرستون Firestone Natural Rubber Company ليبيريا اقتصاديًا إن لم تتحول من الامتناع إلى التأييد، وتعرضت الفلبين لضغوط شديدة، وتدخل رئيس جمهوريتها، فأمر مندوبه بالموافقة على القرار. ووفق هذه الألعاب القذرة تمّ تقرير مصير أحد أقدس وأطهر البقع في الأرض. تُرى ما هو المنطق في أن يتقرر مصير شعب مسلم وأرض مقدسة بناء على أن زوجة فلان من أمريكا اللاتينية حصلت على طقم ألماس أو معطف فرو!! أو لأن ليبيريا تخشى نفوذ شركة أمريكية!! وفي يوم ٢٩/١١/١٩٤٧، فاز قرار التقسيم بأغلبية ٣٣ مقابل ١٣ وامتناع ١٠.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن قرارات الجمعية العامة ليست قرارات ملزمة، حتى ضمن موثيق الأمم المتحدة نفسها. والقرار نفسه مخالف للأساس الذي قامت عليه الأمم المتحدة من حقوق الشعوب في الحرية وتقرير مصيرها بنفسها. ثم إن شعب فلسطين المعنّي أساسًا بالأمر لم تتم استشارته ولا استفتاءه. هذا، بالإضافة للظلم الفاضح الذي تضمنته تفصيلات القرار من إعطاء نحو ٥٥٪ من أرض فلسطين لأقلية يهودية دخيلة مهاجرة تمثل ٣١,٧٪ من السكان ولا تملك أكثر من ٦٪ من الأرض.

تطور أعداد السكان في فلسطين تحت الاحتلال البريطاني

السنة	العرب		اليهود	
	العدد	النسبة (%)	العدد	النسبة (%)
١٩١٨	٦٠٠٠٠٠	٩١,٦	٥٥٠٠٠	٨,٤
١٩٤٨	١٣٩٠٠٠٠	٦٨,٣	٦٤٦٠٠٠	٣١,٧

تطور نسبة ملكية الأراضي في فلسطين تحت الاحتلال البريطاني

السنة	العرب (%)	اليهود (%)
١٩١٨	٩٨	٢
١٩٤٨	٩٤	٦

حرب ١٩٤٨ وانعكاساتها:

وقد اندلعت الحرب فور صدور قرار التقسيم، وتحمل أبناء فلسطين أعباءها في الأشهر الستة الأولى، بمساعدة عدد محدود من المتطوعين، إذ رفضت الدول العربية إرسال جيوشها إلى أن تخرج بريطانيا في ١٥/٥/١٩٤٨. وشكّل الفلسطينيون جيش "الجهاد المقدس" بقيادة عبد القادر الحسيني، كما شكّلت الجامعة العربية "جيش الإنقاذ" من متطوعي البلاد العربية والإسلامية. وقد عانى أبناء فلسطين من هزلة الدعم العربي بالسلاح والعتاد لدرجة مأساوية، ومع ذلك تمكنوا من إثارة قلق اليهود ورعبهم فترة طويلة، ووصل الأمر بالولايات المتحدة للتفكير الجدي بالتراجع عن فكرة التقسيم في آذار/ مارس ١٩٤٨. وحتى دخول الجيوش العربية تمكن الفلسطينيون من المحافظة على نحو ٨٢٪ من أرض فلسطين بالرغم من النقص المريع في كل شيء قياساً باليهود، وبالرغم من تعاون البريطانيين، في أثناء انسحابهم، مع اليهود.

وقد مثل دخول الجيوش العربية السبعة قصة مأساة أخرى، فلم يزد عدد مقاتليها مجتمعة عن ٢٤ ألفاً مقابل أكثر من ٧٠ ألف يهودي، وعانت من ضعف التنسيق بينها، وجهلها بالأرض، ومن أسلحتها القديمة والفاصلة، وشغل بعضها أنفسهم بنزع أسلحة الفلسطينيين بدلاً من تسليحهم، كما عانى

بعضها من سوء قياداته، إضافة إلى أن أحد هذه الجيوش كان بين ضباطه الـ ٥٠ الكبار ٤٥ بريطانيًا. بالإضافة إلى الاستقلال الحديث لبعض الدول العربية، وقلة خبرة جيوشها، فإن بعض هذه الدول كان ما يزال عمليًا تحت النفوذ الاستعماري البريطاني.^١ أما ميزان القوة العسكرية العددية فقد ظل طوال الحرب لصالح الكيان الصهيوني، الذي كان أكثر عددًا، وأفضل انضباطًا وتدريبًا وتسليحًا من مجموع الجيوش العربية والمتطوعين. وعلى الرغم من أن هناك تقديرات متفاوتة ومختلفة في المصادر حول الأعداد، إلا أننا يمكن أن نوجز تطورها بالشكل التالي (بناء على دراسة هيثم الكيلاني):^٢

القوات العربية (بالألف)	القوات اليهودية (بالألف)	
١٢	٦٠	مرحلة ما قبل دخول الجيوش العربية (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧ – أيار/ مايو ١٩٤٨)
٢١	٦٧	المرحلة الأولى من القتال (عند دخول الجيوش العربية)
٤٠	١٠٦	المرحلة الثانية من القتال (عند نهايات الحرب)

١ حول حالة الجيوش العربية وسلوكها في حرب ١٩٤٨، انظر مثلاً: عارف العارف، النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧-١٩٥١ (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٥٤)، ج ٢، ص ٣٤٢، وج ٦، ص ٢٢٥؛ ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٨٠-٨٩. كما تحدث عن ذلك بإسهاب: صالح أبو يصير في كتابه جهاد شعب فلسطين.

٢ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ٧٦.

لقد كانت حماسة أبناء فلسطين وأبناء الشعوب العربية والإسلامية هائلة نحو الجهاد والبذل والتضحية، ولكن القيادات السياسية والجيش كانت عامل إحباط وفشل كبير. وعلى سبيل المثال فقد شارك الإخوان المسلمون في مصر بجهود كبيرة لإنقاذ فلسطين، وتطوع الشهيد حسن البنا في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧ بدماء ١٠ آلاف من الإخوان كدفعة أولى للمعركة. لكن الحكومة المصرية ضيّقت الخناق عليهم، ومنعتهم من السفر إلا بشكل محدود جداً. ومع ذلك فإن المئات الذين استطاعوا المشاركة في المعارك، وقاموا فيها بأدوار بطولية، كان مصيرهم الاعتقال والسجون قبل عودتهم إلى مصر، وتم حل جماعة الإخوان المسلمين قبل أن تنتهي المعارك في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨، وقامت المخابرات المصرية باغتيال حسن البنا نفسه في ١١/ ٢/ ١٩٤٩، قبيل توقيعها اتفاقية الهدنة مع الكيان الصهيوني. كما شارك الإخوان المسلمون من الأردن، وسورية، والعراق ليمثلوا صورة وضيئة للاندفاع الشعبي للتضحية والجهاد. وهذا لا يقلل من قيمة البطولات التي قدمها الآخرون، أمثال رجال الجهاد المقدس. هذا بالإضافة إلى مشاركة الكثير من العرب في جيش الإنقاذ، بل ومشاركة نحو ٢٥٠ بوسنياً في هذه الحرب دفاعاً عن فلسطين. وكان من المشاهد التي آلمت أبناء فلسطين أن تقوم بعض الجيوش العربية بنزع أسلحة الفلسطينيين بدلاً من تسليحهم!! كما كان من المشاهد التي آلمت الجندي العربي أن يسلم أسلحة قديمة أو فاسدة تنفجر أحياناً في وجهه عندما يستخدمها!!.

أعلنت الحركة الصهيونية "دولة إسرائيل" في مساء ١٤/ ٥/ ١٩٤٨، وتمكنت مع نهاية الحرب من هزيمة الجيوش العربية، ومن الاستيلاء على

نحو ٧٧٪ من أرض فلسطين. أما من الناحية الفلسطينية، فقد كانت الهيئة العربية العليا قد قررت إنشاء حكومة فلسطينية لملء الفراغ الناتج عن انسحاب بريطانيا من فلسطين، وسعت لإقناع الحكومات العربية بذلك خلال أشهر آذار/ مارس، ونيسان/ أبريل، والنصف الأول من أيار/ مايو ١٩٤٨، ولكن دون جدوى. وفي ٢٣/ ٩/ ١٩٤٨ قامت الهيئة بإعلان "حكومة عموم فلسطين" في غزة برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي. وقد أقرت الحكومات العربية (ما عدا الأردن) ذلك واعترفت بالحكومة. وتأكيداً لشرعيتها، قامت حكومة عموم فلسطين والهيئة العربية العليا بالدعوة إلى مجلس وطني فلسطيني في غزة في ١/ ١٠/ ١٩٤٨ برئاسة الحاج أمين. وقد أعلن المؤتمر استقلال فلسطين، وإقامة دولة حرة ديموقراطية ذات سيادة، بحدودها الدولية المتعارف عليها في أثناء الاحتلال البريطاني. ومنح المجلس الثقة لحكومة عموم فلسطين المكونة من عشرة وزراء برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي.^١

وعندما حاولت حكومة عموم فلسطين ممارسة صلاحياتها في قطاع غزة، تدخلت السلطات المصرية، فنقلت الحاج أمين الحسيني بالقوة إلى القاهرة، وأجبرت عددًا من أعضاء المجلس الوطني على مغادرة غزة إلى القاهرة. ثم ما لبثت أن أكرهت رئيس وأعضاء حكومة عموم فلسطين على الانتقال إلى مصر. ورفضت الحكومات العربية الاعتراف بالجوازات التي أصدرتها حكومة عموم فلسطين، كما تمّ حلّ وإنهاء قوات الجهاد المقدس

١ حسين أبو النمل، قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٦٧: تطورات اقتصادية وسياسية واجتماعية وعسكرية (بيروت: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، ١٩٧٩)، ص ٢٢-٢٣.

التابعة للهيئة العربية العليا، وقامت السلطات المصرية بتعيين حاكم إداري على "المناطق الخاضعة لرقابة القوات المصرية"، أي قطاع غزة.^١

وكان من النتائج المباشرة لحرب ١٩٤٨ قيام العصابات اليهودية - الصهيونية بتشريد نحو ٥٨٪ من الشعب الفلسطيني من أرضهم (شُرّد بالقوة نحو ٨٠٠ ألف من أصل مليون و٣٩٠ ألفاً) إلى خارج الأرض التي أقام اليهود عليها كياناتهم، بينما شُرّدوا ٣٠ ألفاً آخرين إلى مناطق أخرى في داخل الأرض المحتلة نفسها. ودمّر الصهاينة ٤٧٨ قرية من أصل ٥٨٥ قرية كانت قائمة قبل الحرب، وارتكبوا ٣٤ مجزرة خلال حرب ١٩٤٨ بمدنيين فلسطينيين في أثناء عملية التهجير، وكان من أشهرها مذبحة دير ياسين في ٩/٤/١٩٤٨، التي اعترف الصهاينة بأنفسهم بقتلهم وذبحهم لـ ٢٥٤ رجلاً وامرأة وطفلاً.^٢

لقد مزقت حرب ١٩٤٨ النسيج الاجتماعي والاقتصادي للشعب الفلسطيني، الذي وجد نفسه مشرّداً في العراق، بعد أن استقر في بلاده طوال ٤٥٠٠ عام ماضية. وكان على هذا الشعب المسلم أن يُذبح ويُدمر ليدفع ثمن حماقات الأوروبيين تجاه اليهود، وكان عليه أن يُطرد تنفيذاً لرغبات قوى الاستكبار

١ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٢، ص ٣٤٢-٣٤٤، وج ٤، ص ٣٧٧-٣٧٩، و٥٥٦-٥٦١؛ وحسين أبو النمل، قطاع غزة ١٩٤٨-١٩٦٧، ص ٢٥.

٢ انظر: إبراهيم أبو جابر، "المجتمع العربي في إسرائيل"، في جواد الحمد (محرر)، المدخل إلى القضية الفلسطينية، سلسلة دراسات رقم ٢١ (عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٧)، ص ٤٢٧. وانظر أيضاً:

Salman Abu Sitta, Palestinian Right to Return (London: The Palestinian Return Center, 1999), pp. 16, 27.

الدولية المتعاطفة مع الحركة الصهيونية، ولم يكن الصهاينة الذين بنوا كيانتهم على بحر من دماء الفلسطينيين وآلامهم ومعاناتهم ليشعروا بالإثم أو وخز الضمير، وكان أولى بهم أن يستشعروا معاناة الآخرين، بسبب ما يدعونه من الظلم الذي حاق باليهود، والذي أقاموا الدنيا ولم يقعدوها بسببه، ولم يكونوا قد ضمدوا جراحهم بعد من مذابح الألمان، ومن "لاسامية" الروس. ويعترف موشيه ديان Moshe Dayan الذي تولى مناصب رئاسة أركان الجيش "الإسرائيلي" ووزارة الدفاع ووزارة الخارجية، وكان عالمًا بالآثار، أنه "ليست هناك قرية يهودية واحدة في هذه البلاد لم يتم بناؤها فوق موقع لقرية عربية".^١

سادساً: هل باع الفلسطينيون أرضهم؟ وتخلّوا عنها لليهود؟!

تُرَكِّز الدعاية اليهودية الصهيونية على أن الفلسطينيين هم الذين باعوا أرضهم لليهود، وأن اليهود إنما اشتروها بـ "الحلال" من أموالهم، فلا ينبغي للفلسطينيين أن يطالبوا بعد ذلك بها! ولعلنا نستطيع هنا إعطاء فكرة مختصرة عن الموضوع.

إن الدعاية الصهيونية في بداياتها ومنذ القرن الـ ١٩ ارتكزت على فكرة "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض"، مُعتبرةً أنه لا يوجد شعب في فلسطين، وأن من حق اليهود الذين لا يملكون أرضاً أن تكون هذه الأرض لهم. لكنهم ومنذ بواكر الاستيطان الأولى وجدوها عامرة بالحيوية والنشاط، يعيش فيها

١ كليفورد رايت، حقائق وأباطيل في الصراع العربي الإسرائيلي، ترجمة عبد الله عريقات وعبد الله عيَّاد (عمّان: دار الناصر، ١٩٩٢)، ص ٨٥، نقلاً عن جريدة الجارديان The Guardian البريطانية في عدد ١٤ / ١١ / ١٩٧٣.

شعب كادح متجذر في أرضه. ومن الطريف أن نذكر قصة متداولة أنه في العقد الأخير من القرن الـ ١٩ بعث ماكس نوردو Max Nordau، أحد كبار قادة الحركة الصهيونية المقربين إلى ثيودور هرتزل، بحاخامين اثنين ليرفعا تقريراً إلى المؤتمر الصهيوني Zionist Congress عن الإمكانية العملية للهجرة إلى فلسطين، وبعد أن رجعا، كتبا تقريراً جاء فيه: "إن فلسطين عروس جميلة، ولكنها متزوجة فعلاً من رجل آخر!!" أي أن هناك شعباً يسكنها وليست أرضاً بلا شعب.

وعلى الرغم من أن السلطان عبد الحميد والسلطات المركزية أصدرت تعليماتها بمقاومة الهجرة والاستيطان اليهودي، إلا أن فساد الجهاز الإداري العثماني حال دون تنفيذها، واستطاع اليهود الصهاينة من خلال الرشاوى شراء الكثير من الأراضي. ثم إن سيطرة حزب الاتحاد والترقي على الدولة العثمانية وإسقاطهم السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٩، والنفوذ اليهودي الصهيوني الكبير بداخل هذا الحزب، قد سهل استملاك اليهود للأرض وهجرتهم لفلسطين. ومع نهاية الدولة العثمانية ١٩١٨ كان اليهود قد حصلوا على نحو ٤٢٠ ألف دونم (أي ١,٥ ٪) من أرض فلسطين، اشتروها من ملاك إقطاعيين لبنانيين ينتمون إلى عائلات مثل آل سرسق، وتيان، وتويني، ومدور، أو من الإدارة العثمانية عن طريق المزاد العلني الذي تباع فيه أراضي الفلاحين الفلسطينيين العاجزين عن دفع الضرائب المترتبة عليهم، أو من بعض الملاك الفلسطينيين الذين ينتمون إلى عائلات إقطاعية أمثال عائلات روك وكسار. وقد غطت عمليات الشراء هذه نحو ٩٣ ٪ من الأرض التي حصلوا عليها. وعلى أي حال، فإن الخطر الصهيوني لم يكن يمثل خطراً جدياً على أبناء فلسطين في ذلك الوقت، لضآلة الحجم الاستيطاني

والسكاني اليهودي، وللاستحالة العملية لإنشاء كيان صهيوني في ظلّ دولة مسلمة (الدولة العثمانية).^١

١. تحت الاحتلال والقهر البريطاني:

وعندما وقعت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني ١٩١٧-١٩٤٨، كان من الواضح أن هذه الدولة جاءت لتنفيذ المشروع الصهيوني وإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. وقد استثمرت كل صلاحيات الحكم الاستعماري وقهره لفرض هذا الواقع. وقد قاومت الحركة الوطنية الفلسطينية الاستيطان اليهودي بكل ما تملك من وسائل سياسية وإعلامية واحتجاجية، وخاضت الكثير من الثورات والمجاهدات. وبلغ مجموع ما تمكن اليهود الصهاينة من الاستيلاء عليه خلال فترة الاحتلال البريطاني نحو ٢, ١-٣٨, ١ مليون دونم أي نحو ٤, ١-٥, ١٪ فقط من أرض فلسطين، على الرغم مما جندته من إمكانيات عالمية، ورؤوس أموال ضخمة، وتحت الدعم والإرهاب المباشر لقوة الاحتلال الغاشمة.

ولكن مهلاً! فمعظم هذه الأراضي لم يشتروها في الواقع من أبناء فلسطين! فالحقائق الموضوعية تشير إلى أن معظم هذه الأراضي تسرب لليهود عن طريق منح حكومية بريطانية لأراضي فلسطين الأميرية "أراضي الدولة"، أو عن طريق ملاك إقطاعيين كبار غير فلسطينيين كانوا يقيمون في الخارج، ومُنَعُوا عملياً ورسمياً من الدخول إلى هذه المنطقة (تحت الاحتلال البريطاني) لاستثمار أرضهم إن كانوا يرغبون بذلك فعلاً.

١ عبد الوهاب الكيالي، تاريخ فلسطين الحديث، ص ٤٩.

فقد منحت السلطات البريطانية نحو ٣٠٠ ألف دونم لليهود من الأراضي الأميرية دون مقابل، كما منحهم ٢٠٠ ألف دونم أخرى مقابل أجر رمزي، ففي عهد هيربرت صمويل، أول مندوب سام بريطاني على فلسطين (١٩٢٠-١٩٢٥) وهو يهودي صهيوني، قام بمنح ١٧٥ ألف دونم من أخصب أراضي الدولة على الساحل بين حيفا وقيسارية لليهود، وتكررت هباته الضخمة على الأراضي الساحلية الأخرى، وفي النقب، وعلى ساحل البحر الميت.^١

وكان هناك أملاك إقطاعية ضخمة لعائلات حصلت على هذه الأراضي، خصوصاً سنة ١٨٦٩ عندما اضطرت الدولة العثمانية لبيع أراضي أميرية لتوفير بعض الأموال لخزينتها، فقامت بشرائها عائلات لبنانية غنية، وقد مثّل ذلك وجهاً آخر للمأساة. وقد باع إقطاعيو هذه العائلات ما مجموعه ٦٢٥ ألف دونم؛ فعائلة سرسق اللبنانية باعت أكثر من ٢٠٠ ألف دونم من أراضي مرج ابن عامر للصهاينة، وتسبّب ذلك في تشريد ٢٧٤٦ أسرة عربية هم أهل ٢٢ قرية فلسطينية، كانت تفلح هذه الأراضي لمئات السنين. وتكررت المأساة عندما باع إقطاعيو عائلات لبنانية أخرى نحو ١٢٠ ألف دونم حول بحيرة الحولة شمال فلسطين، كما باعت أسرتان لبنانيتان أراضي وادي الحوارث (٣٢ ألف دونم) مما تسبب في تشريد ١٥ ألف فلسطيني. والإقطاعيون الذين قاموا ببيع كبيرة للأراضي لليهود الصهاينة في أثناء الاحتلال البريطاني ينتمون إلى عائلات لبنانية أو سورية. وقد بلغت الأراضي

١ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ١، ص ١٨٠؛ وهند البديري، أراضي فلسطين: بين مزاعم الصهيونية وحقائق التاريخ (القاهرة: جامعة الدول العربية، ١٩٩٨)، ص ١٨٧-٢٣٧.

الزراعية التي باعها الملاك الإقطاعيون الغائبون خارج فلسطين خلال الفترة ١٩٢٠-١٩٣٦ ما نسبته ٥, ٥٥٪ مما حصل عليه اليهود من أراضي زراعية.^١ وعلى الرغم مما يتحمله من قام بهذه البيوع من أبناء هذه العائلات من مسؤولية، فإن اللوم لا يقع بشكل كامل عليهم وحدهم، إذ إن السلطات البريطانية منعتهم من الدخول لاستغلال هذه الأراضي، بحجة أنهم أجانب، وذلك بعد أن تم فصل فلسطين عن سورية ولبنان وفق تقسيمات سايكس-بيكو بين الاستعمارين البريطاني والفرنسي.

أما مجموع ما تسرب إلى أيدي اليهود من أراضي باعها لهم عرب فلسطين خلال الاحتلال البريطاني فكان نحو ٢٦٠ ألف دونم (أقل من ١٪) من أرض فلسطين. وقد حصل اليهود على هذه الأراضي بسبب الظروف القاسية التي وضعت حكومة الاستعمار البريطاني الفلاحين الفلسطينيين فيها، ونتيجة لاستخدام البريطانيين لأسلوب نزع الملكية العربية لصالح اليهود وفق مواد من صك الانتداب البريطاني على فلسطين، والتي تخوّل المندوب السامي هذا الحق. كما حدثت حالات بيع بسبب ضعف عدد من الفلسطينيين ووقوعهم تحت الإغراءات المادية؛ وليس من المستغرب أن توجد في كل زمان ومكان في أي بلد عربي أو غير عربي، فئات قليلة تضعف أمام الإغراءات، لكنها على أي حال فئة منبوذة محاربة من مجمل أبناء شعب فلسطين، وقد تعرض الكثير منهم للمقاطعة والتصفية والاغتيال خصوصاً في أثناء الثورة العربية الكبرى التي عمت فلسطين خلال ١٩٣٦-١٩٣٩.

١ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٥٦١-٥٦٢؛ وهند البديري، أراضي فلسطين، ص ٢٣٩-٢٤٨؛ وصالح أبو يصير، جهاد شعب فلسطين، ص ٤٦٥-٤٨٥.

وعلى هذا فإن مجموع ما حصل عليه اليهود من أبناء فلسطين حتى سنة ١٩٤٨ لا يتجاوز ١٪ من أرض فلسطين، وخلال سبعين عامًا من بداية الاستيطان والهجرة المنظمة لفلسطين، وتحت ظروف قاسية. وهذا بحد ذاته يبرز مدى المعاناة التي لقيها اليهود في تثبيت مشروعاتهم وإنجاحه في فلسطين، ومدى إصرار الفلسطينيين على التمسك بأرضهم.^١

٢. مقاومة وصمود:

وقد قام أبناء فلسطين خصوصًا في الثلاثينيات من القرن الـ ٢٠ بجهود كبيرة في محاربة بيع الأراضي، وكان للمجلس الإسلامي الأعلى بقيادة الحاج أمين الحسيني، وعلماء فلسطين دور بارز. فقد أصدر مؤتمر علماء فلسطين الأول، في ٢٥/١/١٩٣٥، فتوى بالإجماع تحرم بيع أي شبر من أراضي فلسطين لليهود، وتعدّ البائع والسمسار والوسيط المستحلّ للبيع مارقين من الدين، خارجين من زمرة المسلمين، وحرمانهم من الدفن في مقابر المسلمين، ومقاطعتهم في كل شيء والتشهير بهم.^٢

وقام العلماء بحملة كبرى في جميع مدن وقرى فلسطين ضدّ بيع الأراضي لليهود، وعقدوا الكثير من الاجتماعات وأخذوا العهود والمواثيق على الجماهير بأن يتمسكوا بأرضهم، وألا يفرطوا بشيء منها. وقد تمكن العلماء من إنقاذ أراضٍ كثيرة كانت مهددة بالبيع، واشترى المجلس الإسلامي الأعلى

١ انظر: هند البديري، أراضي فلسطين، ص ٢٤٩-٢٥٩؛ ومحمد عرابي نخلة، تطور المجتمع في فلسطين في عهد الانتداب البريطاني ١٩٢٠-١٩٤٨ (الكويت: ذات السلاسل، ١٩٨٣)، ص ١٤٤.

٢ انظر نص الفتوى في: وثائق الحركة الفلسطينية ١٩٨١-١٩٣٩: من أوراق أكرم زعير، ط ٢، ص ٣٨١-٣٩١.

قرى بأكملها مثل دير عمرو وزيتا، والأرض المشاع في قرى الطيبة وعتيل والطيرة، وأوقف البيع في نحو ستين قرية من قرى يافا. وتألّفت مؤسسات وطنية أسهمت في إيقاف بيع الأراضي، فأنشئ "صندوق الأمة" بإدارة الاقتصادي الفلسطيني أحمد حلمي باشا، وتمكن من إنقاذ أراضي البطيحة شمال شرقي فلسطين، ومساحتها تبلغ ٣٠٠ ألف دونم.^١

إن الخسارة الحقيقية لأرض فلسطين لم تكن بسبب بيع الفلسطينيين لأرضهم. فحتى سنة ١٩٤٨ كان الفلسطينيون ما زالوا يحتفظون بنحو ٩٤٪ من أرض فلسطين، بالرغم من قسوة معاناتهم وشراسة الاحتلال البريطاني والمشروع الصهيوني. أما أرض فلسطين التي قام عليها الكيان الصهيوني أو ما يسمى "إسرائيل"، فقد تمّ استلابها كما لاحظنا، بسبب هزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٤٨، حيث تمت السيطرة على نحو ٧٧٪ من أرض فلسطين بقوة السلاح.

١ انظر: بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٢٩٤-٢٩٦؛ وعيسى السفري، فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية، ط ٢، ص ٢٣٠؛ ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٣٤-٣٥؛ والموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٥٦٢.

القسم الثالث

**فلسطين: الحروب العربية
"الإسرائيلية" ومسار التسوية السلمية**

الفصل الأول

الحروب العربية "الإسرائيلية"

أولاً: حرب ١٩٤٨:

تمثل هذه الحرب أحد أكبر مآسي التاريخ الفلسطيني والعربي والإسلامي الحديث والمعاصر، إذ إنها الحرب التي أدت إلى سقوط ٧٧٪ من أرض فلسطين تحت الاحتلال الصهيوني وإنشاء كيانه "الإسرائيلي" عليها، وتشريد نحو ثلثي شعب فلسطين.

كانت هذه الحرب نتيجة مباشرة لقرار الاستعمار البريطاني الانسحاب من فلسطين وإيصال الأمر إلى الأمم المتحدة، التي أصدرت تحت ضغط القوتين العظميين آنذاك (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي) قرار رقم ١٨١ في ٢٩/١١/١٩٤٧ بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية (٨٠، ٤٤٪)، ويهودية (٧، ٥٤٪)، ومنطقة دولية (٥، ١٠٪) تشمل القدس.

ولا يمكن فهم تطورات الحرب ونتائجها إلا بتصور أوضاع القوى المختلفة ذات العلاقة، وفيما يلي أبرز ملامحها:

١. فلسطينياً:

- خرج شعب فلسطين منهكاً من ثورته الكبرى ضدّ بريطانيا، وعانى من الحكم العسكري الصارم طيلة الحرب العالمية الثانية ١٩٤٥-١٩٣٩.
- افتقد شعب فلسطين القيادة السياسية والعسكرية المحلية الميدانية المتماسكة، ذات القدرة الفاعلة على الحشد والتعبئة والتنظيم.

- افتقد شعب فلسطين البناء المؤسسي العسكري والاقتصادي القادر على مواجهة الأحداث، لأسباب متعددة أهمها، سياسات الاستعمار البريطاني.
- عانت القيادة السياسية من مشاكل جمة داخل فلسطين وخارجها، فالعديد من القادة لم يكن قادرًا على دخول فلسطين كالحاج أمين نفسه زعيم فلسطين، الذي كانت له مشاكله أيضًا مع بلاد كالأردن والعراق، واللذان سعتا لتجاوزه وتهميش دوره، كما لم يكن حرًا في حركته داخل مصر نفسها.
- كان قرار الدول العربية هو تولي أمر تحرير فلسطين بنفسها، وإلزام الفلسطينيين بما يرتأونه، وفق قرارات الجامعة العربية وقادة هذه الدول. ولذلك خرج القرار السياسي والعسكري عمليًا من أيدي الفلسطينيين.
- عانى الفلسطينيون من ضعف مُريع في التسليح، بالإضافة إلى الضعف الشديد في الإمكانيات الاقتصادية التي يمكن أن تسهم في شراء الأسلحة، وبالإضافة إلى حظر الدول الكبرى وصول هذه الأسلحة إليهم، فإن الدعم العربي كان هزيلًا جدًا. وعلى الرغم من أن المقرر لأبناء فلسطين كان قليلًا، إلا أن الحكومات العربية لم تعطيهم منه سوى رُبْعِهِ، وكان الكثير من هذا الربع غير صالح للاستعمال!!^١ وقد زاد الأمر مأساوية أن بعض الجيوش العربية قامت بنزع أسلحة الفلسطينيين بدل تسليحهم، بحجة المحافظة على الأمن والنظام.^٢

١ محمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين (القاهرة: دار الكتاب العربي، ١٩٥٩)، ص ٨٠.

٢ انظر مثلاً: شكيب الأموي، شهادة من الميدان: وثائق عن حرب فلسطين ١٩٤٨ (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٠)، ص ٤١-٤٧؛ وكامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين (الزرقاء، الأردن: مكتبة المنار، ١٩٨٤)، ص ٥٠-٥١، و٥٣، و٥٥.

٢. عربياً:

- كانت البلاد العربية إما مستقلة حديثاً، ولم يشتد عودها بعد، أو ما تزال تحت بعض أشكال النفوذ الاستعماري، بحيث لم تكن كاملة الحرية في قرارها السياسي.
- كانت الجيوش العربية قليلة الخبرة، لم تخض حرباً حقيقية قبل ذلك، وكان معظم ضباط أحدها (٤٥ من أصل ٥٠) من البريطانيين.^١ كما لم تكن تملك معلومات كافية من فلسطين، بل إن بعضها جاء للحرب دون خرائط كالجيش العراقي، وكانت معلوماتها ضعيفة، إن لم تكن منعدمة، عن القوات الصهيونية وإمكاناتها.
- بالرغم من أن الدول العربية قررت تولي زمام الأمر بنفسها، إلا أنها لم تحشد ولم تعبئ كافة طاقاتها للمعركة، وتعامل البعض معها وكأنها نزهة عسكرية، مهونين تماماً من شأن القوات اليهودية التي أساءوا تقديرها. ولم تكن المعركة بالنسبة لها معركة مصير بقدر ما كانت مساعدة بلد شقيق.
- عانت الجيوش العربية من ضعف التنسيق الميداني، وعدم وجود قيادة عسكرية مشتركة ذات صلاحيات حقيقية.
- أصدر قائد الجيش الأردني (الجنرال البريطاني جلوب Glubb) أوامر مشددة لجيشه بعدم تجاوز خطوط التقسيم التي فرضتها الأمم المتحدة، أي أنه أراد أن يثبت قرار التقسيم بدلاً من تحرير فلسطين.
- نجح اليهود إلى حدٍّ ما في زرع بذور الشك بين الفلسطينيين وبعض

١ انظر: عارف العارف، النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ١٩٤٧-١٩٥١ (صيدا-بيروت: المكتبة العصرية، ١٩٥٤)، ج ٦، ص ٢٢٥.

قادة الجيوش العربية، إذ إن اليهود العرب لبسوا ملابس الفلسطينيين ليوهموا الجيوش أن الفلسطينيين ضدهم، فقام هؤلاء بنزع أسلحة الفلسطينيين وتحبيد همهم، ولم يكلّفوا أنفسهم عناء بعض الترتيبات الأمنية لمواجهة الأمر بطريقة أفضل.

- كان تسليح الجيوش العربية ضعيفاً مقارنة باليهود، خصوصاً بعد حظر الدول الكبرى تصدير الأسلحة إليهم في أثناء الحرب.^١

٣. صهيونياً - يهودياً:

- تمكن المشروع الصهيوني من بناء مؤسساته السياسية والاقتصادية والعسكرية والتعليمية والاجتماعية وتنميتها طيلة فترة الاحتلال البريطاني.
- كانت القيادة الصهيونية حاضرة بشكل فاعل وميداني، وتتمتع بقدرات قيادية وتنظيمية وتعبوية عالية.
- استفادت القيادة الصهيونية من دعم الدول الكبرى السياسي والاقتصادي والعسكري، واستثمرت بفاعلية انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، كما استخدمت معاناة اليهود في الحرب كقضية رابحة للحصول على الدعم بإنشاء الدولة.

- أمكن لليهود تعبئة جيش قوي مدرب متماسك حسن التسليح من ٦٠-٧٠ ألف جندي منذ بداية الحرب، واستفادوا من خبرة الفرقة اليهودية

١ حول الوضع العربي في حرب ١٩٤٨، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩١)، ص ٧١-٧٢، و١٠٣-١٥٣.

التي شاركت في الحرب العالمية الثانية والمكونة من ٢٦ ألف جندي.^١

- كانت المعركة بالنسبة لليهود معركة حياة أو موت، ولذلك تم تعبئة كافة الطاقات الممكنة للمعركة في فلسطين، ومن خلفها يهود العالم ودوائر نفوذهم.

- كانت أوضاع اليهود الاقتصادية وعلاقاتهم السياسية تُمكنهم من شراء حاجاتهم من الأسلحة المتطورة. فقد اشترى من الإنجليز قبل خروجهم من فلسطين ٢٤ طائرة وألف سيارة نقل كبيرة. كما اشترى كميات ضخمة من الأسلحة التشيكية (بإذن وتوجيه من الاتحاد السوفيتي) منها ٤٠ طائرة مقاتلة، كما اشترى ثلاث طائرات قاذفة من الولايات المتحدة من نوع ب-١٧.

٤. دوليًا:

- بعد ثلاثين عامًا من الاحتلال البريطاني، نجحت بريطانيا في تنمية المشروع الصهيوني ورعايته، في الوقت الذي سحقت فيه شعب فلسطين وأضعفته، ومنعت نمو مؤسساته السياسية والاقتصادية والعسكرية واستقرارها.
- حظي الكيان الصهيوني بدعم القوتين العظميين (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي)، وتمّ تجهيز الظروف الدولية بشكل يضمن التفوق الصهيوني وقيام دولته.

١ انظر: المرجع نفسه، ص ٧٥-٧٦؛ وحرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨ (الرواية الإسرائيلية الرسمية)، ترجمة أحمد خليفة (قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤)، ص ١٨.

٢ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٧٤-٧٦، و٨٢؛ ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٨٨-٨٩.

• استخدمت بريطانيا نفوذها على الدول العربية، وخصوصًا في مصر والأردن والعراق، ومارست ضغوطها بشكل كبير بحيث لا يتجاوز دور جيوش هذه البلدان الخطوط الحمراء للسياسة البريطانية، كما ضغطت ضدّ قدوم المجاهدين والمتطوعين العرب إلى فلسطين، وخصوصًا الإخوان المسلمين من مصر.

• تمّ تنفيذ قرار حظر بيع السلاح على الجانب العربي دون الجانب اليهودي.

أما ميزان القوة العسكرية العددية، فقد ظلّ طوال الحرب لصالح الكيان الصهيوني، الذي كان أكثر عددًا وأفضل انضباطًا وتدريبًا وتسليحًا من مجموع الجيوش العربية والمتطوعين. وعلى الرغم من أن هناك تقديرات متفاوتة ومختلفة في المصادر حول الأعداد، إلا أننا يمكن أن نوجز تطورها بالشكل التالي، بناء على دراسة د. هيثم الكيلاني:^١

القوات العربية (بالألف)	القوات اليهودية (بالألف)	
١٢	٦٠	مرحلة ما قبل دخول الجيوش العربية (كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧ – أيار / مايو ١٩٤٨)
٢١	٦٧	المرحلة الأولى من القتال (عند دخول الجيوش العربية)
٤٠	١٠٦	المرحلة الثانية من القتال (عند نهايات الحرب)

كانت القوات العربية النظامية تتكون من جيوش سبعة دول. وحسب تقرير مؤرخ هذه "النكبة" عارف العارف، فقد بلغ عدد الجيش المصري

١ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٧٦.

في البداية ٦٠٠٠، والجيش السوري ١٥٠٠، والجيش العراقي ١٥٠٠، والجيش الأردني ٤٥٠٠، والجيش السعودي ١٥٠٠، والجيش اللبناني ١٠٠٠. ١. وزاد عدد الجيش المصري بعد ذلك إلى ٢٠ ألف، كما تضاعفت مرة أخرى، على ما يبدو، أعداد الجيوش السورية والعراقية والأردنية فيما بعد، أما اليمينيون فكانت مشاركتهم رمزية.

وكانت القوات العربية غير النظامية تتكون أساسًا من:

١. جيش الجهاد المقدس: وهو الجيش الذي شكلته القيادة السياسية الفلسطينية "الهيئة العربية العليا لفلسطين" بقيادة عبد القادر الحسيني، الذي استشهد في معركة القسطل في ٨ / ٤ / ١٩٤٨. وكان أساسًا جيشًا فلسطينيًا يتألف من ٥-٧ آلاف مقاتل، تسانده فئة أخرى من المقاتلين المقيمين في قراهم، والذين يستدعون عند الحاجة، وكان مجموعهم نحو ١٠ آلاف. ٢. وقد كان هذا الجيش ضعيف التسليح والتدريب، وأسهمت خلافات الأنظمة العربية مع "الهيئة العربية العليا" في عدم تحويل الكثير من الأسلحة والأموال التي يتم التبرع بها إلى هذا الجيش، الذي كان بأمر الحاجة إليها. ولقد صرخ عبد القادر الحسيني قبل استشهاده بيومين في وجه رئيس اللجنة العسكرية العربية الذي رفض التعاون معه وتزويده بالسلح "أنتم خائنون، أنتم مجرمون، سيسجل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين". ٣. وها نحن كُتِّب التاريخ نحفظ شهادته للتاريخ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

١ عارف العارف، النكبة، ج ٢، ص ٣٤٢.

٢ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٧٠.

٣ صالح أبو يصير، جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن (بيروت: دار الفتح، ١٩٧٠)، ص ٣٤٩.

وقد توزع هذا الجيش في كثير من مدن وقرى فلسطين، وقام بالكثير من العمليات البطولية الناجحة، لكن إمكاناته المحدودة حرمته من الدور الذي يمكن أن يقوم به، كما أن تداخل قيادات المناطق بينه وبين جيش الإنقاذ، ووجود قائدين يعملان بشكل مستقل في منطقة واحدة كان له عواقب وخيمة.^١

٢. جيش الإنقاذ: تأسس هذا الجيش بقرار من الجامعة العربية، وقوامه متطوعين من مختلف البلدان العربية. وبلغ عدد الذين تقدموا للتطوع فيه نحو ١٠ آلاف، أما الذين دخلوا فلسطين فعلياً ضمن تشكيلاته فكانوا نحو ٤٦٣٠ مقاتلاً. وقد تولى القيادة الميدانية لهذا الجيش فوزي القاوقجي، الذي تركز عمله في شمال فلسطين ووسطها. وقد شارك في هذا الجيش أخطا من الناس من عسكريين محترفين ومتطوعين غير متدربين، ومن رجال دفعهم الإيمان والوطنية للتضحية، ومن آخرين كانوا للأسف من المتبطلين والملتكسبين وأصحاب السوابق ممن أساءوا إلى هذا الجيش، وإلى أهل فلسطين عندما قاموا بنهب وسرقة العديد من القرى والمدن التي جاءوا للدفاع عنها، كما حدث في يافا. وعانت قيادة هذا الجيش من سوء الإدارة والتسيب واللامسؤولية، ووجهت أصابع اللوم والالتهام إلى القاوقجي نفسه. ومع ذلك، فإن هذا الجيش خاض كثيراً من المواجهات

١ انظر: بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، سلسلة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، رقم ٥٧ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٦١٥-٦١٦؛ ومحمد أمين الحسيني، حقائق عن قضية فلسطين، ط ٢ (القاهرة: مكتب الهيئة العربية العليا لفلسطين، ١٩٥٧)، ص ٩١.

الضارية مع الصهاينة.^١

٣. الإخوان المسلمون: مثلت مشاركة الإخوان المسلمين في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ أحد النماذج المتميزة للحركات والتنظيمات العربية الإسلامية التي كسرت الطوق الإقليمي، وعبرت عملياً وجهاًياً عن روح الأمة الواحدة. فقد شاركت تنظيمات الإخوان في مصر وسورية والأردن والعراق بفعالية في التعبئة الجماهيرية، وفي جمع التبرعات، وجمع السلاح والقتال في فلسطين.

وقد أفردنا مبحثاً خاصاً في "المنهج" لدراسة النموذج الذي قدمه الإخوان المسلمون بوصفه نموذجاً إسلامياً شعبياً.

مجريات الحرب: ٢

بدأت المرحلة الأولى من الحرب منذ صدور قرار التقسيم في ٢٩/١١/١٩٤٧، وحتى انتهاء الانتداب البريطاني، ودخول الجيوش العربية في ١٥/٥/١٩٤٨. وفي هذه الفترة تحمل الفلسطينيون العبء خصوصاً من

١ انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٦٨؛ وكامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٢٨؛ وصالح أبو يصير، جهاد شعب فلسطين؛ ومحمد محمود الصواف، معركة الإسلام أو وقائعنا في فلسطين بين الأمس واليوم (لبنان: د.ن، ١٩٦٩)، ص ١٥٨-١٥٩.

٢ حول مجريات حرب ١٩٤٨، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٧٧-٧٨؛ ومحمد عزة دروزة، فلسطين وجهاد الفلسطينيين، ص ٨٢-٨٩؛ وصالح أبو يصير، جهاد شعب فلسطين؛ وانظر:

Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars: War & Peace in the Middle East (New York & London: Random House, 1982), pp. 17-108.

خلال "الجهاد المقدس"، بالإضافة إلى متطوعي جيش الإنقاذ والإخوان المسلمين وغيرهم.

وقد تمكن أبناء فلسطين من الثبات وتحقيق انتصارات وإنجازات مهمة، دفعت الولايات المتحدة في آذار/ مارس ١٩٤٨ إلى التفكير في التراجع عن تأييد قرار التقسيم، غير أنه في الوقت الذي كان اليهود يُحسّنون أوضاعهم بالتجنيد واستيراد كميات ضخمة من الأسلحة المتنوعة والمتطورة، كانت أسلحة الفلسطينيين تتناقص وذخيرتهم تنفذ. وقد أخذ الوضع بالتدهور خصوصًا في نيسان/ أبريل، وبالذات بعد استشهاد عبد القادر الحسيني في معركة القسطل في ٨ نيسان/ أبريل، ثم قيام العصابات الصهيونية بمجزرة دير ياسين في مساء ٩ نيسان/ أبريل وحتى ظهر اليوم التالي، والتي أدت إلى استشهاد ٢٥٣ من الرجال والأطفال والنساء، حيث أثار ذلك حالة من الذعر في أوساط الفلسطينيين. وتتابع سقوط مدن فلسطينية مهمة مع عمليات تهجير جماعي للفلسطينيين، فسقطت مدن: طبريا في ١٩ نيسان/ أبريل، وحيفا في ٢٢ نيسان/ أبريل، وبيسان وصفد في ١٢ أيار/ مايو، ويافا في ١٤ أيار/ مايو.

وبشكل عام، فقد حافظ أهل فلسطين على نحو ٨٠-٨٢٪ من أرض فلسطين حتى لحظة دخول الجيوش العربية.

ويصعب تتبع خطوات المعارك خلال هذه الحرب لكن الجيوش العربية حققت في البداية نجاحات لا بأس بها، وتمكن الجيش المصري من السيطرة على خط: المجدل - الفالوجة - بيت جبرين - الخليل، وخط: أسدود - القسطينة، وعزل المستعمرات الصهيونية في النقب. وتحرك الجيش الأردني ليركز قطاعاته في وسط فلسطين في مناطق القدس

ورام الله واللد والرملة على بُعد نحو ١٠ كم من تل أبيب، بينما تركز الجيش العراقي في مناطق جنين ونابلس وطولكرم ووصل إلى مسافة ١٠ كم شرق נתانيا. وسيطر الجيش السوري على سمخ شمال شرقي فلسطين، فيما تركز جيش الإنقاذ في مناطق الجليل الأعلى شمال فلسطين. وأصبح وضع اليهود سيئاً في جنوب فلسطين لكنه تحسن بعض الشيء في شمالها بسيطرتهم على عكا في ١٧/٥/١٩٤٨.

وتمكن اليهود (في أثناء فرض الهدنة الأولى خلال الفترة ١١/٦-٨/٧/١٩٤٨، بقرار مجلس الأمن الدولي UN Security Council) من إعادة تنظيم قواتهم وتطويرها كمّاً وتدريباً وتسليحاً، وتسلموا ٤٠ طائرة تشيكية وأسلحة ضخمة، بينما أُغلق باب شراء السلاح دولياً في وجه العرب. وعندما اندلعت الجولة الثانية من القتال في ٩-١٧/٧/١٩٤٨، تمكن اليهود من توسيع دائرة احتلالهم فاحتلوا خلال ثلاثة أيام مدينتي اللد في ١٠ تموز/ يوليو، والرملة في ١٢ تموز/ يوليو، مُوسّعين احتلالهم وسط فلسطين شرقاً بضم قرى بير معين، والبرج، والحديثة، وبيرنابالا، وقوله، ومجدل يابا. كما احتل اليهود أجزاء من شمال فلسطين، فضموا خلال هذه المدة القصيرة مناطق الناصرة في ١٥ تموز/ يوليو، وشفا عمرو وكفر ياسيف، كما حسنوا مواقعهم في منطقة القدس فاحتلوا، قرية المالحه.

ثم بدأت الهدنة الثانية بقرار من مجلس الأمن في ١٨ تموز/ يوليو، حيث استفاد منها اليهود في تحسين مواقعهم وتوسيع احتلالهم. وفي ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر، شن اليهود حملة جديدة ركزت على الجنوب، فاستطاعوا السيطرة على التلال المحيطة بعراق المنشية، وسقطت الحليقات في أيديهم في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر، وبالتالي انفتح الطريق أمامهم إلى

النقب، ليتصلوا بالمستعمرات اليهودية التي كانت معزولة هناك. ووجدت القوات المصرية نفسها معزولة في المجدل وأسدود فقامت في الأسبوعين التاليين بالانسحاب منهما، وبسقوط عراق السويدان في ٩ تشرين الثاني/نوفمبر، اكتمل طوق القوات اليهودية حول الفالوجة، حيث حوَّصر نحو ٤ آلاف من الجيش المصري بقيادة العميد سعيد طه، وكان جمال عبد الناصر تحت إمرته ضمن المحاصرين في الفالوجة. وقد ثبتت الفالوجة في وجه الحصار والهجمات المختلفة، إلى أن انسحبت بشرف بعد عقد الهدنة مع مصر في ٢٤/٢/١٩٤٩. وبينما كانت هذه المعارك دائرة، قام اليهود بهجوم على بئر السبع في ١٨ تشرين الأول/أكتوبر، وتمكنوا من احتلالها في ٢١/١٠/١٩٤٨. وبذلك انفتح أمامهم الطريق إلى احتلال باقي النقب، فاحتلوا العسلوج في ١٥ كانون الأول/ديسمبر. وكان يوجد في باقي أراضي النقب وحدات أردنية صغيرة تم تجاوزها بسهولة في حملة سريعة قامت بها القوات اليهودية خلال الفترة ٦-١٠/٣/١٩٤٩، حيث وصلت إلى موقع أم الرشراش على خليج العقبة في ١٠ آذار/مارس، والذي أنشأ عليه الكيان الصهيوني ما يعرف الآن بميناء ومدينة إيلات.

أما الجيب العربي الذي ثبت في أقصى شمال فلسطين، فقد تم احتلاله في الفترة ٢٩-٣١/١٠/١٩٤٨، وهو يضم قرى كوكب، وعيلبون، وسخين، والرامة، وترشيحا، وسعسع شمالاً باتجاه الحدود اللبنانية.

وبذلك أكملت القوات اليهودية احتلالها ٧٧٪ من أراضي فلسطين (٢٠٧٠٠ كم^٢) مقيمة عليها كيانها الصهيوني "إسرائيل".

وبعد أن وقَّعت مصر اتفاقية الهدنة في ٢٤/٢/١٩٤٩، تبعها لبنان في ٢٣/٣/١٩٤٩، ثم الأردن في ٣/٤/١٩٤٩، ثم سورية في ٢٠/٧/١٩٤٩.

ومن الملاحظ أن اليهود عانوا من صعوبات بالغة ووجدوا أنفسهم في أوضاع حرجة في الستة أشهر التي سبقت دخول الجيوش العربية، وفي الشهر الأول لدخول هذه الجيوش. لكنهم بعد ذلك تمكنوا من تحقيق انتصارات مهمة، وسهلة أحياناً كاحتلال باقي شمال فلسطين، واللد والرملة، واحتلال النقب الذي يشكل لوحده نحو نصف مساحة فلسطين.

لقد قاوم الفلسطينيون بضراوة وبكل ما يملكون، وهناك في كل مدينة وقرية قصص ثبات وبطولة وتضحية، وحكايات مؤلمة من انعدام السلاح أو فسادة أو نفاذ الذخيرة، أو سوء إدارة المعركة من الجيوش العربية... وغيرها.

وقد ارتكب اليهود ٣٤ مذبحه في أثناء هذه الحرب، وأجبروا نحو ٨٠٠ ألف فلسطيني على الهجرة وترك ديارهم من أصل مليون و٢٩٠ ألف فلسطيني عربي، أي أن نحو ٦٠٪ من شعب فلسطين وجد نفسه لاجئاً بعد هذه الحرب.^١ وما زالوا حتى كتابة هذه السطور يعانون من التهجير القسري ومحرومون من العودة إلى أراضيهم.

ثانياً: حرب ١٩٥٦:

أحدثت حرب ١٩٤٨ هزة كبيرة في الواقع العربي، فتوالت الانقلابات العسكرية في سورية، وأنهت ثورة الضباط الأحرار في ٢٣/٧/١٩٥٢ العهد الملكي في مصر، واغتيل الملك عبد الله ملك الأردن في ٢٠/٧/١٩٥٠،

١ Salman Abu Sitta, Palestinian Right to Return (London: Palestinian Return Centre, 1999), p. 16 and 27.

وقام الملك حسين بطرد رئيس أركان الجيش الأردني جلوب باشا وبتعريب الجيش الأردني في آذار/ مارس ١٩٥٦.

وقامت الدول العربية بعقد اتفاقية الدفاع المشترك في ١٣/٤/١٩٥٠، أتبعته بعدد من اتفاقات الدفاع الثنائية والثلاثية بين بعضها خلال سنتي ١٩٥٥ و١٩٥٦. وسعت مصر وسورية إلى كسر الاحتكار الغربي لتصدير الأسلحة، فعقدتا كل على حدة سنة ١٩٥٥ صفقات أسلحة مع تشيكوسلوفاكيا.

ثم إن مصر كانت تسيطر على خليج العقبة، وزادت من فعاليتها الرقابية سنة ١٩٥٥ على كل السفن التي تدخل هذا الخليج، ومنعت الملاحة "الإسرائيلية" فيه، وبذلك شلّت الحركة التجارية لميناء "إيلات" نافذة "الكيان الإسرائيلي" إلى دول آسيا وشرق أفريقيا. كما فرضت مصر قيوداً على مرور السفن في قناة السويس، من شأنها تشديد الحصار الاقتصادي على "الكيان الإسرائيلي". كما نشطت العمليات الفدائية الفلسطينية عبر قطاع غزة، وبدعم مصري، ضدّ "الكيان الإسرائيلي" خلال الفترة ١٩٥٥ - ١٩٥٦. كل ذلك أثار مخاوف وانزعاج "الكيان الإسرائيلي" الذي سعى لاقتناص أي فرصة لتوجيه ضربة إلى مصر.

وفي الوقت نفسه، كانت الولايات المتحدة قد عرضت على مصر قرضاً مالياً لبناء السد العالي ذي الحيوية الكبرى للاقتصاد المصري. لكن رفض مصر لإقامة حلف بغداد، الذي انضمت إليه العراق وتركيا وإيران وباكستان، والذي استهدف ربط مصالح المنطقة بالقوى الغربية، ومواجهة الخطر الشيوعي، مع إبعاد الأنظار عن الخطر الصهيوني - "الإسرائيلي" الذي يربض في قلب المنطقة، أدّى إلى سحب أمريكا عرضها في

١٩٥٦/٧/١٩. وحتى تقوم مصر بتوفير الأموال اللازمة لبناء السد العالي، أعلن جمال عبد الناصر في ١٩٥٦/٧/٢٦ تأميم الشركة العالمية لقناة السويس، مما شكل ضربة كبيرة للمصالح الاقتصادية البريطانية. وكانت فرنسا من جهتها منزوعة من الدعم المصري للثورة الجزائرية ضدها.^١

وقد اتفق "الكيان الإسرائيلي" مع بريطانيا وفرنسا على توجيه ضربة إلى مصر، تؤدي لاحتلال "الإسرائيلي" لسيناء، والاحتلال البريطاني الفرنسي لقناة السويس. وقد انبنت الخطة، التي وقّعت عليها الأطراف الثلاثة في سيغر (قرب باريس) في ١٩٥٦/١٠/٢٣، على أن تبدأ القوات "الإسرائيلية" بشن هجوم واسع في ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر بهدف الوصول إلى قناة السويس، ثم تقوم بريطانيا وفرنسا بإصدار إنذار مشترك في اليوم التالي يطالب القوات المصرية و"الإسرائيلية" بالانسحاب مسافة عشرة أميال (١٦ كم) عن جانبي القناة، وبسماح مصر لبريطانيا وفرنسا باحتلال مؤقت لعدد من النقاط الرئيسية فيها، بحجة حماية الملاحة الدولية. وإذا ما رفضت مصر، وبالطبع سترفض، ستقوم القوات البريطانية والفرنسية بإنزال قواتها في القناة، والهجوم على مصر لإجبارها على الرضوخ.^٢

بدأ "الكيان الإسرائيلي" هجومه في ١٩٥٦/١٠/٢٩ بعملية إنزال جوي لقوات المظليين في ممر متلا على بُعد ٦٥ كم شرقي قناة السويس.

١ حول الظروف والأسباب التي أدت إلى حرب ١٩٥٦، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ١٥٩-١٧٨.

٢ المرجع نفسه، ص ١٩١-١٩٢.

وحدثت معارك محدودة شرقي القناة، لكن صدور الإنذار البريطاني الفرنسي في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر، ورفض مصر له أوجد الذريعة التي يحتاجها، فبدأت بريطانيا وفرنسا في ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر عدوانهما على مصر، وخصوصًا المطارات والموانئ، وتمّ تدمير جزء كبير من الطيران المصري. وقررت مصر من جهتها التركيز على حماية القناة ومثلث بورسعيد - القاهرة - السويس، فأمرت الجيش المصري بالانسحاب من قطاع غزة وسيناء والتركز غربي قناة السويس. وتمكن "الكيان الإسرائيلي" دون صعوبة من احتلال غزة خلال الفترة ٣١/١٠ - ٣/١١/١٩٥٦، ومن احتلال سيناء خلال ثمانية أيام (٢٩/١٠ - ٥/١١/١٩٥٦).

وصدر قرار الأمم المتحدة في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر بإيقاف الحرب وانسحاب قوات الغزو البريطاني الفرنسي من الأراضي المصرية، وانسحاب "الكيان الإسرائيلي" إلى ما وراء خطوط الهدنة. وعلى الرغم من أن هذه القوات تلكأت في تنفيذ القرار، إلا أن الضغط السوفييتي - الأمريكي اضطرهما لذلك، فانسحبت القوات البريطانية - الفرنسية في ٢٢/١٢/١٩٥٦، وأكملت القوات "الإسرائيلية" انسحابها في ٦/٣/١٩٥٧. وقد تعهدت مصر في المقابل بمنع عمليات الفدائيين من قطاع غزة، ووافقت على وضع قوات دولية على حدودها. كما ضمنت "إسرائيل" بتعهد القوى الكبرى حقّ الملاحة البحرية في خليج العقبة، وكذلك الطيران الجوي فوقه.^١

١ حول مجريات حرب ١٩٥٦ ونتائجها، انظر: المرجع نفسه، ص ١٨٥-١٩٠. وانظر أيضًا:

Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars, pp. 111-141.

كانت هذه الحرب إيذاناً بانتهاء العهد الاستعماري البريطاني - الفرنسي في المنطقة، وورثة أمريكا والاتحاد السوفيتي لحلبة التنافس فيها. وعلى الرغم من أن هذه الحرب كشفت مدى تطور القوة العسكرية "الإسرائيلية"، وعجز الجانب المصري (في ظلّ المعادلات الدولية) عن حماية نفسه، بالإضافة إلى تحرير فلسطين، فإن هذه الحرب جندت تعاطفاً عربياً وإسلامياً واسعاً مع مصر، وأظهرت القيادة المصرية وخصوصاً عبد الناصر "أبطالاً" في المقاومة والدفاع عن الحقوق العربية، وبرز نجم عبد الناصر كأمل للجماهير العربية في النصر والتحرير.

ثالثاً: حرب ١٩٦٧:

لم يكن "الكيان الإسرائيلي" سعيداً بمساحة الأرض التي اقتطعها من فلسطين في حرب ١٩٤٨، وكان يرغب في المزيد من التوسع لفتح الباب بشكل أكبر أمام الهجرة والاستيطان اليهوديين. كما كان يفتقد الشعور بالأمان في حدوده مع البلدان العربية التي يبلغ طولها ٩٨١ كم، وكانت بعض المدن الساحلية تبعد نحو ١٥ كم عن الحدود مع الضفة الغربية مما يسهل ضرب العمق "الإسرائيلي".

ومن جهة أخرى، فإن الإعلام العربي، وخصوصاً المصري الناصري، كان يبالغ في الإمكانات العسكرية العربية، ويعد الجماهير العربية التي كانت تنتظر بصبر وحماس بإلقاء اليهود في البحر وتحرير فلسطين. غير أن الاستراتيجية العسكرية المصرية ظلت منذ حرب ١٩٥٦ وحتى ١٩٦٧ استراتيجية دفاعية وليست هجومية، بخلاف ما كان يتحدث به الإعلام المصري صباح مساء. وحتى الخطة الدفاعية "قاهر" التي وضعتها القيادة

المصرية في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٦ لم يطبق منها إلا جزء بسيط، إذ إن القسم الأكبر من ميزانية الدفاع كان يذهب إلى اليمن، فلا يبقى إلا القليل لتحسين سيناء.^١

ولم تكن الأوضاع الداخلية العربية ولا العلاقات العربية - العربية لتبعث على السرور، فقد عانت الشعوب العربية من أزمات فقدانها للحريات السياسية، ومن الفساد السياسي والاقتصادي، ومن الإعلام الموجه، وعاش عبد الناصر هاجس ملاحقة الإسلاميين، وضربهم وخصوصاً الإخوان المسلمين. وتمّ تقديم البديل الأيديولوجي الاشتراكي - القومي والذي لم ينجح في خطط التنمية، ولا في تحقيق أساس نهضوي عربي، ولا في تفجير طاقات الأمة بشكل يتوافق مع عقيدتها وتراثها وثقافتها. وإذا كانت الجماهير العربية قد عاشت لحظات من النشوة والحماس عندما تحققت الوحدة المصرية - السورية (الجمهورية العربية المتحدة) في شباط/ فبراير ١٩٥٨، فإنها سرعان ما صدمت عندما حدث الانفصال في أيلول/ سبتمبر ١٩٦١. واستنزف الجيش المصري والميزانية المصرية في حرب اليمن ودعم الثورة فيها منذ ١٩٦٣. وقد شهدت البلاد العربية نوعاً من التضامن السياسي الظاهري خلال الفترة ١٩٦٤-١٩٦٥، حيث بدأت مؤتمرات القمة العربية بالانعقاد منذ كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤. غير أن الخلاف سرعان ما دبّ بينها منذ ١٩٦٦، وعادت الحرب الإعلامية لتكون مادة الإذاعات والصحف خصوصاً في دول الطوق. وقد صادق الرؤساء والملوك العرب في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤ على تشكيل القيادة الموحدة لجيوش

١ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٢٦٦.

البلدان العربية، وتمّ تعيين الفريق المصري علي علي عامر قائداً عاماً، لكن الخلافات العربية منذ ١٩٦٦ عطلت عمل هذه القيادة، كما افتقد عدد من البلدان العربية للجدية في التعامل معها. فإما أنها لم تلتزم بأوامرها، أو أنها لم تدفع نصيبها في الميزانية، أو أنها رفضت دخول قوات عربية أخرى إلى أراضيها، مما عطل تنفيذ عمل هذه القيادة وخططها.^١

وكان إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٤، وبدء حركة فتح عملياتها العسكرية منذ مطلع ١٩٦٥ من العوامل التي دفعت الكيان الصهيوني لسرعة التحرك ومحاولة فرض واقع جديد، يضمن له التوسع والأمن، ويجر البلاد العربية إلى التسوية السلمية وفق الشروط "الإسرائيلية". وكان لقيام الكيان الصهيوني بمشروع تحويل مياه الأردن الذي بات معروفاً للعرب منذ ١٩٦٣، وضرب الصهاينة وتدميرهم لكل المشروعات العربية المقابلة لتحويل النهر، أثره في ازدياد التوتر.^٢

بدأ الكيان الصهيوني تصعيد الأوضاع قبل عام من الحرب، فهاجم قرية السموع قرب الخليل في الضفة الغربية، وقام بمذبحة راح ضحيتها نحو ٢٠٠ شهيد. كما حدث تسخين متبادل على الجبهة السورية حيث كان الصهاينة يقومون بطلعات جوية لقصف المواقع السورية، بينما كانت المدفعية السورية تقصف المستوطنات اليهودية المجاورة. وتزايدت التهديدات "الإسرائيلية" لسورية، وتواترت الأخبار عن حشود "إسرائيلية" على الحدود السورية

١ انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٢٢١-٢٣١، و٢٦٤-٢٧٠.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٢٠، و٢٦١-٢٦٣.

خصوصًا في أوائل أيار/ مايو ١٩٦٧.^١

وقامت مصر، وفق اتفاقية الدفاع المشترك مع سورية، بالإعلان عن عزمها الدخول في الحرب منذ أول دقيقة إذا ما تعرضت سورية للهجوم. وتبع ذلك إجراء مصري بطلب سحب قوات الأمم المتحدة عن خطوط الهدنة مع "الكيان الإسرائيلي"، فانسحبت في ٢٣/٥/١٩٦٧، وقامت مصر في ٢٣ أيار/ مايو بإغلاق مضائق تيران (خليج العقبة) في وجه الملاحة "الإسرائيلية"، مما كان يعني عمليًا أن مصر تجهز "لمعركة المصير" مع "الكيان الإسرائيلي". غير أن الفرقتين العسكريتين اللتين حركتهما مصر إلى سيناء لم تكونا تكفيان بالكاد للدفاع عن الحدود المصرية، عوضًا عن تحرير فلسطين. وبتعبير آخر، فإن الإجراءات التي كانت تتخذ على الأرض لم تكن متوافقة مع المواقف السياسية الحادة ولا التصريحات الإعلامية النارية. وكرر الرئيس المصري قبل الحرب بأيام استعداد بلاده للحرب قائلاً: «إذا أرادت "إسرائيل" الحرب، فأهلاً وسهلاً»، وقال: "لن نتركهم ليقرروا الوقت ويقرروا المكان... علينا أن نستعد لننتصر... وقد تمت هذه الاستعدادات... ونحن على استعداد لمواجهة "إسرائيل"».^٢

وكانت الولايات المتحدة تعلم تفاصيل الهجوم "الإسرائيلي" المرتقب، والذي أعطته الضوء الأخضر، وأسهمت في تضليل الجانب المصري حول الاستعدادات "الإسرائيلية"، واستطاعت الحصول على تعهدات مصرية بـألا تكون مصر البادئة في الحرب.^٣ بل وصل الأمر بعبد الناصر أن يعلن

١ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٢٣١.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٥٩-٢٦٠.

٣ المرجع نفسه، ص ٢٢٦-٢٢٨.

بنفسه "نترك المبادأة والضربة الأولى لـ"إسرائيل"،^١ وبذلك ضمن "الكيان الإسرائيلي" أن يكون صاحب الضربة الأولى. وقدمت الولايات المتحدة ضمانات لـ"إسرائيل" بحمايتها إذا ما تعرضت للخطر، كما وفّرت لها المعلومات اللازمة من خلال وسائلها الاستخباراتية والأقمار الصناعية. أما الاتحاد السوفيتي الذي كان يُعدّ حليفًا لمصر، فإنه ضغط أيضًا على مصر بآلا تكون البادئة في الحرب، ولم يساعدها في الحصول على المعلومات اللازمة عن التحشيدات "الإسرائيلية".^٢

كانت هناك قناعات كافية لدى "الإسرائيليين" والأمريكان والروس أن عبد الناصر لا يريد الحرب، بل وغير مستعد فعليًا لها، على الأقل من خلال حساب تحركات الجيش المصري واستعداداته. لقد كان قرار الحرب "إسرائيليًا" وبغطاء أمريكي.

بدأت "إسرائيل" الحرب^٣ صباح ٥/٦/١٩٦٧ بقصف تسعة مطارات مصرية على شكل موجات متعاقبة بين كل موجة وأخرى عشر دقائق، وخلال ثلاث ساعات (٨:٤٥ صباحًا - ١٢ ظهرًا)، كان قد تمّ تدمير ٨٠٪ من الطيران العسكري المصري وهو قابع على المدرجات دونما حركة. ويشير حسين الشافعي، نائب الرئيس المصري في ذلك الوقت، إلى وجود

١ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٢٧٦.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٢٤-٢٢٦.

٣ حول مجريات حرب ١٩٦٧، انظر: المرجع نفسه، ص ٢٣٧-٢٤٧؛ والموسوعة الفلسطينية، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، ج ٢، ص ١٧٠-١٧٨؛ وانظر:

Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars, pp. 145-191.

"مؤامرة" أو "خيانة" على مستوى عالٍ في الجانب المصري. ويدلّل على ذلك بأنه رأى بنفسه الطائرات العسكرية المصرية المدمرة وهي مصفوفة بجانب بعضها وكأنما كانت معدة للتدمير، حسبما ذكره في حديثه لبرنامج شاهد على العصر، الذي بثه تلفزيون الجزيرة القطري في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٩.

وعلى أي حال، فقد تمّ إخراج سلاح الجو المصري من المعركة منذ الساعات الأولى، كما تمّ تدمير معظم سلاح الطيران السوري والأردني بالطريقة نفسها، ومنذ الساعات الأولى للحرب مع الأردن وسورية. وبذلك فقدت الجيوش العربية غطاءها الجوي، وأصبحت وحداتها العسكرية البرية ودباباتها ومدركاتها فريسة سهلة للطيران "الإسرائيلي".

وقد تمكنت القوات البرية "الإسرائيلية" منذ ظهر ٥ حزيران/ يونيو من اختراق الحدود المصرية، وتغلبت على المقاومة المحدودة التي واجهتها في غزة ورفح وخروبة وأبو عجيلة وبيير جفجافة وغيرها، وتقدمت باتجاه قناة السويس. وفي الساعة الثامنة من مساء اليوم الثاني للمعركة (٦ حزيران/ يونيو)، أصدر القائد العام للقوات المصرية عبد الحكيم عامر أمراً بالانسحاب من سيناء، على أن يتم خلال ليلة واحدة!!

وأعلنت مصر مساء ٧ حزيران/ يونيو قبولها لوقف الحرب، وأبلغته إلى الأمين العام للأمم المتحدة، بينما استكملت "إسرائيل" احتلالها لسيناء في ٨/٦/١٩٦٧.

وفي الجبهة الأردنية، بدأت المعارك في ٥ حزيران/ يونيو بعد أن دمرت الطائرات "الإسرائيلية" ٣٢ طائرة هوكر هنتر Hawker Hunter (هي كل

سلاح الطيران الأردني) في مدرجاتها في مطاري عمّان والمفرق. وحدثت معارك في مناطق القدس وجنين وقباطية والخليل. ومع مساء ٦ حزيران/ يونيو كانت الدفاعات الأردنية قد انهارت، وصدرت الأوامر بالانسحاب إلى شرقي الأردن. وفي ٧ حزيران/ يونيو، كان "الكيان الإسرائيلي" قد أنهى احتلاله للضفة الغربية بما فيها شرقي القدس، ودخل جنوده حرم المسجد الأقصى وهم يهزجون "محمد مات... خلف بنات"، أي يقصدون رسول الله ﷺ، ويصرخون "يا لثارات خبير"، معلنين انتقامهم لهزيمة اليهود على يد رسول الله ﷺ في خيبر سنة ٦٢٩ م/ ٧هـ، قبل نحو ١٣٤٠ عامًا.

أما المعارك على الجبهة السورية، فبدأت في ٩ حزيران/ يونيو بعد فراغ القوات "الإسرائيلية" من جبهتي مصر والأردن، وانتهت في ١٠ حزيران/ يونيو باحتلال الصهاينة الجولان السورية. وكان ذلك صدمة كبرى لما تتمتع به الجولان من مزايا استراتيجية وإمكانات تحصينية هائلة، بوصفها منطقة جبلية، ولأن القيادة السورية كانت تتوعد الصهاينة بمصير أسود إذا اندلعت الحرب، بل وصل الأمر بإعلامها حدًا جعل أحد أهاليه يقول إن طائرات الميغ MiG "تتحدى القدر"،^١ بينما ظهر مقال في افتتاحية مجلة جيش الشعب السورية في ٢٥/٤/١٩٦٧ يدعو إلى "خلق الإنسان الاشتراكي العربي الجديد... الذي يؤمن أن الله والأديان... وكل القيم التي سادت المجتمع السابق، ليست إلا دمي محنطة في متاحف التاريخ"^٢!! لقد كانت

١ انظر: محمد بن عبد الغني النواوي، رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، ج ١:

مؤامرة الدويلات الطائفية (د.م: د.ن، ١٩٨٣)، ص ٣٩٨.

٢ المرجع نفسه، ص ٣٩٧.

الاستهانة بعقيدة الأمة وتراثها إشارة إلى حالة الخواء وضعف إرادة القتال التي يعانيها هؤلاء.

كانت هذه هي المعركة - الكارثة التي انتظرتها الجماهير العربية بشوق وشغف مدة ١٩ عامًا، وصحت على هول الصدمة التي نبهتها إلى حجم التضليل والخداع الذي كان يمارسه الإعلام العربي وقياداتهم السياسية.

وفيما يلي قائمة بما أمكن معرفته من خسائر الأطراف المشاركة في الحرب، فقد كانت خسائر القوات المصرية نحو ١٠ آلاف من القتلى والمفقودين، و ٥٥٠٠ من الأسرى، ودمرت ٨٠٪ من أعتدة الجيش المصري بينها ٨٠٠ دبابة، و ٤٥٠ مدفعًا، و ١٠ آلاف مركبة، و ٣٠٥ طائرات (من أصل ٣٦٠ طائرة). وخسرت القوات الأردنية ٦٠٤٩ قتيلًا، و ٧٩٢ جريحًا، و ١٥٠ دبابة. وخسرت القوات السورية نحو ألف قتيل، و ٥٦٠ أسيرًا، وتم تدمير ٦٠ طائرة (من أصل ١٢٠ طائرة)، و ٧٠ دبابة، كما استولى الصهاينة على ١٥٠ دبابة أخرى. وبلغ عدد قتلى القوات "الإسرائيلية" حسب هيرتزوج Herzog ٧٦٤؛ منهم ٣٣٨ على الجبهة المصرية، و ٢٨٥ على الجبهة الأردنية، و ١٤١ على الجبهة السورية. وبلغ عدد الجرحى الصهاينة، حسب الموسوعة الفلسطينية، نحو ٨٠٠ على الجبهة المصرية، و ١٤٥٣ على الجبهة الأردنية، و ٣٠٦ على الجبهة السورية.^١ كما خسر الصهاينة ٢٦ طائرة قتال، و ١٠ طائرات نقل على كل الجبهات.^٢

١ الموسوعة الفلسطينية، ج ٢، ص ١٧٤-١٧٧؛ وانظر:

Chaim Herzog 'The Arab-Israeli Wars' pp. 165' p. 183.

٢ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٢٣٩.

أبرز نتائج حرب ١٩٦٧ :

- ١ . احتلال "إسرائيل" لما تبقى من فلسطين أي الضفة الغربية (٥٨٧٨ كم^٢)، وقطاع غزة (٣٦٣ كم^٢)، وسيناء المصرية (٦١١٩٨ كم^٢) والجولان السورية (١١٥٠ كم^٢)، ليصبح مجموع الأرض التي يسيطر عليها الكيان الصهيوني ٨٩٣٥٩ كم^٢.
- ٢ . تشريد نحو ٣٣٠ ألف فلسطيني.
- ٣ . سيطرة "الكيان الإسرائيلي" على منابع مياه الأردن، وفتح مضائق تيران وخليج العقبة للملاحة "الإسرائيلية".
- ٤ . تشكيل "الكيان الإسرائيلي" لخطوط دفاع جديدة، وتوفير عمق استراتيجي يسهل الدفاع عنه بشكل أفضل.
- ٥ . فرض احتلال جديد للأراضي العربية، جعل هدف العرب فيما بعد استرجاع هذه الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧، وليس تحرير فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨.
- ٦ . تدمير القوات العسكرية لمصر والأردن وسورية.
- ٧ . انكشاف ضعف القيادات العربية، وانعدام التنسيق فيما بينها، وعدم جديتها في تحرير فلسطين.
- ٨ . ظهور المقاومة الفلسطينية المسلحة وتعاظمها، وبروز الهوية الوطنية الفلسطينية التي قرّرت أن تأخذ زمام المبادرة، بعد أن تبين لها مدى الضعف العربي.

رابعاً: حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣:

أحدثت حرب ١٩٦٧ جُرحاً غائراً في الكرامة العربية، فحاولت الأنظمة العربية استيعاب الصدمة وتوقي غضب الجماهير، فاجتمع الزعماء العرب في الخرطوم في ٢٩/٨-١/٩/١٩٦٧ معلنين أن لا صلح ولا مفاوضات ولا اعتراف بـ"الكيان الإسرائيلي"، وتعهدت الدول العربية بدعم دول الطوق لإعادة بناء قواتها المسلحة. ووجدت الأنظمة العربية نفسها، راضية أو راغمة، تفتح المجال للعمل الفدائي الفلسطيني، الذي نشط بقوة خصوصاً في الفترة ١٩٦٧-١٩٧٠ عبر ساحات دول الطوق. ودخلت مصر وسورية في حرب استنزاف مع "الكيان الإسرائيلي"، خصوصاً في الفترة من آب/ أغسطس ١٩٦٨ إلى آب/ أغسطس ١٩٧٠، أسهمت إلى حدّ ما في إعادة الثقة ورفع المعنويات لدى الجيشين المصري والسوري، بعد أن تمت مواجهة الاعتداءات "الإسرائيلية" والقيام بعدد من الهجمات التكتيكية. وحسب هيرتزوج فقد خسر الصهاينة في حرب الاستنزاف نحو ٥٠٠ قتيل و٢٠٠٠ جريح.^١

غير أن حرب الاستنزاف لم تؤدّ إلى تسخين الوضع بما يكفي لتدخل دولي يجبر "الكيان الإسرائيلي" على الانسحاب. مما جعل تفكير قيادة الأنظمة العربية يتركز على شنّ حرب محدودة محسوبة الخطوات، لعلها تعيد الوضع إلى حدود ما قبل حرب ١٩٦٧، سواء بنصر عسكري أو بضغط

١. Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars, p. 220.

وانظر حول حرب الاستنزاف في: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٣١٩-٣٤٨.

دولي ينشأ عن تحريك الوضع في المنطقة، بعد أن أرادت "إسرائيل" وأمريكا تجميد الوضع، ليحقق عامل الزمن أقصى درجات الفائدة للكيان "الإسرائيلي".

لقد كان واضحاً منذ البداية أن هدف العرب من حرب تشرين الأول/أكتوبر هو "إزالة آثار عدوان ١٩٦٧"، وليس تحرير فلسطين والقضاء على الكيان الصهيوني.

شكلت القيادتان السياسيتان المصرية والسورية "المجلس الأعلى للقوات المسلحة المصرية - السورية المشتركة"، وعينت الفريق أول أحمد إسماعيل علي، القائد العام للقوات المسلحة المصرية، قائداً عاماً للقوات المسلحة الاتحادية (مصر وسورية)، ورئيساً للمجلس بدءاً من ١٠/١/١٩٧٣، وتولى هذا المجلس الإعداد والتخطيط للحرب. وفي ٢٥/٢/١٩٧٣ اجتمع الرئيسان السوري والمصري في برج العرب غرب الإسكندرية واتخذوا قراراً بالحرب. وقد سميت خطة الحرب "خطة بدر"، حيث انتهت من إعداد تصوراتها في صيف ١٩٧٣. وفي ٢٤/٩/١٩٧٣، لاحظ "الإسرائيليون" وجود استعدادات سورية - مصرية للحرب، وتم اتخاذ حالة التأهب الأدنى، وأخذت التقارير تتوالى لدى القيادة "الإسرائيلية"، لكنها كانت ما تزال تشك في جدية الهجوم وتوقيته، وقامت في ٣ تشرين الأول/أكتوبر بدعوة الاحتياط، وأعلنت حالة التأهب في ٥ تشرين الأول/أكتوبر. وتؤكد لدى القيادة "الإسرائيلية" أن سورية ومصر ستشنان الحرب في ٦ تشرين

١ حول الاستعداد المصري - السوري للحرب، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٣٥١، و ٣٧٧-٣٨١.

الأول/ أكتوبر، لكنها كانت مترددة في توجيه الضربة الأولى. وعندما اندلعت الحرب بعد ظهر ٦ تشرين الأول/ أكتوبر، لم تفاجأ بها القيادة "الإسرائيلية"، لكن كان من الظاهر أنه كان لها وقع المفاجأة على القوات "الإسرائيلية"، خصوصاً في قناة السويس، مما يدل على أن الإجراءات "الإسرائيلية" لم تكن جادة بما يكفي لدخول الحرب.^١

بدأت الحرب بهجوم ٣٠٠ طائرة مصرية وسورية ضدّ المواقع "الإسرائيلية"، وفتحت آلاف المدافع في الوقت نفسه نيرانها على طول جبهات القتال في قناة السويس والجولان. واندفعت القوات المصرية لتحطيم خط الدفاع "الإسرائيلي" شرقي القناة "خط بارليف" في بضعة ساعات، على الرغم من أنه يعد من أقوى وأعقد خطوط الدفاع العسكرية. ونجحت القوات المصرية خلال ثلاثة أيام في الزحف لمسافة ١٢-١٥ كم على الامتداد الشرقي لقناة السويس، غير أنها قامت في الفترة من ٩-١٣ تشرين الأول/ أكتوبر "بوقفه تعبوية" أدت لهدوء نسبي على الجبهة المصرية المشتركة. وحسب الخطة المصرية - السورية المشتركة كان ينبغي على القوات المصرية الاستمرار في الزحف للسيطرة على منطقة ممرات متلا والجدي بعمق ٥٠ كم تقريباً شرقي القناة، ثم تطوير الهجوم بعد ذلك شرقاً حسب تحسن ظروف القتال. لكن القيادة المصرية، التي كانت تشهد بعض الخلافات في الرؤى العسكرية، أخفت نيتها عن سورية بالتوقف على عمق نحو ١٢ كم فقط، لأنها ترى أن شبكة الحماية الصاروخية المضادة للطائرات

١ حول التأهب الإسرائيلي، انظر: عبد الستار قاسم وغازي ربابعة، "الحروب الإسرائيلية"، في جواد الحمد (محرر)، المدخل إلى القضية الفلسطينية، سلسلة دراسات رقم ٢١ (عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٧)، ص ٢٩٨-٣٠٤.

لا تكفي أكثر من هذا المدى لتغطية تقدم القوات المصرية. وبسبب الضغط السوري قامت القوات المصرية باستئناف هجومها في ١٤ تشرين الأول/أكتوبر لكنها منيت بخسائر جسيمة، ففقدت نحو ٢٥٠ دبابة، بعد أن ابتعدت عن المظلة الصاروخية، وقررت في نهاية اليوم العودة إلى مواقعها.

استفادت القوات "الإسرائيلية" من الوقفة التعبوية المصرية، ومن الجسر الجوي الأمريكي الذي زودها بكميات هائلة من الأسلحة المتطورة، فأعادت ترتيب قواتها، وأخذت زمام المبادرة الاستراتيجية، وقامت مساء ١٥ تشرين الأول/أكتوبر بتنفيذ خطة "القلب القوي" التي اشتهرت باسم "الغزالة"، والتي تُنسب إلى الجنرال أرييل شارون Ariel Sharon. وقبل فجر ١٦ تشرين الأول/أكتوبر، تمكنت القوات "الإسرائيلية" بقيادة شارون من اختراق الخطوط المصرية وعبور قناة السويس، وفتح "ثغرة الدفرسوار" غربي القناة، إلى الجنوب من مدينة الإسماعيلية. وعندما صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار كان أقصى عمق "إسرائيلي" غربي القناة يبلغ ٢٥-٣٠ كم. غير أن القوات "الإسرائيلية" تابعت هجومها، فاستكملت تطويق قوات الجيش الثالث المصري شرقي القناة، واستولت على ميناء الأدبية جنوب غربي السويس، ووصلت إلى نقطة الكيلومتر ١٠١، أي ١٠١ كم شرقي القاهرة. وتمّ توقيف إطلاق النار نهائياً في ٢٨/١٠/١٩٧٣. ولولا المقاومة الشعبية البطولية للشيخ حافظ سلامة وإخوانه لسقطت مدينة السويس نفسها.

١ حول الحرب على الجبهة المصرية، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٣٦٣-٣٦٨، و ٤٣٥-٤٤٧؛ والموسوعة الفلسطينية، ج ٢، ص ١٩١-١٩٤؛ وانظر:

Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars, pp. 231-284.

وعلى الجبهة السورية، حقق الهجوم السوري نجاحات أولية سريعة، فاخترق خط الدفاع "الإسرائيلي" بعمق ٢٠ كم داخل هضبة الجولان، وجرت معارك ضارية، غير أن تفوق القوات الجوية "الإسرائيلية" ساعد القوات البرية على صدّ الهجوم السوري. وتحولت القوات "الإسرائيلية" إلى الهجوم المضاد في ٨ تشرين الأول/ أكتوبر، وبعد يومين كانت قد استعادت ما فقدته في الجولان. وأخذت تهاجم مناطق شمال شرق الجولان، وتمكنت من احتلال ما عرف "بجيب سعسع" الذي ذكر أنه شمل ٣٩ قرية سورية لم تكن محتلة من قبل وبمساحة ٥٥١ كم^٢، ووصلت القوات "الإسرائيلية" إلى مسافة ٢٥ كم من دمشق. ووصلت إلى سورية قوات عراقية وأردنية للمساعدة، وقامت سورية بالتجهيز لهجوم مضاد، غير أنه ذكر أن موافقة مصر على قرار مجلس الأمن بوقف الحرب في ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر قد فاجأ السوريين، مما اضطرهم لإيقاف الحرب. وبعد ذلك استؤنفت حرب استنزاف استمرت نحو ٨٠ يومًا (٣١/٣ - ١٩٧٣/٥) لتتوقف حين تمّ التوقيع على اتفاقية فصل القوات.^١

وعقدت مصر اتفاقية فكّ الاشتباك مع "الكيان الإسرائيلي" في ١٨/١/١٩٧٤ نصّت على انسحاب القوات "الإسرائيلية" من غربي القناة إلى مسافة تبعد ٢٠-٣٠ كم من شرقي قناة السويس، واحتفاظ مصر بقوات محدودة في الأراضي التي استرجعتها شرقي القناة (بعمق ٨-١٢ كم). وفي

١ حول الحرب على الجبهة السورية، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٣٦٨-٣٧٢؛ والموسوعة الفلسطينية، ج ٢، ص ١٨٨-١٩١؛ ومحمد النواوي، رؤية إسلامية في الصراع العربي الإسرائيلي، ج ١، ص ٤٥٢؛

وانظر: Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars, pp. 285-307.

١٩٧٤/٢/٢١ كانت القوات "الإسرائيلية" قد انسحبت من غربي القناة "ثغرة الدفرسوار". وعُقدت اتفاقية فصل القوات بين سورية و"الكيان الإسرائيلي" في ١٩٧٤/٥/٣١، وبناء عليها، انسحبت القوات "الإسرائيلية" من جيب سعسع (٥٥١ كم^٢)، الذي احتلته في حرب ١٩٧٣، ومن مدينة القنيطرة وبعض ما حولها، والتي احتلتها سنة ١٩٦٧ (١١٢ كم^٢).^١

وقد أظهرت الدول العربية تضامناً قوياً مع مصر وسورية في الحرب، وأرسلت تسع دول عربية قوات عسكرية محدودة للمشاركة في الحرب. واستخدم العرب لأول مرة سلاح النفط، فقررت الدول العربية المنتجة للنفط في اجتماعها في الكويت في ١٧/١٠/١٩٧٣ تخفيض إنتاجها بنسبة ٥٪ شهرياً، وتطبيق حظر كامل على تصدير النفط إلى الولايات المتحدة وهولندا. وفي ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر، قرر وزراء النفط زيادة نسبة خفض الإنتاج إلى ٢٥٪. وحرصت الدول النفطية في قراراتها ألا تتضرر الدول المؤيدة للعرب من حظر النفط. وقد أدى حظر النفط إلى مواجهة الدول الغربية أزمة شديدة في الإنتاج والتصنيع وشؤون الحياة اليومية، وولدت مخاوف كبيرة من أزمات اقتصادية حادة في تلك البلدان. ولفت انتباه مواطني الدول الغربية إلى دعم بلدانهم للظلم الذي يقع في فلسطين، وإلى انعكاسات هذه القضية على حياتهم اليومية. وعلى الرغم من أن الحظر النفطي استمر أشهراً قليلة إلا أنه كان ذا تأثير فعال.^٢ واستفادت الدول العربية النفطية من تضاعف أسعار النفط مرات عديدة في مضاعفة إيراداتها وتحسين اقتصادياتها.

١ هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٤٤٨-٤٥٢.

٢ المرجع نفسه، ص ٣٨٩-٣٩٠؛ والموسوعة الفلسطينية، ج ٢، ص ١٩٤-١٩٥.

ولا تنجح المصادر العربية لذكر خسائر الحرب، وخصوصًا خسائر الجانب العربي، وقد قُدّرت مصادر غير عربية عدد قتلى "الكيان الإسرائيلي" بـ ٢٥٥٢ قتيلًا، والمصريين ٧٧٠٠ شهيدًا، والسوريين ٣٥٠٠ شهيدًا. وقال هيرتزوج قُتل على الجبهة السورية ٧٧٢ "إسرائيليًا"، وجرح ٢٤٥٣، وأسر ٦٥، ودمرت ٢٥٠ دبابة "إسرائيلية"، وتمّ تدمير ١١٥٠ دبابة، و٢٢٢ طائرة سورية، أما على الجبهة المصرية فتمّ تدمير ٢٩٢ طائرة مصرية، وقال إنه تمّ تدمير ١٠٢ طائرة "إسرائيلية" على الجبهتين السورية والمصرية.^١ وقالت الموسوعة - الفلسطينية إن "الإسرائيليين" خسروا في الأيام الأولى ٥ آلاف قتيل، و٤٠٠ أسير، و٨٠٠ دبابة، و١٢٠ طائرة.^٢

أبرز نتائج حرب ١٩٧٣ :

- ١- كسر أسطورة الجيش "الإسرائيلي" الذي لا يقهر، وتحطيم نظرية الأمن "الإسرائيلية"، وإثبات إمكان استعادة أجزاء من الأراضي المحتلة على الأقل بالقوة العسكرية.
- ٢- أخذ العرب زمام المبادرة، والانتقال من الدفاع إلى الهجوم الاستراتيجي، وإثبات كفاءة وشجاعة المقاتل العربي.
- ٣- تحقيق قدر عالٍ من التضامن العربي، من خلال المشاركة العسكرية، ومن خلال استخدام سلاح النفط.
- ٤- تحقيق شعور الثقة بالنفس، وارتفاع المعنويات بعد سنوات من الهزيمة والإحباط.

١ Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars, pp. 306 and 310-311.

٢ الموسوعة الفلسطينية، ج ٢، ص ١٩٣.

٥- استخدام الأنظمة العربية، خصوصاً مصر، النتائج السابقة لتحريك الأوضاع السياسية، ومحاولة الوصول إلى تسوية سلمية مع "الكيان الإسرائيلي"، تضمن عودة الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧.

خامساً: حرب ١٩٨٢:

في الفترة ١٤-٢١/٣/١٩٧٨، شنت القوات "الإسرائيلية" عملية اجتياح واسعة للجنوب اللبناني. وقد جُوبت بمقاومة فلسطينية عنيفة، استخدّمت أسلوب حرب العصابات. غير أن القوات الإسرائيلية أقامت شريطاً "أمنياً" حدودياً في جنوب لبنان، على طول الحدود مع فلسطين المحتلة، ونصّبت الرائد اللبناني المنشق سعد حداد قائداً للشريط، حيث أعلن في ١٩/٤/١٩٧٩ ما أسماه "دولة لبنان الحر"، التي كانت في حقيقتها منطقة استعمار صهيوني بوجه لبناني عميل، يسعى لحماية اليهود في شمال فلسطين المحتلة. وقد استشهد في عملية الاجتياح هذه نحو ٧٠٠ لبناني وفلسطيني معظمهم من المدنيين.^٢

لم تتمكن الاعتداءات "الإسرائيلية" المستمرة من وقف العمل المقاوم، فسعى "الكيان الإسرائيلي" في الحرب التي خاضها سنة ١٩٨٢ إلى ضرب

١ حول حرب ١٩٨٢، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٤٩١-٥٠٧؛ وانظر:

Chaim Herzog, The Arab-Israeli Wars, pp. 339-359.

٢ حول اجتياح جنوب لبنان سنة ١٩٧٨، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٤٨٦-٤٨٧؛ وعبد الستار قاسم وغازي ربابعة، "الحروب العربية الإسرائيلية"، ص ٣٠٩.

المقاومة الفلسطينية في لبنان وتدمير بنيتها العسكرية، والقضاء على مشروع الثورة الفلسطينية بتحرير فلسطين من خلال الكفاح المسلح، وجرحها إلى مشاريع التسوية وفق الشروط والمعايير "الإسرائيلية"، خصوصاً وأن الأنظمة العربية هجرت الخيار العسكري، أو لم تعد تراهن عليه. واستفاد "الكيان الإسرائيلي" من ظروف خروج مصر من الصراع العربي - "الإسرائيلي" بعد توقيعها اتفاقيات كامب ديفيد Camp David Accords في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٨، ومن انشغال العرب بالحرب العراقية - الإيرانية، بالإضافة إلى الدعم الأمريكي للكيان "الإسرائيلي" الذي ازداد قوة في ولاية الرئيس رونالد ريغان Ronald Reagan.

وقد ادعى "الكيان الإسرائيلي" أن هدف الحرب هو تحقيق "سلامة الجليل" أي حماية المستوطنات اليهودية في شمال فلسطين المحتلة من الصواريخ والعمليات الفلسطينية. مع العلم أنه لم تحدث عمليات من هذا النوع منذ ٢٤/٧/١٩٨١ وحتى ٤/٦/١٩٨٢. بينما قام "الكيان الإسرائيلي" في الفترة نفسها بخرق المجال الجوي اللبناني ٢١٢٥ مرة، وخرق المياه الإقليمية اللبنانية ٦٥٢ مرة، بالإضافة إلى بعض حوادث الانتهاك برًا.

بدأ الاجتياح "الإسرائيلي" للبنان في ٤/٦/١٩٨٢، واشترك فيه ١٢٥ - ١٥٠ ألف جندي (من أصل ١٧٠ ألفاً هم قوام الجيش "الإسرائيلي" العامل) تساندتهم ١٦٠٠ دبابة، و١٦٠٠ ناقلة جنود مدرعة، و٦٠٠ مدفع وراجمة صواريخ، والقوات الجوية والبحرية، أي أنها كانت حرب اقتلاع للوجود العسكري الفلسطيني، في جو من الاطمئنان إلى عدم وجود أي تحرك عربي جاد، فتركت الحدود شبه فارغة مع البلاد العربية الأخرى.

وقد تمكنت القوات "الإسرائيلية" من اجتياح جنوب لبنان ووسطه بسرعة كبيرة تساندها القوى الكتائبية، وفي ٩ حزيران/ يونيو كانت قد وصلت إلى مشارف بيروت. وقد حاولت القوات السورية المتمركزة في البقاع والشوف التصدي لها، لكن القوات "الإسرائيلية" تمكنت من تدمير شبكة الصواريخ السورية، وأسقطت في معارك جوية مئة طائرة عسكرية سورية، فأنكشفت القوات السورية البرية أمام الطيران "الإسرائيلي"، واضطرت القوات السورية للانسحاب بعيداً عن محاور القتال منذ ١١ حزيران/ يونيو.

وقد استمرت معركة بيروت ٦٥ يوماً (٦/٩ - ١٢/٨/ ١٩٨٢)، ووصلت القوات "الإسرائيلية" إلى طريق بيروت دمشق، ودخلت بيروت الشرقية في ١١ حزيران/ يونيو حيث قصر الرئاسة في بعبداء، وحيث وجدت ترحيباً من تحالف القوات اللبنانية الكتائبية. وقد أكملت حلقة حصارها على بيروت الغربية في ١٤ حزيران/ يونيو حيث تجمع فيها نحو ١٢-١٣ ألف مقاتل فلسطيني واللواء السوري ال ٨٥. وقد قررت المقاومة الفلسطينية الصمود، وقدمت نموذجاً لملحمة بطولية، فشل العدو خلالها وعلى مدى شهرين من احتلال رقعة صغيرة هي منطقة بيروت الغربية، على الرغم من شراسة القصف والحصار ومحاولات الاقتحام والهجمات برّاً وبحراً وجوّاً، واستخدام أحدث وأشد وسائل الدمار. وفي ٣٠ حزيران/ يونيو كان قد استشهد نحو ١٥ ألف مدني من جراء الغزو "الإسرائيلي".

وقد اضطرت القوات "الإسرائيلية" للموافقة على وقف إطلاق النار في ١٢/٨/ ١٩٨٢، بعد أن فشلت في احتلال بيروت الغربية. غير أن القوات "الإسرائيلية" حققت أهدافها بشكل عام. إذ اقتضت الترتيبات خروج المقاومة الفلسطينية وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان بعد أن

تجمعت في بيروت، مما أدى إلى خروج نحو ١١ ألف فلسطيني مقاتل (نحو ٨٣٠٠ من المنظمات الفدائية، و٢٦٠٠ من جيش التحرير الفلسطيني، و١٧٥ جريحًا) وذلك وفق ترتيبات تضمن سلامتها، وقد تمّ ذلك في الفترة ٢١-٣١/٨/١٩٨٢، حيث توجه المقاتلون الفلسطينيون إلى معسكرات في سورية والعراق وتونس واليمن (الشمالي والجنوبي) والجزائر والسودان. ولم تحترم القوات "الإسرائيلية" تعهداتها، فقد اقتحمت بيروت الغربية بعد أسبوعين من خروج المقاومة الفلسطينية، وأشرفت بنفسها على تنفيذ قوات من القوى المسيحية المتعصبة لمذابح صبرا وشاتيلا في ١٦-١٨/٩/١٩٨٢، والتي أدت إلى استشهاد نحو ٣٥٠٠ فلسطيني ولبناني من المدنيين الأطفال والنساء والشيوخ....

أدت حرب ١٩٨٢ إلى استشهاد وجرح نحو ٥٥ ألف فلسطيني ولبناني، وإلى تدمير معظم البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية في لبنان، بحيث لم تعد تشكل خطرًا جادًا على الكيان الصهيوني، ووجدت منظمة التحرير الفلسطينية نفسها بعيدة عن فلسطين، محرومة من العمل العسكري في دول الطوق^١. وكسب تيار "الواقعية" في المنظمة دفعات جديدة باتجاه تبني الحلول السلمية، وأخذ تركيز المنظمة ينصب بعد ذلك على النضال السياسي.

١ حسب المصادر الإسرائيلية فإن خسائر منظمة التحرير الفلسطينية حتى منتصف تموز/ يوليو ١٩٨٢ كانت ألف شهيد و٦ آلاف أسير، وخسرت سورية ٣٧٠ شهيدًا وألف جريح و٢٥٠ أسيرًا، كما خسرت سورية ٣٥٠-٤٠٠ دبابة، و٨٦ طائرة مقاتلة، وخمس طائرات هليكوبتر، و١٩ منصة إطلاق صواريخ، وخسر "الكيان الإسرائيلي" ٣٥-٤٠ دبابة، وطائرة حربية واحدة، وطائرتي هليكوبتر، و٣٠٠ قتيل، و١٦٠٠ جريح. انظر: Chaim

وعانت من محاولات فرض الهيمنة عليها أو تجاوزها، كما عانت من الاختلافات الداخلية، ووقع انشقاق في حركة فتح بزعامة أبي موسى. وعلى الرغم من البطولات التي أبدتها المقاتلون الفلسطينيون، فإن حرب ١٩٨٢ كشفت عن اختراقات وترهلات ونقاط ضعف في جسد الثورة، كما دفعت إلى مراجعة الأيديولوجية التي يجب أن ينبني عليها الصراع مع العدو.

ولم تدم سعادة الكيان الصهيوني بتحقيق أهدافه، إذ سرعان ما ظهرت المقاومة اللبنانية ممثلة خصوصاً بحزب الله، حيث حولت الجنوب اللبناني إلى ساحة حرب توالى فيها العمليات اليومية وسقوط القتلى "الإسرائيليين". فقد جرى اغتيال الزعيم الكتائبى بشير الجميل الذي نصبته "إسرائيل" رئيساً على لبنان بعد أيام من انتخابه. وتمّ تدمير مقر القيادة العامة للقوات "الإسرائيلية" في صور في ١٢/١١/١٩٨٢، حيث قتل ٧٥ عسكرياً "إسرائيلياً"، وهوجم مقر الحاكم العسكري "الإسرائيلي" في صور في ٤/١١/١٩٨٣ وقتل ١٩ "إسرائيلياً". وأفشلت القوى الوطنية الإسلامية الوجود المشبوه للقوات متعددة الجنسيات في لبنان، فدمرت السفارة الأمريكية في بيروت في ١٨/٤/١٩٨٣ وقتلت ٨٠ شخصاً، ودمرت مقر قيادة القوات الأمريكية في ٢٣/١٠/١٩٨٣ وقتلت ٢٣٩ جندياً. كما ضربت مقر قيادة القوة الفرنسية في ٢٣/١٠/١٩٨٣ و٢١/١٢/١٩٨٣ مما أدى إلى مقتل ٧١ جندياً. وتمكنت المقاومة من إفشال الاتفاق بين الحكومة اللبنانية و"الكيان الإسرائيلي" الذي وُقّع في ١٣/٥/١٩٨٣، حيث تمّ إسقاطه في ٥/٣/١٩٨٤، لأنه اتفاق ينتقص من الحقوق اللبنانية الكاملة في السيادة والاستقلال. كما أخذت المقاومة

الفلسطينية تعود شيئاً فشيئاً إلى لبنان، وإن بدرجة أقل مما سبق، وتتولى القيام ببعض العمليات والدفاع عن المخيمات الفلسطينية.^١

وقد اضطرت القوات "الإسرائيلية" للانسحاب في ١٩٨٣/٩/٤ إلى خط نهر الأولي، ثم قررت في ١٩٨٥/١/١٤ تحت الضربات القاسية للمقاومة إلى الانسحاب من كثير من المناطق على ثلاث مراحل أتمتها في حزيران/ يونيو ١٩٨٥، وأبقت قواتها فقط في الشريط الحدودي، الذي عهدت بإدارته إلى عميلها إنطوان لحد. وهو شريط في جنوبي لبنان يتاخم الحدود مع فلسطين وبعمرق ٥-٢٠ كم داخل لبنان.^٢ وقد توالى ضربات المقاومة للقوات "الإسرائيلية" وعملائها في هذا الشريط حتى تمّ تحريره في ٢٤/٥/٢٠٠٠.

سادساً: العدوان "الإسرائيلي" على لبنان ٢٠٠٦:

شنت القوات "الإسرائيلية" عدواناً شاملاً على لبنان، استهدف بالذات جنوب لبنان والضاحية الجنوبية لبيروت، استمر ٣٣ يوماً في الفترة ١٢/٧-١٤/٨/٢٠٠٦؛ وقد ووجهت بمقاومة بطولية من قوى المقاومة وخصوصاً من حزب الله، مما أدى لاندحار القوات "الإسرائيلية"، وفشلها في تحقيق أهدافها.

١ حول هذه العمليات، انظر: هيثم الكيلاني، الاستراتيجيات العسكرية للحروب العربية الإسرائيلية، ص ٤٩٨، و ٥٠٦.

٢ المرجع نفسه، ص ٥٠٦-٥٠٧.

٣ حول هذه الحرب، انظر: محسن محمد صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٦ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠٠٧)، ص ١١٣-١٣٦.

وكان حزب الله، قبل ساعات قليلة من شنّ الكيان الصهيوني لعدوانه، قد قام بعملية عسكرية نوعية أسفرت عن قتل ثمانية جنود "إسرائيليين" وجرح ١٨ آخرين وأسرا اثنين؛ أعلن عقبها أن الهدف الأساسي منها كان أسر أكبر عدد من الجنود لمبادلتهم بأسرى لبنانيين محتجزين في السجون "الإسرائيلية"، وذلك عبر مفاوضات غير مباشرة.

من جهة أخرى، توافرت معلومات من مصادر غربية متعددة تؤكد أن تنسيقاً أمريكياً "إسرائيلياً" قد بدأ قبل وقت طويل من عملية حزب الله، واستهدف وضع خطط مشتركة لتدمير البنية العسكرية للحزب كمقدمة لتغيير قواعد اللعبة السياسية في لبنان والمنطقة. وحين بدأت "إسرائيل" عملياتها العسكرية أعلنت أنها تهدف إلى تدمير البنية العسكرية لحزب الله ودفع ما تبقى من مقاتليه إلى ما وراء نهر الليطاني؛ وادّعت أنها تريد مساعدة الدولة اللبنانية على فرض سيطرتها على كامل التراب اللبناني؛ وهي أهداف يصعب معها الاقتناع بأن حرباً شاملةً على هذا النحو كانت مجرد رد على عملية حزب الله العسكرية المحدودة.

وقد مرت الإدارة العسكرية للحرب على الساحة "الإسرائيلية" بثلاث مراحل متميزة:

الأولى: غارات جوية مكثفة ومتواصلة، استهدفت في الأساس تدمير منصات إطلاق الصواريخ ومخازن الأسلحة والمخابئ العسكرية التابعة لحزب الله، بالتوازي مع ضرب الموانئ والمطارات والجسور ومراكز الاتصالات التابعة للدولة اللبنانية،

والثانية: تدمير الضاحية الجنوبية لبيروت، حيث المقر الرئيسي لحزب الله، ولأهم المؤسسات السياسية والإعلامية والاقتصادية التابعة له.

والثالثة: عمليات برية، بدأت محدودة النطاق لكنها اتسعت تدريجياً، مع فشل وحدات النخبة في تحقيق أهدافها، إلى أن أخذت قبيل انتهاء الحرب شكلاً أقرب إلى الاجتياح البري. وقد استغرقت الحرب بمراحلها الثلاث ٣٣ يوماً. ولم يكن الجيش اللبناني طرفاً في هذه الحرب، بالرغم من تعرّض بعض مواقعه للقصف وسقوط العشرات من الضحايا بين صفوفه، واقتصر دوره على تقديم الدعم للمدنيين وعلى عمليات الإنقاذ. أي أن حزب الله الذي كان يقف وحيداً، استطاع تعويض عدم امتلاكه لطائرات أو دبابات أو سفن حربية، بترسانة بدت كبيرة من الصواريخ القصيرة والمتوسطة المدى. وكان حزب الله ما يزال قادراً على ضرب العمق "الإسرائيلي" بمئات الصواريخ يومياً حتى اللحظة الأخيرة للحرب، مما مثل أكبر دليل على أن "إسرائيل" لم تتمكن من تحقيق أهم أهدافها وهو تدمير بنيته العسكرية.

جاء قرار مجلس الأمن رقم ١٧٠١ محصلةً لتفاعل موازين القوى العسكرية والسياسية للأطراف المشتبكة في الصراع على نحو مباشر أو غير مباشر. ومع ذلك، فإن إلقاء الولايات المتحدة بكل ثقلها السياسي وراء "إسرائيل"، مكّنها من الحصول على مكاسب سياسية أكبر مما سمحت به موازين القوى على ساحة القتال، حيث طالب القرار ١٧٠١ بالإفراج الفوري عن الجنديين المختطفين، وبوجود منطقة عازلة خالية من مقاتلي حزب الله حتى جنوب الليطاني، بل ولا يستبعد نزع سلاح الحزب إذا ما توافرت شروط سياسية معينة.

وقد أدت الحرب إلى استشهاد ١٤٠٠ لبناني وجرح ٣٧٠٠ آخرين، وتمّ

تهجير نحو ٩٧٣ ألفاً بشكل مؤقت، وحدث دمار كبير في البنى التحتية،
فلحقت أضرار بنحو ٧ آلاف منزل، و١٤٥ جسراً. وقُدِّرت الخسائر
"الإسرائيلية" بنحو ٤٠٠ قتيل، و١١٨٧ جريحاً، وتضرر نحو ١١ ألف
منزل نتيجة سقوط ٣٢٠٤ صواريخ كاتيوشا، كما أعلن حزب الله أنه تمكن
من تدمير ١٢٠ دبابة ميركافا، وثلاثين مدرعة وبارجتين بحريتين وخمس
مروحيات.^١

١ انظر: محسن محمد صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٦، ص ١٢٩-١٣١.

الفصل الثاني

مشاريع التسوية السلمية للقضية الفلسطينية

مقدمة:

يحمل مصطلح التسوية السلمية معنى محاولة فض النزاع بين طرفين أو أكثر حول القضية مثار الخلاف بالطرق السلمية، وعادة ما تتم بقبول الأطراف لحلّ يوقعون عليه، ويلتزمون بتنفيذه، بناء على اتفاقية محددة. وليس شرطاً أن تكون التسوية السلمية "عادلة" أو حلاً "وسطاً"، إذ إنها تعكس في كثير من الأحيان موازين القوى، وحالات الانتصار والهزيمة، والضغوط الداخلية والخارجية. كما أن التسوية السلمية ليست بالضرورة حلاً دائماً، إذ قد تلجأ إليها القوى المتصارعة لأخذ فسحة من الوقت بانتظار تغير الظروف إلى الأفضل، من أجل فرض تسويات جديدة تعكس تغيّر موازين القوى.

ولكن هذا المصطلح قد يكون مُضللاً عندما يتعلق بالشأن الفلسطيني، إذ إن معظم مشاريع التسوية السلمية تكون عادة بين دول مختلفة متحاربة، أو بين أطراف داخلية متنازعة من أبناء الوطن الواحد. أما المعاهدات التي تنتزعها قوى منتصرة نتيجة احتلالها لأرض شعب آخر وتشريد أهله واستغلال خيراته، فهي معاهدات بين غاصب محتل وبين شعب مقهور، وهي تعكس حالة استسلام من الطرف الضعيف إلى الطرف الأقوى. وهي بالتالي ليست صراعاً حدودياً أو إسقاطاً لنظام حكم...، وإنما هي حالة استعمارية تكون أي تسوية فيها مهما كانت تسوية ظالمة لأهل الأرض المحتلة، لأنها بالضرورة ستنتقص ولو جزءاً من أرضهم، أو حريتهم في تقرير مصيرهم،

أو سيادتهم التامة على دولتهم. ولذلك، فإن من عادة الحركات الوطنية في البلدان المستعمرة الكفاح من أجل حريتها واستقلالها، وإذا ما حدثت مفاوضات واتفاقات فإنها لا تعطي للقوى الغاصبة حقاً في الأرض نفسها، وإنما قد توافق مرحلياً، بانتظار تحسن الظروف، على بعض الأمور التي قد تنتقص من حريتها وسيادتها كوجود قواعد عسكرية أو شروط اقتصادية مجحفة أو تحكُّم المستعمر بالشؤون الخارجية.

إن أول ما يجب التنبيه إليه أن الوجود الصهيوني - اليهودي في فلسطين هو حالة استعمار واغتصاب بالقهر والقوة، وليس نزاعاً بين بلدين متجاورين. وإن جوهر القضية أن القوى الكبرى، وبالذات بريطانيا وأمريكا، قد سعت متحالفة مع الصهيونية العالمية لإيجاد كيان يهودي في فلسطين، قلب العالم العربي والإسلامي، يمتلك آليات القوة والتوسع، ويكون سيفاً مسلطاً على رقاب المسلمين في المنطقة يمنع وحدتهم ويضمن ضعفهم وتخلفهم، ويحرّمهم من شروط النهضة الحضارية، ويبقي منطقتهم مصدراً للمواد الخام وسوقاً للسلع الاستهلاكية الغربية.

وبالتالي، فإن أي مشروع يطرحه الغرب أو الصهاينة، أو يمكن أن يقبلوه، لا بدّ وأن يشترط بقاء هذا الكيان اليهودي - الصهيوني وقوته وازدهاره. وهو بالتالي لن يكون عادلاً مهما حصل الفلسطينيون أو العرب والمسلمون من "مكاسب"، لأنها "لن" تضمن استعادة الفلسطينيين لكامل حقوقهم في أرضهم وسيادتهم عليها أو خروج الغاصبين المحتلين. ولذلك، فإن أي حلّ يمكن أن يقبل به الفلسطينيون والعرب والمسلمون سيكون حلاً مؤقتاً، وسيزول بزوال مسبباته (ضعفهم وقوة خصمهم)، ذلك أن عناصر التفجير ستبقى (الإيمان بفلسطينية وعروبة وإسلامية الأرض، والشعور بالظلم). وكما أن

اليهود لن يتركوا عقيدتهم في "أرض الميعاد"، وكما أن الغرب لن يترك أطماعه، فإن العرب لن يتنازلوا عن حقوقهم، كما أن المسلمين لن يتركوا إسلامهم. وعلى هذا فإن أيّ تسوية "عادلة دائمة" يجب أن تتم بناء على زوال الاحتلال واستعادة الحقوق كاملة، وإلا فإن نُذر الحرب ستظل تلوح في الأفق.

لقد تمت هجرة اليهود إلى فلسطين قهراً ودون موافقة أهل البلاد، وتملكوا الأراضي قهراً، وأنشأوا مؤسساتهم العسكرية والمدنية والاقتصادية قهراً تحت الاحتلال البريطاني. وأقاموا الكيان الصهيوني سنة ١٩٤٨ على ٧٧٪ من أرض فلسطين قهراً. وكل التسويات السلمية لا تتحدث عن إزالة هذا القهر والعدوان، وإنما في أحسن الأحوال عن "قهر دون قهر"، بما يضمن إعطاء الشرعية لمعظم ما تمّ اغتصابه.

أولاً: مشاريع التسوية السلمية ١٩٤٨-١٩٦٧:

كان القاسم المشترك لمشاريع التسوية في هذه المرحلة هو التعامل مع قضية فلسطين بوصفها قضية لاجئين، أي الشق الإنساني من الموضوع وليس السياسي. ففي ١١/١٢/١٩٤٨، وبناء على مشروع بريطاني، وافقت الأمم المتحدة على إصدار القرار ١٩٤ القاضي بوجوب السماح بالعودة للاجئين الفلسطينيين الراغبين في العودة إلى بيوتهم في أقرب وقت ممكن، ووجوب دفع تعويضات عن ممتلكات الذين يقررون عدم العودة إلى بيوتهم، وأن يتم تعويض أي مفقود أو مصاب بضرر من الجهة المسؤولة عن ذلك. ويعني قرار العودة هذا أن:

١. العودة حق واجب التنفيذ.

٢. وهي تتوقف على الاختيار الحر للاجئ.

٣. وهي حق طبيعي وليس منّة من أحد.
٤. ولا يجوز لأحد منع هذا الحق أو حجبته.
٥. وأن عودته إلى وطنه هي عودة مواطن له كامل الحقوق المدنية والسياسية.^١

ومن الجدير بالذكر، أن قرار حق العودة هذا قد جرى التأكيد عليه سنوياً في اجتماعات الأمم المتحدة، بأكثر من ١٣٠ مرة حتى الآن (٢٠٢١)، مع رفض "إسرائيلي" مستمر لتنفيذه، ودون أن تتحرك الأمم المتحدة بأي خطوة عملية لإلزام الكيان الصهيوني به. وقد كان قد تمّ تشريد ٨٠٠ ألف فلسطيني من أصل ٩٢٠ ألف كانوا يسكنون المنطقة التي استولى عليها الصهاينة. ويبلغ عدد هؤلاء الفلسطينيين نحو سبعة ملايين (حسب مطلع سنة ٢٠٢١).

وفي الوقت نفسه، لم يستطع الفلسطينيون إنشاء الدولة العربية الخاصة بهم، إذ قام الأردن بضم الضفة الغربية رسمياً إليه في ١١ / ٤ / ١٩٥٠، كما قامت مصر بوضع قطاع غزة تحت إدارتها.

وقد تضمن القرار ١٩٤ نفسه مادة تنص على تشكيل لجنة توفيق ومصالحة^٢ بين الكيان الصهيوني والدول العربية. وتشكلت اللجنة من

١ انظر نص القرار في:

Zafrul Islam Khan, Palestine Documents (New Delhi: Pharos Media, 1998), pp. 276-279.

(Hereafter, referred to this reference as: Palestine Documents).

٢ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٤، ص ١٩-٢١؛ ومنير الهور وطارق الموسى، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥، ط ٢ (عمّان: دار الجليل، ١٩٨٦)، ص ٣٨-٣٩.

الولايات المتحدة وفرنسا وتركيا، ودعت اللجنة في أواخر ١٩٤٩ الكيان الصهيوني لقبول عودة ١٠٠ ألف لاجئ فلسطيني مقابل الحصول على صلح مع العرب، لكن الكيان الصهيوني رفض ذلك بشكل قاطع. وتعاونت الدول العربية مع لجنة المصالحة، لكن إصدار الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا بيانها الشهير في ٢٥/٥/١٩٥٠ بحماية الحدود "الإسرائيلية" القائمة، على الرغم من أنها تحتل مساحة إضافية من فلسطين تقدر بنحو ٢٣٪، كشف النوايا الحقيقية لهذه الدول، مما دفع الدول العربية لرفض مقترحات لجنة المصالحة المتعلقة بترتيبات التسوية مع الكيان الصهيوني. وقد عقدت اللجنة مؤتمرًا في لوزان بسويسرا في ٢٦/٤/١٩٤٩، وكان "الكيان الإسرائيلي" تحت ضغط الحاجة إلى قبوله عضوًا في الأمم المتحدة، فوافق ووقع على "بروتوكول لوزان Lausanne Protocol" الذي تضمن:

١. أن تكون الخريطة الملحقة بقرار تقسيم فلسطين هي أساس للمحادثات بشأن مستقبل فلسطين.
 ٢. انسحاب "إسرائيل" إلى ما وراء حدود التقسيم.
 ٣. تدويل القدس.
 ٤. عودة اللاجئين وحقهم في التصرف بأموالهم وأموالهم، وحق تعويض من لا يرغب بالعودة.
- ولكن ما إن وافقت الأمم المتحدة على عضوية "الكيان الإسرائيلي" فيها، حتى تنكرت "إسرائيل" لاتفاقية لوزان، ورفضت تنفيذ شروطها. وقد عطّلت "إسرائيل" أي عمل للجنة متعلق بتنفيذ التقسيم أو عودة

اللاجئين. وبدا واضحاً أن الموقف الصهيوني وجد هوى غير معلن لدى لجنة المصالحة التي تعمّدت التقاعس وإماتة الموضوع، وافترقت لأدنى درجات الجدية، وسكتت سكوتاً مريباً عن مصادرة الكيان الصهيوني لأراضي اللاجئين وأملاكهم. ومن الجدير بالذكر، أن لجنة المصالحة هذه ظلّت (من الناحية الرسمية) مشكلة لعشرات السنين، وظلّ تقرير الجمعية العامة للأمم المتحدة (GA) يأسف سنوياً لعدم تمكن هذه اللجنة من إيجاد الوسائل لتحقيق أي تقدّم بشأن عودة اللاجئين، ويطلب منها أن تبذل جهوداً متواصلة من أجل ذلك (مثلاً قرار ب ٣٤١٩ في ٨/١٢/١٩٧٥).

وفي إطار التعامل مع قضية فلسطين كقضية لاجئين أنشئت وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الأدنى (الأونروا) United Nations Relief and Works Agency for Palestine Refugees in the Near East (UNRWA) بناء على قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ٣٠٢ الصادر في ٨ كانون الأول/ ديسمبر^١. وأخذ يتضح مع الزمن أن مزاج القوى الكبرى العام يتجه نحو إيجاد حلول اقتصادية لمصاعب الحياة التي يواجهها اللاجئون، وتوطينهم حيث استقروا أو في أماكن أخرى، وليس إعادتهم إلى أرضهم أو إعطائهم حقوقهم السياسية في الهوية الوطنية وتقرير المصير والاستقلال.

وتوالت المشاريع التي تركّز على قضية اللاجئين، وعلى تحقيق تسوية بين الدول العربية والكيان الصهيوني، دونما إشارة لإنشاء كيان سياسي فلسطيني.

١ انظر نص القرار في: Palestine Documents, pp. 288-289.

ثانياً: مسار التسوية السلمية ١٩٦٧-٢٠٠٠:

أفرزت حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ حقائق جديدة على الأرض، فقد احتل الصهاينة ما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة)، بالإضافة إلى سيناء المصرية والجولان السورية. وكانت كارثة بحق، فقد تبخرت ثقة الأنظمة العربية بقدرتها على تحرير فلسطين، كما تبخرت ثقة الجماهير العربية بهذه الأنظمة. وتحوّل الشغل الشاغل للأنظمة العربية عن تحرير الأرض المحتلة سنة ١٩٤٨ إلى تحرير الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧، أو تحقيق أي تسوية سلمية تضمن "إزالة آثار العدوان"، أي عدوان ١٩٦٧. وبالتالي تمكّن الكيان الصهيوني من فرض جدول جديد لمشاريع التسوية، تركّز على أراضٍ لم تكن محتلة أصلاً بحيث أصبحت هي موضوع المساومة، وليس أرض ١٩٤٨ التي ضُمن الصهاينة أن تخرج عن دائرة البحث ابتداءً. وعلى الرغم من أن مؤتمر قمة الدول العربية الذي انعقد في الخرطوم في ١٩٦٧/٨/٢٩ خرج باللاءات الثلاث الشهيرة "لا صلح، لا مفاوضات، لا استسلام"، إلا أن ذلك كان استجابة للحالة النفسية للجماهير العربية المصدومة التي تطالب بالثأر والانتقام، ولم يكن ذلك خطأً أصيلاً يرفض على أساسه مشاريع التسوية، إذ إن الأنظمة العربية سرعان ما ستتعامل مع هذه المشاريع، كما أنها لن تقوم بتنفيذ خطط عمل استراتيجية تخدم تلك الشعارات المعلنة.

وقد أصبحت مشاريع التسوية من الكثرة بحيث يصعب مجرد سردها، غير أن الإطار العام للمشاريع العربية ستركز على انسحاب الكيان الصهيوني من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧، والإطار العام للمشاريع "الإسرائيلية" ستركز على إنهاء حالة الحرب وإقامة علاقة طبيعية مع البلاد العربية، مع

إنكار حقوق الشعب الفلسطيني. أما الإطار العام للمشاريع الدولية فسيحاول الجمع بين الرؤيتين العربية والصهيونية، بحسب الجهة التي تقدم المشروع وطبيعة علاقتها بالطرفين.

١. مشروع آلون Yigal Allon Plan^١:

بعد شهر واحد من حرب ١٩٦٧، طرح وزير الخارجية "الإسرائيلية" إيجال آلون Yigal Allon مشروع الذي حظي بشهرة واسعة وتضمنت أفكاره:

أ. الحدود الشرقية للكيان "الإسرائيلي" هي نهر الأردن، وخط يقطع البحر الميت من منتصفه.

ب. ضمّ المناطق الغربية لغور الأردن والبحر الميت بعرض بضعة كيلومترات إلى نحو ١٥ كم، وإقامة مستوطنات صهيونية زراعية وعسكرية ومدنية فيها بأسرع ما يمكن، وإقامة ضواحي سكنية يهودية شرقي القدس.

ج. تجنّب ضمّ السكان العرب إلى "الكيان الإسرائيلي" قدر الإمكان.

د. إقامة حكم ذاتي فلسطيني في الضفة الغربية في المناطق التي لن يضمها "الكيان الإسرائيلي".

هـ. ضمّ قطاع غزة "للكيان الإسرائيلي" بسكانه الأصليين فقط، ونقل لاجئي ١٩٤٨ من هناك وتوطينهم في الضفة الغربية أو العريش.

١ منير الهور وطارق الموسى، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥، ص ٨٠-٨٢.

و. حلّ مشكلة اللاجئين على أساس تعاون إقليمي يتمتع بمساعدة دولية، وتقوم "إسرائيل" بإقامة عدة قرى "نموذجية" للاجئين في الضفة وربما في سيناء.

وعلى الرغم من أن آلون طرح مشروعه على حكومته إلا أنها لم تقم بمناقشته أو تبنيه رسميًا. ومع ذلك، فإن هذا المشروع أصبح بعد ذلك أساسًا تنطلق منه معظم، أو كل، مشاريع التسوية "الإسرائيلية" حتى أواخر القرن العشرين مع بعض التعديلات أو الديكورات الطفيفة.

٢. قرار مجلس الأمن ٢٤٢ في ٢٢/١١/١٩٦٧^١:

يعد قرار مجلس الأمن ٢٤٢ من أهم المشاريع التي ما تزال تستند إليها كافة مشاريع التسوية إلى الآن. وقد قدّمت بريطانيا هذا المشروع ووافق عليه مجلس الأمن الدولي بالإجماع. وكان مجلس الأمن قد انعقد في الفترة ٩-٢٢/١١/١٩٦٧. وكان أبرز ما جاء في القرار التأكيد على أن تحقيق مبادئ الأمم المتحدة يتطلب:

إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط ويستوجب تطبيق المبادئ التالية:

أ. سحب القوات "الإسرائيلية" المسلحة من أراضي احتلت في النزاع الأخير.

ب. إنهاء جميع ادعاءات الحرب أو حالاتها واحترام السيادة والوحدة

١ انظر: المرجع نفسه، ص ٨٤-٨٥؛ والموسوعة الفلسطينية، ج ٢، ص ١٨٣-١٨٥؛

وانظر: Palestine Documents, pp. 296-297.

لأراضي كل دولة في المنطقة والاعتراف بذلك، وكذلك استقلالها السياسي، وحققها في العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومُعترف بها وحرّة من التهديد أو أعمال القوة.

ومن أبرز عيوب هذا القرار أنه:

* لا يعيّن بوضوح الخطوط التي يجب أن ينسحب منها "الكيان الإسرائيلي".

* يُقرّ للكيان "الإسرائيلي" ما حازه من توسع غير قانوني قبل حرب ١٩٦٧.

* لا يتناول جوهر "النزاع"، وهو قضية فلسطين، إلا من زاوية اللاجئين، أي أنه لا يتعرض للحقوق السياسية المشروعة للشعب الفلسطيني.

* يجعل الانسحاب "الإسرائيلي" رهناً بتحقيق شروط أخرى.

* تمّ حذف "ال" التعريف في النص الإنجليزي (The) ليصبح الانسحاب من "أراضي" وليس "الأراضي" التي احتلها الصهاينة. بمعنى أن الانسحاب لن يكون بالضرورة شاملاً من كل الأرض. أما النصين الفرنسي والإسباني فقد أبقيا على أداة التعريف، ولذلك ذكرت فرنسا والاتحاد السوفيتي ومالي والهند ونيجيريا قبل الموافقة على القرار أنها تفهم أن الانسحاب سيكون شاملاً. وبالطبع، فإن "الكيان الإسرائيلي" والأمريكان يرفضون الرجوع إلّا إلى النص الإنجليزي.

وفي الفترة ٩-١٢/١٢/١٩٨١، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة عدة قرارات كان من ضمنها أن قرار ٢٤٢ لا يؤمن مستقبل الشعب الفلسطيني وحقوقه الثابتة، وأكدت حقه في العودة وتقرير المصير والاستقلال الوطني

والسيادة الوطنية.^١

وقد رفضت منظمة التحرير الفلسطينية وكل المنظمات الفدائية الفلسطينية قرار ٢٤٢ حين صدوره لأنه يعني "تصفية القضية الفلسطينية تصفية نهائية". كما رفضت سورية والعراق والجزائر هذا القرار، أما الأردن ومصر فقد وافقتا على القرار.^٢

٣. الفلسطينيون وحق تقرير المصير في الأمم المتحدة:^٣

شهدت منتصف السبعينيات من القرن العشرين نجاحات دبلوماسية فلسطينية كبيرة على صعيد الأمم المتحدة باتجاه إقرار الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني، وعلى رأسها الحق في تقرير المصير والاستقلال.

وكانت الأمم المتحدة قد أشارت لأول مرة للفلسطينيين باعتبارهم شعباً في قرارها ٢٥٣٥/أ، ب، ج الصادر في ١٠/١٢/١٩٦٩ عندما ذكرت لأول مرة "حقوق شعب فلسطين الثابتة". وفي نهاية ١٩٧٠، اعترفت الأمم المتحدة لأول مرة بحق شعب فلسطين في تقرير مصيره. ثم أخذت قرارات الأمم المتحدة تزداد قوة ووضوحاً وتأييداً عالمياً. كما في القرارين: ٢٧٨٧، و٢٧٩٢/د في ٦/١٢/١٩٧١، وقرار ٢٩٦٣/هـ في ١٣/١٢/١٩٧٢، وقرار ٣٠٨٩/ج، د في ٧/١٢/١٩٧٣.

١ الموسوعة الفلسطينية، ج ٢، ص ٢٦٠.

٢ انظر: منير الهور وطارق الموسى، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥، ص ٨٦-٨٧؛ وصلاح خلف، فلسطين بلا هوية، ط ٢ (عمّان: دار الجليل للنشر، ١٩٩٦)، ص ١٢٣، و١٤٠.

٣ حول هذا الموضوع، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ١، ص ٥٥٢-٥٥٧.

ويُعَدُّ قرار ٣٢١٠ في ١٤/١٠/١٩٧٤ تطوراً ذا أهمية، إذ رأى أن الشعب الفلسطيني هو الطرف الأساسي المعني بقضية فلسطين. وقرّر دعوة منظمة التحرير الفلسطينية "الممثلة للشعب الفلسطيني للاشتراك في مداوالات الأمم المتحدة"، وصوّت مع القرار أغلبية ساحقة من ١٠٥ ضدّ ٤ وامتناع ٢٠. ودُعي أبو عمار ياسر عرفات لإلقاء خطاب منظمة التحرير الفلسطينية في الأمم المتحدة حيث ألقى كلمته في منتصف تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٤، والتي لقيت اهتماماً وتجاوباً عالمياً كبيراً.

وصدر إثر ذلك "قرار تاريخي" للأمم المتحدة يحمل رقم ٣٢٣٦ في ٢٢/١١/١٩٧٤ بأغلبية ٨٩ صوتاً مقابل ٨ وامتناع ٣٧، ويحمل هذا القرار عنوان "حقوق الشعب الفلسطيني"، ويؤكد فيه الحقوق الثابتة لشعب فلسطين، وخصوصاً:

- * الحق في تقرير مصيره دون تدخل خارجي.
- * الحق في الاستقلال والسيادة الوطنية.
- * الحق في عودة اللاجئين، والمطالبة بإعادتهم.
- * الاحترام الكلي لحقوق الشعب الفلسطيني، وأنه أمر لا غنى عنه لحل قضية فلسطين.
- * أن الشعب الفلسطيني طرف رئيسي في إقامة سلام عادل ودائم في الشرق الأوسط.
- * حقّ الشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه بكافة الوسائل، وفقاً لمقاصد ميثاق الأمم المتحدة ومبادئه.
- وناشد القرار جميع الدول والمنظمات الدولية مدّ يد العون للشعب

الفلسطيني لاسترداد حقوقه، كما طلب من الأمين العام للأمم المتحدة أن يقيم اتصالات مع منظمة التحرير في كل الشؤون المتعلقة بقضية فلسطين. وبموجب قرار الأمم المتحدة ٣٢٣٧ (٢٢/١١/١٩٧٤) مُنحت منظمة التحرير مركز مراقب دائم في الأمم المتحدة. وفي السنة التالية قررت الجمعية العامة تأليف لجنة من ٢٠ دولة للبحث في ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه الثابتة وفق قرار ٣٢٣٦، حيث تقوم اللجنة بتقديم تقرير سنوي حول ذلك.

وقد رفضت الجمعية العامة ١٩٧٩ اعتماد ما جاء في اتفاقية كامب ديفيد المصرية - "الإسرائيلية" حول فلسطين. وفي ١٥/١٢/١٩٨٠ أصدرت قرارها ٣٥/١٦٩، وأكدت توصياتها السابقة في قرار ٣٢٣٦، وطالب مجلس الأمن الدولي بوضع جدول زمني لانسحاب "الكيان الإسرائيلي" من الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧، وتسليم الأرض للأمم المتحدة التي تسلمها بدورها إلى منظمة التحرير بالتعاون مع جامعة الدول العربية.

وتكمن أهمية هذه القرارات في تحوّل قضية فلسطين من قضية لاجئين إلى قضية شعب له الحق في تقرير مصيره وتحرير أرضه، كما أنها ترفع الشرعية عن اغتصاب الصهاينة للأرض المحتلة سنة ١٩٦٧ بما فيها القدس، بالإضافة إلى حقّ الفلسطينيين في العودة للأرض المحتلة سنة ١٩٤٨. كما أصبح للفلسطينيين من يتحدث باسمهم باعتراف عربي ودولي باعتباره ممثلهم الشرعي الوحيد (أي منظمة التحرير الفلسطينية). وعلى الرغم من أن هذا الأمر قد زاد من "إقليمية" القضية الفلسطينية، إلا أنه جعل هذه القضية عصيّة على التدوين أو القفز عن حقوق الشعب الفلسطيني وفق أي

تسوية قد تشارك بها أطراف عربية أخرى. ثم إن هذه المكاسب السياسية قد حققت تعاطفًا دوليًا واسعًا، وعزلت الكيان الصهيوني سياسيًا، بالإضافة إلى قطع معظم دول العالم علاقتها به.

غير أن قرارات الجمعية العامة للأمم المتحدة لا تعني شيئًا كبيرًا، فهي مجرد توصيات، والجهة الوحيدة القادرة على إصدار قرارات ملزمة هي "مجلس الأمن"، حيث إن من حق أيٍّ من الدول الكبرى الخمس (الولايات المتحدة، وروسيا، وبريطانيا، وفرنسا، والصين) اتخاذ حق النقض (الفيتو Veto) ضد أي مشروع لا يتوافق مع مصالحها. وعلى ذلك، فقد كان الأمريكيان جاهزين دائمًا لاتخاذ قرار الفيتو ضد أي قرار يلزم الكيان الصهيوني بأي أمر يراه تنازلاً أو إضعافاً لخطته وبرامجه. وبذلك تظل الأمم المتحدة منبرًا دوليًا للدعاية والعلاقات العامة أكثر من أي شيء آخر، خصوصًا عندما يتعلق الأمر بقضية فلسطين.

٤. اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر و"الكيان الإسرائيلي" ١٩٧٨:١

قام الرئيس المصري أنور السادات بزيارة مفاجئة إلى "الكيان الإسرائيلي" في ١٩/١١/١٩٧٧، وألقى خطابًا في الكنيست الإسرائيلي، ودعا إلى تسوية سلمية. وبدأت بعد ذلك لأول مرة مفاوضات مصرية - "إسرائيلية" مباشرة وعلمية. وقد نتج عنها توقيع اتفاقيات كامب ديفيد في الولايات المتحدة في ١٧/٩/١٩٧٨ بين مصر، ويمثلها أنور السادات، و"الكيان الإسرائيلي"، ويمثلها مناحيم بييجين Menachem Begin، برعاية الرئيس الأمريكي جيمي

١ حول نصوص كامب ديفيد، انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٦٢٥-٦٣٠؛ وانظر:

Palestine Documents, pp. 337-342.

كارتر Jimmy Carter. وقد دخلت الاتفاقية حيز التنفيذ في ٢٦/٣/١٩٧٩. والاتفاقية مقسومة إلى وثيقتين؛ الأولى تتناول أسس علاقة "الكيان الإسرائيلي" مع البلاد العربية، ومستقبل الضفة الغربية والقطاع، وأما الثانية فتحدد أسس معاهدة "السلام" بين مصر و"الكيان الإسرائيلي". وقد استرجعت مصر بموجب هذه الاتفاقية أرض سيناء وفق شروط تضبط وجود قواتها فيها. ووافقت مصر على إقامة علاقة "سلام" دائم، وتطبيع العلاقات سياسياً واقتصادياً وثقافياً مع "الكيان الإسرائيلي".

وفيما يتعلق بالشعب الفلسطيني فقد دعت إلى مشاركة ممثلي الشعب الفلسطيني في المفاوضات، واقترحت حكماً ذاتياً فلسطينياً في الضفة والقطاع بحيث يشترك في المفاوضات بشأنه وشأن مستقبله مصر والأردن و"الكيان الإسرائيلي" وممثلون عن الضفة والقطاع يضمهم في البداية وفداً مصر والأردن. وقد يضم الوفد فلسطينيين آخرين "وفقاً لما يتفق عليه"، أي بمعنى أن "للكيان الإسرائيلي" حق رفضهم أو قبولهم. كما تضمنت التصورات التفصيلية التالية:

أ- تكون هناك ترتيبات انتقالية بالنسبة للضفة والغربية وقطاع غزة لمدة لا تتجاوز خمس سنوات.

ب- تنسحب الحكومة العسكرية "الإسرائيلية" وإدارتها المدنية بمجرد أن يتم انتخاب سلطة الحكم الذاتي من قبل السكان عن طريق الانتخاب الحر.

ج- تتفاوض الأطراف (مصر، والأردن، وممثلو الضفة والقطاع، و"الكيان الإسرائيلي") بشأن اتفاقية تحدد مسؤوليات الحكم الذاتي التي ستمارس في الضفة والقطاع.

د- سيكون هناك إعادة توزيع للقوات "الإسرائيلية" التي ستبقى في مواقع معينة، وستتضمن الاتفاقية ترتيبات لتأكيد الأمن الداخلي والخارجي والنظام العام.

هـ- ستتم المفاوضات وفق قرار مجلس الأمن الدولي رقم ٢٤٢ بكافة أجزائه. وستعالج المفاوضات، من بين أمور أخرى، موضوع الحدود، وطبيعة الإجراءات الأمنية.

و- يجب أن يعترف الحل الناتج عن المفاوضات بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومطالبه العادلة.

ز- سيشارك الفلسطينيون بتقرير مستقبلهم من خلال:

١. يتم الاتفاق في المفاوضات بين مصر و"إسرائيل" والأردن وممثلي السكان في الضفة والقطاع على الوضع النهائي للضفة والقطاع والمسائل البارزة الأخرى بحلول نهاية المرحلة الانتقالية.

٢. يُعرض الاتفاق على ممثلي الضفة والقطاع المنتخبين للتصويت عليه.

٣. تتاح الفرصة للممثلين المنتخبين عن السكان في الضفة وغزة لتحديد الكيفية التي سيحكمون بها أنفسهم تماشيًا مع نصوص الاتفاق.

٤. المشاركة في عمل اللجنة التي تتفاوض بشأن معاهدة "السلام" بين الأردن و"الكيان الإسرائيلي".

ح- سيتم تشكيل قوة شرطة محلية قوية قد تضم مواطنين أردنيين، وستشارك قوات "إسرائيلية" وأردنية في دوريات مشتركة، وفي العمل على ضمان أمن الحدود.

ط- وعندما يتم إنشاء سلطة الحكم الذاتي (مجلس إداري) ستبدأ المرحلة الانتقالية من خمس سنوات. وستتم بأسرع ما يمكن، وبما لا يزيد عن السنة الثالثة من بدء هذه المرحلة، المفاوضات النهائية لتقرير الوضع النهائي للضفة والقطاع وعلاقتها بغيرها، والوصول إلى معاهدة "سلام" بين "الكيان الإسرائيلي" وبين الأردن مع نهاية المدة الانتقالية.

ي- سيتم اتخاذ كل الإجراءات التي تضمن أمن "إسرائيل" وجيرانها.

ك- خلال المرحلة الانتقالية تشكل لجنة من الأردن ومصر وممثلو الضفة والقطاع و"إسرائيل"، للاتفاق على مدى السماح بعودة النازحين المطرودين من الضفة والقطاع سنة ١٩٦٧. وستعمل مصر و"إسرائيل" والأطراف الأخرى المهمة لوضع إجراءات متفق عليها لتحقيق حلٍّ عاجل وعادل ودائم لمشكلة اللاجئين.

وقد ذكرنا تفصيلات كامب ديفيد لأنها أول تسوية سلمية متعلقة بفلسطين يتم الاتفاق عليها بين "الكيان الإسرائيلي" وأحد الأطراف العربية. ولأن اتفاق أوسلو Oslo Accords مع منظمة التحرير الفلسطينية فيما بعد سنة ١٩٩٣ سيشكل النسخة المعدلة، وربما المشوهة، لهذه الاتفاقية.

لقد أثارت هذه الاتفاقية أحد أشد حملات الرفض والاحتجاج في العالم العربي، وانطلقت المظاهرات في كل مكان معبرة عن سخط جماهيري شامل. واتّهم السادات بأشنع أوصاف الخيانة وبيع الحقوق العربية. وقامت جماعة إسلامية باغتياله في ٦/١٠/١٩٨١، ولم تخفِ قطاعات واسعة من العرب والمسلمين فرحها بذلك و"شماتها" به. وفي مؤتمر القمة العربية في بغداد ١٩٧٩، تمّ قطع العلاقات السياسية مع مصر، وجرى عزل مصر عن

محيطها العربي. كما تمّ تشكيل جبهة الصمود والتصدي مع عدد من الأقطار العربية (سورية، والعراق، وليبيا، والجزائر، واليمن الجنوبي، ومنظمة التحرير الفلسطينية) لمواجهة مشروع كامب ديفيد. وعدّت منظمة التحرير في بيان أصدرته هذا الاتفاق "أخطر حلقات المؤامرة المعادية منذ عام ١٩٤٨"، وأنه يمثل "استسلامًا كاملاً من جانب السادات لمشروع مناحيم بيغن"، وأن السادات أعطى "تسليمه بكامل شروطهم لتصفية القضية الفلسطينية والعربية"، وأن "الاتفاق بيّن تواطؤ السادات التام مع الأهداف الصهيونية، في إنكار الحقوق الوطنية الفلسطينية بكاملها، وفي الاستعداد المشترك لضرب القضية الفلسطينية أرضاً وشعباً وثورة تحت إشراف وتخطيط الإمبريالية الأمريكية". وأكد البيان أن شعب فلسطين "لا يمكن أن يساوم أو يهادن أي مشروع تصفوي على غرار الحكم الذاتي..."، وأنهم لا يمكن أن يقبلوا أن يتقرر مصيرهم في "إطار خيانة كامب ديفيد".^١ ومن العجيب أن قيادة منظمة التحرير نفسها ستقوم بعد ذلك بـ 15 عامًا (إلا أربعة أيام) بالتوقيع على اتفاق شبيه وستتهم خصومها، بما اتهم به السادات خصومه، من عدم الواقعية والجهل، وستزجّ كل القوى المعارضة والمجاهدة في السجون، وتتهمها بالوقوف ضد "المشروع الوطني"!!

وبالطبع فقد سقط الشق الفلسطيني من اتفاقية كامب ديفيد في ذلك الوقت لرفضه بالإجماع فلسطينياً، كما رفضته الأردن مما أفقده أي إمكانية عملية للتنفيذ.

١ انظر بيان منظمة التحرير الفلسطينية في: منير الهور وطارق موسى، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥، ص ١٩٥-١٩٦.

٥. مشروع السلام العربي (مشروع فاس) ١٩٨٢ :

وكان في أصله مشروعاً طرحه الأمير فهد بن عبد العزيز قبل أن يصبح ملكاً على السعودية، وقد تبناه مؤتمر القمة العربية المنعقد في مدينة فاس بالمغرب في ٦-٩/٩/١٩٨٢، إثر الخروج الفدائي الفلسطيني من بيروت. وقد تضمن النقاط التالية:

- أ. انسحاب "إسرائيل" من جميع الأراضي العربية التي احتلتها سنة ١٩٦٧ بما فيها القدس.
- ب. إزالة المستوطنات التي أقامتها "إسرائيل" في الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧.
- ج. ضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة.
- د. تأكيد حقّ الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وتعويض من لا يرغب بالعودة.
- هـ. إخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة لمرحلة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة لبضعة أشهر.
- و. قيام الدولة الفلسطينية المستقلة وعاصمتها القدس.
- ز. يضع مجلس الأمن الدولي ضمانات سلام بين جميع دول المنطقة بما فيها الدولة الفلسطينية المستقلة.
- ح. يقوم مجلس الأمن الدولي بضمان تنفيذ تلك المبادئ.^١

١ انظر: منير الهور وطارق موسى، مشاريع التسوية للقضية الفلسطينية ١٩٤٧-١٩٨٥، ص ٢١٨-٢٢٢؛ وانظر: Palestine Documents, p. 373 and 381-383.

وقد مثَّل مشروع فاس الخط السياسي العربي العام الذي ساد حقبة الثمانينات، والذي يجمع بين الاعتراف الضمني بـ "الكيان الإسرائيلي" وإقامة الدولة الفلسطينية على الضفة والقطاع.

٦. منظمة التحرير الفلسطينية: من الكفاح المسلح إلى اتفاق أوسلو (أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣):

كان المطلب الفلسطيني الشعبي والرسمي الذي لا يقبل التنازل أو المساومة هو تحرير فلسطين كاملة من النهر إلى البحر، وإخراج المهاجرين اليهود الصهاينة منها. وقد أخذ هذا الموقف بالتبدل من الناحية الرسمية أو من ناحية متصديري العمل الفلسطيني منذ ١٩٦٨. إذ عرض صلاح خلف (أبو إياد) في ١٠/١٠/١٩٦٨ هدف فتح الاستراتيجي، وهو إنشاء دولة ديمقراطية في فلسطين يعيش فيها المسلمون والمسيحيون واليهود في مساواة تامة وتكافؤ كامل. وهو ما تمّ تبنيه في منظمة التحرير الفلسطينية في المجلس الوطني الخامس في شباط / فبراير ١٩٦٩^١. ويعني ذلك أن قيادة الفلسطينيين لم تعد تُصرُّ على خروج المهاجرين اليهود المعتدين من فلسطين، مهما كان عددهم وسنة هجرتهم، مع إعطائهم حقّ المواطنة الكاملة فيها.

وإثر الخروج الفدائي الفلسطيني من الأردن، والأوضاع المحلية والدولية بعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣، أقر المجلس الوطني الفلسطيني برنامج النقاط العشر "البرنامج السياسي المرحلي" في دورته الثانية عشر في ١-٨/٦/١٩٧٤ في القاهرة. وقد أفسح هذا البرنامج مجالاً مهماً للتحرك السياسي الفلسطيني، ووضع عبارات مبهمّة تُهيئ لاحتفال المشاركة في

١ انظر: صلاح خلف، فلسطين بلا هوية، ص ١٠٤.

التسويات السياسية. فقد نصّ ميثاق منظمة التحرير الفلسطينية على أن الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، بينما ذكر برنامج النقاط العشر أن "منظمة التحرير تناضل بكافة الوسائل وعلى رأسها الكفاح المسلح، لتحرير الأرض الفلسطينية، وإقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كلّ جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها". فلم يعد الكفاح المسلح طريقاً وحيداً للتحرير، كما وافق البرنامج لأول مرة على تجزئة مشروع التحرير خطوة خطوة، ورفض المنهج السابق الذي يؤكد على شمولية التحرير كأمر لا يقبل التنازل.^١

وقد أعطى هذا البرنامج انطباعاً لدى البلاد العربية والعالمية أن منظمة التحرير الفلسطينية قد أصبحت أكثر "إيجابية" وأكثر "واقعية"، وهو ما أعطى القيادة الفلسطينية مجالاً أكبر للمناورة السياسية. وقد تحققت نتائج ذلك عاجلاً في قمة زعماء الدول العربية في الرباط في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٤، التي اعترفت بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني،^٢ وفي دعوة الجمعية العامة للأمم المتحدة لمنظمة التحرير الفلسطينية للمشاركة في أعمالها، وإلقاء عرفات لخطابه فيها في ١٣/ ١١/ ١٩٧٤.^٣ وحققت المنظمة العديد من المكاسب السياسية على منابر الأمم المتحدة.

١ انظر: فيصل حوراني، الفكر السياسي الفلسطيني: ١٩٦٤-١٩٧٤: دراسة للمواثيق الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية (بيروت: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، ١٩٨٠)، ص ٢٠٤-٢١٦.

٢ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٣، ص ٥٩٥-٥٩٦؛ وصلاح خلف، فلسطين بلا هوية، ص ١٥٥-١٦١.

٣ انظر: الموسوعة الفلسطينية، ج ٤، ص ٦٠٣-٦٠٦.

غير أن الحملات العسكرية الشديدة التي تعرضت لها المنظمة في الأردن ولبنان وداخل فلسطين، مُترافقةً مع التوجه العربي، وخصوصاً المصري، نحو التسوية، قد أضعف من إمكانات التأثير العسكري الحاسم الذي يمكن أن تقوم به منظمة التحرير وفصائلها ضدّ الكيان الصهيوني، وهو ما فتح المجال أكثر لمزيد من النشاط السياسي على حساب غيره من خطوط العمل. ولأن أي تسوية سياسية هي عملياً انعكاس لحالة موازين القوى، فقد تضاءلت مع الزمن قدرة المنظمة على فرض شروطها وتصوراتها، وأخذت تتنازل تدريجياً عن مطالبها، كما سنرى لاحقاً.

وقد عانت منظمة التحرير في ثمانينيات القرن العشرين من مزيداً من الاستضعاف السياسي، خصوصاً بعد خروج قواتها من لبنان سنة ١٩٨٢، ووصلت حالة تهميشها مدى كبيراً في مؤتمر القمة العربي في عمّان في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٧. غير أن اندلاع الانتفاضة المباركة في الضفة الغربية وقطاع غزة في ٩/١٢/١٩٨٧ شكّل رافعة سياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وحاولت استثمارها بشكل مبكر، فقامت بتشكيل القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة (بعد شهر من اندلاعها)، وشاركت الفصائل الفلسطينية وخصوصاً فتح بفعالية في الانتفاضة. وردّ الكيان الصهيوني باغتياله لخليل الوزير (أبو جهاد) (الرجل الثاني في منظمة التحرير الفلسطينية وفي فتح) رحمه الله في تونس في ١٦/٤/١٩٨٨، وذلك ضمن حملته الشرسة لقمع الانتفاضة. وقد استفادت منظمة التحرير من قيام الأردن بفك روابطه الإدارية والقانونية مع الضفة الغربية في ٣١/٧/١٩٨٨، لتؤكد تمثيلها الرسمي الوحيد لأهل الضفة الغربية، ولتخوض ما أسمته "هجوم السلام الفلسطيني". وسعت لتقدّم نفسها طرفاً مقبولاً، ولا يمكن تجاوزه، لأي تسوية متعلقة بالقضية.

وفي المجلس الوطني الفلسطيني الـ ١٩ (١٢-١٥/١١/١٩٨٨) الذي يتبع منظمة التحرير الفلسطينية، تم وضع برنامج فلسطيني قائم على الاعتراف بقرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ لسنة ١٩٤٧ القاضي بتقسيم فلسطين لدولتين عربية ويهودية. واعترفت المنظمة لأول مرة بقرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٧، ودعت إلى تسوية سياسية من خلال مؤتمر دولي. وحتى "يتجرع" الفلسطينيون كل هذه "المرارات"، فقد أعلن المجلس "استقلال فلسطين". ولقد لقي هذا الإعلان ترحيباً دولياً واسعاً، حيث اعترفت بهذه الدولة نحو ١٢٠ دولة خلال بضعة أشهر. وبالرغم من أن الولايات المتحدة ودول أوروبا الغربية لم تعترف بها، وبالرغم من أنها عملياً كانت "أملاً" لم يرق بعد على أرض الواقع، إلا أن ذلك أعاد تحريك القضية دولياً، وأعاد لمنظمة التحرير الفلسطينية حضورها السياسي، بعد أن رضيت لنفسها "بتقزيم" مطالبها و"قصاصة" برامجها النضالية.

ولم تكن الرياح تجري بما تشتهي سُفنُ المنظمة أو الشعب الفلسطيني، فقد كان هناك حالة عجز وتفكك عربي، وكانت العراق وإيران على وشك الخروج منهكتين من حرب الثمانية أعوام (١٩٨٠-١٩٨٨) التي دمرت اقتصادهما ومواردهما البشرية والمالية والعسكرية. وعانت البلدان النفطية من تراجع إيرادات النفط وانخفاض أسعاره. ثم ما لبث العالم العربي والإسلامي أن انقسم على نفسه إثر الاجتياح العراقي للكويت في ٢/٨/١٩٩٠ وما تلاه من حرب الخليج، التي أورثت وضعاً عربياً بائساً ممزقاً، بالإضافة إلى استنزاف الموارد والثروات العربية، وتدمير البنية العسكرية للعراق، وتهجير وهجرة مئات الآلاف من الفلسطينيين من الكويت. كما نضبت المساعدات المالية من البلاد الخليجية لمنظمة التحرير والفلسطينيين،

بسبب استنزاف مواردها المالية في الحرب، وبسبب وقوف المنظمة إلى جانب العراق. فيما فرضت أمريكا هيمنتها وتوجهاتها على المنطقة. وفي الوقت نفسه، انهار الاتحاد السوفيتي، وانهار معه النظام العالمي ثنائي القطبية الذي سيطر على السياسة الدولية طوال الفترة ١٩٤٥-١٩٩٠. وضعفت بالتالي قدرة دول العالم الثالث، وضمنها البلاد العربية والإسلامية، على الاستفادة من لعبة موازين القوى الدولية لخدمة مصالحها. وزادت صعوبة التحرر من الهيمنة الأمريكية التي أخذت تمثل القوة "البشرية" الكبرى الوحيدة، وسعت إلى تحويل العالم إلى نظام يدور حول قطبها (أحادي القطبية) ويخدم مصالحها. وأصبحت "شرطي" العالم، وقدمت مفاهيمها ومعاييرها للسياسة والاقتصاد بل والثقافة والحياة الاجتماعية لتكون الأساس الذي يحكم العلاقات الدولية وحياة الناس.

وهكذا برزت الولايات المتحدة كقوة وحيدة أولى في العالم، خصوصاً بعد حرب الخليج في أوائل سنة ١٩٩١. وقد استثمرت الولايات المتحدة ذلك في فرض هيمنتها وإدارتها وتصوراتها لنظام عالمي جديد، كما سعت لإغلاق الملف الفلسطيني بما يخدم مصالح حليفها الاستراتيجي "إسرائيل". بينما قطف "الكيان الإسرائيلي" ثماراً غالية نتيجة انهيار الاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية، فأعادت هذه الدول علاقاتها الديبلوماسية معها، كما فتحت أبواب الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة، خصوصاً من الاتحاد السوفيتي، وقد احتفل الكيان الصهيوني في ٧/٥/٢٠٠٠ بقدوم المهاجر رقم مليون منذ بداية موجة الهجرة من الاتحاد السوفيتي في أيلول/ سبتمبر ١٩٨٩، وقام رئيس الوزراء باستقباله بنفسه.^١

١ جريدة الخليج، الشارقة، الإمارات، ٨/٥/٢٠٠٠.

وفي هذه الأجواء المثالية لأمريكا و"إسرائيل"، نجحت الولايات المتحدة في جرّ البلاد العربية إلى مؤتمر "السلام" العربي - "الإسرائيلي" في مدريد في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٩١، تلتها مفاوضات عربية "إسرائيلية" مباشرة. ولم تنفع نحو سنتين من المفاوضات بين الجانب الفلسطيني والجانب "الإسرائيلي" في كسر التصلب الصهيوني. وقد جاءت المفاجأة عندما أعلن عن اتفاق أوسلو بين الطرفين، حيث كُشف النقاب عن مفاوضات سرية كانت تجري بين الطرفين منذ ٢٠/ ١/ ١٩٩٣ من وراء ظهر الوفد الفلسطيني الرسمي للمفاوض (برئاسة حيدر عبد الشافي)، ومن دون علم معظم قادة منظمة التحرير الفلسطينية. وقد وُقِّع الاتفاق بالأحرف الأولى في ١٩/ ٨/ ١٩٩٣ في أوسلو بالنرويج، وتمّ التوقيع عليه رسمياً في ١٣/ ٩/ ١٩٩٣ في واشنطن برعاية الرئيس الأمريكي بيل كلينتون Bill Clinton، وحضور ياسر عرفات ورئيس الوزراء "الإسرائيلي" إسحق رابين Yitzhak Rabin، ووقَّعه عن الجانب الفلسطيني محمود عباس، وعن الجانب "الإسرائيلي" وزير الخارجية شمعون بيريز Shimon Peres، كما وقَّعه وزيراً خارجية أمريكا وروسيا كشاهادين.

ويُعدُّ هذا الاتفاق بحقّ منعطفاً تاريخياً في مسار القضية الفلسطينية، فهو أول اتفاق يوقعه الفلسطينيون و"الإسرائيليون"، ويتم بموجبه تنفيذ تسوية سلمية. وهو يعكس مدى التنازلات الهائلة التي اضطرت قيادة منظمة التحرير إلى تقديمها حتى تحصل على اتفاق شبيه في جوهره باتفاق كامب ديفيد سنة ١٩٧٨، والتي وصفت مُوقَّعه (السادات) يومذاك بالخيانة والاستسلام، ودعت شعب مصر لإسقاطه. وهو يعكس بالتأكيد مدى الانتكاسات والتراجعات والضربات التي عانى منها مشروع تحرير فلسطين خلال الفترة ١٩٧٨-١٩٩٣.

وقد عُرف اتفاق أوسلو (باتفاق إعلان المبادئ الفلسطيني - "الإسرائيلي") أو باتفاق غزة - أريحا أولاً. ووقعت كافة الاتفاقات التالية بين منظمة التحرير وبين "الكيان الإسرائيلي" بناء على هذا الاتفاق. أما أبرز النقاط في اتفاق أوسلو فهي:

أ- إقامة سلطة حكم ذاتي محدود للفلسطينيين في الضفة والقطاع لفترة خمس سنوات.

ب- تبدأ قبل بداية العام الثالث من الحكم الذاتي المفاوضات على الوضع النهائي للضفة والقطاع، بحيث يفترض أن تؤدي إلى تسوية دائمة تقوم على أساس قراري مجلس الأمن الدولي ٢٤٢ و ٣٣٨.

ج - خلال شهرين من دخول الاتفاق حيّز التنفيذ، يتوصل الطرفان لاتفاقية حول انسحاب "إسرائيل" من غزة وأريحا، تشمل نقلاً محدوداً للصلاحيات للفلسطينيين، وتغطي التعليم والثقافة والصحة والشؤون الاجتماعية والضرائب المباشرة والسياحة.

د- بعد تسعة أشهر من تطبيق الحكم الذاتي، تجرى انتخابات مباشرة في الضفة والقطاع لانتخاب مجلس فلسطيني للحكم الذاتي، وتقوم القوات الإسرائيلية قبيل الانتخابات بالانسحاب من المناطق المأهولة بالسكان وإعادة الانتشار في الضفة.

هـ- يتم تشكيل سلطة فلسطينية انتقالية ذاتية تشمل الضفة والقطاع، على أن صلاحياتها لا تشمل الأمن الخارجي ولا المستوطنات الإسرائيلية، ولا العلاقات الخارجية، ولا القدس، ولا الإسرائيليين في تلك الأرضي.

و- لـ "إسرائيل" حقّ النقض (الفيتو) ضدّ أيّ تشريعات تصدرها السلطة الفلسطينية خلال المرحلة الانتقالية.

ز- ما لا تتم تسويته بالتفاوض يمكن أن يتفق على تسويته من خلال آلية توفيق يتم الاتفاق عليها بين الطرفين.

ح- يمتد الحكم تدريجياً من غزة وأريحا إلى مناطق الضفة الغربية وفق مفاوضات تفصيلية لاحقة.

ط- وقد أكد الاتفاق على نبذ منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية لـ "لإرهاب" و "العنف"، والحفاظ على الأمن، ومنع العمل المسلح ضد "الكيان الإسرائيلي".^١

وتم عقد عدة اتفاقيات تفصيلية تالية، فكان اتفاق القاهرة في ٤/٥/١٩٩٤، الذي فصل المرحلة الأولى والجدولة الزمنية للانسحاب "الإسرائيلي" من قطاع غزة وأريحا والترتيبات الأمنية المتعلقة بذلك، حيث بدأ دخول الشرطة الفلسطينية في ١٨/٥/١٩٩٤، وأدت قيادة الحكم الذاتي اليميني الدستورية أمام ياسر عرفات في ٥/٧/١٩٩٤، لتبدأ بناء على ذلك السلطة الفلسطينية بالشكل.^٢ وقد تبع ذلك اتفاق طابا في ٢٨/٩/١٩٩٥، مروراً باتفاقية واي ريفر بلانتيشن Wye River Plantation Agreement في ٢٣/١٠/١٩٩٨، ومذكرة شرم الشيخ في ٤/٩/١٩٩٩. ووزعت مناطق الحكم الذاتي إلى مناطق أ وب. وحتى سنة ٢٠٠٠، لم تكن السلطة تسيطر سوى على ١٨٪.

١ انظر نص الاتفاق في: عماد يوسف، الانعكاسات السياسية لاتفاقيات الحكم الذاتي الفلسطيني (عمّان، الأردن: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٤)، ص ١٢٨-١٣٦؛

وانظر: Palestine Documents, pp. 500-512.

٢ انظر: جريدة الدستور، عمّان، الأردن، ٤-٥/٥/١٩٩٤؛ وداود سليمان، السلطة الوطنية في عام ١٩٩٤-١٩٩٥ (عمّان، الأردن: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٥)، ص ٢٣؛

وانظر نص الاتفاق في: Palestine Documents, pp. 521-534.

من أراضي الضفة تحت بند أ؛ حيث سيطرتها الأمنية والإدارية، ونحو ٢٠- ٢٥٪ من أراضي الضفة تحت بند ب؛ حيث تسيطر إدارياً، بينما يكون الإشراف الأمني مشتركاً مع الصهاينة.

وبشكل عام، فإن أبرز الانتقادات والملاحظات على اتفاق أوسلو يمكن تلخيصها فيما يلي:

أ- قضية فلسطين قضية كل المسلمين وليس قضية الفلسطينيين وحدهم، وهي معركة تتوارثها الأجيال، ولا يجوز لجيل أن يرضخ أو يتنازل فيغمد حق الأجيال التالية. وقد أجمع علماء المسلمين الثقات على عدم جواز هذه التسوية بالشكل الذي تمت فيه، ودعوا إلى وجوب الجهاد لتحرير الأرض المباركة.

ب- تفردت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بالموافقة على الاتفاق والاتفاقات التي تلتها، ولم ترجع حتى إلى الشعب الفلسطيني نفسه، الذي توجد فيه تيارات واسعة معترضة على هذه التسويات من الإسلاميين واليساريين والقوميين، وحتى في حركة فتح نفسها.

ج- اعترفت قيادة منظمة التحرير "بحق إسرائيل في الوجود"، وبشرعية احتلالها لـ ٧٧٪ من أرض فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨، والتي لا تجري عليها أي مفاوضات.

د- اتسم الاتفاق بالمرحلية، ولم يتم التعرض لأخطر القضايا حيث تم تأجيلها إلى مرحلة المفاوضات النهائية، ولأن منظمة التحرير الفلسطينية تعهدت بعدم اللجوء إلى القوة إطلاقاً، فقد أصبح الأمر مرتبطاً بمدى "الكرم الصهيوني" الذي يملك عناصر القوة وأوراق اللعبة، وهذه القضايا:

١. مستقبل مدينة القدس .
٢. مستقبل اللاجئين الفلسطينيين .
٣. مستقبل المستعمرات الصهيونية في الضفة الغربية وقطاع غزة .
٤. مساحة الدولة الفلسطينية الموعودة، وسيادتها على أرضها .
- هـ- لا تتضمن مسؤوليات السلطة الفلسطينية الأمن الخارجي والحدود، ولا يستطيع أحد دخول مناطق السلطة دون إذن "إسرائيلي" . ولا يجوز للسلطة تشكيل جيش، والأسلحة تدخل بإذن "إسرائيلي" .
- و- للكيان الصهيوني حقّ النقض (الفيتو) على أيّ تشريعات تصدرها السلطة خلال المرحلة الانتقالية .
- ز- لا يوجد في الاتفاقيات إشارة إلى حقّ الفلسطينيين في تقرير المصير، أو إقامة دولتهم المستقلة، ولا تشير الاتفاقيات إلى الضفة والقطاع كأرضٍ محتلة، مما يعزز الاعتقاد بأنها أراضٍ متنازع عليها .
- ح- في الوقت الذي تعهدت فيه منظمة التحرير الفلسطينية (السلطة الفلسطينية) بعدم اللجوء إطلاقاً للمقاومة المسلحة ضدّ الكيان الصهيوني، وبحل كافة مشاكلها بالطرق السلمية، فإنها في الوقت نفسه أصبحت مضطرة، في ضوء تعهداتها السلمية، لقمع وسحق أيّ مقاومة مسلحة ضدّ الكيان الصهيوني، ومحاربة أبناء شعبها الذين يقومون بذلك . ووجدت نفسها، عملياً، أداة لحماية "الأمن الإسرائيلي" في مناطقها، وقامت بحملات اعتقال واسعة وشرسة إثباتاً "لحسن نواياها"، وحرصاً على السلام مع "إسرائيل" .
- ط- أدت الاتفاقية إلى حالة انقسام كبيرة في الصف الفلسطيني، فوقفت

فتح ومؤيدوها إلى جانب قيادة منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية، بينما وقفت الفصائل الفلسطينية العشر وعلى رأسها حماس والجihad الإسلامي والجهتين الشعبىة والديموقراطية ضدّ الاتفاقية وتعهدت بإسقاطها.

ي- بما أن "ممثلى الشعب الفلسطينى" الرسميين هم الذين وقعوا الاتفاق، فقد فتح ذلك الباب واسعاً أمام الأنظمة العربية ودول العالم إلى إقامة علاقات دبلوماسية مع "الكيان الإسرائيلى" على مستويات مختلفة، مما أدى إلى فكّ العزلة الدولية عنه، والتي عاناها طيلة ٤٥ عاماً. وأصبح لـ"إسرائيل" مكاتب تمثيل في تونس والمغرب وقطر وعمان وموريتانيا، كما أقامت نحو خمسين دولة أخرى علاقات دبلوماسية معها.

ك- أخرج الاتفاق الأمم المتحدة كمظلة دولية تحكم النزاع بين الطرفين. ولم تعد كل قراراتها المتعلقة بحق شعب فلسطين في تقرير المصير، أو بقرار تقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧، تشكل مرجعية يمكن الاحتكام إليها. وظلّت الولايات المتحدة تلعب دور الراعى الأكبر لعملية التسوية، وهي المعروفة بانحيازها الصارخ للجانب "الإسرائيلى" ...، ومن استرعى الذئب فقد ظلم !!

ل- اتسمت العديد من بنود اتفاقية أوصلو بالغموض، وترك التفاصيل لمفاوضات مستقبلية. وقد أعطى ذلك فرصة كبرى "للكيان الإسرائيلى" (الطرف القوي في المعادلة) للتسويق والمماطلة، وفرض شروطه وطريقة فهمه للاتفاقية، وجرى تقزيم المكاسب الفلسطينية (المُقزّمة أصلاً) في هذه الاتفاقية. كما جرى تأجيل تنفيذ كثير من الاتفاقات التفصيلية. وأعطت "إسرائيل" لنفسها شرعية إعادة سحب التزامات كانت قد أعطتها

للسلطة، كما مارست سياسات الحصار الاقتصادي والأمني لإجبار السلطة على تنفيذ التصور "الإسرائيلي" للاتفاقية.

لقد كان الكاتب الفلسطيني المعروف إدوارد سعيد دقيقاً إلى حد كبير عندما قال إن عرفات "ورط شعبه بمصيدة لا مخرج منها"،^١ بينما قال المفكر الفلسطيني هشام شرابي إن القيادة الفلسطينية "لا تعرف كيف يؤخذ القرار، وكيف يتم تقرير المصير".^٢

أما المدافعون عن اتفاقيات أوسلو فيتهمون خصومهم "بالعدمية" و"عدم الواقعية"، ويقولون إن هذا هو أفضل ما يمكن تحصيله في ظل اختلال موازين القوى، والعجز العربي والإسلامي الحالي. كما يذكر المدافعون أن هذه الاتفاقيات شكّلت فرصة لمنظمة التحرير الفلسطينية وشعب فلسطين لبناء الحقائق على الأرض وإقامة السلطة الفلسطينية، واستنقاذ ما يمكن استنقاذه من أرض قبل أن تقضي عليها آلة الضم والمصادرة الصهيونية، وقبل أن يتم تذويب أو تضييع قضية فلسطين نفسها. ويذكرون أن "إسرائيل" اعترفت في هذه الاتفاقية رسمياً بالشعب الفلسطيني وبحقوقه السياسية والمشروعة، كما اعترفت لأول مرة بمنظمة التحرير ممثلة لهذا الشعب، واعترفت أيضاً بالوحدة الإقليمية للضفة والقطاع.^٣

١ جريدة الحياة، لندن، ١٢/٨/١٩٩٥.

٢ الحياة، ٥/٣/١٩٩٥.

٣ امتلأت الصحف العربية والعالمية بآلاف المقالات التي تحلل الاتفاقيات، وتمدحها أو تنقدها، كما ظهرت الكثير من الكتب والدراسات مما يستحيل الإشارة إليه في الهامش. انظر على سبيل المثال: منير شفيق، أوسلو "١" "٢": المسار والمآل (لندن: فلسطين المسلمة، ١٩٩٧)؛ وجواد الحمد، عملية السلام في الشرق الأوسط: وتطبيقاتها على =

وعلى أية حال، فبعد سنوات من اتفاقات أوسلو، استمرت المماطلات "الإسرائيلية"، ولم تُحسم القضايا الجوهرية، التي كان يجب أن تحسم حسب الاتفاق سنة ١٩٩٨. وصارت مراكز سيطرة السلطة الفلسطينية الفعلية هي في المناطق المأهولة بالسكان، والتي كان الصهاينة يرغبون منذ زمن طويل بإيكال جميع "المهام القذرة" فيها، من ملاحقات أمنية، وضرائب، وأعمال بلدية...، إلى من ينوب عنهم بذلك، حتى يصبح استعمارهم استعماراً "نظيفاً". وكان اندلاع انتفاضة الأقصى في ٢٨/٩/٢٠٠٠ دلالة وصول هذه الاتفاقيات إلى طريق مسدود. كما أنه مع مرور السنوات تحولت السلطة الفلسطينية إلى كيان يخدم أغراض الاحتلال واستقراره الأمني، أكثر مما يخدم أهداف الشعب الفلسطيني، بينما ازداد الطرف الصهيوني تغولاً وتضاعفت برامج الاستيطان والتهويد في الضفة الغربية، بينما انعدمت فرص تشكيل دولة فلسطينية حقيقية على الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧.

٧. معاهدة السلام الأردنية "الإسرائيلية" (وادي عربة):^١

= المسارين الفلسطيني والأردني (عمّان، الأردن: مركز دراسات الشرق الأوسط)، ١٩٩٦، ص ١٥-٧١.

١ للاطلاع على تفاصيل معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية، انظر: "وثائق معاهدة السلام الأردنية-الإسرائيلية"، مجلة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، المجلد ٥، العدد ٢٠، خريف ١٩٩٤، ص ١٨٣، في:

https://www.palestine-studies.org/sites/default/files/mdf-articles/2966_0.pdf

وانظر أيضاً: "اتفاق وادي عربة" ... سلام فاطر ألغى حالة الحرب بين الأردن وإسرائيل، جريدة الشرق الأوسط، لندن، ١٦/٩/٢٠٢٠، انظر: <https://aawsat.com>؛ ووادي عربة: ربع قرن من الانصياع الرسمي والرفض الشعبي، موقع نون بوست، ٢٦/١٠/٢٠١٩، في: <https://www.noonpost.com/content/29952>؛ ومحمود جمال عبد العال، ٢٤ عامًا =

تسارعت بعد اتفاق أوسلو وتيرة المفاوضات الأردنية - "الإسرائيلية"، التي أدت إلى عقد تسوية سلمية بين الجانبين، وأصبحت الأردن ثالث جهة عربية بعد مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية تطبّع علاقاتها مع "إسرائيل". ووقع إسحق رابين والملك حسين والرئيس الأمريكي كلينتون على إعلان واشنطن في العاصمة الأمريكية في ٢٥/٧/١٩٩٤، وجاء في الإعلان أن "إسرائيل" والأردن أنهما حالة الحرب والعداء الرسمية بينهما، وسيبدأ مفاوضات من أجل "وضع حدّ لسفك الدماء" ولأجل "سلام" عادل ودائم على حدّ تعبيرهما. وفي ٢٦/١٠/١٩٩٤، تمّ التوقيع على معاهدة التسوية السلمية، خلال حفل أقيم في وادي عربة في الأردن. وقد وقّع رئيسا الوزراء "الإسرائيلي" إسحق رابين والأردني عبد السلام المجالي المعاهدة، فيما حضر حفل التوقيع الرئيس "الإسرائيلي" عيزرا وايزمان Ezer Weizman، والملك حسين، والرئيس الأمريكي بيل كلينتون، ووزير خارجيته وارن كريستوفر Warren Christopher. وفي نهاية ١٩٩٤، صوّت مجلس النواب الأردني على المصادقة على المعاهدة. وقد شهدت تلك الجلسة مقاطعة نواب كتلة حزب جبهة العمل الإسلامي، الذراع السياسية لجماعة "الإخوان المسلمين"، الذين انسحبوا احتجاجاً على المعاهدة.

بعد الاتفاقات، فتحت "إسرائيل" والأردن حدودهما، وأقيمت عدة

= على اتفاقية وادي عربة.. أبعاد المطالب الأردنية باستعادة الباقورة والغمر، موقع المركز العربي للبحوث والدراسات، ٢٨/١٠/٢٠١٨، في: <http://www.acrseg.org/40990>؛ و٢٥ عاماً على "وادي عربة" .. ماذا استفاد الأردن وما مستقبلها؟، موقع عربي ٢١، ١٧/١١/٢٠١٩، انظر: <https://arabi21.com>؛ ومعاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية، موقع ويكيبيديا، انظر: <https://ar.wikipedia.org/>

معابر حدودية سمحت للسياح ورجال الأعمال والعمال بالسفر بين البلدين. وسمحت الاتفاقية للأردن بتحصيل حقوقه فيما يتعلق بترسيم الحدود، وحصول الأردن على حصتها من مياه طبريا واليرموك، والاعتراف "الإسرائيلي" بالوصاية الهاشمية على المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس.

وقد اشتملت معاهدة وادي عربة ٣٠ مادة، و٥ ملاحق، وتناولت موضوعات: الحدود الدولية والأمن والعلاقات الدبلوماسية، والتعاون في موضوع المياه وتقاسم مياه نهر الأردن واليرموك، والمياه الجوفية لوادي عربة، والعلاقات الاقتصادية، والتبادل الثقافي والعلمي والسياحة والبيئة والطاقة.

وكان أحد أبرز ملاحق المعاهدة يتعلق بتنظيم منطقتي الباقورة والغمر. فوفقاً لملاحق المعاهدة، فإن أراضي الباقورة والغمر تتبع نظاماً خاصاً، يقضي باعتراف "إسرائيلي" بسيادة الأردن على هذه المناطق، ولكن مع تأجيرها لـ "إسرائيل" لمدة ٢٥ عاماً، ولأي الطرفين، أن يُخطر الآخر، قبل عام واحد، برغبته بإنهاء النظام الخاص عليها. وكانت أراضي الباقورة الواقعة في الأغوار الشمالية قد احتلتها "إسرائيل" سنة ١٩٥٠؛ وهي أرض زراعية تبلغ مساحتها ٦٠٠٠ آلاف دونم (٦ كم^٢)، فيما احتلت أراضي الغمر الواقعة في وادي عربة جنوب البحر الميت، خلال حرب حزيران/يونيو ١٩٦٧، وتبلغ مساحتها ٤ كم^٢، وهي أرض صالحة للزراعة ولها ميزات سياحية، عدا عن غناها بأحواض مائية تعتمد عليها مزارع المنطقة.

في ٢١/١٠/٢٠١٨، أعلن الملك عبد الله رغبة الأردن بعدم التجديد لمُلحقي الباقورة والغمر، حيث تمّ تسليم الخارجية "الإسرائيلية" مذكرتين

من نظيرتها الأردنية. وفي ١٠ / ١١ / ٢٠١٩، أعلن الملك عبد الله الثاني انتهاء العمل بالمُلاحقين الخاصين بمنطقتي الباقورة والغمر في المعاهدة، وفرض سيادة الدولة الأردنية عليها.

واجهت معاهدة وادي عربية معارضة شعبية واسعة، وصعدت من حالة الاحتقان الداخلي، وتبلورت مؤسسات أهلية متعددة تحت شعار مقاومة التطبيع، واصطدمت تلك الجهود بقمع ناعم أو خشن. وانعكست تلك الاتفاقية سلباً على حدود حرية الرأي والتعبير في البلاد، ومحاولة السلطات "قصقة" أجنحة المعارضة، وخصوصاً الإسلامي، ومحاولة إضعاف حضورهم في المجلس النيابي، وفي المؤسسات الأهلية والنقابية. كما أغلقت السلطات مكاتب حركة حماس في الأردن، وأبعدت قادتها إلى الخارج.

وقد مرّت العلاقات الأردنية - "الإسرائيلية" بحالات من الصعود والهبوط، ففي ١٣ / ٣ / ١٩٩٧، قُتل الجندي الأردني أحمد الدقاسمة، الذي كان يقوم بدورية قُرب منطقة الباقورة، سبع "إسرائيليات" وجرح ستاً أخريات. وقد اضطر الملك حسين، الذي كان في زيارة رسمية لإسبانيا إلى العودة إلى الأردن على الفور، وذهب للكيان الصهيوني، حيث قدم اعتذاراً للحكومة "الإسرائيلية" ولذوي الضحايا.

في ٢٥ / ٩ / ١٩٩٧، حاول اثنان من أعضاء الموساد Mossad "الإسرائيلي" اغتيال رئيس المكتب السياسي لحركة حماس آنذاك خالد مشعل في عمان بمادة سامة، إلا أنهما فشلا. واستطاع مرافقو مشعل وآخرين القبض عليهما. كما اعتقلت السلطات الأردنية بقية المجموعة الستة الذين اختبأوا داخل السفارة "الإسرائيلية"، وهدد الملك حسين بتجميد المعاهدة، وبقطع العلاقات الدبلوماسية مع "إسرائيل" إذا لم تزودها بالترياق للمادة السامة؛

حيث رضخ نتنياهو لذلك. وختم المشهد، بإفراج الأردن عن عناصر الموساد، مقابل إطلاق "إسرائيل" سراح ٢٣ أردنيًا و ٥٠ أسيرًا فلسطينيًا، على رأسهم الشيخ أحمد ياسين.

وقد جرت أحداث عديدة أخرى عمقت الرفض الشعبي للمعاهدة مثل: تحويل مسار المياه العادمة من طبريا إلى مدن أردنية، وصفقة شراء الأردن للغاز من "الكيان الإسرائيلي"، والتحقيق في جريمة قتل القاضي رائد زعير على يد أحد الجنود "الإسرائيليين"، وحادثة قتل المواطنين الأردنيين في سفارة الاحتلال في عمّان، والفشل المستمر في الإفراج عن أسرى أردنيين في سجون الاحتلال، والخروقات اليومية لبند الوصاية الأردنية على المقدسات الإسلامية والمسيحية في القدس المحتلة، التي كانت مثار توتر دائم بين الطرفين.

من جهة أخرى، فإن العلاقة ظلّت مستمرة في إطار التعاون الأمني والاستخباري، وظلت الحدود الأردنية مع مناطق السيطرة "الإسرائيلية" هي الأكثر أمانًا. وأمسى من الواضح أن "إسرائيل" لا تأبه كثيرًا بتحسين الوضع السياسي، طالما أن التنسيق الأمني والعسكري يسير دون عقبات.

ثالثًا: مسار التسوية السلمية حتى ٢٠٢١:

قامت الاستراتيجية التفاوضية "الإسرائيلية" على أساس "إدارة الصراع" وليس على أساس "حلّ الصراع"، وهي تسعى إلى إضعاف الخصم بكل الطرق، إلى أن يقبل بالخيار الوحيد المتاح "إسرائيليًا"، وهو ما يفسر إطالة عملية التفاوض. وقد نجح "الإسرائيليون" منذ توقيع اتفاق أوسلو في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣ في تثبيت مقولة إسحق رابين أن "لا مواعيد مقدسة"، والتي أصبحت عنوانًا للسياسة "الإسرائيلية" وأحد أساليبها في

الضغط والابتزاز.

وعندما عاد حزب العمل Labor بقيادة إيهود باراك Ehud Barak للحكم، بعد ثلاث سنوات من حكم الليكود Likud (١٩٩٦-١٩٩٩)، أعلن رغبته في الوصول إلى تسوية نهائية. وفي صيف سنة ٢٠٠٠، ذهب الطرفان الفلسطيني و"الإسرائيلي" إلى كامب ديفيد بدعوة من الرئيس الأمريكي كلينتون، حيث عقدت مفاوضات ماراتونية في الفترة ١٢-٢٥/٧/٢٠٠٠ للوصول إلى تسوية نهائية. ويظهر أن موضوع الحدود والكتل الاستيطانية كانا من الأمور التي يمكن التفاهم عليها (أكثر من ٩٠٪ من الضفة وكل القطاع، مع تبادل في الأرض، وبقاء الكتل الاستيطانية)، غير أن موضوعي القدس وعودة اللاجئين بقيا دونما حل؛ مما أدى إلى انهيار المفاوضات، واندلاع انتفاضة الأقصى بعد ذلك بشهرين.

وتحول المزاج "الإسرائيلي" نحو مزيد من التطرف، واضطر باراك للاستقالة في ٩/١٢/٢٠٠٠، وفاز أرييل شارون في الانتخابات العامة في ٦/٢/٢٠٠١ ضد منافسه باراك بأغلبية تاريخية، وبفارق يزيد عن ٢٥٪، مما أكد عودة التيار الليكودي المتشدد إلى الصدارة من جديد.

لم يستطع شارون أن يوفر الأمن "للإسرائيليين" ويسحق الانتفاضة في مئة يوم كما وعد، وحاول أن يجزّ العجلة إلى الوراء وأن يفرض الواقع الذي يريد. ولم يكن شارون يؤمن بالتسوية، فقد كان قد صوّت ضدّ اتفاقية كامب ديفيد مع مصر، كما صوّت ضدّ اتفاق أوسلو، وتحفّظ على اتفاق التسوية مع الأردن. وأعلن مرارًا أن اتفاق أوسلو قد مات. وقد استمر شارون في الحكم حتى مطلع سنة ٢٠٠٦، وشهدت مرحلته تعطل مسار التسوية، وانشغال "إسرائيل" بقمع الانتفاضة، ومحاولة إيجاد حلول بديلة.

١. مبادرة جنيف:

بينما كان الفلسطينيون منشغلون بالانتفاضة، كانت تجري مفاوضات سرية استمرت سنتين بين مجموعة مقربة من الرئاسة الفلسطينية وفتح، ومجموعة "إسرائيلية" مقربة من أوساط اليسار والوسط "الإسرائيلي"، وقد نتج عنها في أواخر سنة ٢٠٠٣ ما عُرف بـ "مبادرة جنيف Geneva Initiative" لحل النزاع الفلسطيني "الإسرائيلي". وهي اتفاقية غير رسمية تدعو إلى:

* دولة فلسطينية تكون وطنًا للشعب الفلسطيني، وأن يعترف الفلسطينيون بحق "الشعب اليهودي" في دولتهم "إسرائيل" كوطن قومي لهم.

* تكون الدولة الفلسطينية منزوعة السلاح، وتشمل الضفة الغربية وقطاع غزة مع تعديلات حدودية، بحيث تُضم الكتل الاستيطانية والأحياء اليهودية في القدس إلى "إسرائيل"، وفي المقابل ستسلم "إسرائيل" من "أرضها" المساحة نفسها التي أخذتها من الضفة، وستكون الأرض بالنوعية نفسها، وتوقع أصحاب المبادرة أن تكون مساحة الأرض ٢-٣٪ من الضفة الغربية.

* ستكون الأحياء العربية في القدس عاصمة لدولة فلسطين وتحت سيادتها. ولن يكون هناك حفريات أو بناء في المسجد الأقصى، أو ما يسميه اليهود "جبل المعبد" دون موافقة الطرفين. واعتبرت المبادرة الحي اليهودي في القدس وحائط البراق والمقبرة اليهودية في جبل الزيتون تحت السيادة "الإسرائيلية".

* أعطت المبادرة للاجئين حقّ العودة للدولة الفلسطينية، لكنها لم تعطهم الحق في العودة إلى أرضهم الأصلية المحتلة سنة ١٩٤٨ "إسرائيل"،

وجعلت قبول عودتهم أمراً سيادياً "إسرائيلياً". وأعطت للاجئين حقّ التعويض عن معاناة اللجوء وعن فقدان أملاكهم.

* وافقت المبادرة على عمل ترتيبات أمنية صارمة في مناطق الدولة الفلسطينية، تعمل على منع أيّ أعمال "إرهابية" ضدّ "إسرائيل"، وأجازت إقامة محطّتي إنذار مبكر لـ "إسرائيل" في شمال ووسط الضفة الغربية، كما أجازت استخدام سلاح الجو "الإسرائيلي" للمجال الجوي الفلسطيني.

* تشرف على معابر الحدود الدولية لفلسطين طواقم مشتركة من قوة أمن فلسطينية وقوة أمن متعددة الجنسيات، وتحتفظ "إسرائيل" بحضور غير منظور للعين على مدى ٣٠ شهراً.^١

وعلى الرغم من أن هذه المبادرة غير رسمية، إلا أنها تبدو مهمة للغاية في بيان المدى الذي يمكن أن تصل إليه القيادة الفلسطينية في شكل الدولة المرتقبة. فالشخصيات الفلسطينية المشاركة ذات طبيعة رسمية وجزء رئيس من عملية صناعة القرار ومنهم العديد من الوزراء والقيادات؛ أمثال ياسر عبد ربه أمين سر اللجنة التنفيذية للمنظمة، ووزير الإعلام والثقافة السابق، وهشام عبد الرازق وزير شؤون الأسرى، ونبيل قسيس وزير السياحة السابق، ورائد العمري المستشار السياسي لمحمود عباس، وهناك أيضاً قدورة فارس، ومحمد حوراني، وزهير مناصرة، وجمال زقوت... من قيادات ورموز فتح. أما الشخصيات "الإسرائيلية" فتتنمي للمعارضة

١ للاطلاع على النص الكامل لمبادرة جنيف، انظر:

<http://www.geneva-accord.org/mainmenu/Arabic>

وانظر أيضاً: اتفاقية جنيف: مسودة اتفاقية للوضع الدائم، موقع مفتاح، في:

<http://www.miftah.org/arabic/docs/press/2003/genevaagreeearabic.pdf>

"الإسرائيلية" ولا تملك دورًا مماثلًا في صناعة القرار "الإسرائيلي"؛ ومن أبرزها يوسي بيلين Yossi Beilin، ويوسي سريد Yossi Sarid، وآمنون شاحك Amnon Shahak، وعمرام متسناع Amram Mitzna، وأبراهام بورغ Avraham Burg.

٢. المبادرة العربية:

أما في الجانب العربي، فقد ظلت قرارات قمم الرؤساء العرب والجامعة العربية تحكم مجمل الرؤية العربية، وظلت بنود مشروع السلام في فاس ١٩٨٢ بإقامة دولة فلسطينية مستقلة على الأرض المحتلة سنة ١٩٦٧، وعودة اللاجئين، وحقّ جميع دول المنطقة في العيش بسلام ضمن حدود آمنة؛ تعدّ موجّهًا عامًا للمسار العربي.

وفي سنة ٢٠٠٢، حلّت المبادرة السعودية التي جرى تبنيها في مؤتمر القمة العربية ببيروت في ٢٧-٢٨/٣/٢٠٠٢، مكان مشروع فاس، وأصبحت هي المرجعية المعتمدة للرؤية العربية للتسوية، وهي لا تختلف في جوهرها عن سابقتها في إقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على الضفة الغربية وقطاع غزة، وعودة اللاجئين، غير أنها تتحدث بشكل صريح عن الاعتراف والتطبيع العربي الشامل مع "إسرائيل" في حال موافقتها على التسوية.^١ وظلّت هذه المبادرة هي التي تحكم الخط الرسمي العام للبلاد العربية حتى وقتنا هذا (٢٠٢١).

١ انظر: محسن محمد صالح، دراسات منهجية في القضية الفلسطينية (ماليزيا: فجر أولونج، ٢٠٠٣)، ص ٤٩٣-٤٩٤.

٣. خريطة الطريق:

بدا أن هناك مكسباً سياسياً فلسطينياً جديداً عندما صدر قرار مجلس الأمن الدولي رقم ١٣٩٧ في ١٢/٣/٢٠٠٢ الذي أوضح فيه المجلس لأول مرة رؤيته لمستقبل الصراع بقيام دولة فلسطينية مستقلة تتعايش إلى جانب "إسرائيل".^١

وفي ٢٤/٦/٢٠٠٢، قدّم جورج بوش الابن George W. Bush رؤيته للتسوية النهائية داعياً إلى الدخول في مفاوضات تؤدي إلى إقامة دولة فلسطينية مستقلة وديموقراطية قادرة على الحياة وتعيش جنباً إلى جنب بأمن و"سلام" مع "إسرائيل" وجيرانها الآخرين. وقد تمّ تبني هذه الرؤية من قبل الاتحاد الأوروبي وروسيا والأمم المتحدة إضافة إلى أمريكا (الرباعية الدولية)، وتمّ تعديلها بشكلها النهائي في نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ فيما أصبح يُعرف بمشروع خريطة الطريق.

تكمن أهمية خريطة الطريق في أنها أول التزام أمريكي معلن بإقامة الدولة الفلسطينية، وضمن مدى زمني محدد لا يتجاوز نهاية سنة ٢٠٠٥. وهي مقسمة إلى ثلاث مراحل، وقائمة على برنامج بناء ثقة بين الطرفين، ومستغرقة تماماً في توفير كافة الضمانات الأمنية لـ "إسرائيل"، فيما تفرض على السلطة الفلسطينية وقف الانتفاضة والقيام بعملية إصلاح سياسية وإدارية وأمنية واقتصادية شاملة. وخريطة الطريق مليئة بالثغرات، إذ على

١ للاطلاع على نص القرار رقم ١٣٩٧، انظر: الأمم المتحدة، مجلس الأمن، القرار ١٣٩٧ (٢٠٠٢)، ١٢/٣/٢٠٠٢، في:

الرغم من أنها تدعو لحل القضايا النهائية لكنها لا تقدّم تصوّرًا عن حلها وترك ذلك للمفاوضات، ولا تلزم المفاوضات "الإسرائيلي" بشيء، بينما ترك المفاوضات الفلسطيني تحت رحمته. ومن الناحية العملية، فما انشغلت أمريكا بتطبيقه هو الالتزامات الفلسطينية، لكن "الإسرائيليين" لم يطبقوا التزاماتهم حتى فيما يتعلق بالمرحلة الأولى من خريطة الطريق المتعلقة بوقف الاستيطان.

أ- لم تقدم خريطة الطريق تصوّرًا نهائيًا متعلقًا بالقضايا الجوهرية (القدس، واللاجئون، والاستيطان، والحدود، والسيادة...).

ب- ولم تقدم من جهة ثانية أي آلية حقيقية تلزم الطرف "الإسرائيلي" بتنفيذ التزاماته.

ج- كما أنها من جهة ثالثة انشغلت بكيفية ضمان أمن القوة التي تقوم باحتلال الأرض واغتصابها، بدلًا من توفير الأمن لضحايا الاحتلال.

د- وعلى كل حال، لم تجد خريطة الطريق طريقًا للتنفيذ، ليس فقط لإجهاضها بحق الجانب الفلسطيني، وإنما لأن الحكومة "الإسرائيلية" التي أقرتها مبدئيًا في ٢٥/٥/٢٠٠٣، وضعت ١٤ تحفظًا عليها، أفرغتها عمليًا من محتواها.

٤. الفصل أحادي الجانب:

تقوم فكرة الفصل أحادي الجانب على أساس أن تفرض "إسرائيل" الشكل النهائي لحدودها وللتسوية، بالمحافظة على أكبر مساحة من الأرض، والتخلص من أكبر قدر من الفلسطينيين، ودون أن تضطر لدفع استحقاقات باهظة، مرتبطة بالقدس أو اللاجئين أو تفكيك المستعمرات

في الضفة الغربية؛ وبحيث يبدو الأمر في نهاية المطاف مشكلة حدودية بين الفلسطينيين و"الإسرائيليين"، يمكن أن تموت مع الزمن. وقد هيمنت فكرة الفصل أحادي الجانب على الرؤية السياسية "الإسرائيلية" في الفترة من سنة ٢٠٠٣ وحتى سنة ٢٠٠٦.

وفي ١٨/١٢/٢٠٠٣، أعلن شارون تبنيه للفكرة، وبعد نحو شهرين قدم خطته للفصل متضمنة الانسحاب من قطاع غزة مع تحكُّم الكيان الصهيوني ومراقبته لحدود القطاع الخارجية، وسيطرته على مجاله الجوي. وهذا يعني من الناحية العملية تحويل غزة إلى سجن كبير، كما يُبقي القطاع وفق القانون الدولي منطقة تحت الاحتلال "الإسرائيلي". وتضمنت خطة الفصل في الضفة الغربية الاحتفاظ بست كتل استيطانية، إضافة إلى شرقي القدس وما حولها من مستعمرات.^١

لاقت خطة الفصل أحادي الجانب دعماً أمريكياً في المؤتمر الصحفي المشترك بين بوش وشارون في واشنطن في ١٤/٤/٢٠٠٤. وجرى تجزئة تنفيذ الخطة بحيث تبدأ بالانسحاب من قطاع غزة وأربع مستعمرات منعزلة في الضفة الغربية.

كان لانتفاضة الأقصى دورها الرئيسي في دفع "الإسرائيليين" إلى الانسحاب من قطاع غزة بعد أن تحوّل إلى عبءٍ أمني واقتصادي كبير.^٢

١ انظر: شارون يعلن خطة فصل مع الفلسطينيين، موقع الجزيرة.نت، ١٨/١٢/٢٠٠٣،

في: <https://www.aljazeera.net>

٢ اعترف شارون بذلك في مقابله لجريدة ידיعوت أحرونوت في ١٢/٨/٢٠٠٥. انظر:

موقع عرب ٤٨، ١٢/٨/٢٠٠٥.

كانت حماية نحو ٨ آلاف مستوطن في القطاع عملية مكلفة ومرهقة، وتستدعي نشر آلاف الجنود لحماية البؤر الاستيطانية في بحر من مليون و٤٠٠ ألف فلسطيني. بيد أن الحكومة "الإسرائيلية" سعت إلى توظيف انسحابها في تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب السياسية والمادية. فهي ستخلص من العبء السكاني الهائل الذي يمثله قطاع غزة، والذي لا يمكن ضمّه في أي مشروع يستهدف الحفاظ على الهوية اليهودية للدولة. وبالإضافة إلى أن إعادة انتشار الجيش "الإسرائيلي" تكفل إنهاء الاحتكاك الفعلي بسكان القطاع وتخفيض احتمال تعرّضه للهجمات، فإنها سعت إلى إفقاد المقاومة في القطاع مبرّر عملياتها العسكرية، في نظر المجتمع الدولي على الأقل. كما سعت الحكومة "الإسرائيلية" إلى الالتفاف على مشروع خريطة الطريق، والاستفراد بالضفة الغربية لتنفيذ مخططات تهويد القدس، وجدار الفصل العنصري، ومصادرة الأراضي، وإبقاء التجمعات الاستيطانية في أيّ تسوية سياسية قادمة. ومن جهة أخرى، حاولت أن تحسّن صورتها وأن تقدم نفسها إلى المجتمع الدولي كطرف محبّ لـ "السلام" ويقدم تنازلات "مؤلمة" في سبيله.

بدأ الانسحاب "الإسرائيلي" من القطاع في منتصف آب/ أغسطس ٢٠٠٥، وتمّ إنهاؤه في ١١/٩/٢٠٠٥، وأعلنت "إسرائيل" انتهاء احتلالها للقطاع من جانب واحد، فيما أبقّت سيطرتها على الحدود والمنافذ البرية والبحرية والجوية. وفي ١٥/١١/٢٠٠٥ توصلت إلى اتفاق مع السلطة الفلسطينية حول إدارة المعابر، بوجود إشراف أوروبي وتثبيت كاميرات مراقبة تبثُّ للطرف "الإسرائيلي" بشكل مباشر كل ما يجري، مع حقّ "إسرائيل" في الاعتراض على دخول وخروج من تشبه به، حيث يبتُّ الأوروبيون في أمره

خلال ست ساعات من احتجازه.^١ وقد احتفلت السلطة بافتتاح المعبر في ٢٥/١١/٢٠٠٥.

لم تطل حماسة الحكومة "الإسرائيلية" لخطة الفصل، إذ بدأ الإحباط يدب بشكل سريع تجاهها في النصف الثاني من سنة ٢٠٠٦؛ وأخذت تراجع عن سلّم أولويات الحكومة، حتى وُضعت على الرّف، وكان أبرز أسباب ذلك:^٢

* فوز حماس في الانتخابات، وتشكيل حكومتها، والفشل في إسقاطها، والخوف من اعتبار الانسحاب انتصاراً لحماس، وتثبيتاً لنفوذها على الأرض. وظهور قناعات بضرورة دعم محمود عباس ورئاسة السلطة، والتنسيق معه في مواجهة حماس.

* فشل الهجوم "الإسرائيلي" على لبنان وحزب الله في صيف ٢٠٠٦، وتزايد القناعات بأن الانسحاب من الجنوب اللبناني سنة ٢٠٠٠ زاد من قوة حزب الله ومن قدرات المقاومة، مما زاد من مخاوف تكرار هذا السيناريو في الضفة الغربية.

* تراجع شعبية إيهود أولمرت Ehud Olmert وحزب كاديما Kadima، مما أضعف قدرة أولمرت على المناورة والحركة.

٥. العودة إلى خيار الدولة الفلسطينية من خلال التفاوض:

أربك فوز حماس في الانتخابات القيادتين الفلسطينية و"الإسرائيلية"،

١ انظر نصّ الاتفاق في: نص اتفاقية المعابر بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية ٢٠٠٥، الجزيرة.نت، ٣٠/١٢/٢٠٠٧.

٢ انظر: محسن محمد صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٦، ص ١٠٠.

كما أربك مسار التسوية السلمية، وانشغل الجميع بمحاولات إسقاط حماس أو تطويعها. وعندما شكل الرئيس عباس حكومة الطوارئ برئاسة سلام فياض في رام الله إثر سيطرة حماس على قطاع غزة في حزيران/ يونيو ٢٠٠٧، فتحت "إسرائيل" مجالات التعاون وخصوصاً الأمنية مع الحكومة في رام الله. وعاد الحديث عن تحريك مسار التسوية الذي تكلم بمؤتمر أنابوليس للسلام Annapolis Conference في الولايات المتحدة في ٢٧/١١/٢٠٠٧.

ولم يكن ثمة جديد في جوهر الأفكار "الإسرائيلية" التي ظلت تتحدث عما هو أكثر من حكم ذاتي وأقل من دولة مستقلة. وظهر عدد من المقترحات لقيادات "إسرائيلية" محسوبة بشكل أساسي على حزب كاديما، الذي استمر في الحكم حتى شباط/ فبراير ٢٠٠٩؛ كإيهود أولمرت، وتسيبي ليفني Tzipi Livni، وشمعون بيريز، وحاييم رامون Haim Ramon...، تدعو إلى انسحاب من نحو ٩٠٪ من الضفة الغربية مع بقاء الكتل الاستيطانية، وإجراء عملية تبادل أراضي لتعويض الفلسطينيين ما سيفقدونه بسبب المستعمرات.

وشهدت سنة ٢٠٠٩ عودة اليمين المتطرف بقيادة الليكود للحكم، والذي كان ما يزال يعتقد أنه بالإمكان "عصر" الفلسطينيين أكثر لتحقيق المزيد من التنازلات. وعلى الرغم من نشاط الولايات المتحدة تحت حكم باراك أوباما Barack Obama في تحريك عملية التسوية، إلا أنها فشلت في فرض أبسط استحقاقات خريطة الطريق، وهو الموقف "الإسرائيلي" التام للاستيطان. ولذلك، تعطل مسار المفاوضات طوال سنة ٢٠٠٩، كما اتسم بالتعثر في سنة ٢٠١٠. فعلى الرغم من الجهود التي بُذلت لاستئناف

المفاوضات، والتي أدت إلى الاتفاق على مفاوضات غير مباشرة، ثم مفاوضات مباشرة، مقابل إعلان "إسرائيل" تجميداً مؤقتاً للاستيطان لمدة ١٠ أشهر، إلا أن تلك الجهود انهارت في ضوء رفض "إسرائيلي" قاطع لتمديد فترة التجميد، التي انتهت في ٢٦/٩/٢٠١٠.

جعلت الثورات العربية التي أخذت تظهر وتوسع منذ مطلع سنة ٢٠١١ مسار التسوية أكثر صعوبة وأبعد منالاً، فقد سقطت أكبر الأنظمة العربية الداعمة لهذا المسار (مصر)، وعانت السياسة "الإسرائيلية" والأمريكية من وضع قلق ومرتبك، ومال "الكيان الإسرائيلي" لاتخاذ مزيد من الإجراءات الأمنية، وتقوية البنية العسكرية. كما تزايد الطرح الإسرائيلي لفكرة الدولة المؤقتة، بما يعني التوافق على حدود مؤقتة وتأجيل باقي قضايا الحل النهائي. كما عاد، من جهة أخرى، طرح فكرة الانسحاب أحادي الجانب.

٦. مسار التسوية في الفترة ٢٠١١-٢٠٢٠:

اتسم مسار التسوية في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين باستمرار حالة الجمود والتعثر، وتراجع اهتمام إدارة أوباما باستئناف المفاوضات، في ضوء استمرار الرفض "الإسرائيلي" للمطالب الفلسطينية للعودة للمفاوضات، والمتمثلة بتجميد الاستيطان وقبول حدود سنة ١٩٦٧ كمرجعية للتفاوض بشأن حدود الدولة الفلسطينية الموعودة. هذا الرفض دفع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة في رام الله إلى اللجوء لبدائل أخرى، حيث حصلت على مقعد لفلسطين في الأمم المتحدة بصفة دولة غير عضو في ٢٩/١١/٢٠١٢، حيث صوت لصالحها ١٣٨ دولة.

غير أن المفاوضات الفلسطينية "الإسرائيلية" استؤنفت في واشنطن في

نهاية تموز/ يوليو ٢٠١٣، وفق الشروط "الإسرائيلية"، من دون تلبية أيّ من الشروط، التي أكدت عليها قيادة منظمة التحرير طوال ثلاثة أعوام، وفرض الجانب "الإسرائيلي" أجندته في التركيز على الجانب الأمني. وقد أظهر الطرف الأمريكي انحيازًا أكبر للجانب "الإسرائيلي"، وامتنع عن ممارسة أيّ ضغوط عليه. ولم تفلح جهود تسعة أشهر من التفاوض في الوصول إلى أيّ نتائج، ليتعثر مسار التسوية من جديد.

ومن جهة أخرى، فإن قيادة منظمة التحرير أصرت على التمسك بمسار التسوية السلمية بالرغم من وصولها إلى حائط مسدود. وفي ظلّ حالة الإحباط التي تشعر بها، فقد هدّد محمود عباس بتسليم مفاتيح السلطة، والاستقالة، وإعادة النظر في العلاقة مع الاحتلال، واتخاذ قرارات بوقف التنسيق الأمني، وإلغاء اتفاقية باريس الاقتصادية، والتلويح بسحب الاعتراف بـ "إسرائيل"، واللجوء للمنظمات الدولية لمحاسبة الاحتلال. وقد تعامل الطرف "الإسرائيلي" مع هذه التهديدات على أنها مجرد تكتيكات، تفتقد وجودية حقيقية لتنفيذها.

وقد فشلت المبادرة الفرنسية التي جمعت فرنسا لأجلها عشرين من وزراء الخارجية وممثلي الدول في حزيران/ يونيو ٢٠١٦، والتي حاولت من خلالها التأكيد على حلّ الدولتين، وتثبيت مواعيد نهائية للتفاوض، كما لم ينجح اجتماع "باريس للسلام" في كانون الثاني/ يناير ٢٠١٧ بسبب المقاطعة "الإسرائيلية" له، وبسبب الدور الأمريكي المعطلّ. وفشلت أيضًا، في إطار محاولات دفع مسار التسوية، مبادرات روسية وصينية... وغيرها.

ومع استلام دونالد ترامب Donald Trump للرئاسة الأمريكية، تماهت إدارته مع اليمين الصهيوني، وانتقلت إلى ما يشبه الشراكة الكاملة مع

الاحتلال والاستعمار الاستيطاني والعنصرية. وتخلّى ترامب عن الموقف الأمريكي بقيام دولة فلسطينية، وبأن الضفة والقطاع أراضي محتلة، وأن الاستيطان غير شرعي. وأخذ ترامب يتحدث عن ضرورة تغيير قواعد اللعبة كلياً، واستبدال مرجعية القانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية التي تضمنت الحد الأدنى من الحقوق الفلسطينية (حق تقرير المصير الذي يشمل إقامة دولة فلسطينية على الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧، وحقّ التعويض والعودة للاجئين من الديار التي هجروا منها)؛ حيث دعا إلى اعتماد مرجعية جديدة تستند أساساً إلى الوقائع والحقائق التي أقامها ويقيمها الاحتلال على الأرض.

وتلقى مسار التسوية ضربة قاصمة عندما قررت الولايات المتحدة في ٢٠١٧/١٢/٦ الاعتراف بالقدس عاصمة لـ "إسرائيل"، ونقلت سفارتها فعلاً للقدس في ٢٠١٨/٥/١٤، كما أقرّ الكنيست "الإسرائيلي" قانوناً بإخراج القدس من العملية التفاوضية. وقررت إدارة ترامب إغلاق مكتب منظمة التحرير في واشنطن، ثم طالبت بحل وكالة الأونروا، وتغيير تعريف اللاجئين، بحيث ينحصر بالذين ولدوا في فلسطين من دون أولادهم وأحفادهم. وقطعت واشنطن الدعم عن السلطة الفلسطينية، ما عدا المساعدات الأمنية، وطالبت بالاعتراف بـ "إسرائيل" كـ "دولة للشعب اليهودي"، ولم تتعامل الإدارة الأمريكية مع الأراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ باعتبارها أراضي محتلة. وفي أواخر ٢٠١٩ قررت اعتبار الاستيطان في الضفة الغربية شرعياً وقانونياً، وغير مخالف للقانون الدولي.

أما ما يعرف بـ "صفقة القرن" أو "صفقة ترامب"، فقد تمّ الإعلان عنها في ٢٨/١/٢٠٢٠؛ بعد أن استمرت "التسريبات" حولها طيلة ثلاثة أعوام.

وقد جاءت في ١٨١ صفحة، وتحتوي على ٢٢ قسمًا، و٤ ملاحق، من بينها خريطتان توضحان جغرافية "إسرائيل" والدولة الفلسطينية المفترضة وتوزيع المستوطنات. وتلخصت بنود الوثيقة في إنشاء كيان فلسطيني تحت الهيمنة الصهيونية، في الضفة الغربية وقطاع غزة، يمكن تسميته تجاوزًا "دولة"؛ بحيث يكون منزوع السلاح تمامًا، وتكون عاصمة الكيان في الضواحي المجاورة لشرقي القدس، ويتم استقطاع المستوطنات "الإسرائيلية" في الضفة الغربية، وضمها لـ "إسرائيل". ويخضع نهر الأردن للسيادة "الإسرائيلية"، كما تبقى المياه الإقليمية لغزة تحت السيطرة "الإسرائيلية"؛ ويتم دمج سكان قرى المثلث الفلسطيني في فلسطين المحتلة ١٩٤٨ مع الكيان الفلسطيني، وتبقى معابر "الدولة الفلسطينية" خاضعة للرقابة "الإسرائيلية". ويتم توسيع قطاع غزة من خلال مناطق مجاورة في صحراء النقب، في مقابل الأرض المصادرة من الضفة الغربية. وعلى "الدولة الفلسطينية" الإقرار بـ "يهودية الدولة الإسرائيلية".

هدفت صفقة ترامب في جوهرها إلى:

أ- تحقيق التطبيع "الإسرائيلي" مع البلدان العربية، وبناء العلاقات مع الدول العربية مع تجاوز الطرف الفلسطيني، ليستخدم ذلك في الضغط عليهم لقبول الشروط والإملاءات "الإسرائيلية".

ب- تحقيق ما يُسمى "السلام الاقتصادي"؛ من خلال التعامل مع قضية فلسطين كقضية إنسانية تحل بتحسين أوضاع الفلسطينيين الاقتصادية، وليس بوصفهم شعبًا تحت الاحتلال، وينشد التحرير.

ج- إنهاء حلّ الدولتين، وإعطاء فلسطيني الضفة والقطاع حكمًا ذاتيًا (يحمل اسم دولة) منزوع السلاح، تحت الهيمنة "الإسرائيلية"؛ مع تحويل

الضفة إلى كانتونات ممزقة محاطة بـ "الكيان الإسرائيلي" من كل الجهات، وتجريد قطاع غزة من سلاحه، ومواجهة حماس لتطويعها.

د- شطب حق العودة للاجئين الفلسطينيين، وفرض السيادة الكاملة على القدس، وضمّ مناطق الأغوار وضمّ المستوطنات.

هـ- تغيير بوصلة الصراع؛ بإدخال "إسرائيل" في تحالفات في المنطقة ضدّ ما يسمى "الإرهاب"، و"الإسلام السياسي"، وإيران، وإشغال المنطقة بصراعات طائفية وعرقية.

وبالرغم من تصاعد الضغط على الفلسطينيين لفرض "الصفقة" عليهم، غير أنهم اتحدوا ضدها، وانتهى عهد ترامب دون أن يتمكن من إنفاذها. غير أن سنة ٢٠٢٠ شهدت إنجرار بعض الأنظمة العربية لمسار التسوية السلمية، وهي الإمارات والبحرين والسودان والمغرب، ودخولها في حظيرة التطبيع مع الكيان الصهيوني، مما مثّل انتكاسة كبيرة لأمتنا العربية والمسلمة.

ومع انتهاء عهد ترامب، وفوز بايدن بالانتخابات الأمريكية، تراجع الضغط الأمريكي بشأن "صفقة ترامب"، وإن كان جوهر السياسة الأمريكية الداعم والراعي للكيان الصهيوني لم يتغيّر.

رابعاً: خلاصات الموقف العربي والفلسطيني و"الإسرائيلي" من

التسوية:

من خلال العرض السابق، لاحظنا أن إقبال الأنظمة العربية ومنظمة التحرير الفلسطينية على المشاركة في عملية التسوية السلمية ينطلق أساساً من خلفيتين:

الأولى: حالة العجز العربي واختلال موازين القوى، بما يجعل

مستحيلًا في المدى المنظور تحرير فلسطين بالوسائل العسكرية.

الثانية: عامل الزمن، وشعور الأنظمة العربية أن الزمن لا يعمل لصالحها، حيث يقوم الكيان الصهيوني ببناء الحقائق على الأرض، وأن الأولى إيقاف تمدد المشروع الصهيوني، وإنقاذ ما يمكن من أرض قبل فوات الأوان.

وقد يبدو هذا التفكير للوهلة الأولى منطقيًا، لكن المشكلة الأساسية تكمن في التعامل مع العجز المؤقت باعتباره قدرًا وعجزًا دائمًا، وفي الاستسلام ابتداءً إلى مستقبل منهزم، بالإضافة إلى الحاضر المتردي. كما أنه تفكير لا يدرك تمامًا حاجة العدو الصهيوني الماسة للتسوية لتجاوز العديد من أزماته ومشاكله. وهو تفكير يُعبّر عن إشكالية غياب الإرادة، وغياب الرؤية لأدوات التغيير في المستقبل، كما أنه لا يستوعب دروس التاريخ التي انتهت عادة بإزالة الاستعمار والاحتلال ولو بعد مئات السنين، ما دام هناك شعوب لم تنسَ قضيتها ومستعدة للبذل في سبيلها. وهو يكشف في الوقت نفسه، حالة الأنظمة العربية في الانكفاء القطري على مصالحها الخاصة، وفقدانها لاستراتيجيات مشتركة جادة في تحقيق الوحدة التي لن تقوم إلا بزوال الكيان الصهيوني، كما أن الكيان الصهيوني لن يزول إلا إذا خطى مشروع الوحدة خطوات كبرى.

ويميط التدقيق في الموضوع اللثام عن الأزمة الداخلية التي تعيشها هذه الأنظمة. إذ إن الانتصار على المشروع الصهيوني يستدعي مشروعًا حضاريًا، وحالة نهضوية عامة، لا يمكن أن تتكون بداياتها الأولى إلا بفتح أبواب الحريات للجماهير، والمشاركة الشعبية في الحكم من خلال مؤسسات شورية تستطيع أن تنتخب الكفو، وتحاسب المقصر وتعزله، ويأمن الناس على حقوقهم وأموالهم وأعراضهم. وعند ذلك يمكن أن تعود الأموال

المهاجرة والعقول المهاجرة... ولا يمكن لهذا المشروع أن يستقيم إلا إذا توافق مع عقيدة الأمة وتراثها، بحيث يمكن أن يفجر فيها العزة والكرامة وروح التضحية والإبداع. وما دامت الأنظمة مستندة إلى الجيش والمخابرات وأقلية من المنتفعين... فإن مشروع النهضة سيبقى معطلاً وبالتالي سيتعطل مشروع التحرير، وسيكون العجز والتسوية السلمية هو البديل الوحيد الذي تلحُّ الأنظمة على إقناعنا به.

كما لا بدّ من الإشارة إلى أن الأنظمة العربية والإسلامية تعاملت مع قضية فلسطين ليس بوصفها قضيتها الأساسية المركزية، وإنما بوصفها قضية "جيران" تعرضوا للظلم ويحتاجون بعض الدعاء والمساعدة. وعلى هؤلاء "الجيران" أن يُقدِّروا "الضيافة"، وأن يعلموا أن للمساعدة حدوداً، فلا يستطيع هؤلاء تنظيم أنفسهم وتشكيل مؤسساتهم بحرية في تلك الأقطار، ولا يستطيعون إقامة قواعد عسكرية أو اختراق حدود بلاد الطوق العربي لتنفيذ عمليات المقاومة. والمشكلة هنا أن "النظام العربي" لا يشعر أن بيته هو الذي يحترق، وأن العدو انتهك حرمة منزله. وهذا جوهر إشكالية النظام القطري في التعامل مع قضايا "الأمة". على أن الوجه الآخر للموضوع هو عدم إدراك الأنظمة العربية والإسلامية لطبيعة المشروع الصهيوني وأهدافه، والذي لم يستهدف الفلسطينيين فقط ولا فلسطين وحدها. إن احتلال المشروع الصهيوني لفلسطين هو مجرد ركيزة ومنطلق لإبقاء الأمة العربية والإسلامية ضعيفة مفككة، يمنع وحدتها ونهضتها ويبقيها في دوائر التخلف والتبعية، لأنه يدرك تماماً أن قوة الأمة ووحدتها خطر أكيد على بقاءه ويعني زواله عاجلاً أم آجلاً. وبالتالي فإن شرط نُموّه وبقائه مرتبط بضعف الأمة وتفككها، كما أن وحدة الأمة ونهضتها مشروطة بإنهاء هذا المشروع وزواله.

تحمل مشاريع التسوية بذور فشلها في ذاتها، وتحمل عناصر تفجيرها في بنودها. وستبقى مسألة الأرض وهويتها، ومسألة العودة، ومسألة القدس... تضطرم في النفوس وستظل تتفجر بين آن وآخر حتى يتم تحرير فلسطين كاملة من نهرها إلى بحرها.

أما في الجانب "الإسرائيلي" الصهيوني، فإن الرغبة في التسوية السلمية تركز أساساً على قضية جوهرية تؤرّق قاداته وهي التحول إلى كيان سياسي "طبيعي" في المنطقة. وتحويل النظرة إلى الكيان الصهيوني من كيان "سرطاني" وخطر يجب استئصاله، إلى "ظاهرة صحية" طبيعية. لأن الجانب الصهيوني يدرك تمامًا أن لا مستقبل له في المنطقة دون ذلك. وأنه ما دامت حالة العداء موجودة وما دامت المعركة معركة أجيال متواصلة، فإن العرب والمسلمين سيملكون يوماً ما عناصر القوة وأدوات الانتصار، كما لن تبقى الظروف السياسية العربية والإسلامية والدولية على حالها إلى الأبد، وبالتالي فإن هذا الكيان سيبقى مهدداً بالزوال لحظة تغير موازين القوى.

لقد دفع هذا الشعور رئيس المنظمة الصهيونية العالمية World Zionist Organization ناحوم جولدمان Nahum Goldmann (١٩٥٦-١٩٦٨)، وهي المنظمة التي أنشأت الكيان الصهيوني، إلى القول «لا يوجد "إسرائيل" مستقبل على المدى الطويل دون تسوية سلمية مع العرب». بل واعترف أن ديفيد بن جوريون David Ben-Gurion، الذي قام على أكتافه إنشاء الكيان الصهيوني، وكان أول رئيس وزراء له والشخصية الأولى فيه حتى نحو ١٩٦٣، قال له سنة ١٩٥٦ "إن الدولة اليهودية ستستمر في العشر أو الخمس عشر سنة القادمة ولكن احتمالات وجودها بعد ذلك هي ٥٠٪". وعلى هذا،

فإن الجانب الصهيوني بحاجة ماسة إلى تسوية تضمن بقاءه، وأفضل وقت يمكن عقد تسوية فيه هو هذا الوقت الذي اجتمعت فيه خمسة عناصر قلما تجتمع في ظرف تاريخي واحد وهي:

١. قوة الكيان الصهيوني بحيث يستطيع هزيمة البلاد العربية مجتمعة.
٢. قوة النفوذ اليهودي الصهيوني الدولي، وبلوغه درجة كبرى من العلو في الأرض، تمكنه من الضغط والتأثير على القرار السياسي في الولايات المتحدة ومعظم الدول الكبرى.
٣. وقوف الدولة الأقوى في العالم "الولايات المتحدة" مع الكيان الصهيوني، وتحالفها الاستراتيجي معه. وخضوع العالم لوضع "أحادي القطبية" بقيادة الولايات المتحدة وحدها.
٤. حالة ضعف وعجز وانهزام عربي وإسلامي عام.
٥. إن منظمة التحرير الفلسطينية، وهي الطرف الذي يمثل الفلسطينيين، قد دخلت بقوة في مشروع التسوية، وقبلت بالاعتراف بالكيان الصهيوني، وحقه في العيش ضمن حدود آمنة على ٧٧٪ من أرض فلسطين التاريخية.
- إن إشكالية التسوية عند الصهاينة مرتبطة بعملية المزاجية بين مثلث:

 ١. الحفاظ على الأمن.
 ٢. الحفاظ على الأرض.
 ٣. الحفاظ على الهوية اليهودية للدولة.

وقد تختلف أضلاع المثلث وزواياه عند جهة دون أخرى بناء على ترتيب الأولويات أو تحليل الأمور. لكن هناك قواسم مشتركة بين كافة الأطراف الصهيونية من أقصى يمينها إلى أقصى يسارها:

١. لا تنازل عن الأرض المحتلة سنة ١٩٤٨ أي نحو ٧٧٪ من أرض فلسطين.

٢. لا لحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى الأرض المحتلة سنة ١٩٤٨.

٣. ما تزال الأغلبية الساحقة لكافة التيارات الصهيونية ترفض التنازل عن السيادة عن القدس الشرقية، وخصوصاً منطقة المسجد الأقصى، باعتبارها "جبل المعبد".

٤. توافق كافة الأطراف الصهيونية أن الدولة الفلسطينية إذا ما قامت في الضفة والقطاع فيجب ألا تكون مكتملة السيادة بالمفهوم المتعارف عليه سياسياً ودولياً، كأن تكون منزوعة من السلاح الثقيل، وأن تضمن الأمن الصهيوني من جهتها.

إن سلوك المجتمع الصهيوني النفسي العام يتأثر أساساً بقضيتين أو عقدتين اثنتين:

الأولى: الأمن.

الثانية: الوضع الاقتصادي.

ولا شك أن هناك عوامل أخرى تلعب دورها كالجوانب الدينية والتاريخية. لكن عقدتا الأمن والمال هما جزء من التكوين التراثي الديني التاريخي اليهودي نفسه. وقد أشار إلى جانب منهما القرآن الكريم، إذ قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾، وذكر الله تعالى قول اليهود: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

وهاتان القضيتان لهما دورهما الجوهري في صناعة الرأي العام "الإسرائيلي"، وفي صناعة القرار السياسي، وفي سلوك الفرد "الإسرائيلي" العادي. وعادة ما يتعامل المجتمع الصهيوني مع مشروع التسوية حسب ما يمكن أن يوفر له من أمن ومنافع. ولذلك فإنهم عندما تعاملوا مع السلطة الفلسطينية، كان كل شيء مرهوناً بما يمكن أن توفر لهم السلطة من أمن، من خلال تولي مهمة قمع المعارضة الفلسطينية ومنعها من مواصلة الكفاح. ولم يتعاملوا معها بروح الشريك السياسي المكافئ، بقدر ما أرادوا التعامل معها كوكيل يتولى تنفيذ "المهام القذرة" بالنيابة عنها. ولذلك عندما اندلعت الانتفاضة ارتفعت الأصوات بوجوب تغيير ياسر عرفات واستبداله، وكأنما هو موظف لديهم، وليس باعتباره شخصاً آخر يمثل شعباً آخر.

إن فكرة المشروع الصهيوني نفسه قائمة على إقناع اليهود بتوفير الأمن لهم والذي فقدوه بسبب ظهور المشكلة اليهودية في شرق أوروبا، وتداعيات اضطهاد الزعيم الألماني هتلر Hitler لهم. ولأن "رأس المال جبان" فإن المشاكل الأمنية تؤدي عادة إلى أزمات اقتصادية، وهروب المال وأصحابه طلباً للسلامة. وهذا يُفسر جانباً من الهجرة اليهودية المعاكسة إلى أوروبا وأمريكا بأعداد ضخمة إثر اندلاع انتفاضة الأقصى.

وعلى ذلك فإن السلوك "الإسرائيلي" يتجه عادة إلى التشدد والتصلب والقسوة في أثناء الأزمات في سبيل المحافظة على الأمن. لكنه لا يستطيع تحمّل مشاكل وتحديات أمنية حقيقية ودائمة. وهذا ما يفسر قسوته في الرد لمحاولة حسم الأمور بسرعة. لكن المقاومة إذا صبرت وصمدت واستمرت في ضربها الموجه، بحيث تجعل التكاليف "الإسرائيلية" أعلى من المكاسب،

فإنه سيرتد ليحاول أن يجد الأمن في التسوية أو الانسحاب بعد أن فشل في إيجاده عبر آلة الحرب. وطبيعة المجتمع الصهيوني لا تميل إلى التضحية والموت في سبيل المبادئ، ولا تتحمل الخسائر البشرية كثيرًا. ونقطة الضعف هذه لديهم، هي نقطة القوة لدى المسلمين. وهي التي أدت في النهاية إلى انسحاب الكيان الصهيوني من جنوب لبنان ومن قطاع غزة.

وبشكل عام، فمن المتوقع أن يستمر "المجتمع الإسرائيلي" على تشدده، وأن تستمر السياسات الحكومية "الإسرائيلية" على تصلبها وفظاظتها، طالما ظلّت موازين القوى تميل إلى صالحها. ولذلك فإن قدرة المقاومة على الاستمرار وتصعيد الأداء والفعالية ستؤدي إلى سقوط الخيار الأمني "الإسرائيلي". لكن القيادة السياسية الفلسطينية والعربية الحالية، ليست على الأغلب، بوارد استثمار ذلك باتجاه مشروع التحرير، وإنما باتجاه تسريع مشروع التسوية نفسه وفق ظروف أفضل بالنسبة لها.

خامساً: انعكاسات مشروع التسوية على المنطقة:

حقّق المشروع الصهيوني نجاحًا كبيرًا عندما عقد اتفاقية التسوية مع مصر أكبر وأقوى البلاد العربية، حيث تمكن من تحييدها وعزلها لسنوات عن محيطها العربي، مما هيا له فرصة الاستفراد بشكل أفضل في تنفيذ مشروعه في المنطقة، فتضاعفت وتيرة الاستيطان والتهويد في الضفة والقطاع، وتمّ ضرب البنية التحتية للمقاومة الفلسطينية في لبنان. في الوقت الذي نحى فيه العرب جانبًا الخيار العسكري مع خروج مصر من المعركة.

إن توقيع قيادة منظمة التحرير الفلسطينية على اتفاقات أوسلو سنة ١٩٩٣، وتوقيع الأردن على اتفاقات وادي عربة سنة ١٩٩٤، أدخل المنطقة

في أوضاع جديدة. وبدأ أن الكيان الصهيوني أخذ بالتحول إلى كيان طبيعي في المنطقة، وأخذت تتصاعد وتيرة التطبيع وفتح العلاقات العربية والإسلامية مع الكيان الصهيوني. ولولا أن المقاومة الفلسطينية قد استمرت تحت قيادة حماس والجihad الإسلامي والمعارضة الفلسطينية، ولولا أن الصهاينة قد استمروا في عنجهيتهم وإرهابهم وتسويقهم، ولولا أن انتفاضة الأقصى قد تفجرت، ولولا أن الشعوب العربية والإسلامية ما تزال ترفض بقوة التعامل مع الكيان اليهودي - الصهيوني - لولا ذلك لربما سار التطبيع مسيرة كبيرة.

إن قُدِّر لهذا المشروع النجاح وفق التصور "الإسرائيلي" - الأمريكي، فإنه سيكون له انعكاسات خطيرة على المنطقة العربية والإسلامية، ونظهر هنا أبرز الآثار:

فمن الآثار السياسية للتسوية:

- * تسويق الكيان الصهيوني ككيان طبيعي في المنطقة، له حق العيش ضمن حدود آمنة، أي حصول الكيان على "شرعية" فلسطينية - عربية.
- * تكريس حالة التجزئة والقطرية والضعف في العالم العربي، وهي حالة لا يمكن أن يستمر الكيان الصهيوني بدونها.
- * إسقاط قرارات الشرعية الدولية المتعلقة بفلسطين كقرار تقسيم فلسطين، وحقّ اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى أرض ١٩٤٨.
- * زيادة التوتر داخل الصف الفلسطيني، حيث توجد معارضة قوية واسعة للتسوية.
- * قمع كافة الحركات الإسلامية والوطنية المعارضة للتسوية في البلاد

- العربية، وقطع الطريق عليها للوصول إلى الحكم وفق الطرق الدستورية.
- * محاولة قطع الطريق على النهوض الحضاري والوحدوي للأمة.
- * تراجع مسار التغيير والحريات في العالم العربي، مما سيحدث حالة احتقان وأزمات داخلية كبيرة.
- * هناك مخاوف كبيرة حقيقية من أن تمارس "إسرائيل" دور شرطي المنطقة، الذي يحمل عصاه الغليظة لكل من يخرج عن "الطاعة".
- * هناك احتمالات كبيرة أن تستمر البلاد العربية تدور في فلك التبعية للقرار السياسي الإسرائيلي - الأمريكي - الغربي.
- * توفير ظروف أفضل للهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة حيث الاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي.

وفي الجانب الاقتصادي:

- * سيستفيد الكيان الصهيوني من القدرات المالية الهائلة والإمكانات الاقتصادية التي لديه في محاولة السيطرة على اقتصاديات المنطقة.
- * ستنتهي المقاطعة الاقتصادية العربية - الإسلامية للكيان الصهيوني التي كلفته عشرات المليارات من الدولارات.
- * ستوفر أجواء التسوية فرص نمو اقتصادي أفضل للكيان الإسرائيلي.
- * سيقوم الكيان الصهيوني بالاستثمار الاقتصادي في المنطقة حيث هناك عمالة أرخص، وشركات غير قادرة على المنافسة، مما يفتح المجال إلى مزيد من الأرباح. وسيكون أقدر على الإضرار بالاقتصاد المحلي لأي دولة عن طريق ضرب الأسعار، أو السحب المفاجئ للأموال، أو طرد العمال وغير ذلك.

وفي الجانب العسكري والأمني:

* تعمل الدول العربية، وعملت، على منع استخدام أراضيها كقواعد للعمل الفدائي، ومنع أي عمليات فدائية عبرها، وعلى حماية الحدود الإسرائيلية من جهتها.

* تحقيق الهيمنة العسكرية الإسرائيلية في المنطقة، ومنع الدول العربية من تطوير قدراتها العسكرية.

* تسهيل النشاط التجسسي الإسرائيلي في البلاد العربية تحت غطاء السفارات والسياحة والوفود وغيرها.

وفي الجانب الثقافي:

* إعادة النظر في مناهج التدريس، وحذف الآيات والأحاديث والمواد الدراسية المعادية لليهود و"الكيان الإسرائيلي" (وقد حدثت العديد من المراجعات فعلاً).

* منع المواد الإعلامية والثقافية التحريضية وخطب الجمعة الموجهة ضد اليهود والكيان الصهيوني.

* استخدام وسائل الإعلام والثقافة لتقديم صورة إيجابية عن اليهود والكيان الصهيوني.

* التوقف عن تدريس قضية فلسطين، وعدم الإشارة إلى فلسطين بحدودها التاريخية. وتقديم "إسرائيل" بدلاً عنها ككيان جغرافي مجاور.

* إلغاء روح الجهاد، وإضعاف روح المقاومة والتضحية واعتبارها "إرهاباً".

* فتح المجال للمواد الثقافية اليهودية والرؤى الصهيونية لغزو عقول العرب والمسلمين.

وفي الجانب الاجتماعي:

* استجلاب الكتب والدوريات والبرامج والأفلام الإسرائيلية الصهيونية، التي تحمل في جنباتها الكثير من الفساد.

* ظهر عدد من الدلائل على قيام المخابرات الإسرائيلية بتعمد ترويح المخدرات في مصر وغيرها.

* تشجيع وتمويل الرحلات واللقاءات الشبابية المختلطة بين الجنسين من عرب ويهود، نشرًا للفساد، وتجنيدًا للشباب في الموساد الإسرائيلي.

سادساً: الحكم الشرعي لتسوية السلمية مع "الكيان الإسرائيلي":

تؤكد معظم فتاوى العلماء المسلمين الموثوقين على حرمة التسوية السياسية مع "الكيان الإسرائيلي"، وقد كان هناك حالة إجماع على إصدار مثل هذه الفتاوى من العلماء المسلمين المشهورين سواء كانوا رسميين أم غيرهم، وقد استمر ذلك حتى سنة ١٩٧٧، عندما قام السادات بزيارة إلى "الكيان الإسرائيلي"، حيث صدرت بعض الفتاوى الرسمية من بعض المؤسسات المصرية لدعم موقفه في ضوء المعارضة الشعبية الواسعة في معظم أرجاء العالم الإسلامي. وبشكل عام، لجأت الأنظمة لتبرير مواقفها السياسية لتحصيل فتاوى من علماء موظفين لديها. غير أن التيار العام لعلماء المسلمين غير المرتبط بالخوف على الوظيفة والمصلحة، استمر في تأكيد تحريم التسوية السلمية إلى وقتنا هذا.

وقد صدرت مئات الفتاوى بهذا الصدد منذ قرار الأمم المتحدة إنشاء "الكيان الإسرائيلي". وتحمل الفتاوى عادة المضامين الأساسية نفسها دونما أي اختلاف جوهري. وأبرز هذه المضامين:

١. إن فلسطين أرض عربية إسلامية.
 ٢. فلسطين ملك لأجيال المسلمين، وليس لأحد حقّ التنازل عنها كائناً من كان.
 ٣. الجهاد هو طريق التحرير.
 ٤. اليهود الصهاينة معتدون غاصبون، ولا يجوز إقرار الغاصب على ما اغتصبه.
 ٥. ضرورة إعادة القضية إلى هويتها الإسلامية، وتعبئة طاقات الأمة باتجاهها.
- ومن نماذج الفتاوى، الفتوى التي أصدرها علماء الأزهر إثر قرار تقسيم فلسطين في ٢٩ / ١١ / ١٩٤٧، والتي جاء فيها:
- إن قرار هيئة الأمم المتحدة قرار من هيئة لا تملكه، وهو قرار باطل جائر ليس له نصيب من الحق ولا العدالة، ففلسطين ملك العرب والمسلمين... وليس لأحد كائناً من كان أن ينازعهم فيها أو يمزقها... اعلموا أن الجهاد قد أصبح فرض عين على كل قادر بنفسه أو ماله، وأن من يتخلف عن هذا الواجب فقد باء بغضب من الله وإثم عظيم.^١

١ فتوى علماء المسلمين بتحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين (الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، ١٩٩٠)، ص ٤٧-٥٠.

وفي كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦، أصدرت لجنة الفتوى في الأزهر فتوى تقول إن «الصلح مع "إسرائيل"، كما يريده الداعون إليه، لا يجوز شرعاً لما فيه من إقرار الغاصب على الاستمرار في غصبه، والاعتراف بأحقية يده على ما اغتصبه، وتمكين المعتدي من البقاء على عدوانه»، وأضافت إن على المسلمين:

أن يتعاونوا جميعاً على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وأجناسهم لرد هذه البلاد إلى أهلها...، وأن يعينوا المجاهدين بالسلاح وسائر القوى على الجهاد في هذا السبيل... ومن قصّر في ذلك أو فرط فيه أو خذّل المسلمين عنه أو دعا إلى ما من شأنه تفريق الكلمة وتشتيت الشمل والتمكين لدول الاستعمار والصهيونية من تنفيذ خططهم ضدّ العرب والإسلام... فهو - في حكم الإسلام - مفارق جماعة المسلمين ومقترف أعظم الآثام.^١

وجاء في فتوى شيخ الجامع الأزهر ومفتي الديار المصرية الشيخ حسن مأمون:

إن ما فعله اليهود في فلسطين هو اعتداء على بلد إسلامي يتعين على أهله أن يردوا هذا الاعتداء بالقوة حتى يُجلوهم عن بلدهم، ويعيدوها إلى حظيرة البلاد الإسلامية، وهو فرض عين على كلّ منهم، وليس فرض كفاية إذا قام به البعض سقط عن الآخرين. ولما كانت البلاد الإسلامية تعتبر كلها داراً لكل مسلم فإن فرضية الجهاد في حالة الاعتداء تكون واقعة على أهلها أولاً، وعلى غيرهم من المسلمين المقيمين في بلاد إسلامية أخرى ثانياً، لأنهم وإن

١ فتوى علماء المسلمين بتحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين (الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، ١٩٩٠)، ص ٥٣-٥٩.

لم يُعتد على بلادهم مباشرة إلا أن الاعتداء قد وقع عليهم بالاعتداء على بلد إسلامي هو جزء من البلاد الإسلامية. (...).

الصلح إذا كان على أساس ردّ الجزء الذي اعتُدي عليه إلى أهله كان صلحاً جائزاً، وإن كان على إقرار الاعتداء وتثبيتته فإنه يكون صلحاً باطلاً، لأنه إقرار لاعتداء باطل، وما يترتب على الباطل يكون باطلاً مثله.^١

وفي شباط/ فبراير ١٩٦٨، أصدر العلماء المشاركون في المؤتمر الإسلامي الدولي في باكستان فتوى جاء فيها:

إن الصلح مع هؤلاء المحاربين لا يجوز شرعاً، لما فيه من إقرار الغاصب على غصبه، والاعتراف بأحقية يده على ما اغتصبه. فلا يجوز للمسلمين أن يصلحوا هؤلاء اليهود المعتدين، لأن ذلك يمكنهم من البقاء كدولة في هذه البلاد الإسلامية المقدسة. بل يجب على المسلمين أن يبذلوا قصارى جهودهم لتحرير هذه البلاد.^٢

وأعد د. محمد عثمان شبير دراسة حول هذا الموضوع بعنوان "حكم الصلح مع اليهود" سنة ١٩٨٣، ثم اختصرها على شكل فتوى في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٩ جاء فيها:

أما بعد... فإن الصلح مع اليهود اليوم لا يجوز شرعاً لعدم توفر أي شرط من شروط عقد الصلح فيه. فقد وضع علماؤنا الأماجد شروطاً ينبغي أن تتوفر في عقد الصلح مع المحاربين من غير المسلمين ومن هذه الشروط:

١ فتوى علماء المسلمين بتحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين (الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، ١٩٩٠)، ص ٦٣-٦٦.
٢ المرجع نفسه، ص ٦٩-٧٣.

الشرط الأول: أن يتولى عقد الصلح إمام المسلمين أو نائبه، فإن لم يكن فأهل الحل والعقد، ممن تنطبق عليهم المواصفات الشرعية، وإلا اعتبر العقد غير صحيح عند جمهور الفقهاء. وينبغي على إمام المسلمين ألا ينفرد بمثل هذا القرار الخطير، وإنما يجب عليه مراجعة العلماء العاملين الذين نذروا حياتهم لله تعالى ولمصلحة الأمة، وأي قرار يصدر على غير هذه الصفة فلا يصح.

والملاحظ اليوم أن قرار الصلح مع اليهود يُتخذ في غياب العلماء المخلصين الحريصين على مصلحة الأمة، فلا يتحقق هذا الشرط في الصلح مع اليهود اليوم.

الشرط الثاني: أن يتحقق من الصلح مصلحة حقيقية راجحة: كتقوية المسلمين والاستعداد لجولة قادمة.

وبتطبيق هذا الشرط على الصلح مع اليهود اليوم، نجد أنه لن يحقق للعرب والمسلمين مصلحة راجحة، وتكون المكاسب الكبرى في هذا الصلح لصالح اليهود، إذ سيحصلون بموجبه على الاعتراف الدولي الكامل بهم، وهذا بالتالي سيؤدي إلى التغلغل الاقتصادي الصهيوني في المنطقة العربية والإسلامية، ونشر الفساد والانحلال في صفوف شباب الأمة، والقيام بدور الشرطي لضرب أي تحرك عربي وإسلامي صادق، وتشجيع الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة.

أما المصلحة التي سيجنيها الشعب الفلسطيني من وراء هذا الصلح، فهي إقامة دولة هزيلة على جزء يسير من أرض فلسطين. فهذه المصلحة تتضاءل أمام المصالح التي يحققها الأعداء من وراء الصلح، فلا يتحقق هذا الشرط في الصلح مع اليهود اليوم.

الشرط الثالث: أن يخلو عقد الصلح من الشروط الفاسدة، ومثل الفقهاء لذلك باقتطاع جزء من دار الإسلام، وإظهار الخمر والخنازير في دار الإسلام.

وبتطبيق هذا الشرط على الصلح مع اليهود نجد أنه لا يتحقق فيه، لأن الصلح يقوم على مبدأ "مقايضة الأرض بالسلام"، أي لا يمكن أن يتحقق الصلح بدون اقتطاع اليهود للجزء الأكبر من فلسطين. ومن جهة ثانية، فإن الصلح سيؤدي إلى اختراق اليهود للمنطقة العربية والإسلامية لنهب ثرواتها، وإفساد شبابها، والقضاء على قوتها العسكرية والمعنوية. فلا يتحقق هذا الشرط في الصلح مع اليهود اليوم.

الشرط الرابع: أن يكون عقد الصلح مقدراً بمدة معينة، فلا يصح الصلح المؤبد، وبخاصة مع الغاصبين المعتدين على الأعراض والأديان والمقدسات. وبتطبيق هذا الشرط على الصلح مع اليهود اليوم نجد أنهم يريدونه صلحاً دائماً، يتنازل بموجبه المسلمون عن جزء كبير من الأرض المباركة، ولا يجوز لهم أن يطالبوا بذلك الجزء المقطوع فيما بعد. ولضمان ذلك لا بدّ أن تكون تلك الدولة التي يسعى إليها رموز الفلسطينين في الخارج منزوعة السلاح أو مرتبطة في اتحاد كونفدرالي مع الأردن بحيث، لا تقوم لها قائمة في يوم من الأيام. فلا يتحقق هذا الشرط في الصلح مع اليهود اليوم.

فإذا كانت شروط عقد الصلح غير متوفرة في الصلح مع اليهود اليوم فلا يجوز الصلح شرعاً، ولا بدّ من أن تكون معاملة المسلمين لليهود قائمة على أساس الجهاد، وأنه الطريق الوحيد لتحرير فلسطين، ويجب على المسلمين أن ينتبهوا جيداً لمخاطر الوجود اليهودي على الأمة الإسلامية، ويحذروا

منها حذرًا شديدًا، ويخلصوا الأمة من السرطان اليهودي الذي غرس في جسمها، لئلا يستفحل أمره وينتشر خطره.^١

وعندما قامت منظمة التحرير الفلسطينية بعقد مجلسها الوطني الـ ١٩ في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٨، واعترفت بـ "الكيان الإسرائيلي" وقرار تقسيم فلسطين، ودخلت بشكل حثيث في عملية التسوية السلمية. قام العشرات من كبار علماء المسلمين، والشخصيات الإسلامية المرموقة، وقادة الحركات الإسلامية، بالتوقيع على فتوى في أواخر سنة ١٩٨٩ بشأن الصلح مع اليهود. وجاءت توقيعات هؤلاء العلماء من ١٩ بلدًا (مصر، وفلسطين، والأردن، وسورية، ولبنان، والعراق، والكويت، وعمان، وتركيا، والهند، وأفغانستان، وماليزيا، وباكستان، والجزائر، والمغرب، والسودان، وتونس، وجزر القمر، وغينيا)، وشارك في التوقيع الشيخ يوسف القرضاوي ومحمد الغزالي وغيرهما... وكانت هذه التواقيع هي ما أمكن جمعه على عجل، دونما حملة منسقة مستمرة. وقد جاء في الفتوى:

ونحن نعلن بما أخذ الله علينا من عهد وميثاق في بيان الحق، أن الجهاد هو السبيل الوحيد لتحرير فلسطين، وأنه لا يجوز بحال من الأحوال الاعتراف لليهود بشبر من أرض فلسطين. وليس لشخص أو جهة أن تُقر اليهود على أرض فلسطين أو تتنازل لهم عن أي جزء منها أو تعترف لهم بأي حق فيها.

١ فتوى علماء المسلمين بتحريم التنازل عن أي جزء من فلسطين (الكويت: جمعية الإصلاح الاجتماعي، ١٩٩٠)، ص ٧٩-٨١؛ وانظر الدراسات كاملة في: محمد عثمان شبير، حكم الصلح مع اليهود (الكويت: الرابطة الإسلامية لطلبة فلسطين، ١٩٨٣).

إن هذا الاعتراف خيانة لله والرسول وللأمانة التي وكل إلى المسلمين المحافظة عليها... إننا نوقن بأن فلسطين أرض إسلامية، وستبقى إسلامية، وسيحررها أبطال الإسلام... كما حررها الفاتح صلاح الدين من دنس الصليبيين...".^١

وعندما وقَّعت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية اتفاقات أوسلو في أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، تتالت الفتاوى من علماء المسلمين في معظم بلدان العالم الإسلامي والمهجر بعدم جواز عقد الصلح مع الكيان الصهيوني. وكان أبرزها فتوى وقَّعها معظم العلماء المشار إليهم في الفتوى السابقة مع كثيرين غيرهم. وأصدر علماء فلسطين وعلماء الأردن فتاوى مماثلة.

وقد عكست هذه الفتاوى حقيقة أن التيار السائد بين علماء المسلمين (غير الحكوميين الرسميين أي غير المحسوبين على الأنظمة التي تدعم "السلام"...) هو تيار رافض للتسوية، ويعتقد بحرمتها من وجهة النظر الشرعية.

وتكمن أهمية هذه الفتاوى في تأثيرها الشعبي الواسع على جماهير المسلمين في العالم، وفي أنها تمثل قاعدة انطلاق صلبة للتيارات والحركات الإسلامية التي تتبنى الجهاد طريقاً للتحرير. كما أنها تمثل ركيزة مهمة للوقوف في وجه التطبيع وإقامة أي علاقة طبيعية مع الكيان الصهيوني. وبذلك فإنها تسهم في إبقاء وترسيخ حالة العداء، وتُوجد حالة من التوتير الذي يجعل الانفجار في وجه العملية السلمية أمراً محتملاً عندما تنضج الظروف الملائمة له.

١ فتوى علماء المسلمين، ص ١٦-٢٤.

القسم الرابع

**الإخوان المسلمون والعمل
الإسلامي المقاوم**

الفصل الأول

الإخوان المسلمون ودورهم في المقاومة ضد المشروع الصهيوني حتى ١٩٤٨

أولاً: رؤية الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية:

أسس الشيخ حسن البنا جماعة "الإخوان المسلمين" في آذار/ مارس ١٩٢٨م الموافق رمضان ١٣٤٦هـ في مدينة الإسماعيلية في مصر.^١ وقد أراد الشيخ حسن البنا من تأسيس جماعة الإخوان المسلمين إحياء معاني الإسلام الصحيحة في النفوس والالتزام بتعاليمه عقيدة وسلوكاً ومنهج حياة، وبناء الفرد المسلم والبيت المسلم والمجتمع المسلم والدولة المسلمة، وتخليص البلاد الإسلامية من الاستعمار بكافة أشكاله، وإقامة الخلافة الإسلامية الواحدة على بلاد المسلمين، وسيادة العالم.^٢

وقد اكتسبت جماعة الإخوان المسلمين من خلال هذا الطرح فهماً متكاملًا وشاملاً للطرح الإسلامي، بحيث شمل جوانب الحياة المختلفة، حيث أبدى الإخوان اهتمامًا بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والجهادية، بالإضافة إلى الجوانب التَّعبدية والعقدية، فهي حسب تعبير مؤسسها الشيخ البنا "دعوة سلفية.. وطريقة سنية.. وحقيقة صوفية..".

١ حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ط ٥ (بيروت - دمشق: المكتب الإسلامي، ١٩٨٣)، ص ٢٨.

٢ حسن البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا (القاهرة: دار الشهاب، دون تاريخ)، ص ٢٧١-٢٧٣.

وهيئة سياسية.. وجماعة رياضية.. ورابطة علمية ثقافية.. وشركة اقتصادية.. وفكرة اجتماعية"^١، كما عبّر عن هذا الفهم الشعار الذي يردده الإخوان دائماً في لقاءاتهم وأنشطتهم: الله غايتنا، الرسول قدوتنا، القرآن دستورنا، الجهاد سبيلنا، الموت في سبيل الله أسمى أمانينا.^٢ وهو ما جعل هذه الحركة متفاعلة مع الواقع ومع هموم المسلمين وقضاياهم. وقد عبّر شعاراً: "الجهاد سبيلنا"، و"الموت في سبيل الله أسمى أمانينا" عن رغبة في تحقيق جاهزية نفسية عالية لدى الأفراد في الدفاع عن أرض المسلمين وحمايتهم وتحريرها.

أمة واحدة.. وطن واحد.. هم واحد:

وقد عدّ الإمام البنا الوطن الإسلامي وطناً واحداً وأمة الإسلام أمة واحدة. وكان من الطبيعي بناءً على هذا الفهم أن يهتم الإخوان المسلمون بقضايا المسلمين المختلفة، فيذكر الشيخ حسن البنا "إن كل أرض يقال فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله هي جزء من وطننا، له حرمة وقداسته، والإخلاص له والجهاد في سبيل خيره"، ولأن فلسطين كانت أسخن القضايا الإسلامية الحساسة في ذلك الوقت، وما تزال، فقد أولاهم الإخوان المسلمون دائماً "المقام الأوفى في عنايتهم واهتمامهم"^٣.

وقد رأى الإخوان المسلمون أن الوطنية والعروبة والإسلام هي دوائر

١ حسن البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا ص ١٥٦-١٥٧.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٧١، و٢٧٣-٢٧٤.

٣ كامل الشریف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ط ٣ (الزرقاء، الأردن: مكتبة

المنار، ١٩٨٤)، ص ٣١.

متكاملة غير متعارضة، وأن الشخص يسعه أن يعمل بكل إخلاص لمصلحة وطنه، ويعمل في الوقت نفسه لعالمه العربي ولعالمه الإسلامي.^١ وحسب البنا، فإن المسلمين هم:

أشدّ الناس إخلاصًا لأوطانهم...، ولكن الفارق بين المسلمين وبين غيرهم من دعاة الوطنية المجردة أن أساس وطنية المسلمين العقيدة الإسلامية. فهم يعملون لوطن مثل مصر، ويجاهدون في سبيله ويفنون في هذا الجهاد، لأن مصر من أرض الإسلام وزعيمة أممه. كما أنهم لا يقفون بهذا الشعور عند حدودها، بل يشركون معها فيه كل أرض إسلامية وكل وطن إسلامي... وحسبك من وطنية الإخوان المسلمين أنهم يعتقدون عقيدة جازمة لازمة أن التفريط في أي شبر أرض يقطنه مسلم جريمة لا تُغتفر حتى يعيدوه أو يهلكوا دون إعادته، ولا نجاة لهم من الله إلا بهذا.^٢

فلسطين.. المكانة والمسؤولية:

وعلى ذلك فإن اهتمام الإمام البنا والإخوان بقضية فلسطين جاء في السياق الطبيعي لفهمهم الإسلامي وفي صميم برنامج عملهم، بل ومحكّ لاختبار مصداقية دعوتهم وجدّية فكرهم. ولذلك يؤكد البنا أن "فلسطين وطنٌ لكلّ مسلم باعتبارها من أرض الإسلام، وباعتبارها مهد الأنبياء، وباعتبارها مقرّ المسجد الأقصى الذي بارك الله حوله".^٣ ويرى البنا أن

١ انظر بتوسع حول هذه الفكرة في: عثمان عبد المعز رسلان، التربية السياسية عند الإخوان

المسلمين (القاهرة: دار التوزيع الإسلامية، د.ت.)، ص ٢٧٣-٣٠٧.

٢ البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص ١٨٠.

٣ المرجع نفسه، ص ١٥٠.

"قضية فلسطين هي قضية كل مسلم".^١ وللفلسطينيين في تصوّر البنا مكانة خاصة فهي حسب قوله "تحتلّ من نفوسنا موضعاً روحياً قدسياً فوق المعنى الوطني المجرّد، إذ تهبّ علينا منها نسمات بيت المقدس المباركة، وبركات النبيين والصديقين، ومهد السيد المسيح عليه السلام، وفي كل ذلك ما ينعش النفوس ويغذّي الأرواح".^٢

وفلسطين في فهم الإخوان:

أرض وقف إسلامي على جميع أجيال المسلمين في ماضيهم وحاضرهم ومستقبلهم إلى يوم القيامة، لا يجوز لأحد كائناً من كان أن يفرط أو يتنازل ولو عن جزء صغير جداً منها، ولذلك فهي ليست ملكاً للفلسطينيين أو العرب فحسب، بل هي ملك للمسلمين جميعاً... فعلى المسلمين في كلّ مكان أن يساهموا عملياً في تقديم المال والدم للدفاع عنها.^٣

وفلسطين "قطعة من الجسد الإسلامي العام، ولينة قيّمة من بنيان الكيان الإسلامي".^٤ ويربط طرح الإخوان بشكل مُحكم بين الإسلام وفلسطين، وهو طرح لا يقرّر فقط المكانة الدينية لفلسطين أو الترابط العاطفي والتاريخي معها، ولكنه يعمل لتحمل مسؤولية العمل والجهاد، ويعدّ التخاذل عن

١ حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٣٠٤.

٢ مجلة الإخوان المسلمون، ١٩٤٧/١٠/٢٥، نقلاً عن عبد الفتاح العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية (القاهرة: دار التوزيع والنشر الإسلامية، د.ت.)، ص ٢٨.

٣ مجلة الإخوان المسلمون، ١٩٤٧/١٠/٢٥، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٢٩.

٤ جريدة الإخوان المسلمون، ١٩٣٧/١١/٥، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٢١.

نصرتها تخاذلاً عن نصره الإسلام نفسه... ولذلك فحسب الإخوان فإن القول "مالي وللفلسطين في هذه الظروف معناه مالي وللإسلام... ليست قضية وطن جغرافي بعينه، وإنما هي قضية الإسلام الذي تدينون به، فما فلسطين إلا قطعة مصابة من الجسد الإسلامي العام، ولبنة مزعزعة من لبنات بنيانه، فكل قطعة لا تتألم لألم فلسطين ليست من هذا الجسد، وكل لبنة لا تختلّ لا اختلال فلسطين ليست من هذا البنيان".^١ ويتكرّر هذا الربط المُحكم في موضع آخر عندما ينصّ الإخوان على القول "وما الشعب الفلسطيني إلا أٌخٌ لنا، فمن قعد عن فلسطين فقد قعد عن الله ورسوله، وظاهر على الإسلام، ومن أعانها وبذل لها وأمدّها فقد انتصر لله ورسوله ودافع عن الإسلام".^٢

مشروع النهضة ومشروع التحرير:

ولذلك رأى البنا وجوب الجهاد لتحرير فلسطين ونصرة أهلها، وذكر في رسالة بعثها إلى السفير البريطاني في القاهرة "إن الإخوان سيبدلون أرواحهم وأموالهم في سبيل بقاء كل شبر من فلسطين إسلامياً عربياً حتى يرث الله الأرض ومن عليها".^٣ وقال في رسالة بعثها إلى رئيس وزراء مصر محمد محمود "إن الإنجليز واليهود لن يفهموا إلا لغة واحدة، وهي لغة الثورة

١ مجلة النذير، ٢٥/٣/١٩٣٧، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٥.

٢ جريدة الإخوان المسلمون، ١٦/٦/١٩٣٦، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٢١.

٣ النذير، ٢٦/١٢/١٩٣٨، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٦.

والقوة والدم".^١

عبر فكر الإمام البنا عن حالة نضج مبكرة ومتقدمة في جدلية العلاقة بين مشروع النهضة الإسلامية وبين تحرير فلسطين. فقد رأى البنا أن حلّ قضية فلسطين سيكون بتلازم خطّي الوحدة والجهاد.^٢ فالمشروعان بالنسبة له يمكن أن يسيرا جنباً إلى جنب بحيث يسند بعضهما بعضاً ويكمل أحدهما الآخر. إذ إن تحرير فلسطين يستدعي العمل على نهضة الأمة لتستكمل عناصر قوتها ووحدتها، وبالتالي تكون مؤهلة للاستجابة لتحدي التحرير وهزيمة المشروع الصهيوني. وكذلك فإن الجهاد في فلسطين ومقاومة العدو تمثل بحدّ ذاتها عنصراً مهماً في عملية استنهاض الأمة، وتقديم النماذج، وبثّ معاني الجهاد والعزة والكرامة، وكشف أعداء الأمة، وفي توحيدها تجاه التحديات الكبرى. ويظهر أن البنا رأى في الخطّين خطان متوازيان يمكن أن يعمل جنباً إلى جنب، فلا يُشترط توقف الجهاد بانتظار الوحدة، أو إقامة الخلافة، ولا يتوقف العمل لتحقيق الوحدة بحجة الانشغال بمشروع الجهاد أو التحرير؛ وهو الخط الفكري الذي تطرحه حماس. إذًا، فليس ثمة تعارض بين المشروعين، ولا ينبغي تعطيل مشروع بانتظار إنجاز الآخر. ولذلك نجد في أدبيات الإخوان التي يعود بعضها إلى سنة ١٩٣٦، أن العمل لقضية فلسطين لن تقف بركته عند تحقيق الوحدة العربية، بل إنها ستحقّق أيضاً الوحدة الإسلامية.^٣ ورأى

١ النذير، ٣١/٥/١٩٣٩، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٧.

٢ النذير، ١٨/١٠/١٩٣٨، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٣٨.

٣ جريدة الإخوان المسلمون، ٨/٩/١٩٣٦؛ والنذير، ٢٣/٥/١٩٣٩؛ ومجلة الإخوان =

البنا أن قضية فلسطين وثورتها كان له أثر كبير طيب على بلدان المسلمين، فعندما قامت الثورة الكبرى في فلسطين سنة ١٩٣٦ أعادت الجهاد إلى الواقع مرة أخرى، وقام الفلسطينيون "يُحْسِنُونَ من جديد صناعة الموت". وسرى هذا التيار "من نفس الفئة المجاهدة القليلة في جوار الحرم المقدس إلى شباب الإسلام والعرب". وخاطب البنا أهل فلسطين "أيها الفلسطينيون، لو لم يكن من نتائج ثورتكم إلا أن كشفتم غشاوات الذلة وحجب الاستسلام عن النفوس الإسلامية، وأرشدتم شعوب الإسلام إلى ما في صناعة الموت من لذة وجمال وروعة وربح لكنتم الفائزين".^١

ويربط البنا بين عدم القدرة على تحرير فلسطين وبين ضعف المسلمين وتخلفهم عن دينهم، وبمعنى آخر فإن عملية التحرير مرتبطة بعملية استنهاض الأمة، فيذكر أن "قضية فلسطين لم تحل، ليس لأن المسلمين لا يقدرُونَ، بل لأنهم لا يريدُونَ، وهم لا يريدُونَ لأنهم لا يشعرون، وذلك لأنهم مسلمون أذعياء".^٢ وبتعبير آخر نُشر في جريدة الإخوان سنة ١٩٣٧ "لا قيام للباطل إلا في غفلة الحق، وإن أشد ما يمكن لأعدائكم في دياركم قعودكم عن نصرة إخوانكم".^٣

وفي سعيه لتشجيع التواصل بين المسلمين والدفع باتجاه مشروع الوحدة،

= المسلمون، ٢٢/٥/١٩٤٨، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٢١.

١ النذير، ٢٧/٧/١٩٣٨، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٣٧-٣٨.

٢ المرجع السابق، ص ٦.

٣ جريدة الإخوان المسلمون، ١٨/١٠/١٩٣٨، نقلاً عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٦.

اتصل البنا بعدد من القيادات العربية والإسلامية للحصول على دعمهم لعقد مؤتمر لنصرة فلسطين، وكتب البنا في ٤/١٠/١٩٣٧ في النذير إنه:

لا يكفي الاستماع لمطالب الفلسطينيين الشجاعة بتقرير المصير وتحقيق الوعود...، وإنما يجب عقد اجتماع للقادة للاعتراف بحقوق المجاهدين... بهذا المؤتمر نتجه نحو الوحدة والتقدم... أيها المسلمون لا تضيعوا دقيقة دون التحضير للتحرير، ولتكونوا قادرين بعد ذلك على اختيار ميدان المعركة بدل أن تُساقوا كالخراف... أيها المسلمون أنتم تحتاجون القوة وتحتاجون الوحدة التي هي أول خطوة لتحقيق القوة.^١

وهي رسالة تعبر عن فهم البنا للجمع بين مشروعَي الوحدة والتحرير. كما أدرك حسن البنا والإخوان خطورة المشروع الصهيوني على نهضة مصر والعالم العربي والنهضة الإسلامية بشكل عام، حيث إن وجود الكيان الصهيوني سيعطل مشروع الوحدة، ويمثل خطرًا سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا واجتماعيًا على المنطقة. ويتحدث الإمام البنا بوضوح حول هذه المسائل فيقول:

نريد أن نؤمن حدودنا الشرقية بحلّ قضية فلسطين حلًّا يحقق وجهة النظر العربية أيضًا ويحول دون تغلب اليهود على مرافق هذه البلاد. إن مصر والعالم العربي والإسلامي كله يفتدي فلسطين، فأما مصر فلأنها حدّها الشرقي المتاخم، وأما بلاد العرب فلأن فلسطين قلبها الخافق وواسطة عقدها، ومركز وحدتها، وهي ضئيلة بهذه الوحدة أن تتمزق مهما كانت الظروف،

١ Abd Al-Fattah El-Awaisi, The Muslim Brothers and the Palestinian Question

1938-1947 (London: Tauris Academic Studies, 1998), p. 81.

ومهما كلفها ذلك من تضحيات. وأما العالم الإسلامي فلأن فلسطين أولى القبلتين وثاني الحرمين ومسرى رسول الله ﷺ. وهذه الحقيقة يجب أن تضعها الدول المتحدة نصب عينيها فصدقة المسلمين والعرب في كفة، ومطامع اليهود في فلسطين في الكفة الأخرى.

نحن نطالب بهذا لأنه تأمين لحدودنا ومصلحة مباشرة لنا، ونطالب به كذلك لأنه حق أمتين عريبتين في الشرق والغرب، هم منا ونحن منهم، ولن يفرق بيننا شيء^١.

لذلك حذر الإمام البنا المصريين منذ سنة ١٩٣٨ بأن عدم مساندة الثورة في فلسطين يعني أنهم "سيضطرون إلى أن يدفعوا عن أنفسهم في غائلة الخطر اليهودي الصهيوني بعد أن ترسخ أقدامه قيد خطوات من الحدود المصرية، وحينئذ لا تنفع الجهود ويصدق علينا المثل السابق (أكلت يوم أكل الثور الأبيض)^٢. ولا تخلو أدبيات الإخوان المسلمين المنشورة في الثلاثينيات والأربعينيات من إشارات إلى الأهمية الاستراتيجية لفلسطين واعتبارها نقطة الاتصال بين البلاد العربية وآسيا وإفريقيا، وإلى أن قيام دولة لليهود في فلسطين يعني أن تكون تلك الدولة قاعدة للاستعمار الغربي، وسلاحًا مسمومًا لطعن البلاد العربية، كما أنها تنذر البلاد العربية بالتمزق والتفريق، وتهدها من ناحية الوجود والكيان^٣. كما تحدث الإمام البنا عن الخطر الاقتصادي الصهيوني وما ينتج عن محاولات اليهود تصريف منتجاتهم في

١ البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص ٢٦٣-٢٦٤.

٢ النذير، ١٨/٧/١٩٣٨، نقلًا عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٤٠.

٣ انظر: العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٤٢.

البلاد العربية مما سيؤدي إلى "خرب اقتصادي واضطراب مالي".^١ وبالإضافة إلى ذلك، فقد رأى الإخوان المسلمون أن إقامة الدولة الصهيونية سينتج عنه أيضًا خطر اجتماعي يهدد البلاد العربية بالانحلال لأن الصهيونية ستعمل على نشر الإلحاد والإباحية.^٢

الموقف من اليهود:

على الرغم من أن الكثير من أدبيات الإسلاميين لم تكن تفرق (إلى سنوات قريبة) بشكل واضح بين معاداة أو محاربة اليهود لكونهم يهودًا وبين معاداة ومقاتلة اليهود المعتدين في فلسطين، إلا أن الإمام البنا ومنذ مرحلة مبكرة جدًا قدّم تصورًا واضحًا يفرق بين اليهود بكونهم أهل كتاب تجرى عليهم الأحكام العامة ولهم حقوقهم المعروفة في الفقه الإسلامي، وبين اليهود الصهاينة المعتدين الذين تجب محاربتهم لقيامهم باغتصاب أرض المسلمين وحقوقهم. أي أن قتالهم لا يكون لمجرد كونهم يهودًا، وإنما ينحصر بقتال من قام منهم بالاعتداء على حرّات المسلمين. وقد عبّر البنا عن ذلك أمام لجنة التحقيق البريطانية - الأمريكية في ١٩٤٦/٣/٥.^٣

ورفض البنا الظلم الذي تعرض له اليهود في أوروبا، لكنه رفض أن يتحقق إنصافهم عبر ظلم أهل فلسطين والعرب، وذكر البنا "لا شك أننا نتألم لمحنة اليهود تألمًا شديدًا ولكن ليس معنى هذا أن يُنصفوا بظلم العرب وأن

١ جريدة الإخوان المسلمين، ١١/٨/١٩٣٦، نقلًا عن العويسي، تصور الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية، ص ٤٢.

٢ المرجع السابق، ص ٤٣.

٣ محمود عبد الحليم، الإخوان المسلمون: أحداث صنعت التاريخ - رؤية من الداخل ١٩٢٨-١٩٤٨ (الإسكندرية، مصر: دار الدعوة، ١٩٨٣)، ج ١، ص ٤٥٦.

ترفع عنهم بهلاك غيرهم والعدوان عليه. وفي الأرض مندوحة وفي الأوطان مُتسع".^١

الموقف من الاحتلال البريطاني لفلسطين:

رفض الإمام البنا وعد بلفور، ورأى بأن بريطانيا نكثت عهودها للعرب بالحرية والاستقلال (مراسلات الحسين - مكماهون) والتي خاضوا على أساسها الحرب ضدّ العثمانيين في الحرب العالمية الأولى. كما رفض البنا مشروع تقسيم فلسطين الذي أوصت به لجنة بيل سنة ١٩٣٧، وعدّ أن معنى هذا المشروع هو "القضاء على حقوق العرب كلها، ولن يخطر ببال عربي واحد أن يفكر فيه فضلاً عن أن يقبله".^٢ وقال البنا إن فلسطين "دينٌ على إنجلترا للمسلمين لا تهدأ ثائرتهم حتى توفيهم فيه حقّهم... وإننا ننتهز هذه الفرصة فنذكرها بأن حقوق العرب لا يمكن أن تُنتقص".^٣ وعبر البنا عن سخطه على السياسات القمعية البريطانية ومصادرتها للحريات وإرهاب الأمنين ونفي الزعماء، التي مارستها في أثناء الثورة الفلسطينية الكبرى، وطالب بإطلاق سراح السجناء وإعادة الزعماء المنفيين وإرجاع الحقوق إلى المجلس الإسلامي الأعلى، وأعلن تضامنه مع الحاج أمين الحسيني زعيم فلسطين وطالب بالسماح له بالعودة، كما حذّر الوفود الإسلامية إلى مؤتمر لندن (شباط/ فبراير - آذار/ مارس ١٩٣٩) من المكر والخداع البريطاني.^٤

١ البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص ٢٦٣.

٢ البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٣٠٣-٣٠٤.

٣ البنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص ١٥٠.

٤ انظر: البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٣٠٤؛ والبنا، مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا، ص ١٥٠.

البناء في مقال له في النذير في ٦/١٢/١٩٣٨، ذكر أن المشكلة الحقيقية ليست مع اليهود الذين جاؤوا إلى فلسطين والذين اعتبرهم مجرد سفاكي دماء ومغتصبين قدموا تحت ظلال الرماح والخداع...، المشكلة الحقيقية هي بين العرب مالكي الأرض في فلسطين وبين البريطانيين الذين سيطروا على البلد ووضعوها تحت هذه الظروف.^١ ويعكس هذا الفهم النتيجة نفسها التي وصل إليها العرب في فلسطين إثر ثورة البراق (آب/ أغسطس ١٩٢٩) وفي مطلع الثلاثينيات من أن بريطانيا هي "أصل الداء وسبب كلّ بلاء"، حيث أخذت معارضتهم وثوراتهم تتركز ضدّ البريطانيين.

وطالب البناء الحكومة المصرية بالضغط على بريطانيا للإفراج عن المعتقلين والاعتراف بحقوق الفلسطينيين كاملة غير منقوصة. وفي مذكرات الدعوة والداعية نصّان لرسالتين رفعهما الإمام البناء إلى رئيس الوزراء المصري علي ماهر بهذا المعنى سنة ١٩٣٩.^٢

الإمام البناء تبني طرح الحركة الوطنية الفلسطينية فيما يتعلق بمطالب الشعب الفلسطيني من بريطانيا وبحلّ قضية فلسطين. فقد طالب بريطانيا بوقف الهجرة اليهودية وقفًا تامًا، وبإطلاق السجناء، وإعادة المبعدين، وتعويض المتضررين، وباعتراف بريطانيا باستقلال فلسطين استقلالًا تامًا عربية مسلمة، ويمكن أن يكون ذلك بناءً على اتفاق يضمن حقوق العرب، ويعامل فيه اليهود معاملة الأقليات.^٣

١ El-Awaisi, The Muslim Brothers and the Palestinian Question 1938-1947, p. 47.

٢ البناء، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٣٥٠-٣٦١.

٣ المرجع نفسه، ص ٣٠٤، و٣٦٠-٣٦١.

ثانيًا: جهود الإخوان الأولى لنصرة فلسطين:

عندما تحرك الإخوان في مصر لنصرة فلسطين لم يكن هناك اهتمام مصري شعبي أو رسمي ذي بال بالقضية الفلسطينية، ما عدا نشاط بعض الرموز والجمعيات الإسلامية مثل عبد الحميد سعيد زعيم جمعيات الشبان المسلمين، ومحمد رشيد رضا صاحب المنار الذي كان أستاذًا للحاج أمين الحسيني، ومحمد علي علوبة...

وقد لاحظ البنا أنه عندما:

ثار الشعب الفلسطيني... كانت الهيئات السياسية والأحزاب في مصر منصرفة كل الانصراف عن مناصرة فلسطين مناصرة جدية بحكم النعرة الوطنية الخاصة التي لم تكن قد تطورت إلى ذلك الشعور الدفّاق بحق العروبة والإسلام. ولم يكن المتحرك لفلسطين أو نحوها من الأقطار الشقيقة في ذلك العهد إلا الهيئات الإسلامية. ومن هنا تقدم الإخوان المسلمون إلى مناصرة فلسطين الثائرة المجاهدة بكل ما فيهم من قوة، ووقفوا على ذلك جهودهم ماديًا وأدبيًا....^١

وكان من نماذج السلوك الرسمي السلبي المصري، أن رئيس وزراء مصر محمد محمود عندما سُئل عن سياسته حول قضية فلسطين أجاب في خبر نشرته جريدة الأهرام في ٢٠/٦/١٩٣٨ أنه رئيس وزراء مصر وليس فلسطين. وكان من المفارقات أنه بينما كانت الثورة مشتعلة على أشدها في فلسطين ١٩٣٦-١٩٣٨، كان ما يزال القنصل المصري في القدس يدعو الزعماء الصهاينة إلى حفلات الاستقبال في الذكرى السنوية لميلاد الملك

١ البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٢٧٩.

وفي ذكرى اعتلائه العرش!!^١

في سنة ١٩٢٧، أرسل الإمام البنا رسالة دعم وتأيد إلى الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين ورئيس المجلس الإسلامي الأعلى فيها.^٢ تعكس هذه المبادرة اهتمام البنا المبكر بقضية فلسطين وارتباطه النفسي بها وهو ما يزال في الحادية والعشرين من عمره وفي سنة تخرجه من دار العلوم وقبل أن يبدأ حياته العملية. كما أنه من جهة ثانية أرسل هذه الرسالة قبل نحو عام على تأسيسه الإخوان المسلمين، وهو ما يؤكد أن اهتمامه بفلسطين بعد ذلك من خلال عمل الجماعة لم يكن مجرد برنامج من برامجها أو أداة لكسب الشعبية والرأي العام، وإنما كان اهتماماً أصيلاً صادقاً. ومن ناحية ثالثة فإن هذه الرسالة أرسلت في ظرف لم تكن تشهد فيه فلسطين في تلك الفترة أيًا من الأحداث الجسام أو الثورات، ولا حتى الحراك السياسي، مما يدل على أن الرسالة لم تكن انفعالاً بحدث بقدر ما كانت انشغالاً بالهمّ الفلسطيني نفسه.

وعندما انعقد المؤتمر الإسلامي العام في القدس في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣١ وحضره مندوبون من ٢٢ بلدًا، أرسل البنا رسالة تحية وتقدير ومؤازرة للمؤتمرين باسم الإخوان المسلمين. ولا تنحصر أهمية الرسالة في كونها تحمل دلالات الوعي والتفاعل المبكر لجماعة الإخوان مع قضية فلسطين، وإنما في مضمون الرسالة الذي تجاوز المشاعر والمواقف إلى الاقتراحات العملية الممكنة التنفيذ، والتي تحمل دلالات مهمة على انغماس حقيقي

١ لمزيد من التفصيل حول الموقف المصري، انظر:

El-Awaisi, The Muslim Brothers and the Palestinian Question 1938-1947, pp.

21-27.

Ibid., p. 28. ٢

بالقضية. وكان أحد الاقتراحات إنشاء صندوق إسلامي أو شركة لشراء الأراضي الفلسطينية لحفظها وقطع الطريق على شرائها من قبل اليهود. وكان من الطريف أن البنا قدّم باسم الإخوان تبرعاً بقيمة خمسة جنيهات مصرية كبداية لعمل الصندوق مع الاعتذار عن ضآلة المبلغ الذي تمّ تقديمه لإعطاء الفكرة أهميتها وبعدها العملي. واقترح البنا إنشاء لجان للدفاع عن الأماكن المقدسة في كل بلدان العالم الإسلامي، كما اقترح توحيد وتحديث الثقافة الإسلامية، وإنشاء جامعة فلسطينية تجمع بين العلوم الشرعية والعلوم المعاصرة، وإصدار جريدة إسلامية يومية، واقترح إنشاء مركز إعلامي إسلامي. ولم ينسَ اقتراح استعادة السيطرة على خط الحجاز الحديدي واستكمال له من أهمية في ربط المسلمين ببعضهم. وقد أبدى الحاج أمين الحسيني اهتمامه بالرسالة، وفي ردّه على البنا ذكر بأن اللجنة التنفيذية للمؤتمر ستعطي الاقتراحات الاهتمام اللازم.^١

نلاحظ أن المؤتمر تبنى في قراراته بالفعل تأسيس شركة لإنقاذ الأراضي في فلسطين، والمطالبة بتسليم خط السكة الحديدية الحجازية، وإنشاء جامعة باسم جامعة المسجد الأقصى، والتعهد بالدفاع عن إسلامية البراق...^٢. وهذا يعني أن عددًا من اقتراحات الإمام البنا قد تمّ اعتمادها، غير أنه من المحتمل أن بعض هذه الاقتراحات قد توافق مع اقتراحات مشابهة قدّمها المشاركون في المؤتمر.

وعندما حدثت انتفاضة تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٣ في فلسطين، والتي

١ Ibid. pp. 28-30.

٢ بيان نويهض الحوت، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨١)، ص ٢٤٦-٢٤٧.

راح ضحيتها في القدس ويافا ٣٥ شهيداً و ٢٥٥ جريحاً،^١ والتي أصيب فيها زعيم فلسطين موسى كاظم الحسيني، طالب الإمام البنا، في مقال نُشر في جريدة الإخوان المسلمين في ٢١/١٠/١٩٣٣، بإيقاف الهجرة اليهودية وتنفيذ بريطانيا لوعودها للعرب بحكم أنفسهم، ودعا العالم الإسلامي للضغط بكل ما يملك من وسائل وتقديم الدعم والتبرعات لفلسطين.^٢

ومن الملاحظ أن جماعة الإخوان أخذت تستخدم المناسبات الإسلامية، وخصوصاً الاحتفالات بالإسراء والمعراج للدعاية لقضية فلسطين في سنة ١٩٣٣ والسنوات التي تلتها. وقبل الثورة الكبرى في فلسطين بنحو عام، دعا الإمام البنا في أثناء انعقاد المؤتمر الشوري الثالث للجماعة في آذار/ مارس ١٩٣٥ لجمع التبرعات لفلسطين.^٣

اندلعت الثورة الكبرى في فلسطين في منتصف نيسان/ أبريل ١٩٣٦ واستمرت مرحلتها الأولى حتى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٦، ثم ما لبثت أن انفجرت مرحلتها الثانية في أواخر أيلول/ سبتمبر ١٩٣٧ واستمرت حتى أواخر سنة ١٩٣٩. وفي ١٦ أيار/ مايو ١٩٣٦ ترأس البنا اجتماعاً للإخوان وقال إنه يخشى أنه إذا ما كانوا بطيئين في مساعدة الفلسطينيين، فإن مقاومتهم لن تحقق أهدافها، وبالتالي "فستحمل المسؤولية أمام الله والتاريخ". ولذلك قرر المجتمعون إنشاء اللجنة المركزية العامة لمساعدة فلسطين،

١ وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية، جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٨)، ص ٣٤١-٣٤٤.
El-Awaisi, The Muslim Brothers and the Palestinian Question 1938-1947, p.

٢. ٣١.

٣. Ibid.

وتشكلت من ٢٩ عضوًا برئاسة البنا نفسه، وكان من الملفت للنظر مشاركة سبعة من أعضاء مكتب الإرشاد العشرة في عضويتها. وقد نشطت هذه اللجنة في دعم قضية فلسطين بمختلف الوسائل.^١ وفي نهاية أيار/ مايو ١٩٣٦، شاركت اللجنة في تشكيل اللجنة العليا لمساعدة ضحايا فلسطين، حيث دعت جمعية الشبان المسلمين في القاهرة المنظمات الإسلامية والأفراد لتشكيل هذه اللجنة، وقد مثل الإخوان في هذه اللجنة كل من حسن البنا وحامد عبد الرحمن.^٢

وقد نشط الإخوان المسلمون في الدعاية الإعلامية لقضية فلسطين في مصر نشاطًا كبيرًا، ودعوا إلى مشروع "قرش فلسطين" لدعم أهل فلسطين، وثورتهم، وطبعوا المنشورات التي تهاجم الإنجليز وسياستهم في فلسطين، وركزوا في مجلتهم (النذير) على خدمة قضية فلسطين وإبرازها إعلاميًا، واستفادوا من منابر المساجد للدعوة للقضية، وأرسلوا الطلاب في الصيف إلى أنحاء القطر المصري للدعوة للفكر الإسلامي وإلى مساعدة فلسطين، كما دعوا إلى مقاطعة المحلات اليهودية في مصر، ووزعوا كتاب "النار والدمار في فلسطين"، الذي أصدرته اللجنة العربية العليا، بشكل واسع في مصر، فكان له أثر إعلامي عظيم، وقد اعتُقل البنا لفترة وجيزة بسبب توزيع الكتاب.

ودعا البنا وإخوانه إلى القنوات في الصلاة من أجل فلسطين. وجاء في تعميم لمكتب الإرشاد العام، أن نازلة فلسطين من أشد النوازل بالمسلمين

١. Ibid., pp. 35-36؛ وانظر: البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٢٨٠-٢٨٥.

٢. El-Awaisi, The Muslim Brothers and the Palestinian Question 1938-1947, p.

جميعاً، وأعظمها وقعاً على قلوبهم، وأشدّها نيلاً من إخوانهم وأوطانهم ونفوسهم.

ولهذا اقترح مكتب الإرشاد أن يقنت المسلمون في الركعة الأخيرة من كل صلاة بعد الركوع قنوتاً يدعون فيه بنصرة أهل فلسطين وخذلان أعدائهم ومناوئهم، بالصيغة التالية مثلاً: اللهم غياث المستغيثين ونصير المستضعفين انصر إخواننا أهل فلسطين، اللهم فرج كربتهم وأيد قضيتهم واخذل أعداءهم واشدد الوطأة على من ناوهم واجعلها عليهم سنين كسني يوسف وارفع مقتك وغضبك عنا يا رب العالمين، وصلّ اللهم على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

كما أرسلوا الرسائل والبرقيات إلى المسؤولين في الدولة وأصحاب النفوذ للتدخل لمساعدة فلسطين، والعمل الجاد على حلّ قضيتها.^١

وعندما انعقد المؤتمر العربي لنصرة قضية فلسطين في "بلودان" في ١٠/٩/١٩٣٧، أبرق حسن البنا باسم الإخوان المسلمين في مصر إلى المؤتمر برقية يعلن فيها استعداد جماعة الإخوان المسلمين للدفاع عن فلسطين بدمائهم وأموالهم.^٢

وعندما انعقد المؤتمر البرلماني للبلاد العربية والإسلامية في ٧/١٠/١٩٣٧، أولاه الإخوان عناية خاصة، وحرصوا على توفير سُبُل نجاحه على الرغم

١ عبد الحليم، الإخوان المسلمون، ج ١، ص ١٧٣-١٧٧؛ والبنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ٢٠٧-٢١٥، و٢٢٤-٢٢٦.

٢ أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٥-١٩٣٩ (من أوراق أكرم زعيتر)، سلسلة الدراسات رقم ٥٥ (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠)، ص ٣٢٢.

من أنهم لم يشاركوا في أعماله، حيث لا يملكون أعضاء برلمانيين. وأقام الإخوان حفل استقبال للوفود في مركزهم الرئيسي في القاهرة، حيث ألقى البنا كلمة فيهم، وأرسلت فروع الإخوان ١٣ برقية تدعم المؤتمر وتطالب بإصدار قرارات بحل القضية الفلسطينية بناءً على مطالب العرب.^١

ونظم الإخوان وجمعية الشبان المسلمين مظاهرة كبرى في مصر في حزيران/ يونيو ١٩٣٨ لنصرة فلسطين، وقد اصطدمت بالشرطة مما أدى إلى اعتقال ٣٤ من المتظاهرين،^٢ كما نظموا مظاهرة كبرى بمناسبة وعد بلفور في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨، شملت جميع أرجاء مصر، فكانت تنبيهًا قويًا للشعب المصري على أهمية قضية فلسطين.^٣

كما رحّب البنا بالقادة الفلسطينيين الذين أنهت السلطات البريطانية إبعادهم إلى جزر سيشل Seychelles (أبعدوا من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٧ إلى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٨)، وسمحت لهم بالعودة إلى مصر، وأقام لهم مكتب الإرشاد حفل استقبال في ١١/ ١/ ١٩٣٩.^٤ وقد أصبح من الواضح أن مركز الإخوان المسلمين صار ملتقى ومزار القيادات الفلسطينية القادمة إلى القاهرة.

وعندما عقد الإخوان مؤتمرهم الخامس في ٢/ ٢/ ١٩٣٩ قرر المؤتمر

١ El-Awaisi, The Muslim Brothers and the Palestinian Question 1938-1947, p. ٨٢.

٢ من أوراق أكرم زعير، ص ٤٠٣.

٣ عبد الحليم، الإخوان المسلمون، ص ١٧٧.

٤ El-Awaisi, The Muslim Brothers and the Palestinian Question 1938-1947, p. ٨٤.

إرسال تحياته للحاج أمين الحسيني وللمجاهدين ولأعضاء اللجنة العربية العليا. كما تقرر إرسال برقيات للحاج أمين والوفد المصري إلى مؤتمر لندن، ولوزير الخارجية البريطاني تدعم مطالب العرب في فلسطين.^١

ويبدو أن الإخوان المسلمين المصريين قد شاركوا بشكل محدود في الثورة الكبرى في فلسطين (١٩٣٦-١٩٣٩)، فيذكر كامل الشريف أن عددًا من شباب الإخوان قد استطاعوا التسلل إلى فلسطين والاشتراك مع المجاهدين في جهادهم خصوصًا في مناطق شمال فلسطين^٢ (حيث جماعة القسام)؛ ويبدو أن المفتي (الحاج أمين) قد شهد بصحة هذا الكلام.^٣ كما أن في مذكرات محمود عبد الحليم ما يشير إلى اتصال الإخوان بمجاهدي فلسطين والتنسيق معهم،^٤ وعلى هذا، فنحن لا نستبعد مشاركة الإخوان بشكل فردي في الثورة الكبرى.

ويذكر الإخوان المسلمون عادة أن أهم أسباب إنشاء الإمام البنا للنظام الخاص داخل جماعة الإخوان هو مشاركة أعضائه في الجهاد لتحرير فلسطين من الانتداب البريطاني، وإفشال المخطط اليهودي في بناء الوطن القومي على أرضها، وقد كان أعضاء هذا النظام، الذي أنشئ في مطلع الأربعينيات، يُختارون من خلاصة الإخوان، وينظمون في عضويته في سرية تامة، ويتم تربيتهم على معاني الجهاد، ويخضعون لتدريبات بدنية شاقة

١ Ibid., p. 85.

٢ كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٣١.

٣ ريتشارد ميتشل، الإخوان المسلمون، ترجمة محمود أبو السعود، تعليق صالح أبو رقيق (انديانا بوليس، الولايات المتحدة الأمريكية: دار النشر الأمريكية، ١٩٨٠)، ص ١٤٢.

٤ عبد الحليم، الإخوان المسلمون، ص ٢٠٠-٢٠١.

والتدريب على السلاح.^١

ثالثاً: نشأة حركة الإخوان في فلسطين:

في سنة ١٩٣٥ ظهر توجه الإمام البنا لنشر دعوة الإخوان خارج مصر، وكان ذلك إحدى قرارات المؤتمر السوري الثالث للجماعة في آذار/ مارس ١٩٣٥. وكانت فلسطين هي أول بلد مرشح لتنفيذ هذه المهمة، وفي ٣- ٦/ ٨/ ١٩٣٥ زار القياديان في الجماعة عبد الرحمن الساعاتي ومحمد أسعد الحكيم فلسطين، ولقيا ترحيباً هناك من الحاج أمين، حيث قاما بنشر دعوتهم، ثم تابعا سفرهما إلى سورية ولبنان.^٢ وخلال الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩-١٩٤٥)، وبتكليف من البنا، زادت زيارات الإخوان لفلسطين، وخصوصاً عبد المعز عبد الستار وسعيد رمضان، وأخذ عدد من أبناء فلسطين ينضمون للإخوان، غير أن تشكيل فروع للإخوان لم يتم، على ما يظهر، إلا بعد انتهاء الحرب، حيث خفّت ظروف القهر والتشديد البريطاني، ونشطت الحركة السياسية الفلسطينية. ويبدو أن أول فروع الإخوان إنشاءً كان فرع غزة برئاسة الشيخ عمر صوّان، ثم تأسس فرع يافا برئاسة ظافر الدجاني، أما فرع القدس فقد أنشئ سنة ١٩٤٥، ثم جرى حفل افتتاح مميز له في ٥/ ٥/ ١٩٤٦ وحضره الزعيم الفلسطيني جمال الحسيني، وأنشئ فرع حيفا برئاسة الشيخ عبد الرحمن مراد، وتتابع إنشاء الفروع في قلقيلية، واللد، ونابلس، وطولكرم، والمجدل، وسلواد، والخليل، حتى زادت الفروع

١ عبد الحليم، الإخوان المسلمون، ص ٢٥٨-٢٦٠؛ وميتشل، الإخوان المسلمون، هامش ص ١٠٨.

٢ البنا، مذكرات الدعوة والداعية، ص ١٩٨-١٩٩.

عن عشرين فرعاً.^١

أبقى الإمام البنا على متابعته اللصيقة لفلسطين، ولم يعامل فرع الإخوان فيها كقطر مستقل تماماً، وقد ظلّ الحضور الإخواني المصري فيها كثيفاً ومتواصلاً، وأشرفوا بأنفسهم على افتتاح عدد من الفروع وخصوصاً في المدن الكبيرة. وقد نشطت جماعة الإخوان في فلسطين في مجالات الدعوة والتربية والتوعية الإسلامية، والتعريف بالخطر الصهيوني، والمؤامرة على فلسطين، والتعبئة للجهاد.

وقد عقد الإخوان الفلسطينيون مؤتمراً عاماً في حيفا في ١٨/١٠/١٩٤٦ حضره ممثلون عن لبنان والأردن. وحملت القرارات أبعاداً تنظيمية داخلية وسياسية محلية وخارجية تؤكد الوعي والتفاعل السياسي مع الأحداث. وقد جاء في القرارات: اعتبار حكومة الاحتلال البريطاني في فلسطين مسؤولة عن الوضع السياسي المضطرب، وتأييد مطالب مصر بالجلء ووحدة النيل، وتأييد المشاريع التي ترمي إلى إنقاذ الأراضي، وعدم الاعتراف باليهود الطارئین على البلاد، وتعميم شعب "الإخوان المسلمين" في فلسطين.^٢ وبعد عام من انعقاد المؤتمر السابق، عقد الإخوان المسلمون مؤتمراً آخر كبيراً في حيفا في ٢٧/١٠/١٩٤٧، حيث أعلن الإخوان تصميمهم على الدفاع عن بلادهم بجميع الوسائل، واستعدادهم للتعاون مع جميع الهيئات الوطنية في هذا السبيل. كما أعلنوا أن هيئة الإخوان المسلمين ستتحمل نصيبها كاملاً من تكاليف النضال.^٣

١ انظر: محسن محمد صالح، التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد (الكويت: مكتبة الفلاح، ١٩٨٩)، ص ٤٣٨-٤٤٥.

٢ بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٥٠٣.

٣ المرجع نفسه، ص ٧٩٤.

ونلاحظ في هذه القرارات مدى جديتها وقوتها ومتابعتها للأحداث السياسية والواقعية، حيث كان للقرارات السياسية نصيب الأسد فيها، كما نلاحظ المضمون الجهادي الذي تمخضت عنه هذه القرارات، والتي كانت متفوقة في مضمونها وطبيعتها عن الاتجاهات السياسية السائدة في تلك الفترة.

وقد نشط الإخوان الفلسطينيون في تعبئة الجماهير للجهاد ضدّ الإنجليز واليهود، واعترفت الرواية "الإسرائيلية" الرسمية لحرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨ بذلك، حتى إن المؤسسات القومية اليهودية احتجت واشتكت عليهم للسلطات البريطانية.^١ ولكن لا ينبغي المبالغة في قدرة الإخوان الفلسطينيين وإمكاناتهم، إذ كانوا جديدين إلى حدّ ما على الساحة، ولم يبلغ انتشارهم حجمًا سياسيًا كبيرًا يؤهلهم للتأثير في القرار السياسي الفلسطيني المحلي. وكانوا بشكل عام أنصارًا للحاج أمين الحسيني الذي كان صديقًا شخصيًا للشيخ حسن البنا. كما أن إمكاناتهم كانت محدودة جدًا مقارنة بما لدى اليهود أو بما تحتاجه فلسطين في عملية الدفاع عنها. غير أن هذا لم يمنع أن يمثلوا في تلك الفترة حالة جهادية مضحية واعية، ذات روح وطنية قوية منفتحة.

رابعًا: دور الإخوان المسلمين في حرب فلسطين ١٩٤٧/١٩٤٨:

شارك الإخوان المسلمون الفلسطينيون في الجهاد^٢ عندما اندلعت حرب ١٩٤٧/١٩٤٨، إلا أن حداثة تنظيمهم وعدم نموه واستقراره بشكل مناسب

١ حرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨ (الرواية الإسرائيلية الرسمية)، ترجمه عن العبرية أحمد خليفة (قبرص: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٤)، ص ١٤.

٢ حول دور الإخوان المسلمين الفلسطينيين في حرب ١٩٤٧-١٩٤٨، انظر: محسن محمد صالح، التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد، ص ٤٦٤-٤٦٨.

وقوي جعلت مشاركتهم محصورة ضمن قدراتهم المحدودة وإمكاناتهم المتواضعة.

ومع ذلك فقد شكلت شُعب الإخوان في فلسطين قوات غير نظامية منذ بداية الحرب، عملت في أماكن استقرارها في الشمال والوسط تحت القيادات العربية المحلية هناك (التي تتبع جيش الإنقاذ أو جيش الجهاد المقدس). وقد قامت بغارات ناجحة على مستعمرات اليهود وطرق مواصلاتهم، على الرغم من الضعف الشديد الذي كانت تعانيه سواء في التسليح أم التدريب، ولذلك لا نجد ذكرًا رسميًا لدور الإخوان في هذه المناطق بشكل عام. أما في المناطق الجنوبية وخصوصًا غزة وبئر السبع، فقد انضم العديد من إخوان فلسطين إلى قوات الإخوان (المصرية) الحرة بقيادة كامل الشريف، وشاركوا بقوة وفاعلية في معارك فلسطين هناك. ويذكر كامل الشريف أن قوات الإخوان المصرية الحرة كان معدل عددها ٢٠٠ مجاهد في مناطق جنوب فلسطين، وأنها كان يشاركها الجهاد نحو ٨٠٠ مجاهد آخر من أبناء فلسطين، تحت قيادتها، حيث إن كثيرًا منهم تأثروا بفكر الإخوان المسلمين وأصبحوا منهم.^١

وكانت أنشط شعب الإخوان مشاركة في الجهاد شعبة الإخوان المسلمين في يافا، وقد كان هناك، تنظيم عسكري سري خاص، ضمن أعضاء الإخوان في يافا، شارك فيه عدد محدود من الإخوان ممن يصلحون لهذا العمل، ولم يكن باقي الإخوان أعضاء فيه أو يعلمون شيئًا عنه، وقد ظهر نشاطه الجهادي مع بداية الحرب. وعندما تشكلت لجنة قومية في يافا مع بدء الحرب، شارك

١ كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٦٤.

ضمن قيادتها ممثل عن الإخوان المسلمين وهو رئيس الفرع هناك، ظافر راغب الدجاني، وقد ألفت هذه اللجنة لجائاً عديدة لتعنى بمختلف الشؤون في المدينة، وقد أسندت مهمة إدارة اللجنة الاقتصادية لظافر الدجاني، الذي كان يشغل أيضاً رئاسة الغرفة التجارية في المدينة.

وعندما جاء كامل الشريف إلى منطقة يافا مع سرية من شباب الجامعات، تولى هو قيادة مجاهدي الإخوان حيث تجمع تحت قيادته نحو ١٠٠ مجاهد،^١ وتولى كامل الشريف قيادة منطقة في يافا اسمها كرم التوت، وتقع بين يافا وتل أبيب، حيث تقع معارك يومية بين المجاهدين واليهود. كما شارك الإخوان المجاهدون في الهجوم على مستعمرة بتاح تكفا، ثم ما لبث كامل الشريف أن انتقل إلى منطقة النقب.

ويذكر عارف العارف أنه كان للإخوان المسلمين في يافا قوات متحركة يبلغ عددها ٣٠ مجاهداً بقيادة حسن عبد الفتاح والحاج أحمد دولة، وكان عندهم ٣٠ بندقية ورشاش و٢ ستن، وقد كانوا يهبون لنجدة المواقع كلما دعت الحاجة.^٢ وقد تولى الإخوان في يافا في أثناء الحرب الدفاع عن مناطق البصة وتل الريش والعجمي والنزهة، بالإضافة إلى المحافظة على الأمن داخل المدينة، كما يؤكد على الدور المشرف الذي قام به الإخوان في يافا، حيث كان الالتزام بالإسلام من سماتهم، وكان الدفاع والقتال عن إيمان بالله. وفي منطقة القدس شارك إخوان فلسطين في القتال مع إخوانهم القادمين من البلاد العربية أو مع قوات الجهاد المقدس.

١ عارف العارف، النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود (بيروت: المكتبة العصرية،

١٩٥٤)، ج ١، ص ٢٢٧-٢٢٩.

٢ العارف، النكبة، ج ١، ص ٢٣٤.

دور الإخوان المسلمين المصريين:

تذكر بيان نويهض أن اهتمام الإخوان المسلمين بتحرير فلسطين كان اهتماماً صادقاً ومرتكزاً على الإيمان الديني العميق.^١ ولأن الإخوان في مصر قد أصبحوا في تلك الفترة من أنشط وأقوى الاتجاهات فيها فقد كان لهم الدور الأكثر قوة من بين إخوان الدول العربية المشاركين في حرب فلسطين.

فقبل إعلان الحرب، قام الإخوان في مصر بمهمة تهيئة الشعب لفكرة الجهاد، وانطلقوا في أرجاء القطر المصري داعين للجهاد في سبيل الله لإنقاذ الأرض المباركة،^٢ كما قاموا بالعديد من المظاهرات القوية والتي كان لها أثرها في زيادة وعي الجماهير بقضية فلسطين،^٣ وقاموا بحملة لجمع التبرعات لفلسطين، كما أخذوا يجوبون صحراء مصر الغربية لتوفير السلاح من بقايا الحرب العالمية الثانية للجهاد في فلسطين.^٤

وأسهم الإمام البنا في توحيد أكبر منظمتين شبه عسكريتين في فلسطين وهما منظمتا النجادة والفتوة، حيث كان الصراع والتنافس قد احتدم بينهما، واختير باتفاقهما محمود لبيب وكيل الإخوان المسلمين للشؤون العسكرية مسؤولاً عن تنظيم هذه التشكيلات، التي توحدت تحت اسم "منظمة الشباب العربي"، لكن السلطات البريطانية أجبرت لبيب على

١ بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٥٠٤.

٢ الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٣٤؛ ومحمد علي الطاهر، معتقل هاكستب: مذكرات ومفكرات (مصر: المطبعة العالمية، ١٩٥٠)، ص ٦١. عبد العزيز

علي أحد مجاهدي الإخوان المسلمين المصريين في حرب ١٩٤٨.

٣ انظر مثلاً: عبد الحليم، الإخوان المسلمون، ص ٤١٢.

٤ ميتشل، الإخوان المسلمون، ص ١٥١-١٥٢.

مغادرة فلسطين.^١

وفي ٩/١٠/١٩٤٧ أبرق الشيخ حسن البنا إلى مجلس الجامعة العربية يقول إنه على استعداد لأن يبعث كدفعة أولى عشرة آلاف مجاهد من الإخوان إلى فلسطين، وتقدم فوراً إلى حكومة النقراشي طالباً السماح لفوج من هؤلاء المجاهدين باجتياز الحدود ولكنها رفضت.^٢ وفي ١٥/١٢/١٩٤٧ قام الإخوان بمظاهرة كبرى، وممن خطب في هذه المظاهرة رياض الصالح، والأمير فيصل بن عبد العزيز، وجميل مردم بك، وإسماعيل الأزهرى، وقد خطب أيضاً حسن البنا الذي أكد "أن الإخوان المسلمين قد تبرعوا بدماء عشرة آلاف متطوع للاستشهاد في فلسطين... وهم على أتم استعداد لتلبية ندائكم".^٣

بدأ الإخوان المسلمون المصريون بالتوجه فعلاً للجهاد في فلسطين منذ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧، أي قبل بدء الحرب في فلسطين بأكثر من شهر، وقد سافرت أول كتيبة من الإخوان بإمارة محمد فرغلي وقيادة محمود ليب،^٤ لكن التضييق الشديد من الحكومة المصرية على سفر الإخوان قد جعل مشاركتهم محدودة، وقد اضطر الإخوان للتحايل فاستأذنوا بعمل رحلة علمية إلى سيناء، فأذنت لهم الحكومة بعد إلحاح شديد ومن هناك

١ الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٣٣-٣٤؛ وعبد الحليم، الإخوان المسلمون، ص ٤١٤-٤١٥.

٢ العارف، النكبة، ج ٢، ص ٣٩٨.

٣ عبد الحليم، الإخوان المسلمون، ص ٤١٢.

٤ صلاح شادي، صفحات من التاريخ: حصاد العمر (الكويت: دار الشعاع، ١٩٨٠)، ص ٥٦.

انطلقوا إلى فلسطين. وأخذ الإخوان يتسللون سرًا حيث تجمعوا في معسكر النصيرات، وأخذوا يقومون بالعمليات الجهادية. وبهذا بدأت العمليات الجهادية العسكرية في صحراء النقب، وانضم للإخوان الكثير من المجاهدين من عرب فلسطين، حتى صاروا أضعاف عدد الإخوان أنفسهم فيما بعد. وبدأت حرب عصابات تُبشر بنجاح رائع، إلا أن الحكومة المصرية طلبت من المركز العام للإخوان سحب قواته من النقب، فرفض فقطعت عنهم الحكومة الإمدادات والتموين، وراقبت الحدود، إلا أنهم وجدوا من أبناء فلسطين كل مساعدة وعون.^١

ولما اشتد الضغط على الحكومة المصرية سمحت للمتطوعين بالمشاركة في الجهاد تحت راية الجامعة العربية، حيث تدربوا في معسكر هاكستب Camp Huckstep، وكان يشرف على حركة التطوع محمود لبيب وكيل الإخوان للشؤون العسكرية، وتألّفت ثلاث كتائب من المتطوعين يقدر عددها بـ ٦٠٠ مقاتل، نصفهم تقريبًا من الإخوان المسلمين، وقد طبعوا هذه الكتائب بطابعهم الخاص، وكان أبرز قادة هذه الكتائب أحمد عبد العزيز وعبد الجواد طباله.^٢

ولم يكف معسكر هاكستب لاستيعاب المتطوعين، إذ إن المتطوعين كانوا عشرات الأضعاف بالنسبة للمشاركين، فأرسل الإخوان ١٠٠ من أفرادهم ليتدربوا في معسكر (قطنا) في سورية، وهم كل ما استطاع المركز العام

١ كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٤٠-٤١، و٧١-٧٤، و١٢٦؛ وصلاح شادي، صفحات من التاريخ، ص ٦٣.

٢ العارف، النكبة، ج ٢، ص ٣٩٩؛ وكامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٤٥، و٧٨.

للإخوان أن يقنع الحكومة المصرية بقبوله.^١

وقد سافرت هذه الكتيبة عن طريق ميناء بورسعيد في ١٠/٣/١٩٤٨، وقبل مغادرتها خرجت بورسعيد عن بكرة أبيها لتحيتهم وتوديعهم، وخطب البنا في الجميع، ومما قاله "هذه كتيبة الإخوان المسلمين المجاهدة بكل عددها وأسلحتها تتقدم للجهاد في سبيل الله ومقاتلة اليهود أعداء الإسلام والوطن. ستذهب إلى سوريا حتى تنضم إلى باقي المجاهدين، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وفي هذا فليتنافس المتنافسون".^٢

وقد استقبلت هذه الكتيبة في سورية استقبالا شعبيا كبيرا، وكان في مقدمة المستقبليين المراقب العام للإخوان في سورية مصطفى السباعي، وعمر بهاء الدين الأميري، والشيخ محمد الحامد وغيرهم، وفي ظهر يوم الثلاثاء ٢٣ آذار/ مارس سافر حسن البنا إلى دمشق على متن طائرة لتفقد أحوال المتطوعين هناك.^٣

قام الإخوان المسلمون بدور مشرف في حرب فلسطين اعترف لهم به كل من كتب عن هذه الحرب،^٤ وكان لهم دور مشهود في جنوب فلسطين في مناطق غزة ورفح وبئر السبع، حيث كانوا يهاجمون المستعمرات ويقطعون مواصلات اليهود. ومن أبرز المعارك التي شاركوا فيها هناك معركة التبة ٨٦ التي يذكر العسكريون أنها هي التي حفظت قطاع غزة عربيا، ومعركة كفار

١ صلاح شادي، صفحات من التاريخ، ص ٦٣.

٢ عباس السيسي، في قافلة الإخوان المسلمين (د.م.: د.ن.، ١٩٨٦)، ص ١٥٢-١٥٣.

٣ المرجع نفسه، ص ١٥٣.

٤ زكريا سليمان بيومي، الإخوان المسلمون والجماعات الإسلامية في الحياة السياسية المصرية ١٩٢٨-١٩٤٨ (القاهرة: مكتبة وهبة، ١٩٧٩)، ص ١٣١.

ديروم، واحتلال مستعمرة ياد مردخاي Yad Mordechai وغيرها، كما أسهموا بدور مهم في تخفيف الحصار عن القوات المصرية المحاصرة في الفالوجا. كما كان للإخوان المصريين مشاركتهم الفعالة في معارك القدس وبيت لحم والخليل وخصوصًا صور باهر. وكان من أبرز المعارك التي شاركوا فيها في تلك المناطق معركة رامات راحيل Ramat Rachel، واسترجاع مار الياس، وتدمير برج مستعمرة تل بيوت Talpiyyot قرب بيت لحم، والدفاع عن تبة اليمن التي سميت تبة الإخوان المسلمين نظرًا للبطولة التي أبدوها... وغيرها.^١

ومن طريف ما يرويه عباس السيسي أنه زار مع أحد الضباط معسكر مجاهدي الإخوان المسلمين في البريج، وكان الحارس على بوابة المعسكر فتى لا يتجاوز الثالثة عشر من عمره ومعه بندقية، فسلمنا عليه وسألناه الضابط عن اسمه:

فقال الفتى: قيس.

فقال الضابط: وأين ليلاك يا قيس؟

فقال الفتى بكل ثقة: إن ليلاي في الجنة.

فذهلا من هذا الرد الذي خشعت له قلوبهما، وكان في هذا الكفاية للتعرف

على المعنويات العالية الموجودة داخل المعسكر قبل دخولهما!!^٢

وقد استشهد من إخوان مصر في معارك فلسطين نحو مئة، وجرح نحو

١ عن العمليات العسكرية للإخوان بالتفصيل انظر: كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين.

٢ السيسي، في قافلة الإخوان المسلمين، ص ١٦٦.

ذلك، وأُسر بعضهم^١. وكانت وطأة الإخوان شديدة على اليهود، وقد سئل موشي ديان Moshe Dayan بعد الحرب بقليل عن السبب الذي من أجله تجنب اليهود محاربة المتطوعين في بيت لحم والخليل والقدس فأجاب "إن الفدائيين يحاربون بعقيدة أقوى من عقيدتنا.. إنهم يريدون أن يستشهدوا ونحن نريد أن نبني أمة، وقد جربنا قتالهم فكبدونا خسائر فادحة.. ولذا فنحن نحاول قدر الإمكان أن نتجنب الاشتباك بهم"^٢، ولذلك كان انتقام اليهود من الإخوان رهيباً إذا وقعوا أسرى في أيديهم، فقد كانوا يقتلونهم، ويشوهون أجسامهم^٣.

لم يكن حسن البنا سعيداً بأداء الجيوش العربية وهزائمها وتراجعاتها، ولذلك قرر أن يعد قوة ضخمة للدفاع عن القدس، حيث كان اليهود الصهاينة يشنون هجمات عنيفة على مراكز الجيش الأردني فيها، مما خُشي معه أن يستولي اليهود على المدينة المقدسة. وأخبر الشيخُ البنا كامل الشريف إنه يجهز قوات كثيفة ليدخل بها فلسطين، وأنه سيعلن الجهاد الديني والتعبئة الشعبية، بعد أن فشلت الحكومات وجامعتها. وكان يسوّق له هذه الأنباء مردداً هذه العبارة "ما فيش فايده، الناس دول مش عاوزين يحاربوا"، وكان البنا يرمي من وراء ذلك إلى إثارة الشعور الديني في العالم الإسلامي، ودفع الشعوب الإسلامية والحكومات الإسلامية لعمل شيء ما^٤.

١ صلاح شادي، صفحات من التاريخ، ص ٦٣.

٢ حلمي سلام، "كان الفدائيون قوة فأضعناها"، مجلة المصور، عدد ١٣٥١، ١/٩/١٩٥٠، ص ١٩.

٣ كامل الشريف، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٣٩-٤٠.

٤ المرجع نفسه، ص ٢١٣.

دور الإخوان المسلمين السوريين:

قام الإخوان السوريون بدور مشهود خصوصاً في معارك منطقة القدس وقد تدرّبت كتيبة الإخوان السوريين في (قطنا) ثم سافرت إلى منطقة القدس، وقد شارك من الإخوان السوريين نحو مئة أخ، بقيادة المراقب العام للإخوان المسلمين في سورية مصطفى السباعي، وقد اشتركوا ببسالة في معارك القدس مثل معركة باب الخليل التي أصيب فيها ٣٥ منهم بجراح، وكان النصر معقوداً فيها للمجاهدين، ومعركة القسطل حيث شارك فيها فوجٌ، منهم عبد القادر الحسيني، ومعركة الحي القديم في القدس، ومعركة القطمون، ونسف الكنيس اليهودي الذي اتخذته اليهود مقراً حربياً وغيرها.^١

وكان الدفاع عن مناطق القدس التالية: الشيخ جراح، والمصرارة، وسعيد وسعيد، من مسؤولية الأخ عدنان الدبس، وكان الأخوان زهير الشاويش وكامل حتاحت مسؤولين عن الدفاع عن القطمون. كما تألف من الإخوان السوريين فريق لحفظ الأمن والانضباط في المدينة بقيادة الشيخ ضيف الله مراد، ثم انضم إليه بعد انتهاء معارك القطمون الأخ زهير الشاويش، الذي طارد اللصوص والفجار وأغلق الخمارات وأندية القمار، وشعر السكان في المدينة بالأمن والطمأنينة إثر ذلك، وجاء وفد منهم يشكرون الإخوان على جهودهم. أما الإشراف على الاتصال بين المراكز وأموال السلاح والذخيرة فكان يشرف عليه الأخ لطفي السيروان،^٢ وقد استشهد العديد من الإخوان السوريين في

١ انظر: مصطفى السباعي، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين (د.م.: دار النذير، ١٩٨٥)؛ والعارف، النكبة، ج ١، ص ٣٢٦، ٣٢٩، و٤٣٥-٤٣٧.

٢ مصطفى السباعي، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٢٧.

أثناء المعارك كما جرح الكثيرون. وذكر السباعي أسماء عشرة منهم في نهاية حديثه عن دور الإخوان السوريين في حرب فلسطين.^١

دور الإخوان المسلمين الأردنيين:

تفاعل سكان شرقي الأردن مع حرب فلسطين، وشكّل الإخوان المسلمون هناك لجنة لجمع التبرعات والمساعدات، كما فتحو باب التطوع للمشاركة في الجهاد، وكان تجاوب الناس رائعا، فعندما فتح باب التطوع في شعبة السلط سجل أكثر من ٣ آلاف شخص أنفسهم.

وتكونت من إخوان منطقة عمان وما حولها سرية متطوعين تضم نحو ١٢٠ مجاهداً من الإخوان المسلمين، وسميت باسم سرية أبي عبيدة، وقد تولى قيادتها الإخوانية الحاج عبد اللطيف أبو قورة المراقب العام للإخوان المسلمين في الأردن في تلك الفترة، أما قيادتها العسكرية فقد تولّاها الملازم المتقاعد ممدوح الصرايرة، وقد دخلت فلسطين في ١٤/٤/١٩٤٨ وتمركزت في عين كارم وصور باهر.^٢ وقد خاضت هذه السرية عدة معارك واستشهد عدد من أفرادها مثل سالم المسلم وبشير سلطان.^٣

وفي إربد تولى مسؤول شعبة الإخوان هناك السيد أحمد محمد الخطيب قيادة الإخوان فيها في حرب فلسطين، وبلغ مجموع من شارك معه في الجهاد من إخوان إربد وأهلها المتطوعين نحو مئة مجاهد، بحيث كان يشترك في

١ مصطفى السباعي، الإخوان المسلمون في حرب فلسطين، ص ٢٨-٥٧.

٢ انظر: سليمان موسى، أيام لا تنسى: الأردن في حرب ١٩٤٨ (الأردن: مطبعة القوات المسلحة الأردنية، ١٩٨٢)، ص ٤٤-٤٥.

٣ المرجع نفسه، ص ٤٥.

المعركة الواحدة من ٢٠-٢٥ مجاهدًا. وكان إخوان إربد يقومون بمهاجمة المستعمرات القريبة من الحدود، ويرجعون إلى إربد ثانية بعد القيام بعملياتهم، وقد استشهد من إخوان إربد شهيداً واحداً، كما أصيب أحمد الخطيب بجراح خطيرة حيث تماثل للشفاء بعد فترة طويلة.

دور الإخوان المسلمين العراقيين:١

بعد أسبوع واحد من قرار التقسيم، أسهم الإخوان المسلمون في العراق بقيادة الشيخ محمد محمود الصواف بشكل فعال في تأليف "جمعية إنقاذ فلسطين" في بغداد، ولقد لبي نداء التطوع ١٥ ألفاً معظمهم ممن تدرب في الجندية أو الشرطة. وكان للإخوان المسلمين في تلك الفترة دور أساسي في تعبئة الجماهير للجهاد، وكانوا على رأس المظاهرات التي خرجت للتنديد بقرار تقسيم فلسطين، والتي اشترك فيها ٢٠٠ ألف عراقي في بغداد.٢

وتألف من المتطوعين للجهاد فوجا الحسين والقادسية وسرية المغاوير وغيرها، وكلما تدرب فريق منهم كانت الجمعية ترسله إلى اللجنة العسكرية في دمشق، وفي ٧/١/١٩٤٨ وصلت أول سرية مغاوير إلى دمشق، وبعد أسبوع وصل فوجان آخران مع السلاح والعتاد. وبينما كانت الجمعية تستعد لإرسال فوج جديد تلقت إنذاراً من اللجنة العسكرية، بأن تكف عن إرسال المتطوعين حتى إشعار آخر!! كما أشار رئيس وزراء العراق صالح جبر (بعد أن وقع معاهدة بورتسموث Portsmouth Treaty) بعدم إرسال أكثر

١ حول دور الإخوان المسلمين العراقيين في حرب ١٩٤٧-١٩٤٨، انظر: محسن محمد صالح، التيار الإسلامي في فلسطين وأثره في حركة الجهاد، ص ٤٧٧-٤٧٨.
٢ انظر: بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٦١٢.

من ٥٠٠ متطوع، كما أن طه الهاشمي المفتش العام للجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية، قال لرئيس الجمعية "إذا أرسلتم مددًا آخر من المتطوعين أعدتهم إلى بغداد على نفقة الجمعية!!" فاكثفت الجمعية بعد ذلك بإرسال التبرعات،^١ وقد كان الإخوان من أبرز وأنشط عناصر هذه الجمعية، وقد وصلت كتبتا الحسين والقادسية من متطوعي العراق (كل واحدة تتكون من ٣٦٠ مقاتلاً) إلى فلسطين في آذار/ مارس ١٩٤٨.^٢

كما اشترك ضمن الأفواج التي ذهبت للجهاد الكثير من إخوان العراق الذين قاتلوا ضمن قوات جيش الإنقاذ، ورأوا الكثير من تخاذل وضعف وسوء إدارة قيادته وعلى رأسه فوزي القاوقجي، إلا أنهم بذلوا ما استطاعوا في المعارك التي شاركوا فيها خصوصًا في شمال فلسطين.^٣

حلّ الإخوان واغتيال الإمام البنا:

من الصعب الادعاء بأن حلّ جماعة الإخوان المسلمين في ٨/١٢/١٩٤٨ واغتيال البنا في ١٢/٢/١٩٤٩ لم يكن له علاقة بجهاد الإخوان في فلسطين، وربما لا تكون مشاركتهم في حرب فلسطين هي السبب الوحيد، لكن القدرة العالية على التعبئة والحشد التي أظهرها الإخوان، والبطولات والتضحيات التي برزت في المعارك والصدامات، بالإضافة إلى الاستعدادات الحقيقية لتحشيد عشرات الآلاف وهو ما يفوق أعداد بعض الجيوش العربية، كل

١ بيان نويهض، القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، ص ٦١٢-٦١٣.

٢ حرب فلسطين ١٩٤٧-١٩٤٨ (الرواية الإسرائيلية الرسمية)، ص ٢٢١.

٣ لمزيد من المعلومات، انظر: محمد محمود الصواف، معركة الإسلام أو وقائعنا في فلسطين بين الأمس واليوم (لبنان: د.ن.، ١٩٦٩)، ص ١٥٨-١٧٥.

ذلك أثار مخاوف الصهاينة والبريطانيين والعائلة الحاكمة في مصر، خصوصاً إذا ما وجدت احتمالات لتوجيه غضب الشارع المصري ضدّ نظامه الحاكم بسبب تخاذله وضعف أدائه في فلسطين.

لقد دفع الإمام البنا فاتورة حبه لفلسطين والتزامه الصادق بنصرتها وتحريرها، كما دفعت جماعة الإخوان فاتورة جهدها وجهادها في فلسطين. استشهد الإمام البنا، وحُلّت الجماعة وتعرضت للقهر والمطاردة، لكن الجماعة بقيت وسقط النظام الملكي.

ومن الملفت للنظر أنه عندما حُلّت الجماعة، ووصلت الأخبار إلى الإخوان المجاهدين في فلسطين، أرسل إليهم البنا يطلب منهم الاستمرار في جهادهم، مؤكداً على أن معركتهم هي في فلسطين. وهكذا كان، ولكن النظام لم يمهله ولم يمهله، فاغتالوه عليه رحمة الله، وساقوا المجاهدين إلى السجون بدل أن يحفظوا بالإجلال والتكريم.

سوف يكتب التاريخ أن الإمام البنا كان من رجالات العصر النادرين، الذين أعطوا لفلسطين الكثير: فكرياً، وسياسياً، وإعلامياً، وتعبوياً، وخيرياً، وجهادياً، ومن أبرز من وسَّعوا دائرة الاهتمام بها، وجعلوها محطّ أنظار المسلمين. عليه رحمة الله.

الفصل الثاني

التيار الإسلامي الفلسطيني والمقاومة المسلحة ١٩٤٩-١٩٨٧

مقدمة:

شهدت الفترة ١٩٤٩-١٩٦٧ غلبة الفكر القومي العربي ونمو الاتجاه الاشتراكي على الساحة العربية، وبرز دور مصر في عهد عبد الناصر فيما يتعلق بفلسطين، بينما لم تكن الهوية الوطنية الفلسطينية قوية بما يكفي لبروزها وانتشارها. أما التيار الإسلامي فقد عانى كثيراً من المطاردة والتضييق، منذ النصف الثاني من الخمسينيات، خصوصاً في مصر، وانحسر دوره السياسي والشعبي في البلاد العربية. وشهدت هذه المرحلة أفول نجم الحاج أمين الحسيني، وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية سنة ١٩٦٤. وانتهت المرحلة بهزيمة الجيوش العربية في حرب ١٩٦٧، وفقدان باقي فلسطين والجولان وسيناء، مما أدى إلى صدمة كبيرة في العالم العربي، واهتزاز الثقة بالأفكار القومية والاشتراكية وبالأظمة العربية.

أولاً: اختراق الحدود وبدايات العمل المقاوم:

كان ما يزال كثير من الفلسطينيين يقطعون حدود الهدنة، بمبادرات فردية، للقيام بهجمات ضدّ "الإسرائيليين" أو لمحاولة استحصال بعض أملاكهم وأغراضهم الخاصة. ومع الزمن، اتخذت هذه الهجمات طابعاً أكثر تنظيماً وبدأت تتخذ شكل المقاومة الوطنية. وتشير الإحصاءات "الإسرائيلية" الرسمية إلى أن حوادث اختراق خطوط الهدنة وصلت إلى ١٠-١٥ ألف

حادثة سنوياً بعد انتهاء حرب ١٩٤٨، وأنها وصلت إلى نحو ١٦ ألفاً سنة ١٩٥٢، غير أنها مالت إلى الانخفاض التدريجي لتصل إلى نحو ٧ آلاف حالة سنة ١٩٥٣، وليصبح معدلها نحو ٤٥٠٠ حادثة في سنتي ١٩٥٤ و١٩٥٥.^١ ويعود الانخفاض إلى السلوك "الإسرائيلي" العنيف تجاهها، وتطور قدرات الجيش "الإسرائيلي" وإمكاناته، وإلى مجموعة الإجراءات العربية على الحدود لمنع "التسلل"، وبدرجة أقل إلى إنشاء مستعمرات "إسرائيلية" حدودية. وكان واضحاً أن أغلبية حالات الاختراق كانت سلوكاً فردياً، وأن الأغلبية الأوسع للمتسللين لم تكن مسلحة.^٢ وبحسب الباحث "الإسرائيلي" بني موريس Benny Morris الذي درس ظاهرة "التسلل" هذه، فإن نحو ١٠٪ من الحوادث كان مرتبطاً بخلفية سياسية ويعمل المقاومة المسلحة. غير أن ما يمكن أن يطلق عليه دوافع اقتصادية، كان لا يخلو من دوافع سياسية ومن رغبات في الانتقام والثأر، أو أن العديد ممن كان يبدأ الأمر معهم اقتصادياً كان ينتهي بهم إلى تدمير ممتلكات "إسرائيلية" أو قتل "إسرائيليين"، وحتى أولئك الذين كانوا يصادرون ممتلكات "إسرائيلية" كانوا لا يرون أنهم يقومون بـ"السرقه" وإنما بعمل وطني انتقامي.^٣

ووفق إحصائية وزارة الدفاع "الإسرائيلية"، فقد بلغ عدد القتلى من العسكريين "الإسرائيليين" في الفترة ١٩٥١-١٩٥٦ ما مجموعه ٢٨٨ قتيلاً،

1 Benny Morris, *Israelis Border Wars: 1949-1956* (New York, US: Oxford University Press, 1993), pp. 28 and 411.

2 Ibid., pp. 411 and 416.

3 Ibid., p. 49.

وعدد القتلى من المدنيين ٢٦٤ قتيلاً؛ نتيجة حوادث اختراق الحدود، مع عدم احتساب القتلى "الإسرائيليين" نتيجة احتلال قطاع غزة وسيناء سنة ١٩٥٦.^١

وبناء على ذلك يمكن استنتاج أن معدل الاختراق كان بين ١٢ و ٤٤ حادثاً يومياً في الفترة من ١٩٥١ إلى ١٩٥٦، ما يدل على أن خطوط الهدنة كانت ما تزال "رخوة"؛ وأن هناك جرأة في الاختراق بالرغم من المخاطر الكبيرة المحتملة. إذ تشير التقديرات "الإسرائيلية" إلى قتل ٢٧٠٠-٥٠٠٠ متسلل في الفترة ١٩٤٩-١٩٥٦، مع التنبيه إلى أن معظم القتلى استشهدوا في الفترة ١٩٤٩-١٩٥١، حيث انخفض المعدل إلى ٣٠٠-٥٠٠ سنوياً في الفترة ١٩٥٢-١٩٥٦.^٢

وعلى افتراض صحة معدلات الاختراق المشار إليها، وأن تلك المرتبطة بدوافع سياسية وعمل مقاوم كانت في حدود ١٠٪، فمعنى ذلك أنه كان يحدث ما معدله عملية مقاومة واحدة إلى أربع عمليات على الأقل يومياً في الفترة ١٩٤٩-١٩٥٦ (بدقة أكثر ٢, ١-٤, ٤ عملية يومياً). وعلى ذلك، فقد وفرت الرغبة الواسعة للاجئين الفلسطينيين في المشاركة في العمل الوطني، وفي المقاومة، مع الخبرة الدقيقة بأرضهم المحتلة، أرضية قوية لقوى المقاومة كالأخوان المسلمين أو الجهات المحسوبة على المفتي الحاج أمين الحسيني، لتجنيد هؤلاء والاستفادة منهم في العمل المقاوم. كما لاحظ موريس أنه وإن اتجهت عدد حالات الاختراق الحدودي إلى

١ Ibid., p. 98.

٢ Ibid., p. 416.

الانخفاض، فإن العمل المنظم الموجه لأهداف سياسية قد تزايد؛ الأمر الذي حوّلها إلى مشكلة عسكرية سياسية "إسرائيلية" مع مرور الوقت.^١

ثانيًا: التيار الإسلامي في الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٤٩-١٩٦٧:

ومن ناحية التيار الإسلامي الفلسطيني، فبعد انتهاء حرب ١٩٤٨ وبداية الخمسينيات، كان الإخوان المسلمون يزدادون قوة ونفوذًا، خصوصًا في قطاع غزة. وفي القطاع أصبح الشيخ عمر صوان، رئيس المكتب الإداري في غزة. وكان مركز قيادة الإخوان حيث المكتب الإداري في حارة الدرج، وهناك ١١ شعبة أخرى في الرمال، وحارة الزيتون، والشجاعية، وخان يونس، ورفح، والبريج، والنصيرات، والمغازي، ودير البلح، وبنّي سهيلة، وبيت لاهيا. وخلال الفترة ١٩٤٩-١٩٥٦ كان الإخوان أقوى التيارات، والقوة السياسية الأولى في القطاع.^٢

من الناحية الشعبية، كان للإخوان المسلمين قصب السبق وسط قطاعات الفلسطينيين خلال الفترة ١٩٤٩-١٩٥٤ سواء في الضفة أم في القطاع، لما حققوه من سمعة جهادية في حرب ١٩٤٨، ولما طرحوه من برامج إسلامية وطنية، حيث نعموا بحرية نسبية في مصر حتى ١٩٥٤، وبأجواء مواتية في الأردن. كما أصبح حزب "التحرير الإسلامي" ظاهرة لا يستهان بها خصوصًا في الأردن في منتصف الخمسينيات، حيث ركز على العمل السياسي وإقامة

١. Ibid. p. 55.

٢. حول الإخوان المسلمين في قطاع غزة، انظر الفصل الثاني من كتاب: محسن محمد صالح، الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني - قطاع غزة ١٩٤٩-١٩٦٧ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠٢٠)، ص ٤١-٩٩.

الخلافة الإسلامية. ومثل الشيوعيون تحديًا شعبيًا للتيار الإسلامي، خصوصًا في القطاعات الطلابية والمهنية، بما طرحه من شعارات بَرّاقة حول معاناة الجماهير، واتهام الأنظمة بالخيانة والعمالة... إلا أن هذا التيار والتيارات القومية واليسارية الأخرى لم تكن لتقوى على منافسة الإسلاميين، إلا بعد أن سدّد عبد الناصر ضربته القاسية للإخوان، وأخذ يلاحقهم، واستخدم إعلامه القوي في تشويه صورتهم. فأصبح التوجه العام لدى الإخوان والإسلاميين عمومًا هو المحافظة على النفس، والانكفاء على الذات بانتظار ظروف أفضل. وكانت أحد نماذج قوة الإسلاميين رابطة طلبة فلسطين في مصر التي كان يفوز بها الإسلاميون أو من يدعمونه حتى سنة ١٩٥٧، والتي رأسها ياسر عرفات عندما كان طالبًا مقربًا من الإخوان.

ثالثًا: الإخوان المسلمون والمقاومة المسلحة ١٩٤٩-١٩٥٥:

لم يكن من المستغرب أن تكون فكرة استئناف العمل العسكري بعد النكبة، حاضرة في نفوس الإخوان المسلمين. وثمة ما يشير إلى أن بدايات عمل المقاومة المنظمة من قطاع غزة ومن الحدود المصرية تعود إلى جهود كامل الشريف. فقد كان الشريف أحد قادة الإخوان المسلمين المصريين، من أبناء سيناء، الذين شاركوا في حرب ١٩٤٨ في يافا وفي جنوب فلسطين. وقد تمرّد كامل ورفاقه من الإخوان ومؤيديهم، على الهدنة بين مصر و"إسرائيل"، والتي عُقدت في آذار/ مارس ١٩٤٩، وتابعوا القتال، بالرغم

١ حول المقاومة المسلحة للإخوان المسلمين خصوصًا في قطاع غزة، انظر الفصل الرابع من كتاب: محسن محمد صالح، الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني - قطاع غزة ١٩٤٩-١٩٦٧، ص ١٥٩-٢٢١.

من وجود بيئة سياسية وأمنية مصرية تحارب الإخوان وتطاردهم، بعد حظر جماعتهم واغتيال مرشدهم. وكان الشريف ورفاقه يرون أنه إذا ما توقفت الحرب بين الجيوش النظامية، فإن حرب العصابات يجب أن تستمر، حتى تكون الجيوش العربية جاهزة لحرب جديدة. غير أن السلطات المصرية قامت باعتقاله ورفاقه في رفح، ثم أفرجت عنهم في أوائل ١٩٥٠، واضطر للعودة إلى العريش.

ظلّ الشريف "مسكوناً" بفكرة الجهاد ضدّ الصهاينة، حيث أقام في مدينة العريش، وأخذ يعيد ترتيب شبكة للمقاومة المسلحة في قطاع غزة ومن الحدود المصرية، تحت المظلة الواسعة للإخوان. ومن الواضح أن كامل الشريف، ابن صحراء سيناء، وبما لديه من خبرة عسكرية ناجحة، قد فاز بثقة قيادة الإخوان في القاهرة، لتكليفه بمهام قتال "الإسرائيليين"، والتي أضيف إليها مهام قتال الإنجليز في قناة السويس، بعد أن قام رئيس الوزراء المصري النحاس باشا بإلغاء معاهدي ١٨٩٩ و ١٩٣٦ مع بريطانيا، في أواخر سنة ١٩٥١. وكان يتابعه تنظيمياً عضو مكتب الإرشاد الشيخ محمد فرغلي، والذي كان القائد العام لحملة الإخوان العسكرية في حرب فلسطين ١٩٤٨.

وبالتنسيق مع كامل الشريف، أنشأ الإخوان المسلمون في قطاع غزة تنظيمًا سريًا ذا طبيعة عسكرية، قام بعدد من العمليات بالتنسيق مع بدو النقب وسيناء. وبحسب شهادات أعضاء هذا التنظيم العسكري الخاص، أمثال: محمد الخضري، وفوزي جبر، وخيري الأغا، ومحمد صيام، فإن هذا العمل كان عملاً سريًا منظمًا جدًا. ولضمان نجاح العمل، لم يكن هذا النشاط موضوعًا تحت إشراف القيادة الرسمية "التقليدية" للإخوان في غزة، ولكن كان له صلة وصل بكامل الشريف في العريش، الذي كانت تتم

متابعته تنظيمياً من عضو مكتب الإرشاد الشيخ محمد فرغلي .

وكان أبو سيدو صلة وصل رئيسية بين الشريف وبين القيادات في القطاع، فقد كان يعمل سباً في الجيش المصري في العريش، وكان معتاداً على العودة إلى غزة في عطلة نهاية الأسبوع. وقد وفر له ذلك غطاء مناسباً لتوصيل المعلومات والتعليمات، ابتداء من رفح مروراً، بخان يونس، ووصولاً إلى مكان إقامته في غزة.

من ناحية تنظيمية، تم تقسيم قطاع غزة إلى ثلاث مناطق:

١. غزة: ويتولى قيادتها خليل الوزير (أبو جهاد) وكان من بين مساعديه فوزي جبر، ومحمد الخضري، ومعاذ عابد، وعبد الله أبو مريحيل، وحمد العايد.

٢. الوسطى (خان يونس): ويتولى قيادتها خيرى الأغا.

٣. الجنوب (رفح): ويتولى قيادتها محمد يوسف النجار؛ وكان يساعده موسى نصار، وتولى إبراهيم عاشور في وقت لاحق القيادة مكان النجار. ومن بين أعداد كبيرة من الطلاب الإخوان، كان يتم انتقاء دقيق للأفراد بناء على مواصفات محددة خصوصاً أولئك الملتزمون، الناشطون، الكتومون، الذين لا يواجهون مشاكل اجتماعية. وكان عباس السيسى وأبو سيدو ينتقلان بين شعب الإخوان لتجنيد الأعضاء، ولعب أبو جهاد دوراً نشطاً في تجنيد عدة مجموعات من الإخوان.

وكانت إحدى العلامات المشجعة أن هناك المئات من الشباب الفلسطيني ممن تدرب في معسكرات الإخوان، في حرب ١٩٤٨. واستفاد الإخوان من وجود الضابط الإخواني في الجيش المصري عبد المنعم عبد الرؤوف في

القطاع إثر نجاح الثورة المصرية، فسهل لهم سبل التدريب العسكري. كما وفرّ كامل الشريف ورفاقه دعمًا لوجستيًا للعمل المقاوم، من خلال إنشاء معسكر للتدريب في القصيمة في سيناء، على بعد نحو ٨٦ كم جنوب شرقي العريش، قرب الحدود مع فلسطين المحتلة. وكان محمود الشريف (شقيق كامل) مشرفًا إداريًا ومسؤولًا عن التدريب والاتصال في المعسكر؛ حيث تمّ تدريب المئات من شباب البدو. كما تلقى عدد من الفلسطينيين تدريبًا عسكريًا في المعسكرات التي أقامتها الجامعات المصرية بعد تصاعد الأزمة مع الإنجليز في قناة السويس منذ أواخر ١٩٥١ وحتى ١٩٥٤. وكان ياسر عرفات أحد الفلسطينيين الذين تلقوا التدريب على يد مدربي الإخوان في جامعة فؤاد الأول (القاهرة) في تلك الفترة. واستفادت عملية التدريب من غطاء المخيمات الكشفية في التدريب الخشن وشبه العسكري، لتوفير حدٍّ أدنى مرتبط باللياقة البدنية والانضباط والاستعداد الرجولي للتضحية.

وكان معظم السلاح المتوفر سلاحًا خفيفًا يتناسب مع عمليات مقاومة محدودة، وزرع ألغام، ولكن لا يسمح بمواجهات واسعة مباشرة أو طويلة. وقد تمّ تنفيذ الكثير من العمليات المسلحة تحت إشراف كامل الشريف في النصف الأول من الخمسينيات ضدّ "الإسرائيليين". وكانت المخابرات العسكرية المصرية تعتقل أحيانًا، ولوقت محدود، بعضًا من رفاق كامل الشريف؛ ومع ذلك، فقد كان هناك مجموعة من الضباط، مرتبطون بشكل عام بالإخوان المسلمين وبالضباط الأحرار، يدعمون هذه العمليات، ويشاركون فيها، وهو ما كان يُسهل عمل المقاومة، ويوفر لها بيئة عمل أفضل. ويشير أبو جهاد، في المقابلة التي أجرتها معه سلوى العمد، إلى قيامه وإخوانه بعمليات زراعة ألغام، في المناطق المقابلة لمنطقة المنطار في غزة، وعلى

طريق غزة - بئر السبع، وفي مكان متقدم من الطريق إلى المجدل، ومن المجدل إلى الفالوجة. كما كان يتم نسف أنابيب المياه في المستعمرات. وبحسب الوزير فإن العمليات تعددت وتوسعت تدريجياً حتى وصلت إلى منطقة يازور قرب يافا.

نفَّذ عبد الله صيام عمليات من شمال غزة، بينما نفَّذ حمد العايدي عمليات من الوسط، ونفَّذ إبراهيم عاشور عمليات من الجنوب. وكان محمد صيام من بين أولئك الأعضاء المسؤولين عن تزويد عبد الله صيام بالسلاح والذخيرة، وكان من بين هجماتهم الهجوم على محطة القطارات في المجدل. وكانت عملية "الباص" في ١٧/٣/١٩٥٤ أحد أشهر العمليات التي تُظهر بعض المؤشرات أن البدو نفذوها بالتنسيق مع الإخوان، وأدت إلى مقتل ١١ "إسرائيليًا" قرب بئر السبع بجانب مستعمرة معاليه أكرابيم Ma'ale Akrabim.

وأشار المؤرخ الصهيوني بني موريس Benny Morris بناء على تقارير المخابرات "الإسرائيلية" إلى أن مجموعة من الإخوان المسلمين كانت نشيطة على طول خطوط قطاع غزة في النصف الثاني من سنة ١٩٥٤؛ وأنها كانت تقوم بشكل متكرر بتدمير خطوط المياه المؤدية إلى مستعمرات النقب. وقد لاحظت مخابرات الجيش "الإسرائيلي" أنه في النصف الثاني من ١٩٥٤ وبداية ١٩٥٥ خفَّت حوادث اختراق الحدود بعد الإجراءات التي اتخذتها السلطات المصرية، لمنع التسلل، وبعد توجيهها ضربة قاسية لجماعة الإخوان المسلمين.

أسهمت عمليات الإخوان العسكرية في القطاع في إفشال مشروع توطين اللاجئين في سيناء، الذي كانت قد وافقت عليه حكومة الثورة المصرية،

ذلك أن كل عملية جهادية كان يعقبها انتقام "إسرائيلي"، مما أخرج الحكومة المصرية، ودفعها إلى إنشاء الكتيبة الفلسطينية. وحتى بعد حظر نشاط الإخوان في القطاع وتعرضهم للمطاردة استمروا في عملهم الجهادي السري. وكان لهم دورهم في المقاومة الشعبية للاحتلال "الإسرائيلي" للقطاع (١٩٥٦/١٠/٣١ - ١٩٥٧/٣/٦)، وتحت الاحتلال نظم الإخوان إضراباً نجح على نطاق واسع، وقبض الصهاينة على عدد من الإخوان الذين ظلوا في السجن حتى انسحاب الصهاينة من القطاع.

غير أن ظروف مطاردة النظام الحاكم في مصر للإخوان واعتقالهم، والإفساح لنشاط الحركات القومية والاشتراكية، بالإضافة إلى هجرة العديد من كفاءات ورموز الإخوان إلى الخارج، وخصوصاً الخليج للعمل، كل ذلك أضعف من قوة حركة الإخوان في القطاع، وهمش دورها خصوصاً منذ أواخر الخمسينيات وحتى ١٩٦٧.

وفي الضفة الغربية، التي ضُمت إلى الأردن، تابع الإخوان نشاطهم الذي حافظ على لافتته الرسمية، وأنشأوا فروعاً جديدة لهم في الخليل وبيت لحم وجنين وقلقيلية وعنتا ودورا وصوريف وصور باهر وطوباس وكفر برقة وأريحا، وبعض مخيمات اللاجئين مثل عقبة جبر قرب أريحا والعروب قرب بيت لحم.^١

مع أواخر سنة ١٩٥٣، انتقل كامل الشريف إلى الأردن، حيث انتخب نائباً للأمين العام للمؤتمر الإسلامي الذي عُقد في القدس. ويبدو أن الإخوان

١ Ammon Cohen, Political Parties in the West Bank under the Jordanian

Regime, 1949-1967 (London: Cornell University Press), p. 145.

أرادوا من نقله الاستفادة من موقعه في المؤتمر كغطاء لمتابعة عمله العسكري الجهادي عبر الضفة الغربية. إذ أشرف بنفسه على تحصين الحدود، ودعم حرس الحدود على خطوط الهدنة في الضفة الغربية. وقد تمّ جمع أموال كثيرة تحت غطاء المؤتمر لتسليح حرس الحدود، وهي قوة رسمية لكنها كانت ضعيفة التسليح والتدريب، وكان جزء كبير من المال يذهب للعمل الفدائي السري الذي يشرف عليه الشريف. وقد أحضر الشريف أحد أبرز مدربي الإخوان العسكريين ممن شاركوا في حرب ١٩٤٨ وهو عبد العزيز علي، وطلب منه تدريب العناصر الفدائية سرًا. وفي القدس قام عبد العزيز بتدريب عدة دفعات بأعداد لا بأس بها من الإخوان، كما قاموا بعمليات ضدّ "الكيان الإسرائيلي"، وقد استمر عبد العزيز علي في العمل والتدريب حتى حصلت الضربة الثانية للإخوان في مصر في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٥٤ حيث غادر إلى سورية.

وقد تركز العمل من منطقتي القدس والخليل. وممن ساعد في العمل العسكري أبناء عبد النبي النتشة في الخليل، وكذلك عبد الرحيم الشريف الذي كان يعمل قاضيًا في غزة، وكان له بيت في الخليل، حيث كانت تُرتب عن طريقهم العمليات. غير أن العمليات من سيناء والقطاع كانت أكثر من الضفة الغربية.

ويبدو أن ما ذكره خليل الوزير، في ذكرياته عن بدايات العمل المقاوم، حول تفعيل خط المقاومة الواصل بين غزة والخليل في الضفة الغربية، بعد هرب حمد العايدي إلى هناك سنة ١٩٥٤، هو أمر متصل بنشاط كامل الشريف نفسه، نظرًا للعلاقة القوية بينهما. غير أن السلطات الأردنية قامت بطرد كامل الشريف وكذلك عبد العزيز علي، بعد أن انزعج رئيس أركان

الجيش الأردني في تلك الفترة جلوب باشا من نشاطهما، غير أنهما عادا للأردن، بعد طرد الملك حسين لجلوب في آذار/ مارس ١٩٥٦، ولكن العمل العسكري كان قد توقف.

رابعاً: نشأة حركة فتح^١

فرضت حالة التضييق والمطاردة وحملات التشويه الإعلامي ضد التيار الإسلامي، خصوصاً في مصر والقطاع، تساؤلاتٍ أمام شباب الإخوان المسلمين الفلسطينيين المتحمسين، الذين أخذوا يتساءلون عن وسائل العمل الممكنة لتحرير فلسطين. وبالرغم من أن التيار العام وسطهم كان يدعو إلى التريث، والتركيز على الجوانب التربوية والإيمانية، إلا أن تياراً آخر أخذ يتجه للقيام بعمل منظم مسلح، لا يتخذ أشكالاً إسلامية مكشوفة، وإنما يتبنى أطراً وطنية تمكنه من تجنيد قطاعات أوسع من الشباب، ولا تجعله عرضة لعداء الأنظمة وملاحقاتها. وكانت تجربة الثورة الجزائرية في تلك الفترة أحد الحوافز المهمة لهذا العمل.

تشير الدلائل إلى أن جماعة الإخوان المسلمين كانت الحاضنة الأولى لنشأة حركة فتح، وخصوصاً بين أفرادها من أبناء قطاع غزة. ويظهر أن عامة الإخوان كانوا يعدّونها في البداية جزءاً منهم، أو على الأقل رصيذاً لهم. غير أن الطرفين اتخذا خط الانفصال والتمايز عن بعضهما منذ صيف ١٩٦٢.

١ حول علاقة الإخوان المسلمين بنشأة حركة فتح، انظر الفصل الخامس من كتاب: محسن محمد صالح، الإخوان المسلمون الفلسطينيون: التنظيم الفلسطيني - قطاع غزة ١٩٤٩ - ١٩٦٧، ص ٢٢٣-٢٩٧.

والدارس لنشأة حركة فتح في النصف الثاني من خمسينيات القرن العشرين يلاحظ، وبما لا يدع مجالاً للشك، أن كثيراً من قادة هذا التنظيم العسكري السري وأعضائه، الذي أنشأه الإخوان في قطاع غزة، أصبحوا من الجيل المؤسس لحركة فتح. وقد أبقى الكثير من قيادات وعناصر التنظيم العسكري الذي أنشأه الإخوان في القطاع على صلاتهم مع بعضهم عندما انتقلوا للدراسة في مصر أو عندما رجعوا إلى القطاع، أو عندما ذهبوا للعمل في الكويت والسعودية وقطر والأردن (بما في ذلك الضفة الغربية). ويظهر أن النقاشات التي تلت تعطل عملهم سنة ١٩٥٥ وحتى ١٩٥٧، أوصلتهم إلى قناعة بضرورة إنشاء ما عُرف لاحقاً بـ "فتح". غير أن بؤرة هذا النقاش تركزت على ما يبدو وسط طلاب الإخوان في الجامعات المصرية وبدرجة أقل في قطاع غزة. حيث نجد أسماء أعضاء من الإخوان أصبحوا قيادات بارزة في فتح أمثال: خليل الوزير، وسليم الزعنون، ورياض الزعنون، وغالب الوزير، وسعيد المزين، وعبد الفتاح حمود، ومحمد يوسف النجار، وكمال عدوان، وصلاح خلف، وعبد الله صيام، ومحمد الإفرنجي؛ وانضم إليهم فتحي البلعاوي بعد خروجه من السجن في صيف ١٩٥٧، كما كان معهم هاشم الخزندار. ومعظم هؤلاء كانوا على صداقة بياسر عرفات.

وحسب خالد الحسن، أحد أبرز قادة فتح، فإن أبا جهاد خليل الوزير هو الذي بدأ حركة فتح، وهو رأي يؤكده عدد من رموز وقيادات الإخوان الفلسطينيين. وكان أبو جهاد من قادة التنظيم الإخواني السري العسكري. أما ياسر عرفات، فثمة شبه إجماع بين الإخوان على أنه لم يكن عضواً في جماعة الإخوان، ولكنه كان قريباً منها.

بعد انتهاء الاحتلال "الإسرائيلي" للقطاع ببضعة أشهر، وتحديدًا في

صيف ١٩٥٧، قدّم أبو جهاد تصوّرًا إلى قيادة الإخوان المسلمين في قطاع غزة؛ يقضي بإنشاء تنظيم لا يحمل لونًا إسلاميًا في مظهره، وإنما يحمل شعار تحرير فلسطين عن طريق الكفاح المسلح، ويقوم بالإعداد لذلك. ونوّه أبو جهاد في مذكرته إلى أن هذا التنظيم سيفتح الأبواب المغلقة بين الإخوان والجماهير، وسوف يفضّ حصار نظام عبد الناصر للإخوان، وسوف يُبقي قضية فلسطين حية، ويجبر الدول العربية على خوض الحرب.

ويبدو أن قيادة الإخوان في غزة لم تأخذ المذكرة مأخذ الجد، فأهملتها ولم تردّ عليها. وعلى ما يظهر فإن التوجه العام للقيادة كان يميل نحو التريث، والسلوك الأمني الحذر، والتركيز على التربية، والمحافظة على الذات، في أجواء ملاحقة النظام المصري، بعد عودته لإدارة القطاع. وربما انعكست طبيعة القيادة والتي تميل لعدم الدخول في مغامرات تراها غير محسوبة، في بيئة غير مواتية، على النظرة السلبية للمشروع.

وعندما قدم ياسر عرفات وخليل الوزير إلى الكويت سنة ١٩٥٧، أخذوا ينشران فكرة فتح في الوسط الإخواني، وهو وسطهما الطبيعي. وكانا على معرفة بمعظم الخريجين من شباب الإخوان الذين وفدوا إلى الكويت. وكان لوجود اثنين من قيادة التنظيم الإخواني الخاص، هما يوسف عميرة ومحمد أبو سيدو، ممن سبقا خليل الوزير في القدوم للكويت، أثر كبير في تهيئة الظروف المناسبة لنشأة فتح في الوسط الإخواني الفلسطيني في الكويت؛ كما انضم إليهما أخ قيادي ثالث مقيم في الكويت هو سليمان حسن حمد.

ويعترف عبد الله أبو عزة الذي كان في قيادة إخوان غزة، أن طرح عناصر فتح كان "منطقيًا، وتتولاه عناصر قيادية إخوانية موثوقة". وأنه خلال ثلاث سنوات (١٩٥٧-١٩٦٠)، وقبل أن تتوصل قيادة إخوان غزة إلى إجابات

وتصورات واضحة، في مقابل طرح فتح، كان الإخوان قد فقدوا أفراداً من أفضل عناصرهم؛ وإن "موثوقية وقيادية دعاة فتح في الإخوان، سهّلت عليهم اقتناص أفراد كثيرين وممتازين من الإخوان".

وكان من أبرز المؤسسين في القطاع من ذوي الخلفية الإخوانية سليم الزعنون، وهاشم الخزندار، وصلاح خلف، وأسعد الصفطاوي، وسعيد المزين (أبو هشام)، وغالب الوزير، وفتحي بلعاوي، ورياض الزعنون.

وفي الأردن، بما في ذلك الضفة الغربية، التي تمّ توحيدها مع شرقي الأردن سنة ١٩٥٠، مثل الإخوان حاضنة مهمة وأساسية لبدايات حركة فتح. وبحسب هاشم عزام، الذي كان من الإخوان الذين انضموا لفتح في أواخر الخمسينيات، فإن قادة الثورة (فتح) في الأردن "كلهم كانوا إخوان مسلمين في البداية". وكان مخيم عقبة جبر قرب أريحا حاضنة أساسية بوجود حمد العايدي (أبو سامي)، وعبد الفتاح حمود، ومحمد يوسف النجار. وفي القدس كان من الإخوان القياديين الذين انضموا لفتح رمضان البنا، الذي كان سكرتيراً لكامل الشريف، وزكريا قنبي، وموسى غوشة (شقيق إبراهيم غوشة). وفي شرقي الأردن في عمّان كان من رواد الإخوان في فتح محمد غنيم (أبو ماهر)، ومحمد أبو سردانة، وعبد الله جبر. وأبقى قادة فتح على صلتهم القوية بكامل الشريف.

وشهد بدايات العمل في السعودية سعيد المزين، وعبد الفتاح حمود، وسعيد المسحال، وغيرهم. وفي قطر، قاد إنشاء فتح عضو الإخوان القادم من الضفة الغربية رفيق النتشة، وانضم إليه لاحقاً محمد يوسف النجار، وعبد الفتاح حمود، وكمال عدوان، وسعيد تيم، وغيرهم.

وقد تعرّض تنظيم الإخوان الفلسطينيين لهزة كبيرة، بخروج عدد لا يستهان به من عناصره القيادية التي شكلت حركة فتح، وهي عناصر نوعية تميزت بالكفاءة والحيوية وروح المبادرة؛ ومعظمها كانت قيادات وكوادر أساسية في التنظيم العسكري الخاص، الذي شكّله الإخوان في النصف الأول من خمسينيات القرن العشرين. وقد وفرت أساليب التنظيم الخاص والتدريب والخبرة العسكرية التي اكتسبتها هذه العناصر، قاعدة مهمة وغنية لإطلاق حركة فتح من حيث انتهى التنظيم الخاص.

إن القراءة المتأنية لسلوك عناصر الإخوان التي شاركت في فتح في السنوات الثلاث الأولى من نشأتها، على الأقل، تشير إلى أن الكثير من هذه العناصر استمر في عضويته في الإخوان، واستفاد من موقعه القيادي والتنظيمي في تجنيد عناصر الإخوان النوعية.

ولم يكن خلاف الإخوان الفلسطينيين مع فتح على فكرة المقاومة والجهاد، ولا على العمل في إطار وطني، وإنما على التوقيت، وإمكانات النجاح، والقدرة على التحكم في مسارات الحركة.

وعلى أي حال، فلا ينبغي للإخوان أن يبالغوا في نسبة حركة فتح إليهم، كما لا ينبغي لحركة فتح أن تتنكر لجذورها وبداياتها الأولى، فإذا كان الإخوان هم المحضن الذي خرجت منه الفكرة وبداياتها الأولى، فإن فتح لم تنشأ بقرار من قيادة الإخوان ولا وفق خططهم، كما أن مشروعها لم يحمل أيديولوجية الإخوان، ولا الضوابط التي تضمن سيره كمشروع يخدم أهدافهم.

غير أن فتح، التي ظلت تركز في تجنيدها على العناصر الإخوانية حتى سنة ١٩٦٢، انفتحت أكثر على مختلف التيارات وقطاعات الشعب الأخرى،

خصوصًا بعد أن أصدرت قيادة الإخوان في القطاع أوامرها بالتمايز إما مع فتح وإما مع الإخوان. وبشكل عام، رفضت فتح أن يكون لها أيديولوجية أو عقيدة سياسية محددة، وفتحت المجال أمام مختلف الأفراد من كافة الأطياف الفكرية والسياسية (إسلامية، قومية، وطنية، يسارية...) للانضمام إليها، ولهؤلاء أن يحتفظوا بفكرهم، ولكن عليهم ترك انتماءاتهم التنظيمية والحزبية السابقة. أي أن فتح أرادت أن تكون إطارًا جبهويًا يستوعب تناقضات المجتمع الفلسطيني، ويوجهه نحو الحرب مع العدو الصهيوني. وأخذت فتح تصطبغ بصبغة وطنية علمانية شكلت هويتها العامة إلى وقتنا هذا.

خامسًا: إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف):

كانت الأنظمة العربية تشعر بما تموج به الساحة الفلسطينية من أنشطة سرية وحركات وتنظيمات. وكان الرئيس عبد الناصر يرغب ألا يفلت الزمام من يده، خصوصًا في ظروف الخلافات بين الأنظمة العربية...، فأصبح هناك اتجاه يريد استيعاب الفلسطينيين في كيان رسمي معتمد، يسهل التحكم فيه. وفي سنة ١٩٥٩، اتخذ مجلس الجامعة العربية قرارًا دعا إلى إعادة تنظيم الشعب الفلسطيني، وإبرازه كيانًا موحدًا بواسطة ممثلين يختارهم الشعب، لكن ذلك ظلّ عرضة للتأجيل والتسويق، حتى وفاة أحمد حلمي عبد الباقي، ممثل حكومة عموم فلسطين لدى الجامعة العربية في سنة ١٩٦٣.

وبدعم من عبد الناصر، تمّ اختيار أحمد الشقيري ممثلًا لفلسطين مكان عبد الباقي، وكُلّف بدراسة القضية الفلسطينية وسبل تحريكها وتنشيطها.

وعندما انعقد مؤتمر القمة العربي الأول في القاهرة في ١٣/١/١٩٦٤، تقرر تكليف الشقيري بالاتصال بالدول الأعضاء والشعب الفلسطيني، "بغية الوصول إلى القواعد السليمة لتنظيم الشعب الفلسطيني، وتمكينه من القيام بدوره في تحرير وطنه، وتقرير مصيره". ولم يقم الشقيري بتقديم تقرير للجامعة حول السبل المقترحة؛ لقناعته بأنه سيكون عرضة لمزيد من المدارس والتأجيل، فقرر وضع البلاد العربية أمام الأمر الواقع. فقام، بدعم مصري، بإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف)، حيث انعقد المجلس الوطني الفلسطيني الأول في القدس في ٢٨/٥/١٩٦٤ بحضور ٤٢٢ ممثلاً للفلسطينيين، وبرعاية الملك حسين ملك الأردن. وأعلن ميلاد المنظمة رسمياً، وصودق على الميثاق القومي الفلسطيني الذي أكد على الكفاح المسلح لتحرير كل فلسطين، وعدم التنازل عن أي جزء منها، وانتُخب أحمد الشقيري رئيساً للمنظمة. وقد قررت منظمة التحرير تشكيل جيش التحرير الفلسطيني، كما قامت بعدد من الجهود التعبوية والإعلامية. ورحّب الفلسطينيون بشكل عام بإنشاء المنظمة باعتبارها تمثيلاً للكيانية الفلسطينية والهوية الوطنية التي جرى تغييبها سابقاً، وإن كان البعض مثل حركة فتح قد شكك في خلفيات إنشائها، وقدرتها على القيام بواجباتها.^١

لم يكن للإخوان دور يُذكر في إنشاء منظمة التحرير، إذ كانوا يعانون في تلك الفترة من أجواء التضييق والمطاردة والاستضعاف، وكان انشغالهم

١ حول م.ت.ف انظر: أسعد عبد الرحمن، منظمة التحرير الفلسطينية (نيقوسيا: مركز الأبحاث (م.ت.ف)، ١٩٨٥)؛ والموسوعة الفلسطينية، إشراف أحمد المرعشلي (دمشق: هيئة الموسوعة الفلسطينية، ١٩٨٤)، ج ٤، ص ٣١٣-٣٢٥.

منصبًا على الحفاظ على الذات في وجه الهجمة الشرسة الأمنية والسياسية والإعلامية التي تستهدف اجتثاثهم.

سادسًا: فصائل فلسطينية في إطار منظمة التحرير^١

بالإضافة إلى حركة فتح، هناك عدد من الفصائل الفلسطينية التي انضمت لمنظمة التحرير الفلسطينية وخصوصًا منذ سنة ١٩٦٨ وما تلاها. ومن أبرز هذه الفصائل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، التي كانت تُعدُّ بشكل أو بآخر امتدادًا للفرع الفلسطيني لحركة القوميين العرب، التي نشأت في مطلع الخمسينيات في بيروت؛ وكان من أبرز مؤسسيها جورج حبش، الذي أصبح أمينًا عامًا للجبهة منذ إنشائها سنة ١٩٦٧ وحتى سنة ٢٠٠٠. وكان فرع فلسطين في حركة القوميين العرب قد شكّل في أيار/ مايو ١٩٦٤ "الجبهة القومية لتحرير فلسطين" وجناحها العسكري "شباب الثار"، الذي أخذ يمارس منذ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٤ العمل الفدائي، حيث قدّمت أول شهدائها "خالد أبو عيشة" في ٢/ ١١/ ١٩٦٤. ولكن يبدو أن هذه البداية كانت متواضعة متقطعة ولم تستمر. وبعد حرب ١٩٦٧، سعى "إقليم فلسطين" في الحركة إلى تشكيل إطار جبهوي، نتج عنه إنشاء "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" في ١١/ ١٢/ ١٩٦٧، واتخذت الجبهة طابعًا يساريًا، حيث أقرّت الجبهة في آب/ أغسطس ١٩٦٨ تبني الماركسية - اللينينية. وبدأت الجبهة المنافس الرئيسي لحركة فتح، ولكن سرعان ما

١ محسن محمد صالح، فلسطين: دراسات منهجية في القضية الفلسطينية، سلسلة دراسات فلسطينية (١) (مصر: مركز الإعلام العربي، ٢٠٠٣)، ص ٣٩٦-٤٠٧.

عصف بها انشقاقان كبيران أضعفا قدرتها على العمل الجبهوي واستقطاب الشارع الفلسطيني. وكان الانشقاق الأول هو انسحاب عناصر جبهة التحرير الفلسطينية في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٨ بزعامة أحمد جبريل الذي شكّل الجبهة الشعبية - القيادة العامة. أما الانشقاق الثاني فقاده نايف حواتمة في ٢٢/٢/١٩٦٩ والذي شكل الجبهة الديموقراطية الشعبية لتحرير فلسطين.

أما الجبهة الديموقراطية فتبنت البرنامج السياسي والعقيدة الأيديولوجية نفسها التي تبنتها الجبهة الشعبية في آب/ أغسطس ١٩٦٨، غير أنها كانت أكثر "نطرفاً" في تبني الماركسية - اللينينية، وقد عبّرت عن نفسها من خلال مجلة الهدف. وقامت الجبهة الديموقراطية بعد هذه الأحداث بمراجعة "نقدية" لأدائها. وبالرغم من إصرارها على منهجها الماركسي - اللينيني، إلا أنها أخذت تتبنى سياسيات أكثر "واقعية" تراعي حسب تقديرها ظروف المرحلة وإمكانات الشعب الفلسطيني. وقد تعرضت الجبهة الديموقراطية للانشقاق عندما خرج عنها ياسر عبد ربه (أحد القياديين البارزين) ومؤيدوه في أواخر الثمانينيات؛ حيث حظي بدعم وتأييد ياسر عرفات، وقد أصبح تنظيمه الذي حمل اسم الجبهة الديموقراطية مقرباً من فتح ثم من السلطة الفلسطينية. وحمل هذا التنظيم اسم "فدا" بعد اتفاقات أوسلو، والتي أيدها إلى جانب فتح.

أما الجبهة الشعبية - القيادة العامة فترجع جذور تشكيلها إلى سنة ١٩٥٩، عندما أنشأ أحمد جبريل، وهو ضابط فلسطيني مُسَرَّح من الجيش السوري، حركة فدائية صغيرة اسمها "جبهة تحرير فلسطين". وفي منتصف

١٩٦٥ بدأت عملها العسكري، بعد أن تمكنت من توفير ثلاث مجموعات مقاتلة. وارتقى أول شهيد لها، خالد الأمين، في هجوم على مستعمرة ديشون Dishon في الجليل الأعلى. وعبر برنامجها السياسي الصادر عن مؤتمرها الأول المنعقد في نهاية ١٩٦٨ عن روح قومية عربية. وفي مؤتمرها الثاني في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩ تبنت بالإجماع الاشتراكية العلمية (الماركسية) وتبنت برنامجاً سياسياً منطلقاً منها. وعبرت عن نفسها من خلال مجلة "إلى الأمام". ومنذ التسعينيات أخذت الجبهة في نبذ الماركسية، وأخذت تتجه أكثر نحو الخطاب القومي الإسلامي، كما يلاحظ في خطابات أحمد جبريل وإذاعة القدس.

أما الصاعقة، فهي فصيل تمّ تشكيله سنة ١٩٦٧ بناء على قرار حزب البعث العربي السوري في مؤتمره التاسع بدمشق سنة ١٩٦٦، وبالطبع فإن هذه المنظمة ذات توجه قومي، يتركز تواجدها في سورية وحيث يكون النفوذ السوري في لبنان. وكانت تعدّ فصلاً كبيراً في أواخر الستينيات. لكنها عبّرت بشكل عام عن التوجهات الرسمية للحكومة السورية، ولا يكاد يوجد لها تواجد في الداخل الفلسطيني.

تشكلت جبهة التحرير العربية في نيسان/ أبريل ١٩٦٩ بتوجيه ودعم من العراق، وانضمت إليها كوادر حزب البعث العربي الموالي للعراق، وتألّفت عناصرها من أفراد من العراق ولبنان والأردن وفلسطين، وتبنت الطرح القومي. ومنذ نشأتها وحتى أحداث أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ استفادت من تواجد الجيش العراقي في الأردن، ونبعت مواقفها السياسية والعسكرية وغيرها من مواقف العراق، وهي بشكل عام تفتقر كثيراً إلى القاعدة الشعبية.

سابعاً: تطور المقاومة الفلسطينية ١٩٦٧-١٩٨٧:١

كانت أبرز معالم هذه المرحلة:

- * هزيمة الأنظمة العربية في ١٩٦٧، وتراجع المد القومي واليساري.
- * ظهور الهوية الوطنية الفلسطينية بقوة، وسيطرة المنظمات الفدائية على منظمة التحرير سنة ١٩٦٨، والاعتراف بها ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني سنة ١٩٧٤.
- * الاندفاع نحو التسوية السلمية مع "الكيان الإسرائيلي" على الصعيد العربي، وعقد مصر لاتفاقيات كامب ديفيد Camp David سنة ١٩٧٩.
- * بروز نشاط الكفاح المسلح الفلسطيني ضدّ "الكيان الإسرائيلي"، وتعرضه لعمليات تصفية وضربة قاسية أدت إلى تحجيمه وإضعافه، خصوصاً إثر الاجتياح "الإسرائيلي" للبنان سنة ١٩٨٢.
- * تنامي المدّ الإسلامي على الساحة الفلسطينية والعربية والإسلامية، بحيث أصبح الاتجاه الإسلامي الفلسطيني أحد أبرز القوى المؤثرة على الساحة الشعبية. وهذا ينطبق على الساحة العربية، وخصوصاً في الأردن، ومصر، والسودان، والجزائر، والكويت، وتونس، واليمن، كما ينطبق على الساحة الإسلامية بنجاح التجربة الإسلامية في إيران، والتجربة الجهادية في أفغانستان، وتنامي الاتجاه الإسلامي في باكستان وماليزيا وأندونيسيا، وبين الجاليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا.

١ لمزيد من المعلومات انظر: محسن محمد صالح، القضية الفلسطينية: خلفياتها التاريخية وتطوراتها المعاصرة (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٢)، ص ٨٧-٩٠، و٩٣-٩٤.

بعد هزيمة ١٩٦٧ اضطرت الأنظمة العربية تفاديًا لموجات السخط الشعبي، وتجاوزًا لحالة الإحباط إلى إفساح المجال للعمل الفدائي الفلسطيني، الذي استطاع أن يبني قواعد قوية وواسعة في الأردن ولبنان. واستطاعت التنظيمات الفدائية الفلسطينية بقيادة فتح الوصول إلى قيادة منظمة التحرير التي أصبحت برئاسة ياسر عرفات منذ شباط/ فبراير ١٩٦٩. وبرز خط الكفاح الشعبي المسلح وحرب العصابات، واكتسبت الشخصية الوطنية الفلسطينية زخمًا كبيرًا. وتمكنت منظمة التحرير في مؤتمر الزعماء العرب في الرباط في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٤ من الحصول على الاعتراف بها ممثلًا شرعيًا وحيدًا للشعب الفلسطيني من الدول العربية.

كانت الفترة ١٩٦٧-١٩٧٠، هي الفترة الذهبية للعمل الفدائي الفلسطيني حيث كانت حدود الأردن مع فلسطين المحتلة (٣٦٠ كم) ومع لبنان (٧٩ كم) مفتوحة للعمليات الفدائية. وكانت معركة الكرامة في ٢١/٣/١٩٦٨، التي وقف فيها الفدائيون الفلسطينيون والقوات الأردنية في مواجهة القوات "الإسرائيلية"، وكبدوها خسائر فادحة، نصرًا معنويًا وماديًا للمقاومة الفلسطينية. فاندفع عشرات الآلاف للتطوع للقتال، وقد تطور العمل الفدائي الفلسطيني من ١٢ عملية شهريًا سنة ١٩٦٧، إلى ٥٢ عملية شهريًا سنة ١٩٦٨، إلى ١٩٩ عملية شهريًا سنة ١٩٦٩، إلى ٢٧٩ عملية شهريًا في الأشهر الأولى من سنة ١٩٧٠.

لكن الصدامات العنيفة التي حدثت بين الجيش الأردني والمقاومة الفلسطينية في أيلول/ سبتمبر ١٩٧٠ وفي تموز/ يوليو ١٩٧١ أدت إلى إخراج العمل الفدائي الفلسطيني من الأردن، وحرمان المقاومة من أهم ساحاتها. غير أن المقاومة الفلسطينية استطاعت أن ترسخ قاعدة نفوذها في

لبنان، لكنها اضطرت لخوض صراع عنيف مع الجيش اللبناني لتحقيق ذلك، وانتزعت اتفاق القاهرة في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٦٩، الذي يخولها حقّ العمل المسلح عبر لبنان. ثمّ ما لبثت أن وجدت نفسها تدخل في مستنقع الحرب الأهلية اللبنانية، التي اندلعت في ١٣/٤/١٩٧٥، والتي استمرت ١٥ عامًا، حيث استهدف قوى انعزالية لبنانية التواجد الفلسطيني وقواه المقاومة بالتحديد. وقد استنزف هذا كثيرًا من طاقات المقاومة الفلسطينية ودماء أبنائها، ومصادر دعمها، وأضعف قدرتها على التركيز ضدّ العدو الصهيوني.

ونتيجة لما سبق، فإن معدل العمليات الفدائية من الخارج قد انخفض في السبعينيات، وتراجع إلى حدود متواضعة جدًّا في الثمانينيات. غير أنه تمّ تنفيذ عدد من العمليات النوعية التي تجدر الإشارة إليها، مثل عملية سافوي التي نفذتها حركة فتح في تل أبيب في ٦/٣/١٩٧٥، وأدت إلى مقتل ٥٠ جنديًا و ٥٠ مدنيًا، وعملية كمال عدوان التي نفذتها فتح أيضًا في ١١/٣/١٩٧٨، التي أدت إلى مقتل ٣٧ وجرح ٨٢ "إسرائيليًا". وبرزت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في مجال اختطاف الطائرات خصوصًا سنة ١٩٧٠، وفي الهجوم على مطار اللد في ٣٠/٥/١٩٧٢، مما أدى إلى مقتل ٣١ وجرح ٨٠ آخرين. ونفذت الجبهة الشعبية - القيادة العامة عملية الخالصة في ١١/٤/١٩٧٤ مما أدى إلى مقتل ١٨ "إسرائيليًا" وجرح ١٥ آخرين، كما نفذت الجبهة نفسها عملية الطائرة الشراعية في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٨٧. ونفذت الجبهة الديموقراطية عمليات مهمة مثل عملية ترشيحا في ١٥/٥/١٩٧٤ التي أدت إلى مقتل ٢٧ "إسرائيليًا" وجرح الكثير، وعمليات بيسان وطبريا وعين زيف والقدس.

وفي آذار/ مارس ١٩٧٨، قام الجيش الصهيوني بعملية اجتياح واسعة للجنوب اللبناني، نجحوا على إثرها في إنشاء حزام أمني لهم داخل الحدود اللبنانية بقيادة سعد حداد، الذي قاد جيش لبنان الجنوبي العميل للصهاينة.

وفي معركة الشقيف في ١٩/٨/١٩٨٠، حققت المقاومة الفلسطينية نجاحًا كبيرًا ضدّ الهجوم الصهيوني، عندما تمكنت من صدّ هجوم "إسرائيلي" يبلغ ١٥ ضعف عددها، وقد تكبد العدو خسائر كبيرة أجبرته على الانسحاب.

وكان اجتياح الجيش الصهيوني للبنان في صيف ١٩٨٢ هو الأضخم والأعنف، وقد تمكن من اجتياح الجنوب بسهولة وسرعة نسبية، غير أنه توقف عند أسوار بيروت نحو ثمانين يومًا. أدّت حرب ١٩٨٢ إلى استشهاد وجرح نحو ٥٥ ألف فلسطيني ولبناني، وبالرغم من أن المقاتل الفلسطيني أثبت شجاعته وكفاءته، وبالرغم من أن الصهاينة فشلوا في سحق الفدائيين وقيادتهم، إلا أنهم نجحوا في تدمير معظم البنية التحتية للعمل الفدائي الفلسطيني. ووجدت منظمة التحرير وفصائلها نفسها بعيدة عن فلسطين، محرومة من العمل العسكري في دول الطوق.

وهكذا، فمنذ سنة ١٩٨٢ أدى الإنهاك العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية إلى استضعاف سياسي، وكسب أنصار تيار "الواقعية" فيها دفعات جديدة باتجاه تبني الحلول السلمية. وواجهت منظمة التحرير سنوات عجافًا خلال الفترة ١٩٨٣-١٩٨٧ انعكست على شكل تراجع في الأداء النضالي المسلح، وفي التأثير والفاعلية السياسية حتى في الوسط العربي نفسه.

ثامناً: معسكرات الشيوخ:١

كانت أولى المشاركات الإسلامية الجهادية الفلسطينية فيما يعرف بـ"معسكرات الشيوخ" في الأردن والتي شكّلها الإخوان المسلمون تحت مظلة فتح سنة ١٩٦٨، واستمرت في عملها حتى إغلاق معسكرات العمل الفدائي الفلسطيني في الأردن سنة ١٩٧٠.

وكانت قيادة الإخوان المسلمين قد أصدرت قراراً بفتح معسكرات لتدريب الإخوان ومؤيديهم، حيث استفاد الإخوان من أجواء حرية العمل الفدائي والتأييد الشعبي الهائل له، والذي ظهر خصوصاً بعد هزيمة سنة ١٩٦٧، غير أن الإخوان لم يستطيعوا العمل باستقلالية كاملة نتيجة أجواء العداء ضدّ الإسلاميين التي كانت ما تزال مستمرة، وبالذات من عبد الناصر والقوى اليسارية...، بالإضافة إلى صعوبة التمويل.

وقد وافقت حركة فتح على توفير الغطاء لمعسكرات الإخوان، كما التزمت بتقديم التمويل والسلاح والذخيرة، بالإضافة إلى مصاريف الأفراد ١٥ ديناراً للأعزب، و ٣٠ ديناراً للمتزوج، وكانت العمليات الفدائية تحدث بالتنسيق معها. بينما كان للإخوان حريتهم الكاملة في تصريف أمور التدريب والانتقاء وشؤونهم الخاصة.

١ حول معسكرات الشيوخ، انظر: محسن محمد صالح، الطريق إلى القدس: دراسة تاريخية في رصيد التجربة الإسلامية على أرض فلسطين منذ عصور الأنبياء وحتى أواخر القرن العشرين، ط ٥ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٤)، ص ١٦٣-١٦٥؛ وغسان محمد دوعر، قواعد الشيوخ: مقاومة الإخوان المسلمين ضد المشروع الصهيوني ١٩٦٨-١٩٧٠ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٨).

افتتح أول معسكر للشيوخ في منطقة العالوك (باتجاه طريق الزرقاء - السخنة)، وتولى التدريب صلاح حسن وإبراهيم حسن (وهم أخوان في الدم)، وعبد العزيز علي، وكان ينسق معهم من جهة إخوان الأردن إسحق الفرحان، وأبو بشير الزميلي. ومن الذين تدربوا في المعسكر أحمد نوفل، وعبد الله عزام، وإبراهيم المشوخي، وذيب أنيس. وشارك في هذه القواعد أفراد من جنسيات عربية مثل فلسطين، والأردن، وسورية، والسودان (نحو سبعة سودانيين)، ومصر، واليمن، ولبنان.

والدفعة الأولى التي تمّ تدريبها كانت من ٣٠-٤٠ رجلاً ذهبوا جميعاً بعد ذلك إلى منطقة إربد، حيث فتحت لهم قاعدة جهادية. وبلغ عدد الذين تمّ تدريبهم في معسكرات الشيوخ نحو ٢٥٠-٣٠٠ رجل من الإخوان المسلمين ومؤيديهم، بينما بلغ عدد القواعد التي أنشئت سبع قواعد.

ومن العمليات البارزة التي نفذتها معسكرات الشيوخ عملية "الحزام الأخضر" في ١٩٦٩/٨/٣١ بالتعاون مع فتح، حيث استهدفت ثلاث مستعمرات متقاربة هي ياروينا، وبيت يوسف، وبيت يور، وتمّ الهجوم في ليلة واحدة، وكانت أصداؤها مدوية. وهناك أيضاً عملية دير ياسين، المشتركة مع فتح، في الجولان ضدّ مستعمرة ناحال هجولان في ليلة ١٩٦٩/٩/١٤، حيث تمّ تدمير نادي الضباط ومحطة للوقود ومستودعات التموين وسيارات عسكرية "إسرائيلية"، وقد اعترف الصهاينة بمقتل واحد و١٢ جريحاً، غير أن المشاركين في العملية قالوا: إنهم أحصوا نحو ستين قتيلاً "إسرائيلياً"، وكانت خسائر المجموعة الفدائية شهيداً واحداً وثلاثة جرحى.

أما عملية ١٩٧٠/٦/٥، فقد شارك فيها ستة من المجاهدين حيث تصدوا لدبابتين وكاسحة ألغام، وكان موشي ديان قد أرسل مراسلاً كندياً

وآخر أمريكياً ليطوف بهما على الحدود، ويريهما أن العمل الفدائي قد انتهى، ففاجأهم المجاهدون، وجرح الصحفيان، واعترف الصهاينة بـ ١٢ قتيلاً، ولكن القتلى، كما يذكر الشيخ عبد الله عزام، كانوا أكثر من هذا بكثير. وقد ضجّ الإعلام العربي بهذه العملية، واستشهد من المجاهدين ثلاثة منهم مهدي الإدلبي من قاعدة بيت المقدس التي يقودها الشيخ عبد الله عزام، وبلال المقدسي من قاعدة غزة.

وحسب عبد العزيز علي، فإن عدد شهداء معسكرات الشيوخ خلال الفترة ١٩٦٨-١٩٧٠ بلغ ١١ شهيداً، غير أن عبد الله عزام يذكر أن عددهم كان ١٣ شهيداً، ومن هؤلاء الشهداء رضوان كريشان، ورضوان بلعة الدمشقي، ومحمد سعيد باعباد الضابط اليمني، وأبو الحسن إبراهيم الغزي.

تاسعاً: اتساع التيار الإسلامي الفلسطيني وتأسيس الأرضية للمقاومة المسلحة ١٩٦٧-١٩٨٧:

في منتصف السبعينيات، بدأ الاتجاه الإسلامي يظهر ويقوى على الساحة الفلسطينية في الداخل والخارج، وأصبحت الفكرة الإسلامية والطرح الجهادي يلقي شعبية متزايدة في الأوساط المختلفة. ومع استمرار الوقت أخذت تتزايد الجمعيات الخيرية الإسلامية ولجان الزكاة والتكافل الاجتماعي، ومن أبرزها المجمع الإسلامي في غزة، كما تضاعفت أعداد المساجد في الضفة وقطاع غزة، وأصبح الكتاب الإسلامي والشريط الإسلامي هما الأكثر رواجاً.

وانتشر التيار الإسلامي في الأردن، والكويت، والسعودية، ولبنان، وبلدان العالم الغربي... وأخذ الإسلاميون يفوزون في الانتخابات الطلابية

منذ أواخر السبعينيات كما في جامعة النجاح في نابلس، وجامعة غزة الإسلامية وغيرهما، وفي جامعات الأردن، كما أخذوا في الانتشار والسيطرة على النقابات المهنية. وبرز التيار الإسلامي الفلسطيني بشكل قوي في جامعة الكويت، حيث أسس خالد مشعل وعدد من رفاقه "قائمة الحق الإسلامية" سنة ١٩٧٧، ثم أسسوا، بعد تخرجه، "الرابطة الإسلامية لطلبة فلسطين" سنة ١٩٨٠. ونجح الإسلاميون الفلسطينيون في ميادين العمل الخيري والاجتماعي والتعليمي مما مكنهم من تأسيس قاعدة واسعة صلبة، بحيث أصبح التيار الإسلامي، الإخوان المسلمون تحديداً، هو المنافس الأول للتيار العلماني الذي تمثله فتح والذي تسيطر على منظمة التحرير.^١

قويت الظاهرة الإسلامية في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨، وأصبحت تحظى بشعبية متزايدة. وفي سنة ١٩٨٠، كشف "الكيان الإسرائيلي" تنظيم "أسرة الجهاد" في قرى المثلث العربي، واعتقل العشرات من أفرادها، أكثر من ستين عنصراً، من قرى أم الفحم وكفر قاسم وقلنسوة وباقية الغربية، وكان أبرز قياداته فريد أبو مخ والشيخ عبد الله نمر درويش اللذان حُكم عليهما وعلى رفاقهما بالسجن مُدَّةً مختلفة. وكان هذا التنظيم قد قام بتدمير العشرات من المرافق الاقتصادية، وإحراق السيارات والمعامل والبساتين "الإسرائيلية".^٢

١ حول التيار الإسلامي في هذه الفترة انظر: محسن محمد صالح، الطريق إلى القدس، ص ١٦٥-١٦٨.

٢ انظر: زياد محمود علي، عداء اليهود للحركة الإسلامية (عمّان: دار الفرقان، ١٩٨٢)، ص ١٠٠-١١٤؛ وفايز سارة، "الحركة الإسلامية في فلسطين: وحدة الأيديولوجيا وانقسام السياسة"، مجلة المستقبل العربي، عدد ١٢٤، حزيران/ يونيو ١٩٨٩، ص ٥٥.

وفي قطاع غزة أصبح الاتجاه الإسلامي أقوى اتجاه في مؤسسات التعليم، وفي العديد من القطاعات، وبرز دور المجمع الإسلامي والشيخ أحمد ياسين، وأصبحت الجامعة الإسلامية بغزة أحد أهم المعامل الإسلامية، وتزايدت أعداد المساجد من ٢٠٠ مسجد سنة ١٩٦٧ إلى أكثر من ٦٠٠ مسجد سنة ١٩٨٧.

وكانت قد طُرحت في مجلس شوري الإخوان الفلسطينيين الذي انعقد سنة ١٩٧٧ فكرة دمج التنظيمات الإخوانية في تنظيمات إقليمية، حيث تتوحد مثلاً تنظيمات الإخوان في الأردن وسورية وفلسطين ولبنان في تنظيم بلاد الشام؛ وقس عليها مصر والسودان وشمال إفريقيا.

وطرحت الفكرة على مجلس شوري الإخوان في الأردن بوجود رئيس التنظيم الفلسطيني خيرى الأغا ونائبه سليمان حمد، فوافق عليها المجلس بالإجماع. وخلال سنة ١٩٧٨، حُلَّ مجلسا شوري إخوان الأردن وإخوان فلسطين، وانتُخب مجلس جديد وقيادة جديدة برئاسة محمد عبد الرحمن خليفة، وانضمت تشكيلات الإخوان الفلسطينيين في غزة والكويت والسعودية وقطر والإمارات لهذا التنظيم الذي أطلق عليه بلاد الشام. وبالرغم من أن ظروفًا عملية وموضوعية حالت دون انضمام إخوان سورية ولبنان للتنظيم فإنه حافظ على اسمه.

انبثقت عن هذا التنظيم لجنة متخصصة تتابع الشأن الفلسطيني في الداخل، وخصوصًا في الضفة والقطاع. وكان من أبرز العاملين فيها قنديل شاعر وأبو بشير الزميل، بالإضافة إلى متابعة أمين السر يوسف العظم لأعمالها. ومن خلال الحوارات والمناقشات، طُورت الفكرة باتجاه اقتراح جسم

مركزي يتابع العمل لفلسطين في الداخل والخارج ويشرف عليه. رُفع المشروع إلى قيادة الإخوان في الأردن فوافقت على إنشاء هذا الجسم باسم "قسم فلسطين" في سنة ١٩٨٥، ثم أصبح لاحقاً يُعرف باسم "جهاز فلسطين". وقد وافق خيرى الأغا على قيادته فانطلق العمل فيه بقوة بعد ذلك. وأصبح هذا الجهاز يدير العمل الفلسطيني ويملك صلاحيات واسعة، غير أنه ظل ملتزماً بالعمل تحت سقف تنظيم بلاد الشام.

في صيف ١٩٨٥، اتخذت قيادة الإخوان المعنية بمتابعة العمل لفلسطين قراراً باستغلال أي أحداث للاشتراك في المواجهة ضد الاحتلال. وأعطت قيادة العمل في الخارج لقيادة الداخل صلاحية اختيار التوقيت المناسب لإطلاق العمل الإخواني المقاوم، فبدأ يزداد التفاعل، حيث استشهد اثنان من شباب الإخوان في المواجهات التي شهدتها جامعة بيرزيت سنة ١٩٨٦. ١. كان للإخوان في الضفة الغربية وقطاع غزة مكتب إداري يدير العمل وينسقه بين المنطقتين. وكان يرأسه الحاج راضي السلايمة، من إخوان القدس، ثم خلفه عبد الفتاح دخان. وفي ٢٣/١٠/١٩٨٧ اتخذ المكتب، الذي كان مجتمعاً في بيت حسن القيق، في دورا قضاء الخليل، قراره بإطلاق المقاومة ومواجهة الاحتلال. وكان ذلك بحضور عبد الفتاح دخان وعدنان مسودي وحماد الحسنات وناجي صبحه وإبراهيم اليازوري وحسن القيق نفسه. وقرر المجتمعون أن يتركوا لكل مدينة الخيار في أن تعمل بالكيفية التي تراها مناسبة. ٢.

١ انظر: محسن محمد صالح، المسار من الإخوان المسلمين الفلسطينيين إلى حماس، موقع مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٩/١٢/٢٠١٦.

٢ بلال محمد (محرر)، إلى المواجهة: ذكريات د. عدنان مسودي عن الإخوان المسلمين في =

أما بوادر تأسيس الإخوان للجهاز العسكري للعمل الفلسطيني فظهرت في الخارج عندما أرسلت القيادة بعض كوادرها سنة ١٩٨٠ للتدريب العسكري. وبالتوازي، قام الشيخ أحمد ياسين، بتأسيس الجهاز العسكري في قطاع غزة، وقاده في مراحل الأولى عبد الرحمن تمرّاز ثم صلاح شحادة. بيد أن انكشاف أمر التنظيم العسكري عن طريق أحد تجار السلاح المشبوهين أدى إلى ضربه في الفترة ٢٥/٢-١/٧/١٩٨٤. وقُبض على الشيخ أحمد ياسين وعدد من رفاقه، وحُكم عليه بالسجن ١٣ عامًا، غير أنه أفرج عنه في عملية تبادل الأسرى التي تمت في ٢٠/٥/١٩٨٥، بين المنظمات الفدائية الفلسطينية و"الكيان الإسرائيلي". وقد أعيد ترميم الجهاز وإعادة بنائه من جديد سنة ١٩٨٦ تحت اسم "المجاهدون الفلسطينيون"، وبدأت تشكيلات الجهاز العمل قبل انتفاضة ١٩٨٧، خصوصًا في مجال جمع السلاح وتخزينه وتدريب العناصر. وتأسس الجهاز الأمني للإخوان في قطاع غزة (مجد) سنة ١٩٨١، كجزء من العمل العسكري، وأعيد بناؤه وتوسيعه سنة ١٩٨٥.

من جهة أخرى، شهدت سنة ١٩٨٠ إنشاء حركة الجهاد الإسلامي في فلسطين، والتي قام بتأسيسها عدد من الشباب الفلسطيني الدارس في الجامعات المصرية برئاسة الدكتور فتحي الشقاقي رحمه الله. وكان أعضاؤها المؤسسون أفرادًا سابقين في الإخوان المسلمين. وكان الشقاقي قد انضم لجماعة الإخوان المسلمين في القطاع بزعامة الشيخ أحمد ياسين

= الضفة الغربية وتأسيس حماس (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٣)، ص ٩٨.

سنة ١٩٦٨، واستمر في أطر الإخوان إلى أواخر السبعينيات.^١

وحسب فكر حركة الجهاد الإسلامي فإنها جاءت لتعبر عن "الإسلام كمنطق، والجهاد كوسيلة، وفلسطين كهدف للتحرير"، وأنها عندما قامت "كانت قوة تجديد داخل الفكر الإسلامي وداخل الحركة الإسلامية على مستوى الفكرة والمنهج والتنظيم وعلى مستوى الأداء داخل فلسطين".^٢ وبشكل عام، فإن الحركة ركزت على المعاني الجهادية وتحرير الوطن، وتنظيم العناصر للقيام بالعمليات العسكرية، وتأثرت بتجربة الجهاد الإسلامي في مصر والتجربة الإيرانية والتجربة القسامية. وحافظت على علاقات متينة بإيران منذ إنشائها وحتى الآن.

وقبل أن يعود الشقاقي إلى فلسطين سنة ١٩٨١، كان قد سبقه عدد من إخوانه الذين تخرجوا سنة ١٩٨٠ من الجامعات المصرية، وبدأوا نشاطهم داخل الأرض المحتلة. وقد التحق الشقاقي بمستشفى فكتوريا بالقدس لمدة سنتين إلى أن اعتقل سنة ١٩٨٣ لمدة عام لإصداره مجلة الطليعة، ثم أعيد اعتقاله سنة ١٩٨٦ وحكم عليه بالسجن أربع سنوات بتهمة تشكيل تنظيم سري عسكري، ثم أبعد سنة ١٩٨٨ إلى لبنان حيث عاش سنة واحدة ثم انتقل إلى دمشق.^٣

وقام تنظيم سرايا الجهاد، الذي اندمج مع الجهاد الإسلامي، بتنفيذ عملية باب المغاربة في ١٦/١٠/١٩٨٦، والتي أوقعت نحو ثمانين إصابة

١ انظر: مقابلة مع الدكتور فتحي الشقاقي، مجلة الوسط، لندن، ٦/١١/١٩٩٥.

٢ مجلة الوسط، ٣٠/١/١٩٩٥.

٣ مجلة الوسط، ٦/١١/١٩٩٥؛ وانظر: جريدة الأسواق، عمان، الأردن، ٣٠/١٠/١٩٩٥.

في الجنود "الإسرائيليين". كما قامت الجهاد الإسلامي بعمليات نوعية جريئة. كما أن أربعة من مجاهدي الحركة، اثنان منهم كانا قد هربا من سجن غزة المركزي في أيار/ مايو ١٩٨٧، قد قاموا بعدد من العمليات الجهادية إلى أن استشهدوا في عملية الشجاعة في ٦/ ١٠/ ١٩٨٧ في اشتباك مسلح مع القوات "الإسرائيلية". وترى الجهاد الإسلامي أن ذلك اليوم ٦/ ١٠/ ١٩٨٧ هو اليوم الأول للانتفاضة المباركة، وقد استمرت طيلة سنوات الانتفاضة تدعو إلى الإضراب الشهري لذكرى بدء الانتفاضة في هذا اليوم من كل شهر^١. وقد قدّمت نماذج استشهادية متميزة، وهي ما تزال تقف إلى جانب حماس في رفض مشاريع التسوية السلمية وتبني العمل الجهادي المقاوم.

١ مجلة الوسط، ٣٠/ ١/ ١٩٩٥؛ وانظر أيضًا حول حركة الجهاد الإسلامي: زياد أبو عمرو، الحركة الإسلامية في الضفة وقطاع غزة (عكا، فلسطين المحتلة: دار الأسوار، ١٩٨٩)، ص ١١١-١٤٨.

الفصل الثالث

التيار الإسلامي الفلسطيني والمقاومة المسلحة

١٩٨٧-٢٠٢١

أولاً: الانتفاضة المباركة:

عُرفت هذه الانتفاضة بـ"الانتفاضة الأولى"، وبـ"الانتفاضة المباركة"، وبـ"انتفاضة أطفال الحجارة". وعلى الرغم من أنها لم تكن الانتفاضة الأولى إلا أنها كانت علامة فارقة في التاريخ الفلسطيني؛ فمن خلالها انتقل مركز المقاومة من الخارج إلى الداخل.

حدث شرارة الانتفاضة المباركة في يوم ٩/١٢/١٩٨٧ إثر استشهاد أربعة عمال فلسطينيين في حادث دعس متعمد في اليوم الذي سبقه. وفي مساء يوم ذلك الحادث ٨/١٢/١٩٨٧، اجتمعت قيادة الإخوان في قطاع غزة بحضور الشيخ أحمد ياسين، وإبراهيم اليازوري، وعبد العزيز الرنتيسي، وعبد الفتاح دخان، ومحمد شمعة، وصلاح شحادة، وعيسى النشار، وناقشت ما جرى من أحداث، وقررت القيادة تصعيد المواجهات في مختلف مناطق القطاع، وهو ما بدأ فعلاً بعد صلاة فجر ٩/١٢/١٩٨٧ عندما خرجت المظاهرات من مخيم جباليا. وكان اثنان من تيار الإخوان هما أول شهيدين دُشنا بدء الانتفاضة المباركة في فلسطين، وهما حاتم أبو سيس ورائد شحادة.^١ وفي ١٤/١٢/١٩٨٧ أصدر الإخوان المسلمون بيانهم

١ حمدان، الانتفاضة المباركة: وقائع وأبعاد (الكويت: دار الفلاح، ١٩٨٩)، ص ٣٦-٣٨.

الأول باسم حركة المقاومة الإسلامية.^١ وتوالى سقوط الشهداء واتسعت المظاهرات لتعم أرجاء الضفة والقطاع وليشارك فيها كافة أبناء الشعب.^٢ وتميزت هذه الانتفاضة بأربعة مظاهر:

١. أن أهل "الداخل" المحتل (الضفة والقطاع) أخذوا زمام المبادرة النضالية الجهادية، بعد أن كانت بيد العمل من "الخارج".
٢. أن التيار الإسلامي شارك بقوة وعنف وفاعلية، وبرز على ساحة المواجهة بحجم منظم مؤثر.
٣. أنها شملت كافة قطاعات الشعب الفلسطيني واتجاهاته وفئاته العمرية.
٤. أنها اتسمت بالجرأة والتضحية، والمشاركة الواسعة للأطفال والفتيان والنساء، وبالمظاهر النبيلة من إثارة وتعاون وشهامة، وبالقضاء على مظاهر العمالة والفساد من خمور ودور لهو....

وتميزت المرحلة الأولى من الانتفاضة بالمواجهات الشعبية الواسعة والإضرابات، والمظاهرات، ومقاطعة الإدارة المدنية الصهيونية، وتنظيف المجتمع من العملاء ومروجي الفساد والمخدرات. وبعد نحو أربع سنوات، أخذت تبرز المرحلة الثانية التي شهدت تنامي العمليات المسلحة ضدّ الصهاينة مع تراجع الأنشطة الجماهيرية الواسعة. وقد عدّت حركة فتح وحلفاؤها في منظمة التحرير اتفاقية أوسلو (أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣) نهاية للانتفاضة فأوقفت فاعلياتها، أما الجهات الأخرى وخصوصاً حماس

١ انظر نصّ البيان في: وثائق حركة المقاومة الإسلامية، سلسلة بيانات الحركة، رقم ١، إعداد المكتب الإعلامي لحماس (د.م: المكتب الإعلامي لحماس، د.ت)، ص ١٧-١٨.

٢ غسان حمدان، الانتفاضة المباركة: وقائع وأبعاد، ص ٣٦-٣٨.

والجهاد الإسلامي فقد استمرت في فاعليتهما، بل وصعدتا من عمليتهما الجهادية. غير أن تشكيل السلطة الفلسطينية في الأرض المحتلة في أيار/ مايو ١٩٩٤ أفقد الانتفاضة كثيرًا من وهجها، كما أفقدها المشاركة الشعبية الجماهيرية اليومية، فاقصر الأمر بشكل أكبر على أعضاء الحركات والتنظيمات.

ومن جهة أخرى، عدّت منظمة التحرير الانتفاضة رافعة لها من محاولات العزل والتهميش والتجاوز، فسعت لتوظيف الانتفاضة في تحقيق استراتيجيتها للوصول إلى تسوية سلمية مع الكيان الصهيوني تؤدي إلى انسحابه من الضفة الغربية وقطاع غزة، وإقامة الدولة الفلسطينية على أراضيها. فبعد أسبوعين من بدء الانتفاضة دعت المنظمة إلى إضراب عام في ٢١/١٢/١٩٨٧، وبدأت صور ياسر عرفات وشعارات المنظمة بالظهور. وشكلت المنظمة "القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة" التي شاركت فيها فتح والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية، وصدر بيانها الأول في ٨/١/١٩٨٨. وهكذا بدأ يتنازع قيادة الانتفاضة تياران هما التيار الإسلامي وتيار منظمة التحرير الفلسطينية باستراتيجيات مختلفة وأهداف متباينة، ولكن بفعاليات جهادية نضالية متشابهة تقريبًا ضدّ العدو، تمثلت في المظاهرات والإضرابات وقذف الصهاينة بالحجارة وقنابل المولوتوف الحارقة... وغيرها. وكانت الجماهير تستجيب لكلا التيارين، وتلتزم بالإضرابات التي يدعوان إليها.

١ انظر البيان الأول في: أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو، الانتفاضة: مقدمات ونتائج، تفاعلات وآفاق (بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، ١٩٨٩)، ص ١٩٤-١٩٥.

وقد قام "الكيان الإسرائيلي" بإجراءات لا مثيل لها لقمع الانتفاضة، فاستخدم الرصاص الحي، ورصاص الدمدم المحرم دولياً، وأساليب تكسير عظام المتظاهرين، ومختلف أشكال تعذيب الأسرى، ومنع السفر، وقطع المواصلات والاتصالات الهاتفية، ومصادرة الهويات، وهدم المنازل، وقام بمصادرة الأراضي في الضفة والقطاع بوتيرة عالية، وشملت الإجراءات "الإسرائيلية" الحصار التمويني، وإغلاق الأسواق، وإتلاف المحاصيل الزراعية، ومحاولات كسر الإضرابات التجارية. وتعرضت المؤسسات التعليمية والصحية الفلسطينية لعمليات الإغلاق والمداهمة، بالإضافة إلى انتهاك حرمة المساجد.^١

وحسب إحصائية أعدتها منظمة التحرير الفلسطينية، فإن السنوات الست الأولى للانتفاضة (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧ - كانون الأول/ ديسمبر ١٩٩٣) قد شهدت استشهاد ١٥٤٠ فلسطينياً، وبلغ عدد الجرحى ١٣٠ ألفاً، كما اعتقل نحو ١١٦ ألفاً لمدة مختلفة.^٢ وكان من بين شهداء الانتفاضة ٣٥٣ طفلاً دون ١٦ من العمر.^٣

وتعد الانتفاضة المباركة من أروع وأنبل ما شهده تاريخ فلسطين، بل والتاريخ الإنساني، عندما واجه شعب أعزل بأطفاله ونسائه وشيوخه إحدى أعتى وأقسى القوى في العالم، والمدججة بأحدث أسلحة البطش والدمار.

١ انظر مثلاً: جواد الحمد، "الانتفاضة الكبرى وتطور القضية الفلسطينية"، في جواد الحمد (محرر)، المدخل إلى القضية الفلسطينية، سلسلة دراسات رقم ٢١ (عمّان: مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٧)، ص ٤٠٧-٤١٣.

٢ جريدة صوت الشعب، الأردن، ٨/ ١٢/ ١٩٩٣.

٣ جواد الحمد، "الانتفاضة الكبرى وتطور القضية الفلسطينية"، ص ٤١٠.

وانشَدَ العالمُ إليه مُعجَبًا ومبهورًا بـ "العين التي تحدَّت المخرز"، وبالحجر الذي واجه الرصاصة والدبابة. وكان من أبرز إنجازات الانتفاضة:

* أثبتت "للكيان الإسرائيلي" فشل كافة أساليبه في تركيع وإذلال الشعب الفلسطيني، وأثبتت للعالم أن هناك شعبًا مظلومًا، أرضه محتلة، ويريد أن يعيش حرًا مستقلًا.

* فضحت الوجه القبيح "للكيان الإسرائيلي"، وكشفت زيف ادعاءاته المتعلقة بالمدنية والديموقراطية، وأظهرته قوة اغتصاب وإجرام وقهر للآخرين.

* وجهت الانتفاضة ضربة قوية لمظاهر الاحتلال ومؤسساته، وخصوصًا الجواسيس والعملاء المتعاونين مع جهاز المخابرات، وتمت تصفية نحو ٩٠٠ منهم.

* عالجت الانتفاضة بكثير من النجاح مظاهر الفساد الخلقي والاجتماعي، وتضاعفت مظاهر التدين، وتحقق قدر عال من التكافل والتراحم والإيثار، وظهر جيل جديد من الشباب والفتيان، يمتاز بالشجاعة والثقة بالنفس والاستعداد للتضحية والاستشهاد.

* عادت القضية الفلسطينية لتتصدر قائمة الاهتمامات الدولية، ولتثبت أنها تستعصي على الضياع أو الذوبان.

* أظهرت الانتفاضة قوى جديدة، أصبحت ذات تأثير فاعل في الساحة الفلسطينية ممثلة بحماس والجهاد الإسلامي.

وقد كان من نتائج الانتفاضة أن عاد الوهج والألق لمنظمة التحرير وقيادتها مرة أخرى، وفرضت نفسها على الساحة من جديد.

انتهت الانتفاضة المباركة بتوقيع المنظمة لاتفاقية أوسلو في أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣، وبدء مرحلة الحكم الذاتي في أجزاء من الضفة والقطاع في أيار/ مايو ١٩٩٤. غير أن حماس والجihad الإسلامي استمرت في فعاليتها الجهادية وعملياتهما العسكرية النوعية، وخصوصاً الاستشهادية.

ثانيًا: حركة المقاومة الإسلامية (حماس):

ظهر اسم حركة المقاومة الإسلامية مع انطلاق الانتفاضة المباركة في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٧. ولكن الحركة عرّفت نفسها منذ البداية بأنها "جناح من أجنحة الإخوان المسلمين في فلسطين". والحقيقة أن حماس هي أحد أشكال المقاومة التي قرر الإخوان المسلمون الفلسطينيون تبنيها ضمن تاريخهم الطويل في العمل الشعبي والمقاوم. وبالتالي فإن حماس لم تأت من فراغ، وإنما هي استمرار لعملهم الذي نشأ في فلسطين منذ بداية الأربعينيات من القرن العشرين.

غير أن الجديد في حركة حماس أنها:

١. حسمت حالة "التقطع" في الأداء الجهادي الإخواني، وحولته إلى حالة دائمة مستمرة.

٢. وفّرت غطاءً حركيًا مقاومًا لجماعة الإخوان، يتسم بالمؤسسية التنظيمية والسياسية والعسكرية، وله قيادته السياسية المعلنة.

٣. نقلت الوضع الداخلي للإخوان الفلسطينيين نقلة نوعية، بحيث أصبح العمل التنظيمي والتربوي والتعبوي يخدم الفعل الجهادي واستراتيجية المقاومة.

٤. أجابت عمليًا على "جدلية الدولة والمقاومة"، بأن مشروع الدولة

الإسلامية ومشروع تحرير فلسطين ومقاومة العدو الصهيوني خطّان متوازيان مكملان لبعضهما البعض، ويسيران جنباً إلى جنب دونما تعارض.

وقد تمكنت حماس منذ البداية في الاستناد على أسس أيديولوجية وحركية وشعبية صلبة، مكّنتها من الوقوف في وجه الضربات القاسية التي تلقتها من الكيان الصهيوني ومن السلطة الفلسطينية بعد ذلك، وقد أعانها على ذلك:

١. عراقية وقدم التنظيم الإخواني الفلسطيني، إذ أنه أقدم تنظيم حركي فلسطيني، ما يزال يحتفظ بفاعليته على الساحة.

٢. تراث الإخوان المسلمين العالمي الفكري والدعوي والتربوي الضخم، الذي أنتجته مدرسة الشيخ حسن البنا ومفكروها في بلدان العالم منذ الثلاثينيات وحتى الآن، مما ساعدها كثيراً في تحديد الرؤية والأولويات والمواقف منذ مراحل مبكرة من نشأتها.

٣. استناد الإخوان إلى ماضي جهادي مقاوم يفخرون به منذ ١٩٤٨.

٤. شمولية دعوة الإخوان وتكاملها، بحيث لم تركز على مشروع المقاومة العسكرية فقط. وإنما مثلت دعوة إصلاح ومدرسة تربوية وهيئة اجتماعية خيرية. وتغلّغت في أوساط الناس، بحيث استفادت من هذه الأنشطة في تجنيد عناصرها وتجديد نفسها، مما جعل عملية اقتلاعها أمراً يكاد يكون مستحيلاً.

وهذا ما يفسر أن حماس منذ نشأتها لم تبدأ من ذيل القائمة الطويلة لمنظمات المقاومة الفلسطينية، وإنما قفزت مباشرة لتكون المنافس الأول والقوي لحركة فتح التي تعد العمود الفقري لمنظمة التحرير الفلسطينية.

وفي اجتماع المكتب الإداري لإخوان الداخل يوم ١٠ / ١ / ١٩٨٨ في بيت حسن القيق بالقدس، اتُّخذ قرار تأكيد استمرار الانتفاضة ونشرها في جميع المدن والقرى والمخيمات. أما اختصار اسم حركة المقاومة الإسلامية إلى "حماس"، فكان باقتراح من حسن القيق وفي بيته أيضًا. وبذلك تمّ تثبيت اسم "حماس".

ميثاق حماس:

أصدرت حماس ميثاقها في ١٨ / ٨ / ١٩٨٨. وكتب مسودته الأستاذ عبد الفتاح دخان، وخصوصًا أن قيادة الداخل (الضفة والقطاع) أقرته، كما أقره المكتب التنفيذي في بلاد الشام. وجرى توزيعه بشكل واسع في السنة نفسها في الكويت والأردن بالإضافة إلى الداخل الفلسطيني. لم يُناقش الميثاق أو يُعرض للإقرار في مجلس شوراها؛ إذ إن حماس عقدت أول مجلس شورى لها لاحقًا في شهر آب/ أغسطس ١٩٩١ (انتخب الشيخ عمر الأشقر رئيسًا له)، غير أن الجميع تعامل مع الميثاق عمليًا باعتباره ميثاق الحركة.

أعلنت حماس نفسها في الميثاق جناحًا من أجنحة الإخوان المسلمين في فلسطين، وامتدادًا من امتداداتها، وأنها تعدُّ الإسلام منهجها، منه تستمد أفكارها ومفاهيمها وتصوراتها، وإليه تحتكم، ومنه تسترشد خطاها.^١ وتهدف حماس إلى تحرير فلسطين، وإقامة دولة الإسلام عليها، وإعادة الحقوق إلى أصحابها، وتعدُّ نفسها سندًا لكل مستضعف، ونصيرًا لكل مظلوم.^٢ وترى حماس أن فلسطين أرض وقف إسلامي على أجيال المسلمين

١ ميثاق حركة المقاومة الإسلامية (حماس)، آب/ أغسطس ١٩٨٨، المادة ١ و ٢.

٢ ميثاق حماس، المادة ٩.

إلى يوم القيامة، لا يصحّ التفريط بها أو بجزء منها، أو التنازل عنها أو عن جزء منها، وأنه لا حلّ لقضية فلسطين إلا بالجهاد في سبيل الله، وأن العمل على تحريرها فرض عين على كلّ مسلم حيثما كان.^١

وأبدت حماس في ميثاقها اهتمامًا بتربية الأجيال تربية متكاملة، وأعطت للمرأة المسلمة دورًا لا يقلّ عن دور الرجل في معركة التحرير.^٢ ونظرت حماس نظرة احترام وتقدير إلى الحركات الإسلامية، وبادلت الحركات الوطنية الفلسطينية ومنظمة التحرير الاحترام، لكنها رفضت في الوقت نفسه الفكرة العلمانية، معتبرة أنها لن تؤدي إلى التحرير.^٣ وأكدت حماس على اعتبارها حركة إنسانية تلتزم بسماحة الإسلام في النظر إلى أتباع الديانات الأخرى، ولا تعادي إلا من يناصبها العداء.^٤

الوثيقة السياسية لحماس:

واجهت حماس عشرات القضايا والمستجدات طوال نحو ثلاثين عامًا، كانت مثار نقاش في أطرها، وقدمت عليها إجابات سياسية من قياداتها في بيئات وظروف مختلفة، فأصبحت ثمة ضرورة للملمة الصورة وتوحيد الرؤية، وضبط اللغة السياسية وتحديد المعايير والأولويات، خصوصًا لدى كوادرها ومؤيديها، وبالتالي فقد كانت الحاجة الداخلية والبيئة الداعمة سببًا أساسيًا لصدور الوثيقة.

١ ميثاق حماس، المادة ١١، و١٣-١٥.

٢ ميثاق حماس، المادة ١٦.

٣ ميثاق حماس، المادة ٢٣ و٢٥-٢٧.

٤ ميثاق حماس، المادة ٣١.

إن قرار قيادة حماس بإعداد الوثيقة يعود إلى أواخر أيار/ مايو ٢٠١٣ كأحد أبرز أولوياتها كقيادة جديدة منتخبة. وحظيت الوثيقة بنقاش واسع ومعمق في كل أطرها المعنية في الداخل والخارج، وأقيمت لها ورش عمل في بلدان عديدة، وقامت الجهات المختصة بإدخال التعديلات والتحسينات على النصوص في عدة مسودات وقراءات، إلى أن تمّ اعتمادها نهائياً في قيادة الحركة التنفيذية، ثم في مجلس شوراها العام في أواخر كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٦. وتُرك بعد ذلك للقيادة صلاحية وضع بعض الرتوش وتحديد توقيت إطلاق الوثيقة.

عالجت الوثيقة ثغرات في الميثاق كان أبرزها ما يتعلق باليهود، حيث كان ثمة لبس بين اليهود كأتباع ديانة وأهل كتاب، وبين اليهود الصهاينة الغاصبين لأرض فلسطين. وهي ثغرة غير مقصودة باعتبار أن الثقافة الشعبية التي كانت سائدة في العالم العربي والإسلامي تستخدم لغة مبسطة في استخدام المصطلح وتعميمه.

غير أن الجانب "الإسرائيلي" استغل هذه الثغرة لاتهام حماس بـ"اللا سامية" وتشويه صورتها في كل مكان. ولذلك أكدت الوثيقة أن حماس لا تحارب اليهود لكونهم يهوداً أو بسبب ديانتهم، وإنما تحارب المشروع الصهيوني والصهاينة المعتدين المحتلين لفلسطين. كما عالجت الوثيقة الجوانب المرتبطة بالصياغة السياسية والقانونية، فقدمت صياغة محترفة متماسكة، وتجنبت التوضيحات والشروح التي أسهب فيها الميثاق.

أما أبرز معالم ومزايا الوثيقة فهي فيما يلي:

١- اللغة السياسية والقانونية المحترفة والمعاصرة، التي تخاطب

الأنظمة والمجتمعات العربية والدولية باللغة التي يفهمونها.

٢- الصلابة والوضوح فيما يتعلق بالثوابت، وتأكيدا عليها في مواضع عديدة بشكل لا يحتمل اللبس.

٣- اللغة السياسية المرنة المنفتحة على الواقع، والتي تؤكد على المشترك مع الآخرين دونما إخلال بالثوابت.

٤- الروح الإسلامية الوسطية المتسامحة المعتدلة، البعيدة عن الغلو والتطرف والتعصب؛ والتي تؤكد على القيم الإنسانية المشتركة في الحرية والعدالة ورفض الظلم والعدوان.

٥- الشمول: حيث غطت الوثيقة كافة الخطوط الأساسية بشكل متوازن في ١١ عنواناً، شملت تعريفها لنفسها، ولأرض فلسطين وشعبها، ولرؤيتها الإسلامية لفلسطين، وللقدس، وغطت موضوع اللاجئين وحق العودة، والمشروع الصهيوني، والموقف من الاحتلال ومن التسوية السياسية، وحددت رؤيتها للمقاومة ومشروع التحرير وللنظام السياسي الفلسطيني، كما تحدثت عن الأبعاد العربية والإسلامية والدولية والإنسانية.

ومما تجدر الإشارة إليه، أن البند ٢٠ في الوثيقة الذي يشير جزء منه إلى إمكانية القبول بدولة فلسطينية على خطوط ٤ حزيران/ يونيو ١٩٦٧ هو أكثر الجوانب التي أثارت النقاش وشغلت الرأي العام، وكأنه مبادرة جديدة أو تنازل من حماس. والحقيقة أن النص حول الدولة يأتي في سياق نص حاسم يرفض التنازل عن أي جزء من فلسطين مهما كانت الأسباب. والنص نثبته هنا لمن لم يطلع عليه:

لا تنازل عن أي جزء من أرض فلسطين، مهما كانت الأسباب والظروف والضغط، ومهما طال الاحتلال. وترفض حماس أي بديل عن تحرير

فلسطين تحريراً كاملاً، من نهرها إلى بحرهما. ومع ذلك - وبما لا يعني إطلاقاً الاعتراف بالكيان الصهيوني، ولا التنازل عن أيٍّ من الحقوق الفلسطينية - فإن حماس تعتبر أن إقامة دولة فلسطينية مستقلة كاملة السيادة، وعاصمتها القدس، على خطوط الرابع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧، مع عودة اللاجئين والنازحين إلى منازلهم التي أخرجوا منها، هي صيغة توافقية وطنية مشتركة".

هذا النص مرتبط بقضية جوهرية كانت وما تزال مثار النقاش في الساحة الفلسطينية طوال السنوات العشر الماضية، وكانت حماس مطالبة بالإجابة عنها في كل حواراتها مع فتح والقوى الفلسطينية لبناء قاعدة التقاء وتقاطع مشترك، لتجاوز الانقسام الفلسطيني والعمل المشترك في الأطر الفلسطينية كمنظمة التحرير والسلطة.

فقد ثبتت حماس هنا حرصها على الشراكة والتوافق وإنهاء الانقسام، وأنها ليست عقبة في طريق إنشاء دولة فلسطينية كاملة السيادة على خطوط الرابع من حزيران/ يونيو؛ غير أن هذه الصيغة لا تملي على حماس أي التزامات تجاه العدو كالاقرار بـ "إسرائيل" أو التنازل عن أي جزء من فلسطين، وهي النصوص الحاكمة التي سبقت النص على موضوع الدولة. فكرة القبول بدولة فلسطين الكاملة السيادة على خطوط ١٩٦٧ مقابل هدنة هي فكرة طرحتها قيادات حماس منذ أكثر من ٢٥ عامًا، ولا جديد في نص الوثيقة. مع الإشارة إلى أن الوثيقة أشارت إلى "خطوط" وليس إلى "حدود" ١٩٦٧، مما يعني أنها خطوط هدنة وليست حدوداً دائمة.

ما هو مهم هو أن حماس جمعت في الوثيقة بين المحافظة على الهوية والثوابت واتجاه البوصلة، وبين التوازن والاعتدال والانفتاح.

ثالثاً: حماس وانطلاقة العمل العسكري^١

ترى حركة حماس أن العمل العسكري هو خيار استراتيجي دائم، وتتعامل مع المعركة باعتبارها معركة طويلة الأمد، ربما تتداولها الأجيال. وهي في مثل أجواء التسوية السلمية وحالة استضعاف الأمة تسعى لإبقاء جذوة الجهاد مرفوعة تعبيراً عن عدم التفريط بالأرض المقدسة. ولكن الذي عقد الأمر في وجه حماس أنها أقبلت على الخيار العسكري حين أدبر الآخرون، وسارت عكس التيار، لكنها على أي حال تمكنت من إثبات نفسها.

تطورت فعاليات حماس الانتفاضية من الاضرابات، والمظاهرات، ورمي الحجارة، إلى تطوير تدريجي في الفعاليات العسكرية كالهجمات بالسكاكين والأسلحة النارية، واختطاف الجنود، وقتل العملاء، إلى السيارات المفخخة، والعمليات الاستشهادية. وقد أصبح الجهاز العسكري جزءاً ثابتاً وأصيلاً من تركيبة حماس، وعلى الرغم مما تعرض له الجهاز من ضربات سنة ١٩٨٨، و١٩٨٩، و١٩٩٠ على خلفيات فعالياتاته العسكرية فإن الحركة كانت تعيد بناءه من جديد، وعلى الرغم من حالات المد والجزر فإن الجهاز ظلّ موجوداً، وفاعلاً، ومركزياً. وقد أمكن لحماس تجاوز الصعوبات بوجود نوعية من الرجال مستعدة للتضحية والاستشهاد،

١ حول عمليات حماس ١٩٨٩-١٩٩٦، انظر: محسن محمد صالح، الطريق إلى القدس، ص ١٨٧-٢٠٤؛ وغسان دوعر، موعد مع الشباك: دراسة في النشاط العسكري لحركة حماس وكتائب عز الدين القسام خلال عام ١٩٩٣ (لندن: فلسطين المسلمة، ١٩٩٥)؛ وغسان دوعر، عماد عقل (عمّان: فلسطين المسلمة، ١٩٩٥)؛ وغسان دوعر، حرب الأيام السبعة: أسود حماس (عمّان: فلسطين المسلمة، ١٩٩٣)؛ ومهيب النواقي، حماس من الداخل (غزة، فلسطين: دار الشروق، ٢٠٠٢)، ص ٧١-٩٠.

ويعترف المحللون "الإسرائيليون" أن "حماس قد صكّت نماذج جديدة للإنسان الفلسطيني، وهم الاستشهاديون الجدد".^١ ويذكر أحد الخبراء أن حماس قد أثبتت أنها الرقم الأصعب في المعادلة الفلسطينية.^٢

في ٢١/٣/١٩٨٨، قامت المجموعة ١٠١ في الجهاز العسكري لحماس "المجاهدون الفلسطينيون" الذي يقوده الشيخ صلاح شحادة، بمحاولة اختطاف مهندس ومقاوم صهيوني في منطقة الشيخ رضوان في قطاع غزة، بيد أن العملية واجهتها صعوبات حالت دون إتمامها، فقامت المجموعة بإطلاق النار عليه وأصابوه بجراح، وتلا ذلك عمليات تفجير عبوات ناسفة في بيت حانون في أيار/ مايو ١٩٨٨، وفي يوم عيد الأضحى في ٢٥/٧/١٩٨٨، ثم في ذكرى الهجرة النبوية في ١٤/٨/١٩٨٨. كما قتلت المجموعة مستوطنًا "إسرائيليًا" في ١٨/٨/١٩٨٨، قرب منطقة بيت لاهيا شمال قطاع غزة. ونجحت المجموعة في خطف وقتل الرقيب الصهيوني آفي ساسبورتس Avi Sasportas في ٣/٢/١٩٨٩، وفي خطف الجندي إيلان سعدون Ilan Sa'adon وقتله في ٣/٥/١٩٨٩. لكن سرعان ما ضرب هذا الجناح العسكري وحركة حماس بشكل عام في أيار/ مايو ١٩٨٩؛ حيث قامت قوات الاحتلال باعتقال ما يزيد عن ألف من كوادر الحركة وأبنائها، وتم التحقيق بأساليب وحشية مع المئات منهم، فأدى ذلك إلى كشف بنية الحركة التنظيمية لأول مرة، وألقي القبض على الشيخ أحمد ياسين في ١٨/٥/١٩٨٩. وفي الذكرى الثالثة لانطلاقة حماس في ١٤/١٢/١٩٩٠،

١ انظر: موسى الكيلاني، "الرقم الأصعب في المعادلة"، جريدة الدستور، عمّان، ١/٢/١٩٩٥ (التوكيد للباحث).

٢ المرجع نفسه.

قامت حماس بقتل ثلاثة "إسرائيليين"، مما فجر أكبر عملية اعتقال شاملة تتعرض لها الحركة، وجرى مجددًا ضرب أجهزة الحركة. وكان من أبرز الظواهر التي رافقت هذه الضربة انكشاف علاقة الحركة في الخارج، ودورها فيما يجري بالداخل.

شكلت حماس جناحها العسكري الحالي "كتائب عز الدين القسام" في أيار/ مايو ١٩٩٠، الذي حلّ محلّ "المجاهدون الفلسطينيون".

وفي ١٣/١٢/١٩٩٢ قامت حماس باختطاف الجندي نسيم توليدانو Nissim Toledano والمطالبة في مقابل الإفراج عنه بالإفراج عن الشيخ أحمد ياسين، وعلى إثر رفض رئيس وزراء العدو إسحق رابين Yitzhak Rabin التجاوب مع مطالبها قامت الحركة بتصفية الجندي، وهو ما دفع رابين للإعلان في الكنيست عن الحرب الشاملة على حركة حماس؛ فتم اعتقال ١٣٠٠ من أنصار حماس، كما أقدمت السلطات "الإسرائيلية" على أكبر عملية تهجير وإبعاد بعد حرب ١٩٦٧، عندما قامت بإبعاد ٤١٥ غالبيتهم الساحقة (نحو ٣٨٠) من القيادات الإسلامية المدنية المحسوبة على حماس. غير أن رفض المبعدين للإبعاد وصمودهم في مرج الزهور على الحدود مع لبنان، أكسبهم المعركة الإعلامية الدولية ضدّ الاحتلال، ووسّع دائرة الاهتمام بحركة حماس، وزاد من شعبيتها، مما اضطر السلطات "الإسرائيلية" إلى الموافقة على العودة التدريجية للمبعدين، والتي اكتملت بعد عام من الإبعاد.^١

وحسب دراسة لغسان دوعر، فقد نفذت حماس سنة ١٩٩٣ ما مجموعه ١٣٨

١ انظر أعداد مجلة فلسطين المسلمة، لندن، التي غطت عملية الإبعاد وأخبار المبعدين بالتفصيل طوال سنة ١٩٩٣.

عملية خسر "الكيان الإسرائيلي" حسبما أعلن بنفسه ٧٩ قتيلاً و ٢٢٠ جريحاً.^١ وبالرغم من أن دخول منظمة التحرير الفلسطينية في تسوية مع الكيان الصهيوني، وتوليها إنشاء الحكم الذاتي في المناطق السكانية في الضفة والقطاع (منذ سنة ١٩٩٤)، جعل العمل الجهادي أمراً يكاد يكون مستحيلاً، إلا أن الفترة ١٩٩٤-١٩٩٨ شهدت تطوراً نوعياً في العمليات وخصوصاً الاستشهادية منها. ومن ذلك ردُّ حماس على مذبحة الحرم الإبراهيمي في ١٩٩٤/٢/٢٥ بخمس عمليات عنيفة، أدت إلى قتل ما مجموعه ٣٩ "إسرائيلياً" وجرح ١٥٨ آخرين. ورد حماس على استشهاد يحيى عياش، الذي اغتيل في ١٩٩٦/١/٥، والذي كان مهندساً لعمليات أدت لقتل ٧٠ "إسرائيلياً" وجرح ٣٤٠ آخرين، بعدة عمليات في الفترة ١٩٩٦/٢/٢٥-١٩٩٦/٣/٣ مما أسفر عن قتل ٤٥ "إسرائيلياً" وجرح ١١٣ آخرين حسب المصادر "الإسرائيلية".^٢ وقد هزت العمليات الكيان الصهيوني، وهو ما دفع إلى عقد مؤتمر دولي بمشاركة الدول الكبرى لما أسموه "محرابة الإرهاب". وشعرت الجهات المعنية بالتسوية أن مشروعها السلمي أصبح في "مهب الريح" على حدّ تعبير القيادي الفلسطيني صائب عريقات. وقام الصهاينة والسلطة الفلسطينية، بالتعاون المباشر مع أمريكا وباستخدام كافة التقنيات

١ انظر: غسان دوعر، موعد مع الشاباك.

٢ انظر: جريدة الرأي، عمّان، الأردن، ١٩٩٦/١/٧، والأعداد الصادرة في ١٩٩٦/٢/٢٦-١٩٩٦/٣/٥؛ ومجلة فلسطين المسلمة، نيسان/ أبريل ١٩٩٦، وقد نفذت حماس أربع عمليات انتقاماً لاستشهاد يحيى عياش أدت إلى مقتل ٤٧ صهيونياً وجرح ١٠٥ آخرين (حسب المصادر الإسرائيلية)، ونفذت الجهاد الإسلامي العملية الخامسة - بالتنسيق مع حماس - مما أدى إلى مقتل ١٤ صهيونياً وجرح ١٢٥ آخرين (حسب المصادر الإسرائيلية).

الأمنية، بحملة شعواء استهدفت اجتثاث كل ما له صلة بالتيار الإسلامي الحركي المقاوم في فلسطين. ومرّت حماس والجهد الإسلامي، بمرحلة من أقصى المراحل، وعانت من ضربات قاسية. وتمكنت السلطة من تفكيك معظم خلايا المقاومة. ومع ذلك فقد بذلت حماس جهداً استثنائياً، لمتابعة المقاومة، حيث عادت العمليات العسكرية للظهور سنة ١٩٩٧، غير أنه لم يتم تنفيذ سوى عمليات محدودة للمقاومة حتى سنة ٢٠٠٠، بينما استشهد عدد من رموز العمل العسكري المقاوم أمثال محي الدين الشريف، وعماد عوض الله، وعادل عوض الله.

أما في فترة انتفاضة الأقصى (٢٠٠٠-٢٠٠٥) وما تلاها، فقد شهدت قفزات نوعية متتالية لحماس وجناحها العسكري، الذي أصبح الأقوى على الساحة الفلسطينية، منذ تلك الفترة وحتى كتابة هذه السطور (سنة ٢٠٢١).

ومن جهة أخرى، فإن حركة الجهاد الإسلامي قامت بعدد من العمليات النوعية والاستشهادية مثل عمليات نتساريم Netzarim في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٤، وبيت ليد في كانون الثاني/يناير ١٩٩٥، وتل أبيب في آذار/مارس ١٩٩٦. وقد تعرضت لما تعرضت له حماس من ضغوط ومطاردة. وقد استشهد قائدها فتحي الشقاقي في عملية نفذها الموساد "الإسرائيلي" في ٢٦/١٠/١٩٩٥.

رابعاً: انتفاضة الأقصى:

اندلعت انتفاضة الأقصى في ٢٩/٩/٢٠٠٠، إثر اقتحام أريل شارون Ariel Sharon زعيم حزب الليكود Likud حرم المسجد الأقصى في ٢٨/٩/٢٠٠٠. وكان واضحاً أن ثمة مباركة وتأييداً من رئيس الحكومة

الصهيونية إيهود باراك Ehud Barak للزيارة حيث زوده بـ ٦٠٠ جندي لمرافقته، واستنفر ٣ آلاف جندي وشرطي في القدس وأحيائها. وصمم المسلمون على الدفاع عن الأقصى، حيث سقط في المواجهات الأولى خمسة شهداء، وجرح أكثر من مئة. وكانت عناصر اشتعال الوضع جاهزة، فقد وصلت مفاوضات التسوية السلمية إلى طريق مسدود، وتأكدت الأطماع الصهيونية في القدس والمسجد الأقصى، واستمر الصهاينة في مصادرة الأراضي وتوسيع المستعمرات.

وأفرزت الانتفاضة عددًا من الحقائق والمؤشرات أهمها:

١. أن الأمة الإسلامية ما تزال حية، بالرغم من الجراح التي أثختها، وأن روح المقاومة والصمود والاستعداد للبذل والتضحية لم تخدم. فقد خرجت المظاهرات بعشرات الآلاف بل بمئات الآلاف في بلدان العالم الإسلامي، من الرباط في أقصى المغرب وحتى جاكارتا في أقصى المشرق الإسلامي، كلها تهتف للأقصى والقدس وفلسطين، وتطالب بالجهاد، وتقدم ما لديها من تبرعات ودعم. فكانت لحظات رائعة من أخوة الإسلام ووحدة الأمة. وظهرت تجليات الإمكانيات الكبرى لهذه الأمة لتحقيق النصر لو سلك طريق الجهاد.

٢. أن قضية فلسطين قضية تجمع المسلمين وتوحدتهم، بل وتكون سببًا في تجاوز خلافاتهم والتركيز على العدو الصهيوني المشترك. وأن هذه القضية غدت القضية المركزية للعالم الإسلامي، فلا قضية تجمعهم كهذه القضية، ولا عدو يجتمعون ضده كهذا العدو.

٣. وجهت الانتفاضة ضربة قاسية لمشروع التسوية السلمية والتطبيع مع العدو، وبرز الخيار الجهادي كخيار أمثل.

٤. إن هذه الانتفاضة انعكست على طريقة تفكير الناس وأسلوب حياتهم اليومي، فاشتد العداء للمشروع الصهيوني، واشتد العداء ضدّ أمريكا، وتكرست الروح الجهادية وروح التكافل، وتجاوبت الجماهير مع دعوات مقاطعة البضائع الأمريكية و"الإسرائيلية"، حتى غير الملايين من أسلوب طعامهم وشرابهم اليومي، ومن لباسهم ووسائل تنقلهم واتصالاتهم وترفيههم، فكانت مدرسة تربوية اجتماعية شعبية، ربما احتاجت حركات الإصلاح سنوات للوصول إلى مثل نتائجها. بل واضطرت الشركات الأجنبية الأمريكية لإنزال إعلانات عدم العلاقة بالكيان الصهيوني، بل والتبرع لضحايا الانتفاضة، كما حدث مع مطاعم مكدونالدز التي تبرعت بريال سعودي لكل وجبة طعام، لعلاج جرحى الانتفاضة.^١

٥. برزت أهمية الإعلام ودوره في التعبئة، إذ تمكن المسلمون من كسر الطوق الإعلامي الغربي المتصهين، من خلال الفضائيات العربية، وخدمات الإنترنت والبريد الإلكتروني، وخصوصاً في المراحل الأولى من الانتفاضة. ومن جهة أخرى، فقد تميزت هذه الانتفاضة بالمشاركة الشعبية الواسعة في كل أرجاء فلسطين المحتلة، وبمشاركة كافة التيارات الفلسطينية. كما تميزت في الوقت نفسه، بشدة القمع الصهيوني الذي تمادى في قتل الأطفال والأبرياء واستخدام الأسلحة المحرمة دولياً، وانكشفت سوءات أذعيا "السلام" الصهاينة الذين تباروا في سحق الانتفاضة المباركة.

١ يمكن مراجعة التقارير المنشورة في الإنترنت في أشهر تشرين الأول/ أكتوبر وكانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠ في المركز الفلسطيني للإعلام وموقع إسلام أون لاين، لقراءة العديد من النماذج والتقارير.

وقد شهدت سنة ٢٠٠٥ خُفوت موجة انتفاضة الأقصى، وكان ذلك نتيجة الأوضاع التي تلت وفاة ياسر عرفات، وانتخاب محمود عباس رئيساً للسلطة، وبسبب انشغال الفلسطينيين في الضفة والقطاع في الانتخابات البلدية وفي التحضير للانتخابات التشريعية، بالإضافة إلى إعلان الفصائل الفلسطينية في ٢٢/١/٢٠٠٥ التهدة من جانب واحد، ثم إعلان وقف إطلاق النار بين السلطة و"إسرائيل" في ٨ شباط/فبراير.

وخلال الفترة ٢٨/٩/٢٠٠٠-٣١/١٢/٢٠٠٥، بلغ عدد الشهداء ٤٢٤٢ شهيداً، بينهم ٧٩٣ طفلاً، و٢٧٠ شهيدة. وقامت السلطات بعمليات اغتيال وتصفية جسدية ميدانية لـ ٣٧٦ مواطناً، واستشهد بسبب الإعاقة على الحواجز "الإسرائيلية" ١٤٠ مريضاً ما بين طفل وسيدة وشيخ مسن من مرضى القلب والكلى والسرطان. وبلغ عدد الجرحى ٤٦٠٦٨ جريحاً.^١ وبالرغم من إعلان التهدة الفلسطينية وخُفوت الانتفاضة، إلا أن أعداد الأسرى زادت، فبعد أن كانت نحو ٧٨٠٠ في مطلع ٢٠٠٥ ارتفع عددهم إلى نحو ٩٢٠٠ أسيراً في نهاية السنة نفسها. وتم اعتقال ٣٤٩٥ فلسطيني خلال سنة ٢٠٠٥، ظل منهم ١٦٠٠ محجوزين خلف القضبان.^٢

١ موقع مركز الإحصاء الوطني الفلسطيني، ٩/٢/٢٠٠٥، انظر:

http://www.pnic.gov.ps/arabic/quds/arabic/viol/quds_viol_12-2005.html

٢ تقرير وزارة شؤون الأسرى والمحررين لسنة ٢٠٠٥، انظر:

www.pnic.gov.ps/arabic/social/prisoners/2005.html

وحسب مركز المعلومات "الإسرائيلي" لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة (بتسيلم) نقلاً عن مصادر الأمن والجيش "الإسرائيلي" فإن المعتقلين كانوا ٧٨٣٨ في مطلع سنة ٢٠٠٥، ووصل العدد إلى ٨٢٣٨ معتقلاً في مطلع سنة ٢٠٠٦، انظر:

www.btselem.org/arabic/statistics/detainees

وفي انتفاضة الأقصى وُضع ياسر عرفات تحت حصار قاسٍ في مقره في رام الله لنحو سنتين ونصف، وتوفي في ظروف مريبة في ١١/١١/٢٠٠٤. كما استشهد عدد من قادة حماس الكبار أمثال جمال سليم وجمال منصور في ٣١/٧/٢٠٠١، وصالح شحادة في ٢٢/٧/٢٠٠٢، وإسماعيل أبو شنب في ٢١/٨/٢٠٠٣. وتلقت حماس إحدى أقسى الضربات باستشهاد زعيمها الروحي ومؤسسها الشيخ أحمد ياسين في ٢٢/٣/٢٠٠٤، ثم تبعه استشهاد عبد العزيز الرنتيسي في ١٧/٤/٢٠٠٤. وبلغ عدد شهداء كتائب القسام ٦٠٤ شهداء خلال انتفاضة الأقصى (٢٨/٩/٢٠٠٠ - نهاية ٢٠٠٥). كما استشهد أبو علي مصطفى الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في عملية اغتيال صهيونية في ٢٧/٨/٢٠٠١.

وبلغ عدد المنازل التي دمرت بشكل كلي أو جزئي ٧١٤٧٠ منزلاً، وعدد مؤسسات التربية والتعليم التي تعرضت للقصف ٣١٦ مدرسة ومديرية ومكاتب تربية وتعليم وجامعة. وقام "الإسرائيليون" باقتلاع وتدمير مليون و٣٥٥ ألف شجرة. وتشير التقديرات إلى أن الاقتصاد الفلسطيني (الناشئ المنهك) قد خسر منذ اندلاع الانتفاضة وحتى ٢٩/٩/٢٠٠٥ نحو ١٥ مليار و٦٠٠ مليون دولار.^١

وقد شاركت الفصائل الفلسطينية كافة في العمليات العسكرية. وحسب التقديرات "الإسرائيلية" فقد نفذت المقاومة الفلسطينية ٢٢٤٠٦ عملية خلال الفترة ٢٩/٩/٢٠٠٠ - ٢٤/٧/٢٠٠٥.^٢ وتميزت حركة حماس

١ مركز المعلومات الوطني الفلسطيني، انظر:

<http://www.pnic.gov.ps/arabic/quds/arabic/losses/28-9-2005.html>

٢ موقع الجيش الإسرائيلي، انظر:

http://www1.idf.il/SIP_STORAGE/DOVER/files/9/21829.doc

بدورها البارز وبعملياتها الاستشهادية التي أحدثت دويًا هائلًا، وزعزعت الأمن في "الكيان الإسرائيلي" حيث نفذ معظمها في فلسطين المحتلة سنة ١٩٤٨. وحتى ٢٠٠٥/١٢/١ حدثت ١٣٥ عملية استشهادية، نفذت حماس منها ٦١ عملية، بالإضافة إلى عمليات كثيرة نفذتها كتائب شهداء الأقصى والجهاد الإسلامي.^١

ومن العمليات التي تستحق الإشارة عملية اغتيال وزير السياحة "الإسرائيلي" رجب عام زئيفي Rehavam Ze'evi في ١٧/١٠/٢٠٠١، وهو جنرال سابق في الجيش، ومن أشد الصهاينة تطرفًا. وقد نفذت الجبهة الشعبية هذه العملية انتقامًا لاغتيال أمينها العام أبو علي مصطفى.

لكن العمليات الاستشهادية على قلتها النسبية كانت الأكثر أثرًا. وينبغي الإشارة إلى أن كثيرًا من الإصابات في صفوف "المدنيين" "الإسرائيليين" هي في الحقيقة إصابات في جنود احتياط، إذ إن كل اليهود تقريبًا في فلسطين المحتلة فوق سن الـ ١٨ يخضعون للتدريب العسكري الإجباري، سواء كانوا من الرجال أم النساء. أما الأغلبية الكبرى للشهداء الفلسطينيين فهي من المدنيين. ويشير تقرير جهاز الأمن العام "الإسرائيلي" (الشاباك) Israel Security Agency—ISA (Shabak) إلى مقتل ١٥١٣ "إسرائيليًا" وجرح ٣٣٨٠ آخرين منذ بدء الانتفاضة وحتى تموز/ يوليو ٢٠٠٥.^٢

وقد عانى الكيان الصهيوني من تدهور وضعه الاقتصادي، والذي كان يشهد ازدهارًا كبيرًا قبل بدء الانتفاضة. فقد تعطلت السياحة تقريبًا في

^١ موقع الجيش الإسرائيلي، انظر:

http://www1.idf.il/SIP_STORAGE/DOVER/files/6/31646.doc

^٢ نشرت التقرير جريدة معاريف ونشرت ترجمته جريدة السفير، بيروت، ١٥/٧/٢٠٠٥.

السنتين الأوليين للانتفاضة، وهي التي تمثل ثاني أكثر مصدر للدخل. وحسب تقرير رسمي صادر عن دائرة الإحصاء المركزية "الإسرائيلية"، فإن سنة ٢٠٠٢ كانت الأسوأ من الناحية الاقتصادية في تاريخ الكيان الصهيوني منذ خمسين عامًا (سنة ١٩٥٣).^١ وانخفض المعدل السنوي لمعدل ناتج الفرد بنحو ٣ آلاف دولار (من ١٨٦٠٠ دولار سنة ٢٠٠٠ إلى ١٥٦٠٠ دولار سنة ٢٠٠٢). وحسب تقرير القسم الاقتصادي في اتحاد المستقلين "لاهاف Lahav"، فقد أغلق في سنة ٢٠٠٢ نحو ٥٠ ألف متجر.^٢ وحسب بعض التقديرات، فإن مجموع الخسائر الاقتصادية "الإسرائيلية" خلال السنتين الأوليين للانتفاضة بلغت نحو ٨ مليارات دولار أي نحو ١١ مليون دولار يوميًا. وهكذا فإن الفرق الجوهرى الذي أحدثته الانتفاضة هو أن الشعب الفلسطيني لم يعد الجهة الوحيدة التي تدفع ثمن الاحتلال والغطرسة الصهيونية من شهداء وجرحى ودمار، وإنما أصبح "الكيان الإسرائيلي" يدفع غالبًا ثمن احتلاله وظلمه.

لقد أحدثت هذه الانتفاضة هزة عميقة في الكيان الصهيوني، وأصابته في صميم القاعدتين اللتين بنى عليهما وجوده المادي، وهما الأمن والازدهار الاقتصادي. وأخذ عشرات الآلاف من اليهود يحزمون حقائبهم ويغادرون الكيان الصهيوني إلى أوروبا وأمريكا وأستراليا، وأظهرت استطلاعات الرأي العام أن أكثر من ٢٥٪ من اليهود في فلسطين يفكرون جدًّا في المغادرة وترك البلاد. وأظهر استطلاع أجرته جريدة الجيروزالم بوست The Jerusalem Post

١ موقع دائرة الإحصاء المركزية الإسرائيلية، انظر: www.cbs.gov.il؛ وانظر: وكالة قدس برس إنترناشيونال للأنباء، نشرة بانوراما، ٢/١/٢٠٠٣.
٢ المرجع نفسه، ٣/١/٢٠٠٣.

"الإسرائيلية" في ٢٩/١١/٢٠٠٢، أن ٦٩٪ من "الإسرائيليين" يعيشون حالة الخوف من التعرض لإصابات أو الموت بسبب العمليات الاستشهادية.^١ وفي المقابل، فإنه على الرغم من قسوة المعاناة الفلسطينية، فقد أظهر استطلاع للرأي نشر في ١٨/١٢/٢٠٠٢ أن ٨٠٪ من الفلسطينيين يؤيدون استمرار الانتفاضة، وأن ٦٣٪ يؤيدون العمليات الاستشهادية.^٢

خامساً: العدوان والمقاومة ٢٠٠٦-٢٠٢١:

تابعت "إسرائيل" عدوانها في الفترة ٢٠٠٦-٢٠١١، كما تابعت الفصائل الفلسطينية مقاومتها، وإن بوتيرة وأشكال مختلفة. وكان من أبرز ملامح هذه الفترة:

- ضرب المقاومة الفلسطينية وتفكيك معظم خلاياها في الضفة الغربية، بسبب التعاون الشامل والمنهجي بين السلطة الفلسطينية في رام الله وبين الاحتلال "الإسرائيلي".

- تطور المقاومة الفلسطينية في قطاع غزة، برعاية الحكومة التي تقودها حماس، وتمكنها من تجنيد الآلاف من عناصر المقاومة، ومن تهريب الأسلحة، ومن تطوير إمكاناتها الصاروخية وإن بشكل محدود مقارنة بإمكانات العدو، وبحالة الحصار الخانق التي تعيشها.

- الاعتماد بشكل كبير على إطلاق الصواريخ في عمليات المقاومة، خصوصاً من قطاع غزة، وخفوت ظاهرة العمليات الاستشهادية التي طبعت

١ نقلاً عن: Site of British Broadcasting Corporation (BBC), 30/11/2002, <http://news.bbc.co.uk>

٢ جريدة الخليج، الشارقة، الإمارات، ١٨/٢/٢٠٠٣.

انتفاضة الأقصى .

تركزت الحملات العسكرية "الإسرائيلية" في هذه الفترة على قطاع غزة، بهدف إسقاط حكومة حماس، وضرب المقاومة، وإسكات صواريخها. وكان من أبرز الحملات عملية "أمطار الصيف" التي استمرت في الفترة ٢٦/٦-٣١/١٠/٢٠٠٦، والتي جاءت بعد قيام حماس، بالتعاون مع لجان المقاومة الشعبية وجيش الإسلام، بعملية "الوهم المتبدد" التي أدت إلى أسر الجندي "الإسرائيلي" جلعاد شاليت Gilad Shalit. وقد أدت عملية "أمطار الصيف" إلى استشهاد ٤٠٠ فلسطيني وجرح ١٨٥٢ آخرين. كما نفذت "إسرائيل" حملة "غيوم الخريف" في تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦، التي أدت إلى استشهاد ١٠٥ فلسطينيين وجرح ٣٥٣ آخرين؛ وحملة "الشتاء الساخن" في ٢٧/٢-٣/٣/٢٠٠٨، والتي أدت لاستشهاد ١٠٧ فلسطينيين. وبالتأكيد فإن مثل هذه الحملات كانت تُواجه بمقاومة بطولية، وإن كانت غير متكافئة، من المقاومة الفلسطينية.^١

العدوان "الإسرائيلي" على قطاع غزة: "معركة الفرقان" ٢٠٠٨/٢٠٠٩:

كان العدوان الإسرائيلي الشامل على قطاع غزة خلال الفترة ٢٧/١٢/٢٠٠٨-١٨/١/٢٠٠٩ من أشدّ الحملات "الإسرائيلية" شراسة واتساعاً، والتي عُرفت باسم "الرصاص المصبوب"، وسمتها المقاومة

١ حول هذه الحملات، انظر: محسن محمد صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٦ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠٠٧)، ص ٩١؛ ومحسن محمد صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٨ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠٠٩)، ص ١٠٠.

"معركة الفرقان". وقد واجهت آلة الحرب "الإسرائيلية" المدمرة صمودًا بطوليًا ومقاومة عنيفة من قبل حماس وباقي قوى المقاومة، فشلت القوات "الإسرائيلية" في النهاية في احتلال القطاع، وفي كسر قوى المقاومة، وفي إسقاط الحكومة التي تقودها حماس، فاضطرت إلى الانسحاب غير المشروط من قطاع غزة. وقد أعطى ذلك دفعًا معنويًا كبيرًا لقوى المقاومة، ومساندة فلسطينية وعربية وإسلامية ودولية واسعة لها. وقد استشهد في العدوان "الإسرائيلي" ١٣٣٤ فلسطينيًا، بينهم ٤١٧ طفلًا و ١٠٨ نساء، وجرح ٥٤٥٠ آخرين، كما تمّ تدمير ٥٣٥٠ منزل وتضرر أكثر من ١٦ ألف منزل آخر بشكل جزئي. أما "إسرائيل" فلم تعترف إلا بمقتل ١٣ "إسرائيليًا"، ونحو ١٨٥ جريحًا؛ بينما قدّرت قوى المقاومة أنها قتلت نحو ٨٠ إسرائيليًا خلال هذا العدوان.^١

العدوان "الإسرائيلي" على قطاع غزة: معركة "حجارة السجيل" ٢٠١٢:٢

هاجم الجيش "الإسرائيلي" قطاع غزة في العملية التي أطلق عليها "عمود السحاب"، بينما أطلقت عليها المقاومة الفلسطينية "حجارة السجيل" خلال الفترة ١٤-٢١/١١/٢٠١٢، وهو ما أدى إلى ١٩١ شهيدًا

١ حول العدوان على غزة، انظر: التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٨، ص ١٠٠-١٠٢؛ ومحسن محمد صالح (محرر)، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠٠٩ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٠)، ص ١٠٥؛ وعبد الحميد الكيالي (محرر)، دراسات في العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة: عملية الرصاص المصبوب/ معركة الفرقان (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠٠٩).

٢ حول معركة حجارة السجيل، انظر: محسن محمد صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠١٢-٢٠١٣ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٤)، ص ١٠٠.

و١٥٢٦ جريحًا، غالبيتهم من الأطفال والنساء والمسنين. وهاجم الجيش "الإسرائيلي" خلال أيام العدوان نحو ١٥٠٠ هدف في القطاع، من بينها مقرات حكومية، وأنفاقًا، ومنصات صواريخ، ومنازل، وناشطين بارزين، ومخازن أسلحة.

وقد أدت عملية حجارة السجيل، حسب معطيات الشاباك، إلى مقتل ٦ "إسرائيليين"، من بينهم جنديان، بينما بلغ عدد الجرحى ٢٣٢ "إسرائيليًا". كما سقط على "إسرائيل" نحو ١٧٣١ صاروخًا من قطاع غزة، استهدف مستعمرات الجنوب المحيطة بالقطاع، بالإضافة إلى تل أبيب والقدس. ووفقًا لحسابات شركة العلوم الاقتصادية والتي أجرتها في ١٧/١١/٢٠١٢، فإن تكلفة عملية حجارة السجيل وصلت إلى ١,١ مليار شيكل (٢٧٨,٣ مليون دولار) في أسبوع.

العدوان "الإسرائيلي" على قطاع غزة: "معركة العصف المأكول" ٢٠١٤: تعرض قطاع غزة إلى عدوان "إسرائيلي" واسع خلال الفترة ٧/٧/٢٠١٤ - ٢٦/٨/٢٠١٤، استمر ٥١ يومًا. أطلقت "إسرائيل" على هذا العدوان عملية "الجرف الصامد" وأطلقت عليه المقاومة الفلسطينية حرب "العصف المأكول". وكان واضحًا أن الجيش "الإسرائيلي" مارس سياسة الانتقام من المدنيين في قطاع غزة بشكل كبير؛ وتمثلت الصورة الأبرز لذلك في عمليات قتل جماعي لسكان عزّل في بيوتهم.

١ حول معركة العصف المأكول، انظر: محسن محمد صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنتي ٢٠١٤-٢٠١٥ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٦)، ص ١١٦-١١٧.

وقد أظهر الأداء البطولي للمقاومة خلال ٥١ يومًا من الحرب، قدرتها (وتحديدًا حماس) على تطوير أنظمة صواريخها، فازداد مداها إلى نحو ١٢٠ كم، لتصل في هذه المعركة إلى كلّ التجمعات الصهيونية في فلسطين المحتلة. كما تمكنت المقاومة من اختراق الجانب "الإسرائيلي" برًا وبحرًا وجوًا، وقدمت المقاومة مفاجآت جديدة متميزة كالتطائرات من دون طيار...؛ وحافظت قيادة العمل في قطاع غزة على منظومة القيادة والسيطرة، ولم تتعرض للضرب أو التعطيل. ووقع الطرف "الإسرائيلي" في حالة "عمى استخباري" على الأرض، مما أضعف بنك أهداف "الإسرائيليين" المحتملة. كما حققت المقاومة حالة التفاف وإجماع شعبي واسع، بالرغم من الضربات العنيفة البشعة التي وجهتها القوات "الإسرائيلية" للمناطق المدنية.

وتشير الإحصائية التي أعدها المرصد الأورومتوسطي إلى أن عدد الضحايا الإجمالي بلغ ٢١٤٧ شهيدًا، منهم ٥٣٠ طفلًا، و٣٠٢ امرأة. وبلغ عدد الجرحى ١٠٨٧٠ جريحًا، منهم ٣٣٠٣ أطفال، و٢١٠١ امرأة. وهاجم الجيش "الإسرائيلي" خلال أيام العدوان نحو ٥٢٦٣ هدفًا في القطاع. كما أدى العدوان إلى تدمير ١٧١٢٣ منزلًا، منها ٢٤٦٥ منزلًا دُمّرت بشكل كلي، و١٤٦٦٧ منزلًا دُمّرت بشكل جزئي، إضافة إلى ٣٩٥٠٠ من المنازل لحقت بها أضرار.

وقدّر وكيل وزارة الاقتصاد الفلسطينية تيسير عمرو في ٢٨/٨/٢٠١٤ أن إجمالي الخسائر التي تعرض لها قطاع غزة خلال أيام العدوان تتراوح بين ٥,٧ و٨ مليارات دولار "شاملة الخسائر المباشرة وغير المباشرة".

وقد أدت عملية العصف المأكول، حسب معطيات الشاباك، إلى مقتل

٧٣ "إسرائيليًا"، من بينهم ٦٧ جنديًا، بينما بلغ عدد الجرحى ٣١٢ "إسرائيليًا". كما سقط على "إسرائيل" (فلسطين المحتلة ١٩٤٨) نحو ٤٦٩٢ صاروخًا من قطاع غزة، استهدفت مستعمرات الجنوب المحيطة بالقطاع، بالإضافة إلى تل أبيب، والقدس، وحيفا، والخضيرة وغيرها. وقدّرت مصادر "إسرائيلية" الأضرار الاقتصادية المباشرة وغير المباشرة للحرب بـ ١٢ مليار شيكل (نحو ٣,٠٧ مليارات دولار).

انتفاضة القدس ٢٠١٥-٢٠١٧:١

شكّلت انتفاضة القدس واحدة من أهم التطورات التي أقلقحت الاحتلال منذ اندلاعها في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٥؛ والتي هبّ فيها الشعب الفلسطيني خصوصًا في منطقة القدس، ليوجه للمحتل رسالة بأن المسجد الأقصى والمقدسات خطّ أحمر لا يمكن تخطيه.

واتسمت انتفاضة القدس بعمليات المقاومة المبنية على المبادرة الفردية، لا سيّما عمليات الطعن والدعس، التي أبدع الفلسطينيون في إيجاد وسائلها، وبالدور البارز للشباب. ومع انقضاء عامين على بدايتها، وصل عدد العمليات التي نُفذت ضدّ الاحتلال إلى ٣٧١٩ عملية، في الضفة الغربية بما فيها شرقي القدس، وفي قطاع غزة، وداخل الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٤٨. وقد أسفرت عمليات المقاومة عن مقتل ٥٧ "إسرائيليًا"، وإصابة ٤١٦ آخرين، وذلك حسب معطيات جهاز الشاباك

١ حول انتفاضة القدس ٢٠١٥-٢٠١٧، انظر: محسن محمد صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنتي ٢٠١٦-٢٠١٧ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠١٨)، ص ٢٠٩-٢١١.

"الإسرائيلي". وتجدر الإشارة إلى أن معظم العمليات التي سُجلت خلال تلك الفترة في الضفة كانت رشق حجارة وزجاجات حارقة.

وقد قامت سلطات الاحتلال بانتهاكات جسيمة شملت كافة مناحي الحياة للمواطن الفلسطيني، بالإضافة إلى ارتكاب الإعدامات الميدانية اليومية بحق الشبان والأطفال والفتيات على الحواجز، وعمليات الاعتقال وترويع المواطنين، ومصادرة الأراضي، وهدم المنازل، وتشريد مئات المواطنين. وذكرت دراسة إحصائية أعدها مركز عبد الله الحوراني للدراسات والتوثيق، التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، بمناسبة مرور عامين على انطلاق الانتفاضة في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٥، وأصدرها في ٦/١٠/٢٠١٧، أن مجمل عدد شهداء انتفاضة القدس بلغ ٣٤٧ شهيداً، بينهم ٧٩ طفلاً و١٧ امرأة.

هبة باب الأسباط:١

إثر عملية فدائية في ١٤/٧/٢٠١٧، عند باب الأسباط بالمسجد الأقصى المبارك أدت إلى قتل اثنين من جنود الاحتلال المتمركزين عند الباب، واستشهاد المنفذين؛ قامت سلطات الاحتلال "الإسرائيلي" بوضع بوابات إلكترونية كاشفة للمعادن على مداخل المسجد الأقصى، وبتثبيت كاميرات خارجه لمراقبة الوضع فيه، وسيطرت على مفاتيح الغرف والمكاتب التي كانت تشغلها الأوقاف؛ وقامت بتشديد القيود على الطرق المؤدية إلى الأقصى.

أدرك الشعب الفلسطيني وقياداته من العلماء في القدس، خطورة الإجراءات

١ حول هبة باب الأسباط، انظر: محسن محمد صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنة ٢٠١٦-٢٠١٧، ص ٢١١-٢١٤.

"الإسرائيلية" التي هدفت لفرض إدارتها الأمنية المباشرة على الأقصى، وتقليص دور الأوقاف بشكل واسع، فرفضوا الدخول من تلك البوابات، ورفضوا الصلاة في الأقصى إلا بعد عودة الوضع إلى ما كان عليه قبل ١٤ تموز/ يوليو تمامًا، وتابعوا هبّتهم الشعبية التي لقيت تضامنا شعبياً فلسطينياً وعربياً وإسلامياً واسعاً.

وبعد عشرة أيام، اضطرت سلطات الاحتلال "الإسرائيلي" إلى تفكيك البوابات الإلكترونية، وفي ٢٧/٧/٢٠١٧، اضطرت إلى إزالة الممرات والجسور الحديدية، ثم سمحت بفتح باب المطهرة لتكون جميع أبواب المسجد الأقصى قد عادت إلى ما كانت عليه قبل ١٤/٧/٢٠١٧.

من جهة أخرى، أظهر تقرير صادر عن مركز عبد الله الحوراني للدراسات والتوثيق التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية، ارتقاء عشرين شهيداً، خلال تموز/ يوليو ٢٠١٧، من بينهم ١٥ بسبب أحداث المسجد الأقصى، وإصابة وجرح أكثر من ١٤٠٠ فلسطيني، بالإضافة إلى قيام سلطات الاحتلال باعتقال أكثر من ٦٠٠ فلسطيني في كل من الضفة الغربية بما فيها القدس، وقطاع غزة، وكانت أغلب الإصابات والاعتقالات في مدينة القدس. وفي المقابل، سجل الشباك ٢٢٢ عملية مقاومة في تموز/ يوليو ٢٠١٧ مقابل ٩٤ عملية سُجلت خلال حزيران/ يونيو ٢٠١٧ في الضفة الغربية بما فيها شرقي القدس، وقطاع غزة، وداخل الأراضي الفلسطينية المحتلة سنة ١٩٤٨، وأسفرت عمليات المقاومة عن مقتل ٥ "إسرائيليين"، وإصابة ٧ آخرين، وذلك حسب معطيات جهاز الشباك "الإسرائيلي".

هبة باب الرحمة ٢٠١٩:

في سنة ٢٠٠٣، أغلقت سلطات الاحتلال باب الرحمة. وقد بدأت الهبة بعدما اكتشف المصلون في المسجد الأقصى أن شرطة الاحتلال وضعت قفلاً على البوابة مساء ١٧/٢/٢٠١٩، إثر اجتماع مجلس الأوقاف الجديد في المبنى، وأداء صلاة الظهر فيه. في اليوم التالي، أدت جماهير القدس صلاة الظهر في منطقة باب الرحمة، وخلع الشبان البوابة واشتبكوا مع قوات الاحتلال، وتحولت المنطقة إلى نقطة تجمع ورباط وصلاة، مما حولها إلى ميدان مواجهة. وتوج المشهد بفتح باب الرحمة ودخول أبناء القدس منه في ٢٢/٢/٢٠١٩، لأول مرة منذ أغلقته شرطة الاحتلال سنة ٢٠٠٣.

مسيرات العودة وكسر الحصار ٢٠١٨-٢٠١٩^١:

في إبداع جديد في أساليب مقاومة الاحتلال، طرحت مجموعات فلسطينية، على وسائل التواصل الاجتماعي، في كانون الثاني/يناير ٢٠١٨، فكرة تنظيم مسيرات جماهيرية في قطاع غزة والضفة الغربية والشتات الفلسطيني بشكل متزامن، تهدف إلى تحقيق عودة اللاجئين الفلسطينيين فعلياً، وبشكل سلمي، وتحت العلم الفلسطيني، إلى أرضهم وبيوتهم التي أخرجوا منها في حرب ١٩٤٨، وحددوا يوم الأرض تاريخاً لانطلاق هذه المسيرات.

١ حول مسيرات العودة وكسر الحصار، انظر: محسن محمد صالح، التقرير الاستراتيجي الفلسطيني لسنتي ٢٠١٨-٢٠١٩ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠٢٠)، ص ١٩٩-٢٠٠.

وتشكلت اللجنة التنسيقية العليا لمسيرة العودة الكبرى؛ وأكدت على أنها حالة جماهيرية غير فصائلية، تستهدف التحشيد الواسع للاجئين، والتقدم التدريجي باتجاه الحدود. غير أن انضمام الفصائل الفلسطينية في قطاع غزة لمشروع المسيرة في ١٧/٣/٢٠١٨ أعطاهَا بُعدًا مقاومًا، وتمّ بعد ذلك تشكيل إطار جديد هو "الهيئة الوطنية العليا لمسيرة العودة وكسر الحصار"؛ ليضيف بُعدًا محليًا بإضافة هدف كسر الحصار إلى اسمها. وكانت البداية يوم الجمعة في ٣٠/٣/٢٠١٨، حيث لقيت تجاوبًا واسعًا. وشكّلت مسيرات العودة واحدة من أهم التطورات التي أقلقّت الاحتلال؛ وبدأت سلطات الاحتلال عاجزة أمامها، على الرغم من الإجراءات والسياسات التي تتبعها. وفي قطاع غزة اتخذت الفكرة شكلًا عمليًا، حيث البيئة الحاضنة للمقاومة، وحيث المعاناة من الحصار، وحيث إن معظم أبناء القطاع هم من اللاجئين. وحتى نهاية ٢٠١٩ تمّ تنفيذ ٨٦ مسيرة عودة. وقدم الشعب الفلسطيني نموذجًا بطوليًا في مسيراته، ومواجهته للعدو، واقتحام مواقعه، وإرساله طائراته الورقية وبالونات الحارقة للمستعمرات. وتوالت أيام الجُمع، لتصل ذروتها في ١٤/٥/٢٠١٨، يوم الاحتفال الأمريكي بنقل السفارة الأمريكية من تل أبيب إلى القدس، حيث قدّم قطاع غزة في ذلك اليوم ٥٨ شهيدًا، و٢٧٧١ جريحًا.

وأفاد مركز الميزان لحقوق الإنسان، في ٢٠/١٢/٢٠١٩، أن قوات الاحتلال قتلت ٣٦٤ فلسطينيًا في قطاع غزة منذ انطلاق مسيرات العودة الكبرى. وأشار المركز إلى أن ١٩١٧٣ فلسطينيًا؛ بينهم ٤٩٨٧ طفلًا و٨٦٤ سيدة، أصيبوا خلال مشاركتهم في فعاليات مسيرات العودة، بالإضافة إلى إصابة الآلاف بالاختناق.

تميزت مسيرات العودة بالإقبال الجماهيري الواسع، خصوصاً في قطاع غزة، وتفاعل كافة الشرائح الاجتماعية. وعُبرت بشكل صادق وقوي عن تمسك الشعب الفلسطيني بحق العودة، وتجلت فيها الوحدة الوطنية في المسيرات، وتميّزت بالإبداع، إذ ترافقت معها فعاليات إبداعية، كالتطائرات الورقية والبالونات والإرباك الليلي؛ ونجحت في إجبار الأطراف المشاركة في حصار قطاع غزة على تخفيفه.

معركة سيف القدس ٢٠٢١:١

هَبَّ أهل القدس في مواجهة محاولات الصهاينة مصادرة حي الشيخ جراح، والسعي الصهيوني الدؤوب لتهويد المسجد الأقصى والقدس، وتصاعدت المواجهات في العشر الأواخر من رمضان ١٤٤٢ هـ (أوائل أيار/ مايو ٢٠٢١). وقد قررت قيادة حماس في غزة الانتصار للقدس وأهلها، فأطلقت صواريخها على الكيان الصهيوني بعد أن رفض التراجع عن إجراءاته في الشيخ جراح والأقصى. واتسعت دائرة المعركة، التي سمّتها المقاومة "سيف القدس" وأسمّاها الصهاينة "حارس الأسوار"، لتستمر على مدى ١١ يوماً ١٠-٢١ أيار/ مايو ٢٠٢١.

ولأول مرة فرضت حماس وقوى المقاومة في غزة معادلة جديدة تربط بينها وبين القدس، ونابت عن الشعب الفلسطيني والأمة العربية والإسلامية

١ حول معركة سيف القدس ٢٠٢١، انظر: محسن محمد صالح وباسم جلال القاسم (محرران)، معركة "سيف القدس" وتداعياتها فلسطينياً وإسرائيلياً وعربياً ودولياً ١٠-٢١ أيار/ مايو ٢٠٢١، ملف معلومات ٢٨ (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، ٢٠٢١).

في الدفاع عن الأقصى والمقدسات، بالرغم مما تعانیه غزة من حصار ومن سُحِّ في الإمكانيات. وبالرغم من العدوان الصهيوني الشرس المدمر على قطاع غزة، فإن المقاومة نجحت في مواجهة العدوان، وفي تطوير أدائها العسكري الرادع، وغطى مدى صواريخها الذي وصل إلى ٢٥٠ كم، كلّ الأماكن التي يسيطر عليها الكيان، وتمكنت الصواريخ التي اتسمت بمزيد من الدقة والقدرة التفجيرية من اختراق القبة الحديدية، وضرب المدن والتجمعات الصهيونية، مما اضطر ملايين "الإسرائيليين" للذهاب إلى الملاجئ، كما توقفت حركة القطارات بين وسط الكيان وجنوبه، وتم تعليق الطيران بمطار بن جوريون.

واتسمت هذه المعركة بتصعيد الانتفاضة الشعبية في القدس وباقي الضفة الغربية وفلسطين المحتلة ١٩٤٨، كما اتسمت بتفاعل شعبي كبير في الخارج فلسطينياً وعربياً وإسلامياً ودولياً؛ وخرجت المظاهرات الضخمة في كافة أرجاء العالم بما في ذلك أوروبا وأمريكا منددة بالعدوان الصهيوني. وتوحد الشعب الفلسطيني خلف المقاومة، في الوقت الذي انعزلت فيه قيادة السلطة والمنظمة سياسياً وشعبياً، وثبت فشل مسار التسوية السلمية. وقد اعترف سياسيون وعسكريون وأمنيون وإعلاميون صهيانية كبار بأن حماس وقوى المقاومة فازت في هذه المواجهة، وبأن "إسرائيل" خرجت خاسرة.

أدى العدوان الصهيوني الذي تركّز على المدنيين والمباني السكنية والمنشآت العامة، إلى استشهاد ٢٦٠ شهيداً في قطاع غزة، بينهم ٦٦ طفلاً، و٤٠ امرأة، و١٧ مُسنّاً، وإصابة ١٩٤٨ بجراح؛ بينما استشهد في الضفة الغربية ٢٩ شهيداً، وأصيب نحو ٦٣٠٠ بجراح؛ واستشهد اثنان من فلسطينيي ١٩٤٨ وجرح كثيرون. ودمر الصهاينة نحو ١٨٠٠ وحدة سكنية في قطاع

غزة، بالإضافة إلى إصابة آلاف الوحدات الأخرى بأضرار. وفي الطرف "الإسرائيلي" قتل ١٣، وجرح نحو ٣٣٠ آخرين، كما أصيبت الكثير من المباني بأضرار، وقُدِّم "إسرائيليون" ٣٤٢٤ طلب تعويض عن أضرار لحقت بممتلكاتهم ومساكنهم، بينها ١٧٢٤ طلبًا متعلقًا بسياراتهم ووسائل تنقلهم. وخسر الاقتصاد "الإسرائيلي" نحو ٢١٤٠ مليون دولار.

تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه

فهرس المحتويات

5	مقدمة
٩	القسم الأول: فلسطين في التاريخ
١١	أولاً: أرض فلسطين وشعبها
١١	أرض فلسطين:
١٣	تكوين شعب فلسطين:
١٦	ثانياً: مسيرة الأنبياء في فلسطين
٢٠	المزاعم الدينية والتاريخية لليهود في فلسطين:
٢٣	ثالثاً: الفتح الإسلامي لفلسطين
٢٣	تمهيد:
٢٥	١- الخطوات الأولى:
٢٧	٢- معركة أجنادين:
٣٠	٣- معركة فحل - بيسان:
٣٣	٤- معركة اليرموك:
٤٠	٥- فتح فلسطين:
٤٣	٦- الإسلام يترسخ في فلسطين:
٤٨	رابعاً: المسلمون في مواجهة الصليبيين
٤٨	تمهيد:
٤٩	١. الخريطة السياسية للمنطقة قبيل الحروب الصليبية:
٥١	٢. الحملة الصليبية الأولى ونتائجها:
٥٤	٣. استمرار الصراع (نظرة عامة):

٥٦	٤ . جهاد عماد الدين زنكي ٥٢١-٥٤١هـ:
٥٩	٥ . جهاد نور الدين محمود ٥٤١-٥٦٩هـ:
٦٠	معالم النهضة الإسلامية:
٦٣	جهود الوحدة الإسلامية:
٦٥	تخطيط القوى الصليبية:
٦٦	٦ . جهاد صلاح الدين الأيوبي ٥٦٩-٥٨٩هـ:
٦٨	استمرار الجهاد:
٧٠	استراتيجية العمل والإعداد لدى صلاح الدين:
٧٢	معركة حطين:
٧٤	تحرير بيت المقدس:
٧٥	متابعة الجهاد ضد الصليبيين:
٧٧	الأيوبيون والصراع مع الصليبيين:
٧٨	خامساً: المماليك في مواجهة التتار
٧٨	تمهيد:
٨٠	١ . الصليبيون والتتار:
٨١	٢ . معركة عين جالوت:
٨٤	٣ . المماليك والقضاء على الصليبيين:
٨٥	٤ . دروس من التجربة:
	القسم الثاني: فلسطين في مواجهة المشروع الصهيوني منذ العهد العثماني وحتى
٨٧	نهاية الاحتلال البريطاني
٨٩	الفصل الأول
٨٩	الدولة العثمانية ومواجهة المشروع الصهيوني في فلسطين
٨٩	أولاً: العثمانيون في فلسطين: التطور السياسي:
٩٨	ثانياً: خلفيات ظهور المشروع الصهيوني في التاريخ الحديث:

١٠١	بروز العوامل الاستراتيجية والسياسية:
١٠٤	ثالثاً: بدايات الاستيطان والهجرة اليهودية:
١١٠	رابعاً: قضية فلسطين في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨ :
١١٥	الفصل الثاني
١١٥	فلسطين: من الاحتلال البريطاني إلى إنشاء الكيان الصهيوني ١٩١٧-١٩٤٨ ..
١١٥	مقدمة:
١١٧	أولاً: تطور المشروع الصهيوني:
١١٨	ثانياً: الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٢٩ :
١٢١	ثالثاً: المقاومة الفلسطينية ١٩١٩-١٩٢٩ :
١٢٢	١. انتفاضة موسم النبي موسى، القدس نيسان/ أبريل ١٩٢٠ :
١٢٤	٢. انتفاضة يافا: أيار/ مايو ١٩٢١ :
١٢٨	٣. ثورة البراق: آب/ أغسطس ١٩٢٩ :
١٣٣	رابعاً: الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٢٩-١٩٣٩ :
١٣٧	١. ثورة الكفّ الأخضر: ١٩٢٩-١٩٣٠ :
١٣٨	٢. انتفاضة تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٣ :
١٤٠	٣. جماعة القسام "الجهادية":
١٤٨	٤. الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ :
١٦٣	خامساً: التطورات السياسية ونشوء الكيان الصهيوني ١٩٣٩-١٩٤٨ :
١٦٨	حرب ١٩٤٨ وانعكاساتها:
١٧٣	سادساً: هل باع الفلسطينيون أرضهم؟ وتخلّوا عنها لليهود؟!
١٧٥	١. تحت الاحتلال والقهر البريطاني:
١٧٨	٢. مقاومة وصمود:
١٨١	القسم الثالث: فلسطين: الحروب العربية "الإسرائيلية" ومسار التسوية السلمية
١٨٣	الفصل الأول: الحروب العربية "الإسرائيلية"

أولاً: حرب ١٩٤٨ :	١٨٣
١. فلسطينياً:	١٨٣
٢. عربياً:	١٨٥
٣. صهيونياً - يهودياً:	١٨٦
٤. دولياً:	١٨٧
مجريات الحرب:	١٩١
ثانياً: حرب ١٩٥٦ :	١٩٥
ثالثاً: حرب ١٩٦٧ :	١٩٩
أبرز نتائج حرب ١٩٦٧ :	٢٠٧
رابعاً: حرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣ :	٢٠٨
أبرز نتائج حرب ١٩٧٣ :	٢١٤
خامساً: حرب ١٩٨٢ :	٢١٥
سادساً: العدوان "الإسرائيلي" على لبنان ٢٠٠٦ :	٢٢٠
الفصل الثاني: مشاريع التسوية السلمية للقضية الفلسطينية	٢٢٥
مقدمة:	٢٢٥
أولاً: مشاريع التسوية السلمية ١٩٤٨-١٩٦٧ :	٢٢٧
ثانياً: مسار التسوية السلمية ١٩٦٧-٢٠٠٠ :	٢٣١
١. مشروع آلون Allon Plan:	٢٣٢
٢. قرار مجلس الأمن ٢٤٢ في ٢٢/١١/١٩٦٧ :	٢٣٣
٣. الفلسطينيون وحق تقرير المصير في الأمم المتحدة:	٢٣٥
٤. اتفاقيات كامب ديفيد بين مصر و"الكيان الإسرائيلي" ١٩٧٨ :	٢٣٨
٥. مشروع السلام العربي (مشروع فاس) ١٩٨٢ :	٢٤٣
٦. منظمة التحرير الفلسطينية: من الكفاح المسلح إلى اتفاق أوسلو (أيلول/ سبتمبر ١٩٩٣) :	٢٤٤

٢٥٦.....	٧. معاهدة السلام الأردنية "الإسرائيلية" (وادي عربة):
٢٦٠.....	ثالثاً: مسار التسوية السلمية حتى ٢٠٢١:
٢٦٢.....	١. مبادرة جنيف:
٢٦٤.....	٢. المبادرة العربية:
٢٦٥.....	٣. خريطة الطريق:
٢٦٦.....	٤. الفصل أحادي الجانب:
٢٦٩.....	٥. العودة إلى خيار الدولة الفلسطينية من خلال التفاوض:
٢٧١.....	٦. مسار التسوية في الفترة ٢٠١١-٢٠٢٠:
٢٧٥.....	رابعاً: خلاصات الموقف العربي والفلسطيني و"الإسرائيلي" من التسوية:
٢٨٢.....	خامساً: انعكاسات مشروع التسوية على المنطقة:
٢٨٦.....	سادساً: الحكم الشرعي للتسوية السلمية مع "الكيان الإسرائيلي":
٢٩٥	القسم الرابع: الإخوان المسلمون والعمل الإسلامي المقاوم
	الفصل الأول: الإخوان المسلمون ودورهم في المقاومة ضد المشروع الصهيوني
٢٩٦.....	حتى ١٩٤٨:
٢٩٦.....	أولاً: رؤية الإخوان المسلمين للقضية الفلسطينية:
٢٩٧.....	أمة واحدة.. وطن واحد.. همٌّ واحد:
٢٩٨.....	فلسطين.. المكانة والمسؤولية:
٣٠٠.....	مشروع النهضة ومشروع التحرير:
٣٠٥.....	الموقف من اليهود:
٣٠٦.....	الموقف من الاحتلال البريطاني لفلسطين:
٣٠٨.....	ثانياً: جهود الإخوان الأولى لنصرة فلسطين:
٣١٦.....	ثالثاً: نشأة حركة الإخوان في فلسطين:
٣١٨.....	رابعاً: دور الإخوان المسلمين في حرب فلسطين ١٩٤٧/١٩٤٨:
٣٢١.....	دور الإخوان المسلمين المصريين:

دور الإخوان المسلمين السوريين:	٣٢٧
دور الإخوان المسلمين الأردنيين:	٣٢٨
دور الإخوان المسلمين العراقيين:	٣٢٩
حلّ الإخوان واغتيال الإمام البنا:	٣٣٠
الفصل الثاني: التيار الإسلامي الفلسطيني والمقاومة المسلحة ١٩٤٩-١٩٨٧...	٣٣٣
مقدمة:	٣٣٣
أولاً: اختراق الحدود وبدايات العمل المقاوم:	٣٣٣
ثانياً: التيار الإسلامي في الضفة الغربية وقطاع غزة ١٩٤٩-١٩٦٧:	٣٣٦
ثالثاً: الإخوان المسلمون والمقاومة المسلحة ١٩٤٩-١٩٥٥:	٣٣٧
رابعاً: نشأة حركة فتح	٣٤٤
خامساً: إنشاء منظمة التحرير الفلسطينية (م.ت.ف):	٣٤٩
سادساً: فصائل فلسطينية في إطار منظمة التحرير	٣٥١
سابعاً: تطور المقاومة الفلسطينية ١٩٦٧-١٩٨٧:	٣٥٤
ثامناً: معسكرات الشيوخ:	٣٥٨
تاسعاً: اتساع التيار الإسلامي الفلسطيني وتأسيس الأرضية للمقاومة المسلحة	
١٩٦٧-١٩٨٧:	٣٦٠
الفصل الثالث: التيار الإسلامي الفلسطيني والمقاومة المسلحة ١٩٨٧-٢٠٢١....	٣٦٧
أولاً: الانتفاضة المباركة:	٣٦٧
ثانياً: حركة المقاومة الإسلامية (حماس):	٣٧٢
ميثاق حماس:	٣٧٤
الوثيقة السياسية لحماس:	٣٧٥
ثالثاً: حماس وانطلاقة العمل العسكري	٣٧٩
رابعاً: انتفاضة الأقصى:	٣٨٣
خامساً: العدوان والمقاومة ٢٠٠٦-٢٠٢١:	٣٩٠

العدوان "الإسرائيلي" على قطاع غزة: "معركة الفرقان" ٢٠٠٨/٢٠٠٩: ٣٩١ ..	
العدوان "الإسرائيلي" على قطاع غزة: معركة "حجارة السجيل" ٢٠١٢: ٣٩٢ ..	
العدوان "الإسرائيلي" على قطاع غزة: "معركة العصف المأكول" ٢٠١٤: ٣٩٣ .	
انتفاضة القدس ٢٠١٥-٢٠١٧: ٣٩٥	
هبة باب الأسباط: ٣٩٦	
هبة باب الرحمة ٢٠١٩: ٣٩٨	
مسيرات العودة وكسر الحصار ٢٠١٨-٢٠١٩: ٣٩٨	
معركة سيف القدس ٢٠٢١: ٤٠٠	
فهرس المحتويات ٤٠٣	